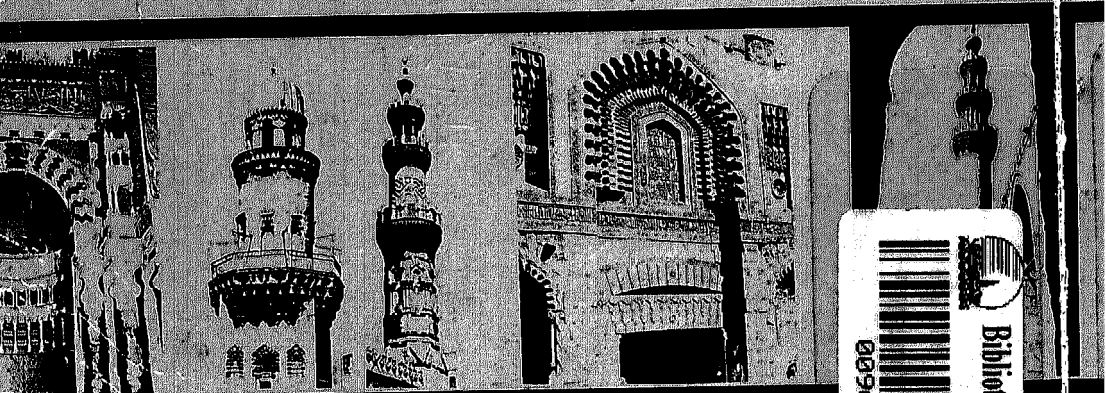


نحو وعي حضارى معاصر
سلسلة ثقافة الاثريه والتاريخية
مشروع المائة كتاب

١٧

مصر الاسلامية درع العروبة ورياط الاسلام



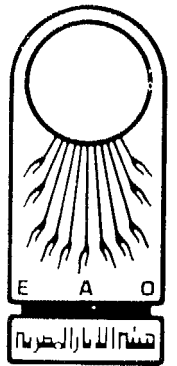
تأليف

د . ابراهيم احمد العدوى

00968358



Bibliotheca Alexand



تصميم وتسييد
آمال صفوت الألفى
مدير عام مطبعة هيئة الأثار المصرية

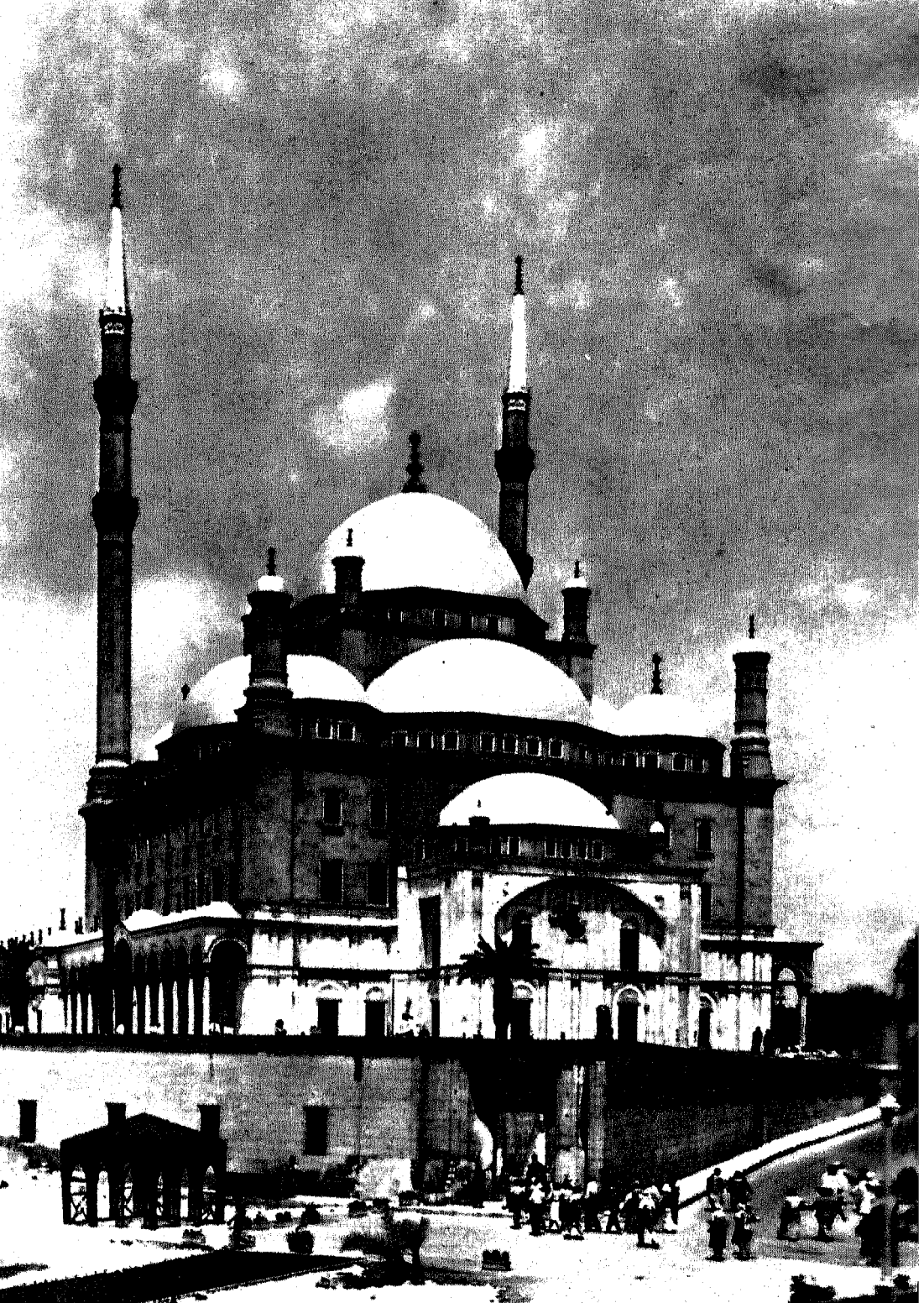
نحو وعى حضارى معاصر
سلسلة الثقافة الاثريه والتاريخية
مشروع المائة كتاب

١٧

مصر الاسلاميه درع العربيه ورباط الاسلام

تأليف،

د . ابراهيم احمد العدوى



بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

بقلم

الأستاذ الدكتور محمد ابراهيم بكر

رئيس هيئة الآثار المصرية

مصر — هبة النيل — هي فاتحة التاريخ ، حيث قامت على ضفاف النيل أول حضارة أصيلة أسعدت الانسانية وجلبت لها الخير والرخاء . ومصر — منذ أشرقت بنور الاسلام — هي صاعقة التاريخ ، حيث جددت بالاسلام عطاءها الحصارى الفياض ، الذى يكفل للانسان — دائما وأبدا — أسباب العيش الكريم ، مع حسن الزاد للأخرة . فحققت مصر الاسلامية بالقرآن الكريم ما راود ضمير الانسان المصرى فى عصوره الأولى من آمال فى التوصل إلى التوحيد ، وقدمت له الادراك السليم والعقيدة الخالصة النقية عن وحدانية الله فى قوله تعالى : « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » .

ووجدت مصر فى اقبالها على الدين الاسلامى الحنيف ، والعمل بشريعته الغراء توثيقا للعطاءات الايجابية لحضارتها القديمة ، وايدانا بنماء مصرى جديد ، وبارتقاء واستعلاء أيضا فى شخصيتها وشخصها ، فاذا كانت مصر « فرعونية بالجد » فانها عدت بالاسلام « عربية الأب » وكلا من الجد والأب من أصل مشترك وقراءة متبادلة

ج

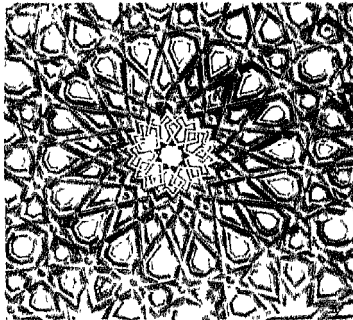
فى النسب قبل الاسلام ، جاءت فى الحديث الشريف الذى رواه الامام مسلم فى صحيحه — كتاب فضائل الصحابة ، باب وصية النبى — صلى الله عليه وسلم بأهل مصر : « ستفتح عليكم بعدى مصر ، فاستوصوا بأهلها خيرا ، فان لكم منهم صهرا وذمة . » و« صهرا » تعنى زواج سيدنا ابراهيم من أهل مصر وهى السيدة هاجر ، ومن ثم « صارت العرب كافة » كما ذكر الكندى فى كتابه « فضائل مصر » — « من مصر بأهمهم » هاجر « لأنها أم اسماعيل عليه السلام ، وهو أبو العرب » . وأما الذمة : فان النبى — صلى الله عليه وسلم — تسرى من مصر « مارية القبطية » ، أم ابراهيم ابن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فالعرب والمسلمون كافة لهم نسب بمصر من جهة أمهم مارية أم ابراهيم ابن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وصار المصريون بذلك أحوالهم المقربين .

وجاء الاسلام أيضا إلى مصر ، ومعه تعريب للبلاد ، اعادة وتوكيدا وتكيفا وتقريبا بين المصرية والعربية ، بحيث صارت كل منهما اللحمة والسداة فى سبيح مصر القومى إلى اليوم ، وكذلك فى تكوين البنية الأساسية لمصر الاسلامية ، بما جعلها تقف وحدها « سور العرب العظيم ، وقلعة الاسلام الشامخة » على مر العصور والأزمان .

ويأتى كتاب « مصر الاسلامية » تقييما أميننا لنسيح مصر القومى ، ولفيماها المجيد « سور العرب العظيم وقلعة الاسلام المنيرة » . ويسعدنى أن أقدم هذا الكتاب الذى يكون صدره اليوم جزءا من نشاط هيئة الآثار المصرية ، التى يقف علماءها — فى الوقت الحاضر — برعايتهم للآثار وصيانتها حراسا لكنوز مصر ومسبرتها الرائعة على مر العصور ، ويقدمون بدراساتهم الميدانية الرائدة ما يمكن المصرى المعاصر من معايشة أجداده وأبائه ، والاستمتاع بما أبدعته قرائحهم ، والوقوف على مكنون صدرهم وخلجات نفوسهم ، فعلماء الآثار اليوم ، هم بالنسبة للأجداد والآباء السمع والبصر واللسان ، يخاطبون الأجيال الصاعدة من أبناء مصر الاسلامية بما يهئ لهم مدارج التقدم والعزة والسؤدد .

ويؤكد كتاب « مصر الاسلامية » أن تاريخنا هو علمنا ، وأن الذي برفع هذا العلم اليوم ، هم علماء الآثار والتاريخ ، الذين يؤمنون بـماضى مصر العريق ، وبحاضرها المجيد ، وبمستقبلها العظيم . وبمزيد من الدراسات الناضجة فى تاريخ مصر وآثارها ، على نحو ما نطالعه فى كتاب « مصر الاسلامية » ، يزداد علم مصر الخفائق علوا وارتفاعا باذن الله .

محمد ابراهيم بكر



مقدمة

الحاجة إلى نظرة دقيقة وشاملة لتاريخ « مصر الاسلامية » أمر يفرضه التطور المعاصر لوطننا العزيز ، وتتطلبه أيضا الجهود التي تبذلها مصر اليوم للانطلاق بالعالمين العربي والاسلامى نحو آفاق الحرية والسيادة العالمية . ذلك أن الدراسات التي تحفل بها المكتبة التاريخية اليوم عن « مصر الاسلامية » تنسم — على جديتها وتعدد لغتها ، عربية كانت أم أجنبية — بالنباين الشديد بين وجهات نظر أصحابها ، وشعب مناهجها وموضوعاتها . ومن ثم طمس تلك الدراسات معالم الطريق أمام المواطن اليوم ، وحجت عنه الرؤيه الشاملة اللازمة للتقدم وتحقيق الهدف المشود .

ويحاول هذا الكتاب تحديد معالم الطريق أمام أبناء وطنا العزيز ، وسط النيارات الصاخبة التي نواجه العالمين العربي والاسلامى الآن ، فى الداخل والخارج على حد سواء ، وذلك بتقديم الجهود التي بذلتها مصر ، منذ دخلت « دار الاسلام » من أجل الدفاع عن نلك الدار ومفدساتها ، ووضعها علامات الهدى التى تحمى من الزلل والعثرات . وتتبع فصول هذا الكتاب — فى دراسة تطبيقية — تلك المسيرة المصرية على مراحل ثلاث : نبدأ المرحلة الأولى بميلاد مصر الاسلامية مع وصول سفارة الرسول الكريم اليها سنة ٥٧ / ٦٢٨م ، وكيف غدت مصر الاسلامية — كما تحدث عنها الرسول الكريم : « أنها وأهلها فى رباط إلى يوم القيامة » فاستهلت مصر الاسلامية جهادها بالدفاع عن دار الاسلام الوليدة ضد خطر الروم البيزنطيين ، حيث أحرزت النصر الاسلامى الرائع فى معركة « ذات الصوارى » (٥٣٤ / ٦٥٥م) . وبلغ

جهاد مصر الاسلامية ذروته مع نهاية هذه المرحلة الأولى فى حماية دار الاسلام وأمن أهلها ضد خطر الصليبيين الدايم من أوروبا ، وذلك بالانتصار الاسلامى الخالد فى معركة « حطين » (٥٥٨٣ / ١١٨٧م) ، وأخيرا إيقاف مصر الاسلامية لزحف المغول المدمر والكاسح من وسط آسيا وبراريتها المنخيفة بالانتصار الاسلامى المجيد فى معركة « عين جالوت » (٦٥٨ / ١٢٦٠م) .

وتبدأ المرحلة الثانية باحتضان مصر الاسلامية للخلافة العباسية بعد أن أطاح بها الغزو المغولى من بغداد سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م ، وقيام مصر بالحفاظ على هذه الخلافة باعتبارها المؤسسة السياسية التى نجسد وحدة دار الاسلام وأهلها . وظلت مصر على امتداد تلك المرحلة منهلا يتزود منه العالم الاسلامى بما يحتاج اليه من زاد ثقافى واقتصادى ، مادى ومعنوى .

وتبدأ المرحلة الثالثة والأخيرة من هذه الدراسة بجهود مصر لوضع حد للصراع الذى دارت رحاه فى « دار الاسلام » منذ القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى بين العثمانيين والصفويين حول السيادة العليا للعالم الاسلامى ، وكيف تفاقم هذا الصراع حين غزت الدولة العثمانية مصر نفسها ، دون ادراك لما كانت تقوم به مصر من جهود لصد الزحف الأوربى على دار الاسلام ، وبات العثمانيون أنفسهم ومعهم المسلمون فريسة هذا الزحف الأوربى ، حتى انتهى إلى آخر صورة نعايشها اليوم ونكتوى بناها ، وهى قيام اسرائيل خطرا يهدد الصحوة الاسلامية المعاصرة .

ويعالج هذا الكتاب تلك المسيرة لمصر الاسلامية على امتداد مراحلها الثلاث ، ليس فى ضوء تاريخها السياسى فحسب ، ولكن أيضا فى ضوء الآثار التى أنجزتها تلك المسيرة المديدة ، اذ تقف الآثار الاسلامية فى مصر اليوم بما يعلوها من جلال التاريخ السياسى آية فى فن العمارة ، تعبر عن ذروة الصدق ، وتصون داخلها أمثلة رائعة للجمال المعمارى ، وتنطق فى زهو بأسماء أصحابها ، كما تحكى فى صمت قصة آلاف من الفنانين من بناء الحضارة الاسلامية ، عملوا فى ورع وهم

متطهرون ، ثم مضوا لا يعرف أسماءهم أحد ولا يذكرهم أحد ، تاركين ثوابهم وجزاؤهم عند رب لهم عليم .

وأسجل هنا شكري إلى الأستاذ الدكتور محمد ابراهيم بكر رئيس هيئة الآثار المصرية ، وإلى عالم الآثار الأستاذ عبد الرحمن عبد التواب ، والأستاذ الدكتور محمود ماهر مدير مركز المعلومات بهيئة الآثار المصرية ، والأستاذة آمال صفوت الألفى مدير عام مطابع هيئة الآثار المصرية ، وزوجتى الدكتورة سوسن سليمان يحيى مدرس العمارة الاسلامية بكلية الآثار — جامعة القاهرة . فقد تزودت من آرائهم القيمة وخبرتهم العميقة ما ساعدنى على اخراج كتاب « مصر الاسلامية » فى المستوى العلمى والفنى الجدير بالقارئ العربى الجديد ، وبالريادة الواعية أيضا للمواطن المصرى المعاصر إلى السير قدما بما يحقق لمصر أن تظل دائما وأبدا « درع العروبة » و« رباط الاسلام » .

الدقى فى ١٢ ربيع الأول ١٤١٢ — ٢٢ سبتمبر ١٩٩١

ابراهيم أحمد العدوى

· الفصل الأول

شمس الاسلام تشرق على مصر

قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم :

« ستفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بأهلها خيرا ، فان لكم منهم صهرا وذمة »
(رواه مسلم فى صحيحه . باب وصية النبى صلى الله عليه وسلم بأهل مصر)

أولا : سفارة الرسول الكريم إلى مصر :

يؤرخ ميلاد مصر الاسلامية بحدث هام من أحداث الدعوة إلى الاسلام فى السنة السادسة للهجرة (٦٢٨ م) ، وهو صلح الحديبية الذى عقده الرسول الكريم ، محمد بن عبد الله — صلى الله عليه وسلم — مع قريش فى مكة ^(١) . فقد أتاح هذا الصلح للنبي محمد — صلى الله عليه وسلم — أن يبعث بسفاراته إلى رؤساء وملوك العالم المعاصر له يدعوهم إلى الاسلام . واتجهت سفارتان منها إلى هرقل امبراطور الروم ونائبه على مصر وهو « قيرس » المشهور باسم « المقوقس » .

وجاءت سفارة الرسول الكريم إلى المقوقس ، مع تبعيته للامبراطور هرقل دليلا على تقدير صاحب الدعوة الاسلامية — عليه صلوات الله — لمكانة مصر وادراكه — صلى الله عليه وسلم — لمنزلتها العالية أيضا وسط مجموعة البلاد التى تحيط بالدولة الاسلامية الفتية وعاصمتها المدينة المنورة . وكان على رأس سفارة النبي — صلى الله عليه وسلم — إلى « المقوقس » حاطب بن أبى بلتعة ^(٢) . وقد غادرت السفارة المدينة المنورة فى ذى الحجة سنة ٥٦ هـ / ابريل ٦٢٨ م ، ووصلت مصر سنة ٥٧ هـ / ٦٢٨ م ، وكانت تحمل الكتاب التالى :

« من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فانى ادعوك بدعاية الاسلام فأسلم تسلم ، وأسلم يؤتكَ الله أجرك مرتين ، فان توليت فعليك اثم القبط ^(٣) . يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بينا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكْمِ الرَّحِيمِ قَدْ رَسَلْنَا إِلَيْكَ
 الْفَرَسَ بِسَاوِي سَلَاةٍ نَدَى مَا يَحْمَدُ اللَّهَ
 إِلَهُ الْوَالِدِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسُكَّرَ إِلَيْهِ
 اللَّهُ وَإِلَيْهِ مَرْجَعُكُمْ وَمَا يَمْنَعُكُمْ
 اللَّهُ مِنْ عَذَابِهِ وَمَا يَمْنَعُكُمْ مِنْ
 عَذَابِهِ وَمَا يَمْنَعُكُمْ مِنْ عَذَابِهِ
 وَمَا يَمْنَعُكُمْ مِنْ عَذَابِهِ وَمَا يَمْنَعُكُمْ
 مِنْ عَذَابِهِ وَمَا يَمْنَعُكُمْ مِنْ عَذَابِهِ
 وَمَا يَمْنَعُكُمْ مِنْ عَذَابِهِ وَمَا يَمْنَعُكُمْ
 مِنْ عَذَابِهِ وَمَا يَمْنَعُكُمْ مِنْ عَذَابِهِ



كتاب الرسول الكريم الى المقوقس .

وتحمل هذه الرسالة النبوية الكريمة فهما كاملا ودقيقا لحقيقة الأوضاع في
 مصر، وأنه لانجاة مما تعانيه البلاد الا بقبول الدعوة الاسلامية الحنيفة، وذلك على
 نحو ما أكدته في تحميل المقوقس اثم أهالي البلاد في حالة رفضه لتلك الدعوة، ذلك
 أن مصر عند وصول سفارة الرسول الكريم اليها ومقابلتها للمقوقس عظيم القبط في
 مصر كانت احدى ولايات الامبراطورية البيزنطية التي عرفها العرب باسم « امبراطورية
 الروم ». وآلت أحوال البلاد في تلك الأيام إلى أدنى الدرجات سواء اقتصاديا وسياسيا
 ودينيا أيضا. ذلك أن الامبراطورية البيزنطية سارت في معاملتها لمصر على نهج

السياسة التي اتبعتها أمها الامبراطورية الرومانية الكبرى ، من حيث تسخير الولايات التابعة لها لصالح السلطات الحاكمة وأهلها .

وكان الميدان الاقتصادي هو أول مظهر تجلت فيه سوء أحوال مصر قبيل الاسلام ، اذ اعتبرت الامبراطورية البيزنطية — كما كان عليه الحال أيام الامبراطورية الرومانية — مصر مجرد مخزن للغلال تزود العاصمة القسطنطينية بالغلل ، وأن المصريين مصادر لجباية الضرائب والحصول على حاجات الامبراطورية من الأموال ، وصارت الضرائب مصدر شكوى الفلاحين فى القرى المصرية وكذلك التجار وأهل الحرف فى المدن . وعجزت محاولات الأباطرة البيزنطية وتشريعاتهم عن وضع حل لتلك الأحوال الاقتصادية المتدهورة وضاعت مجهوداتهم هباء أمام استفحال الأزمات الاقتصادية .

واتخذت المتاعب الاقتصادية تيارات خطيرة ، كان من أشدها ضررا هروب الفلاحين من قراهم بسبب كثرة الضرائب ، على حين لجأ نفر آخر من أولئك الفلاحين إلى وضع أرضه ونفسه تحت حماية كبار الملاك ، فرارا من المأسى والمظالم التى حاقت بهم على يد جباة الضرائب . وبدأت تظهر فى البلاد « الأبعديات » التى يملكها كبار الأسر والحكام الأشبه بأمرء الاقطاع . وغدت البلاد نهبا موزعا بين أولئك الأمراء الاقطاعيين ، الذين انتسبوا إلى أصول غير مصرية وغريبة عن أهل البلاد . واشتهر فى مصر من تلك الأسر أسرة « أبيون » التى استولت على قرى بأسرها ، وعاش رب الأسرة بها معيشة الملوك وفى خدمته عدد كبير من الكتاب ونظار الضياع وحشود الفلاحين وأولئك الذين يتولون تقدير الضرائب وجبايتها ، والمشرف على الخزانة ، وله شرطته الخاصة وكذلك ادارة البريد . وكان لأولئك الاقطاعيين جيوش خاصة كما شيّدوا السجون ليلقوا فيها بكل مجترئ على سلطانهم ، وظل أهالى مصر فى هذا العهد البيزنطى يعانون من ظلم جباة الضرائب دون أن يجدوا سبيلا للعدالة والانصاف .

وزاد من تلك المساوئ الاقتصادية الاضطراب الادارى فى البلاد وانهباء الروابط بين رجال تلك الادارة وعمالها . وكانت مصر تنقسم اداريا إلى خمسة أقسام كبرى هى : (١) الاسكندرية وكانت عاصمة مصر البيزنطية ومقر الحاكم البيزنطى العام الذى يطلق عليه لقب « سيمبولوس » ، (٢) شرق الدلتا ، ويخضع لادارة حاكم يلقب « دوق » ، (٣) غرب الدلتا ويحكمه « دوق » (٤) مصر الوسطى وعاصمتها الفيوم ويحكمها « دوق » ، (٥) وأخيرا مصر العليا ويتولى شئونها أيضا « دوق » . غير أن الرابطة كانت واهية بين تلك الأقسام الادارية ، وكل حاكم من حكامها يكاد يكون مستقلا بشئون ادارته . ولم يكن لأولئك العمال البيزنطيين من عمل سوى الاستمرار فى ابتزاز الأموال وجباية الضرائب دون مراعاة لمصالح البلاد أو اهتمام بشئون أهلها . وكانت الادارة البيزنطية تسير على نهج القواعد الرومانية فى اقصاء أبناء البلاد عن المجالس السياسية والتشريعية ، واهمال كل صوت يصدر من الأهالى لرفع المظالم . وجاءت الاختلافات الدينية بين المصريين والبيزنطيين عاملا طغى على جميع العوامل الاقتصادية والاجتماعية ، وخلق هوة سحيقة بين الطرفين ، وعجزت كل المحاولات عن التغلب عليها . ذلك أن المصريين رفضوا تدخل الأباطرة البيزنطيين فى الجدل الدينى الذى دار منذ القرن الرابع الميلادى حول طبيعة السيد المسيح . اذ رفضت كنيسة الاسكندرية قرار المجمع الدينى الذى عقده الامبراطور البيزنطى فى خلقدونيا بأسيا الصغرى سنة ٤٥١م ، لأنه أقر بأن للسيد المسيح طبيعتين ، على حين قالت كنيسة الاسكندرية بأن للسيد المسيح طبيعة واحدة الهية ، وأنها بذلك وجميع أتباعها من المصريين القائلين بالطبيعة الواحدة يعتبرون « أرثوذكسين » أى أتباع الديانة الصحيحة ، وصار يعرف أصحاب الطبيعتين باسم الملكانيين لأنهم أتباع الملك ، أى الامبراطور البيزنطى .

ووجد المصريون فى هذا الخلاف الدينى سبيلا للخروج على بيزنطة ، والقيام بحركات مقاومة ضد مساوئ الادارة البيزنطية فى البلاد ، وكانت السلطات البيزنطية قد لجأت إلى اضطهاد مخالفيها فى العقيدة الدينية إلى جانب ما أنزلته من تعسف وظلم

بالأهالى لا سيما فى جمع الضرائب . ولقد اتخذت المقاومة المصرية حركة هجرة من الريف إلى المعابد والأديرة بالصحراء ، وهو الأمر الذى أدى إلى انتشار الفوضى واضطراب مرافق البلاد .

واختلط بتلك الفوضى وقوع هجوم خارجى على مصر من قبل الفرس الساسانيين أعداء البيزنطيين . وكانت دولة فارس الساسانية تعمل جاهدة على انتزاع مصر والشام من الامبراطورية البيزنطية لتحقيق لنفسها الزعامة الاقتصادية والتجارية فى شرق البحر المتوسط . وتمكنت الجيوش الفارسية من السيطرة على مصر والشام سنة ٦١٦م ، وذلك فى عهد كسرى الثانى . وبالرغم من أن الامبراطور هرقل قد استطاع استرداد مصر والشام ، ثم دخل بلاد فارس نفسها سنة ٦٢٨م — إلا أنه عاجز عن تحقيق الاستقرار فى مصر بسبب استمرار المشكلة الدينية ومتاعبها .

وكان هرقل قد خرج من الحروب مع فارس شديد الاعتداد بنفسه مؤمنا بقدرته على حل المشكلة الدينية المزممة التى بلغت ذروتها فى عهده مثلما أراح شبح الفرس الجاثم على امبراطوريته منذ زمن بعيد . وقد نسى هذا الامبراطور أن المشكلة الدينية لم تعد فى عهده مجرد جدل حول أصول العقيدة ولكنها أصبحت قناعا يخفى وراءه حركات قومية هادفة إلى الانفصال عن جسد بيزنطة . وفى الحقيقة لم يكن هناك أمل أمام هرقل فى حل المشكلة المذهبية ، إذ أن أقاليم الامبراطورية ومن بينها مصر قد أحست فى عهده بضرورة الانفصال عن بيزنطة حيث ساد الاعتقاد بأن محاولات الامبراطور لحل المشكلة العقائدية ما هى إلا سبيل لاختماد الحركات القومية .

وكان رأى هرقل قد استقر عقب انتهائه من الحروب الفارسية إلى حل دينى أطلق عليه اسم « صورة التوفيق » ، وتقضى بأن يتمتع الناس عن الكلام عن كنه المسيح وطبيعته ، وعما إذا كانت له صفة واحدة أو صفتان ، ولكن عليهم أن يشهدوا أن له ارادة واحدة وقضاء واحدا . وصار يعرف مذهب هرقل باسم مذهب « التوحيد أو المونوتلما » .

وجاء هذا المذهب بنتيجة على غير ما يهوى الامبراطور، اذ رأى المعاصرون سواء من الملكانيين أو الارثوذكس المصريين أن هرقل ما أراد بهذا المذهب إلا اضلال الكثيرين، ورفض كل منهما التخلي عن مذهبه واتباع مذهب ثالث يعدونه زيفا وبهتاناً. واشتدت معارضة المصريين لهذا المذهب حين عين هرقل على مصر حاكماً اسمه « قيرس » الذى اشتهر باسم « المقوقس »، وهو الذى لجأ إلى جميع وسائل التعذيب لحمل الناس على اتباع المذهب الجديد. واضطر البطريق المصرى اذ ذلك وهو بنيامين إلى الهرب لتنظيم حركة مقاومة سرية ضد الروم فى مصر. واشتدت كراهية المصريين لبيزنطة فى وقت كانت الدعوة الاسلامية فيه قد انتشرت فى بلاد العرب، واستطاع الرسول الكريم محمد (ص) أن يعقد مع قريش فى مكة صلح الحديبية فى السنة السادسة للهجرة.

ووصلت سفارة النبى إلى مصر سنة ٥٧ / ٦٢٨م، أى بعد جلاء الفرس عن البلاد وانتصار هرقل. وقد أحسن المقوقس — كما أحسن هرقل — استقبال سفراء النبى، الأمر الذى يدل على أن دعوة الاسلام غدت فى ذلك الوقت تلقى أذانا صاغية باعتبارها السبيل الأمثل للنجاة من المشاكل الدينية ولا سيما فى مصر. غير أن المقوقس تردد فى قبول الدعوة الاسلامية متعللاً بأن الاعتقاد السائد هو ظهور نبى من بلاد الشام وليس من بلاد العرب، وبعث بالرد التالى على كتاب النبى:

بسم الله الرحمن الرحيم، لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط. سلام عليك، أما بعد فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو اليه، وقد علمت أن نبيا بقى، وكنت أظن أنه يخرج من الشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت اليك بجاريتين، لهما مكان فى القبط عظيم وبكسوه، وأهديت اليك بغلة لتركبها، والسلام عليك.»

وكانت هدية المقوقس للنبى من أشهر منتجات مصر، منها غسل من انتاج بنها وثياب مما اشتهرت بها مصر والتي عرفت باسم « القباطى »، وقد امتدح النبى الكريم غسل بنها كما أبدى رغبته لأصحابه فى أن يكفن بعد موته فى ثياب مصر، وظل

يحتفظ بها منذ تسلمها من سفيره إلى المقوقس ، كما كان على رأس هدية المقوقس احدى بنات مصر وهى مارية من قرية حفن^(٤) ، التابعة لمقاطعة أنصنا وموقعها الآن مدينة النصلة بمركز ملوى بمحافظة المنيا .

وخلقت هدية المقوقس إلى النبی صلی الله علیه وسلم روابط قوية بين مصر وبلاد العرب على عهد الرسول الكريم ومهدت للفتح الاسلامی لمصر ، اذ تناقل الرواة الأحاديث التي أشار فيها الرسول الكريم إلى فتح مصر ووصاياها بأهلها ، وأن لأهلها « ذمة ورحما » ولما استفسر نفر من الصحابة عن المقصود بأن أهل مصر رحما قيل لهم : ان أم اسماعيل عليه السلام منهم . فالمعروف أن سيدنا ابراهيم تزوج من أهل مصر السيدة هاجر التي ولدت له اسماعيل عليه السلام وهو أبو العرب جميعا . وذكرت الروايات أن هاجر من سكان قرية مصرية اسمها أم العرب بالقرب من الفرما بأرض سيناء ، وهى بمنطقة بور سعيد الحالية . وقد روى عن أبى هريرة أنه كان يذكر للعرب قوة صلة النسب بينهم وبين المصريين عن طريق هاجر قائلا لهم : فتلك أمكم يا بنى ماء السماء « يريد العرب » . تم تدعمت صلة النسب مع المصريين بزواج النبی من مارية . وغدت مصر بذلك محط أنظار المسلمين ودولتهم الفتية منذ الأيام الأولى للسيرة النبوية ، حيث بدأت أنظار الدولة الاسلامية الفتية تتجه إلى مصر منذ عهد الرسول الكريم وتدرک أهمية مقومات هذا البلد الأمين فى التطور المقبل لدار الاسلام وأهله . وسجل هذا الاتجاه الجديد للدولة الاسلامية نفر من كبار مؤرخى مصر الاسلامية كان فى طليعتهم المؤرخ ابن عبد الحكم صاحب كتاب « فتوح مصر » . فقد دون أولئك المؤرخون فى كتبهم فصولا بعنوان « فضائل مصر » أشاروا فيها إلى طلائع العهد الاسلامی وبشائره الأولى التي مهدت للفتح الاسلامی لتلك البلاد ، فذكر ابن عبد الحكم فى فضائل مصر حديثا عن الرسول الكريم أنه صلی الله علیه وسلم قال : انکم ستقدمون على قوم جعد رؤوسهم (يعنى أهل مصر) ، فاستوصوا بهم خيرا فانهم قوة لكم وبلاغ إلى عدوكم باذن الله .

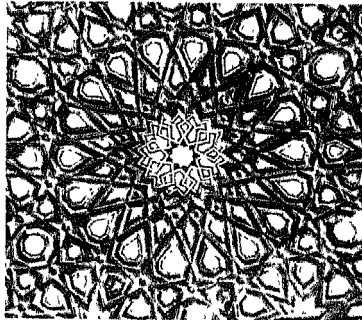
ومهد ابن عبد الحكم بسرد هذه الفضائل تمهيدا طيبا لدراسة الفتح الاسلامي لمصر وبيان فجر العهد الجديد الذي أشرق على تلك البلاد . ثم تابع هذا المؤرخ منهجه بأن جعل همزة الوصل بين مصر الاسلامية ومصر قبل الاسلام حدثا يتعلق بحياة عمرو بن العاص فاتح مصر ، وهو حدث يتضح منه ادراك العرب لأهمية تلك البلاد وخبرتهم بأحوالها منذ العصر الجاهلي وفي صدر الدعوة الاسلامية كذلك .

وشرح ابن الحكم تفاصيل هذا الحدث قائلا ان عمرو بن العاص كان تاجرا في الجاهلية ، وكان يختلف بتجارته إلى مصر وهي الأدم والعطر . والمعروف أن تجار العرب في الجاهلية كانوا يفتدون غالبا عن طريق رحلة الصيف التي كانت عبارة عن قوافل من مكة تخرج كل صيف إلى فلسطين ، تحمل السلع ومتاجر الشرق الأقصى إلى بلدان البحر المتوسط . ومن فلسطين كان نفر من التجار العرب يدخل ديار مصر لمتابعة النشاط التجاري ، كما كان تجار العرب يلتقون في فلسطين مع تجار مصر ، وغيرهم من المصريين الذين دأبوا على زيارة الأماكن المسيحية المقدسة في بيت المقدس .

وروى ابن عبد الحكم قصة حدثت لعمرو بن العاص في زيارة من زيارته التجارية إلى بيت المقدس قبل ظهور الاسلام . اذ حدث أن أحد المصريين من رجال الدين الذين حضروا لزيارة بيت المقدس قد ضل الطريق ، والتقى هذا المصري بعمرو ابن العاص مصادفة وهو يرعى ابله ، ترويحاً لها من عناء السفر ورحلة التجارة . ورحب عمرو بهذا المصري وسقاه ، ثم صحبه في مشاهداته ببيت المقدس . وتصادف مرة أخرى أن أنقذ عمرو بن العاص حياة هذا المصري من ثعبان كان يريد أن يلدغه أثناء نومه بعد الاجهاد الشاق الذي لقيه من التجوال . وتابع ابن عبد الحكم سرد تلك القصة قائلا : ان المصري طلب من عمرو بن العاص الحضور معه إلى مصر ليجزيه على ما قدم له من خير ، ومبيناً له أنه سوف يشاهد بلدا خصبا وافر الثراء .

ولبي عمرو بن العاص دعوة رجل الدين المصري ، وهي دعوة مهدت له السبيل للوقوف على الطرق المؤدية إلى تلك البلاد ، وعلى أهم معالمها ومدنها فضلا عن معرفة أحوالها عن كثب ، وهي أمور كان لها أعظم الأثر في حياة عمرو بن العاص حين

قاد الجيوش الاسلامية لفتح مصر . وكان من الأمور التي ذكرها ابن الحكم فى روايته عن زيارة عمرو بن العاص لمصر نبوءة ترشيحه لعظيم الأمور ، وما ادخرته له المقادير من جليل الأعمال فى مصر . فروى هذا المؤرخ أن رجل الدين المصرى اصطحب عمرو ابن العاص لمشاهدة حفل بالاسكندرية — وهى عاصمة البلاد قبل الفتح الاسلامى — جرت العادة فيه على قيام أبناء علية القوم بلعب الكرة فيما بينهم . وكان المتعارف بين أولئك الأبناء أن تلك الكرة اذا وقعت فى حجر أحدهم استبشر بأنه سيكون حاكم مصر ومن أصحاب السلطة العليا فيها . وبينما هم فى حلبة اللعب قذف أحدهم بالكرة التى وقعت فى حجر عمرو بن العاص ، وكان جالسا فى مقصورة المشاهدين . وأثار ذلك عجب اللاعبين وقالوا : ما كذبتنا هذه الكرة قط الا هذه المرة ، أترى هذا الأعرابى يملكنا أبدا ! .



ثانيا : الفتح الاسلامى لمصر

دراسة مؤتمر الجابية لفتح مصر :

بدأت أحداث الفتح الاسلامى لمصر ، دراسة وتخطيطا وتنفيذا ، مع مجريات الفتوح الاسلامية فى بلاد الشام ، وهو الأمر الذى يؤكد عمق الترابط القائم اليوم بين بلاد الشرق الاسلامى ومصر ، وأنهما صارا يكونان فى ظل الدين الاسلامى الجديد وانتشاره وحدة لا انفصام لها . وكانت تلك الفتوح قد بدأت فى أعقاب بعث اسامة بن زيد الذى أعده الرسول الكريم إلى بلاد الشام . اذ أرسل الخليفة أبو بكر الصديق أربعة جيوش إلى فتح الشام ، كان على أحدها عمرو بن العاص ووجهته فلسطين ، وهو الأمر الذى أتاح لهذا القائد الوقوف على أهمية مصر لسلامة الفتوح الاسلامية بالشام ودعم أوتادها . ذلك أن عمرو بن العاص التقى فى جبهة فلسطين بأدهى دهاة قادة الروم (البيزنطيين) وهو « أريتون » الذى اشتهر عند العرب باسم « الأربطون » واستهدف هذا القائد البيزنطى من حروبه فى فلسطين افساد هجوم المسلمين على بلاد الشام وحرمانهم من ثمار انتصاراتهم فى الجبهات الأخرى بتلك البلاد ، ولا سيما فى معركة اليرموك الشهيرة .

ووصف الطبرى فى كتابه « تاريخ الرسل والملوك » خطورة هذا القائد البيزنطى وخطته^(٥) فى فلسطين قائلا : « كان الأربطون أدهى الروم ، وأبعدها غورا وأنكاهها فعالا ، وقد وضع بالرملة جندا عظيما وبالياء (بيت المقدس) جندا عظيما . وكتب عمرو إلى عمر بالخبر ، فلما جاءه كتاب عمرو قال : قد رمينا أربطون الروم بأربطون العرب » . وأوضح هذا القول أن الخليفة عمر بن الخطاب كان يدرك خطورة الموقف فى فلسطين ، وأن الشخص الجدير بالتصدى لهذا الموقف هو عمرو بن العاص . ولم تلبث تطورات الأحداث فى بلاد الشام أن دفعت بالخليفة عمر بن الخطاب نفسه إلى الخروج إلى تلك البلاد ودراسة الموقف بها ، وهى الدراسة التى جرت فى مؤتمر الجابية الحربى وانتهت بضرورة الفتح الاسلامى لمصر .

وكانت تلك الأحداث تتمثل فى اتخاذ الروم (البيزنطيين) من مصر قاعدة لعرقلة الفتح الاسلامى فى بلاد الشام . وبدأت خطة الروم تأخذ طابعا خطيرا بعد أن انسحب « الأرطيون » من فلسطين ، وأخذ يعيد تعبئة قواته فى مصر وتنظيم نشاطها ضد المسلمين بالشام . فقد أخذ الروم يعززون من مصر قاعدتهم البحرية فى فلسطين ، وهى مدينة قيصرية لافساد تقدم عمرو بن العاص نحو بيت المقدس سنة ٦٣٦ م . وكان بطريق هذه المدينة وهو صفرنيوس قد أبى أن يسلمها الا للخليفة عمر بن الخطاب نفسه ، وهو الأمر الذى حدا بعمرو بن العاص أن يطلب من الخليفة التعجيل بالقدوم إلى بلاد الشام وتدارس الموقف الخطير بها .

وكان الروم (البيزنطيون) قد عملوا إلى جانب تعزيز قاعدتهم فى قيصرية بفلسطين إلى ارسال حملة برية من مصر إلى شمال الشام لانزال الفوضى فى صفوف القوات الاسلامية ، والعمل على ضم بعض القبائل العربية من سكان شمال الشام إلى جانب تلك الحملة أملا فى الهجوم الشامل على المسلمين بالشام . وساعد الروم على تحقيق هذه الخطة المزدوجة الأهداف ضد الفتوح الاسلامية ببلاد الشام بقاء البحر المتوسط مفتوحا أمامهم فى مصر ، وقدرة أساطيلهم على حرية الحركة من الموانئ المصرية . وأبحرت جيوش الروم سنة ٦٣٨ م من الاسكندرية بقيادة قسطنطين بن هرقل نفسه ، مما يدل على الأهمية الكبرى التى علقها الامبراطور هرقل على تلك الحملة . وألقت حملة الروم مرساها فى مدينة أنطاكية بشمال الشام ، واستولت على هذه القاعدة الهامة وأخذت تنطلق نحو مضارب القبائل العربية المنتشرة فى تلك الأرجاء .

ووجد القائد العام للجيوش الاسلامية بالشام وهو « أبو عبيدة بن الجراح » نفسه محصورا فى حمص ، حيث كان يدير منها دفة عملياته الحربية بشمال الشام ، وكان عليه أن يواجه الروم فى تلك الجهات وزحفهم البرى والبحرى . وكتب هذا القائد العام إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستنجده ، كما عقد مؤتمرا حربيا من كبار قادة المسلمين للتشاور فى الموقف إلى حين يأتى رد الخليفة عمر . واستقر رأى المؤتمر الحربى على التزام خطة التريث والدفاع ، والعمل فى نفس الوقت على الحيلولة بين

الروم وبين الوصول إلى مضارب القبائل العربية . واستطاعت القوات الاسلامية بالشام وبفضل المساعدات التي وصلتها من جيوش المسلمين فى العراق تأمين جبهة شمال العراق والشام حيث مضارب القبائل العربية وحطمت بالتالى خطة الروم . اذ ساعد هذا النجاح الاسلامى على التصدى لقوات الروم الزاحفة من أنطاكية وحملها على الانسحاب والعودة من أنطاكية بحرا إلى الاسكندرية .

ووصل الخليفة عمر إلى بلاد الشام فى أعقاب هذا النصر الاسلامى على حملة الروم فى شمال تلك البلاد ، واتخذ عمر مركزا لقيادته فى « الجابية » وهى مرتفعات الجولان الحالية ، وذلك قبل ذهابه إلى بيت المقدس واستلامها من بطريقها « صفرنيوس » . وينسب إلى عمرو بن العاص قائد الميدان الجنوبي فى الشام الفضل فى تصوير الموقف الحربى بالشام تصويرا صادقا ، واطهار الدور الذى أسهمت به قوات الروم فى مصر فى خلق المتاعب الحربية التى واجهت المسلمين بالشام . وشرح هذا القائد للخليفة خطورة انسحاب قائد الروم وهو « الأربطون » إلى مصر ونشاطه فى استغلال تلك البلاد لضرب المسلمين بالشام واعتماده على البحر فى عرقلة الفتوح الاسلامية بها . ولمس الخليفة بنفسه تلك الحقائق حيث ظلت قيصرية على مقاومتها للمسلمين بعد استسلام بيت المقدس للخليفة عمر ، ووقوف هذه المدينة تتحدى قوات عمرو بن العاص بفضل أبراجها المنيعة وأسوارها الحصينة وجانبها المطل على البحر وحصولها على الامدادات من مصر ، التى غدت محور ارتكاز القوات الحربية لامبراطورية الروم (البيزنطيين) فى شرق البحر المتوسط .

وكانت هذه الأسباب المباشرة هى التى حملت عمر بن الخطاب على عقد مؤتمر الجابية الحربى بعد استرداد شمال الشام لدراسة الموقف الحربى واتخاذ الخطوات اللازمة لتأمين الفتوحات الاسلامية هناك . ولم يكن مستغربا أن ينفرد عمرو ابن العاص بادرارة دفة المناقشات فى هذا المؤتمر الحربى مبينا العراقيل التى وضعها الروم بفضل سيطرتهم على مصر ، اذ كان عمرو بفضل توليه لقيادة الجبهة الاسلامية فى ميدان فلسطين وتصديه لحصار قيصرية خبيرا بخطورة وجود الروم وتجمعهم فى

مصر ، وفضلا عن ذلك فكانت هناك عوامل أخرى جعلت مؤتمر الجابية يقرر فتح مصر . فالعرب يقدرّون أهمية مصر منذ العصر الجاهلي ويدركون دورها الحيوى فى امبراطورية الروم . فكانت المخزن الذى يمد تلك الامبراطورية وعاصمتها القسطنطينية بالغلابل ، وتهى لها رغدا من العيش ، وأن الاستيلاء عليها كفيل بكسر شوكة مقاومة الروم فى شمال الشام ، وحرمانهم من أهم الشرايين التى تبعث فى امبراطوريتهم ماء الحياة .

ويحتمل أن قادة المسلمين بالشام ، وقد اتسع أفق تفكيرهم الحربى نتيجة الحملات المنظمة التى قاموا بها ، قد أدركوا أن مصر ليست قاعدة يمكن أن تقضى على فتوحاتهم بالشام فحسب ، بل أنها ذات مركز استراتيجى يهيب موقعه الجغرافى للروم شن حملة انتقامية على بلاد العرب نفسها . ولعل قادة مؤتمر الجابية — بما فطر عليه العربى من حفظ تاريخ بلاده وأحداثها وأيامها — تذكروا حملة قام بها والى مصر الرومانى « جايوس جالوس » سنة ٢٥ ق.م. ، زمن الامبراطور أوكتافىوس ضد بلاد العرب ، اذ أبحر من ميناء القلزم (السويس) على البحر الأحمر على رأس حملة ألقت مرساها فى الحجاز ، ثم تابعت سيرها برا قاصدة اليمن لضرب مملكة حمير القائمة فى تلك البلاد ، وانتزاع السيادة التجارية منها على البحر الأحمر ومتاجر الشرق الأقصى .

وغدت الأسباب التى حملت مؤتمر الجابية الحربى على تقرير فتح مصر أسبابا جوهرية ، أجملها عمرو بن العاص فى ختام تقريره إلى الخليفة عمر قائلا : « انك ان فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم » . ثم جاءت خطوة الخليفة بتنصيب عمرو بن العاص قائدا للجيش المتجهة لفتح مصر خطوة وليدة البحث والاستقصاء فضلا عن مواجهة مقتضيات الظروف ، فالمعروف أن عمر بن الخطاب كان شديد الحرص على سلامة الجيوش الاسلامية ، ولا يمكن أن يدفع بها إلى ميدان جديد فى مصر ، دون ضرورة ملحة تدفعه إلى ذلك العمل ، فقد دأب طوال الفتوحات الواسعة التى تمت فى عهده سواء فى الشرق أو الغرب على كبح جماح السرعة الحربية التى جرت بها عجلة

الحروب ، وعدم تعريض قواته للخطر ، ودأبه فى العمل على سلامتها وتأمين مراكزها قبل الاقدام على أية مغامرة جديدة .

وهذا يحملنا على النظر فى الروايات التى ترددت بشأن مسيرة عمرو بن العاص لفتح مصر ، اذ يرى بعضها أنه مضى اليها من تلقاء نفسه فى ثلاثة آلاف وخمسة مائة جندي ، فغضب عمر بن الخطاب لذلك وكتب اليه يوبخه ويعنفه على افتتانه برأيه ، وأمره بالرجوع إلى موضعه ان وافاه كتابه دون فتح مصر ، فورد الكتاب عليه وهو فى العريش ، وجاء فى الكتاب : « من عمر بن الخطاب إلى العاص ابن العاص ، أما بعد فانه بلغنى أنك سرت ومن معك إلى مصر ، وبها جموع الروم ، وانما معك نفر يسير ، فاذا جاءك كتابى هذا فان لم تكن بلغت مصر فارجع » . ورددت روايات أخرى أن ابن العاص لم يكذب يحصل على موافقة الخليفة حتى أسرع بالمسير فى جوف الليل . ثم ان عمر بن الخطاب حين عاد إلى الحجاز وعرض على أهل الحل والعقد بها قراره لفتح مصر ، قال له عثمان بن عفان محذراً : « يا أمير المؤمنين ان عمرا لمجرأ ، وفيه قدام وحب للامارة ، فأخشى أن يخرج فى غير ثقة ولا جماعة ، فيعرض المسلمين لمهلكة رجاء فرصة لا يدري تكون أم لا » .

وأثار قول عثمان بن عفان مخاوف الخليفة وكتب إلى ابن العاص كتابا جاء فيه : « ان أدركك كتابى هذا قبل أن تدخل مصر فارجع إلى موضعك وان كنت دخلت فامض لوجهك » . وخرج رسول الخليفة يحمل الكتاب مسرعا يريد للحاق بجيش عمرو بن العاص ، فوصل اليه قبل دخوله حدود مصر . ولكن القائد عمرو أحس بالشك فى الكتاب الذى حمله رسول الخليفة وتباطأ فى استلامه بحجة الوصول أولا إلى مكان يستريح فيه من عناء السفر . ولما وصل عمرو إلى الوادى الصغير الذى يقع عند العريش فض الكتاب وقرأه ، ثم سأل من حوله ، وكان هو يفوقهم علما بحدود مصر وأرضها قائلا : نحن بمصر أم بالشام ؟ فقليل له : « نحن فى مصر » فقرأ عليهم كتاب الخليفة ثم قال : اذن نسير فى سبيلنا على بركة الله كما يأمرنا أمير المؤمنين .

ولا شك أن هذه الروايات تتناقض مع ما اشتهر به قادة المسلمين وخليفتهم عمر من حب للدقة وتمحيص للأمر . اذ لا يعقل أن يكون الفتح الاسلامى لمصر عملا عفويا أو موضع تردد ، وأن تلك الروايات ان صحت فقد تكون من باب خديعة الروم ، واخفاء الأهداف الحقيقية من مسير قوات عمرو بن العاص نحو مصر ، اذ أن اختيار الخليفة لهذا القائد الخبير بدروب مصر وأحوالها اختيار يدل على أن خطة الفتح الاسلامى لمصر فى أيدى أمينة ، وعلى دراية بالأهداف الحقيقية ، وهى أن حماية الدولة الاسلامية الفتية واتساع رقعة دار الاسلام باتت ترتبط بفتح مصر ، واخراج أهلها من مظالم الروم إلى نور الاسلام وطمأنينته وتعاليمه الحنيفة .

المرحلة الأولى من الفتح الاسلامى :

سار عمرو بن العاص من قيسارية بفلسطين حين تلقى أمر الخليفة بالزحف على مصر ، وذلك على رأس جيش قوامه أربعة آلاف محارب ، كانوا من الخيالة ، سرىعى الحركة . ووصل الجيش الاسلامى العريش فى أوائل سنة ١٩هـ - ٦٤٠م ، حيث استولى عليها بسهولة بسبب خلوها من قوات الروم . ثم تابع عمرو بن العاص زحفه الخاطف من العريش إلى « بلوز » التى سماها العرب « الفرما » وهى مدينة تقع شرقى بور سعيد الحالية . وسلك فى هذا الزحف الطريق الرملى البعيد عن الشاطئ ، والحافل فى نفس الوقت بعيون الماء والقرى الصغيرة ، وكان هذا الطريق هو الذى سلكه منذ أقدم العصور كل وافد على مصر أو جيش محارب لها . اذ عبر هذا الطريق الخليل ابراهيم حين قصد مصر ، كما اجتازته جيوش الاسكندر ، وكذلك سارت عليه أسرة المسيح عليه السلام .

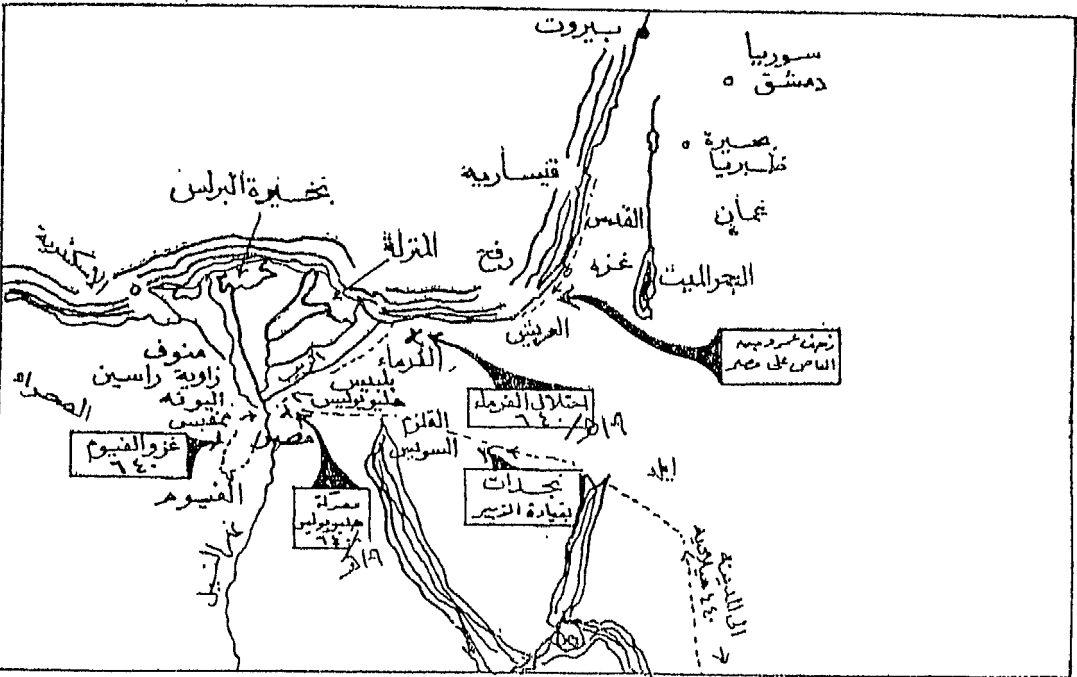
وكانت مدينة « بلوز » (الفرما) حصينة وتقع على بعد ميل ونصف ميل من البحر ، ولها ثغر بحرى يرتبط مع المدينة بخليج عميق . وزاد فى منعة هذه المدينة قربها من مصب أحد فروع النيل القديمة الذى انتسب اليها باسم « الفرع البلوزى » ، وصارت بلوز تمثل مفتاح مصر الشرقى بسيطرتها على مدخل الطريق الصحراوى ،

وامتداد فرع النيل البلوزى . ولكن هذه المنعة لم تحل دون سقوطها فى أيدي المسلمين بسبب استبسالهم فى القتال واعتمادهم على المفاجأة الحربية ، اذ وقفت حامية الروم (البيزنطيين) « فى بلوز » عاجزة عن صد الزحف الاسلامى ، واستسلمت بعد شهر من الحصار ، انهارت فيها روحها المعنوية ، أمام ما شهدته من ايمان المسلمين وصدق عزميتهم . وقد صاحب هذا النصر الاسلامى طلائع الترحيب والمساعدات التى قدمها المصريون للمسلمين فى حروبهم ضد الروم . ذلك أن بطريق مصر « بنيامين » بعث من مخبئة إلى مواطنيه يخبرهم أن « دولة الروم » قد دالت وأن عهد طغيانهم قد زال ، وبشرهم بفجر عهد زاهر جديد . وسجل المؤرخ ابن عبد الحكم هذا الموقف المصرى من الفتح الاسلامى قائلا : « كان بالاسكندرية أسقف يقال له أبو ميامين « بنيامين » . فلما بلغه قدوم ابن العاص إلى مصر كتب إلى القبط يعلمهم أنه لن تكون للروم دولة وأن ملكهم قد غاب ويأمرهم بتلقى عمرو ، فيقال أن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ أعوانا لعمرو » .

وصار ظهر القوات الاسلامية أمنا ياستيلائها على الفرما ، وغدت خطوط مواصلاتها سليمة وأمنة مع القوات الاسلامية المركزية بالحجاز ، وكذلك مع الجيوش الاسلامية المظفرة بالشام . وفقد الروم (البيزنطيون) قاعدة أساسية من قواعد وجودهم فى مصر ، وبدأوا يشعرون بخطورة موقفهم بسبب تعزيز المصريين للقوات الاسلامية ، ومساندتها فى تحرير ديارهم من الظلمات والطغيان .

وبادر عمرو بن العاص بعد ذلك بطلب الامدادات من الخليفة لأنه علم أن أخبار زحفه بلغت الروم فى داخل البلاد ، وأنهم عمدوا إلى تحصين معقلهم الرئيسى فى الدفاع عن البلاد وهو حصن بابلون . ثم انطلق من الفرما جنوبا واحتل المجدل ووصل إلى المكان الذى تشغله اليوم « القنطرة » على قناة السويس . واختار عمرو بن العاص هذا المكان ليتابع منه زحفه لأنه أصلح لمفاجأة الروم داخل البلاد ، اذ خالف عمرو عند هذا المكان غزاة مصر القدامى ، وأثر عدم الزحف على شمال الدلتا ، وفضل طريقا يؤدى إلى مدينة الصالحية لأنه يهيئ للقوات الاسلامية البقاء إلى جانب الصحراء

والاعتصام بها اذا دهمها خطر مفاجئ . وكان هذا الطريق فى نفس الوقت هو أقصر الطرق للوصول إلى حصن بابلليون ، معقل الروم الرئيسى فى البلاد المصرية . ولم تستطع قوات الروم التصدى للمسلمين بسبب هذا الزحف الخاطف الذى اتبعه عمرو ابن العاص وركزت جهودها على حصن بابلليون .



دخول الجيش الاسلامى مصر

واتسمت حركات عمرو بن العاص بالخفة والتنقل السريع والابتعاد عن الأماكن المقصود ضربها ، انتظار للامدادات الاسلامية ، ومنعا للروم فى حصن بابلليون من مد يد المساعدة إلى تلك الأماكن . واستطاع عمرو بن العاص أن يزحف من الصالحية فى سرعة خاطفة حتى وصل المنطقة التى يفترق عندها فرعا النيل ، فمر بمدينة هليوبوليس على جانب الصحراء ، وباغت قرية على النيل اسمها « أم دنين » (مكانها

الآن الأزيكية) واستولى عليها لأنها تكون معقلا هاما شمال حصن بابلليون . وأخذ عمرو يحث جنده على الحرب عند أم دينين حتى قال له أحدهم « انا لم نكن حجارة أو حديدا » . فقال له عمرو « أسكت فما أنت الا كلب » فقال الرجل « اذن فأنت أمير الكلاب » ، وأثار هذا الجواب الضحك ، وأتاح لعمرو التغاضي عما حدث . وعوض الجند عن تعبهم الاستيلاء على أم دينين لأنها منحت المسلمين موقعا استراتيجيا على النيل .

وعبر عمرو بن العاص النهر مبتعدا عن حصن بابلليون حتى تأتيه الامدادات وامعانا في تسمية قواته عن الروم . واستهدف عمرو بن العاص في نفس الوقت استطلاع موقع هذا الحصن . من الضفة الغربية للنيل ، والزحف أيضا على الفيوم للحصول على المؤن اللازمة لجنده منها ، ومفاجأة الروم داخل مصر العليا . ثم عاد عمرو بقواته سريعا جريا على أسلوبه في سرعة الحركة ، وعبر النيل عند أم دينين واتجه إلى هليوبوليس مرة أخرى ، حيث بلغه نبأ وصول الامدادات الاسلامية وعددها اثني عشر ألف جندي تحت قيادة أربعة من خيرة قادة المسلمين وهم : الزبير بن العوام ، والمقداد بن عمرو ، وعبادة بن الصامت ، وخارجة بن حذافة . وكان عمرو بن العاص قد طلب الامدادات من الخليفة عمرو بن الخطاب الذي بادر إلى تلبية هذا الطلب وكتب إلى عمرو : اني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف منهم رجل مقام الألف : الزبير بن العوام والمقداد بن عمرو وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد . وقال آخرون بل خارجة بن حذافة الرابع ، لا يعدون مسلمة .

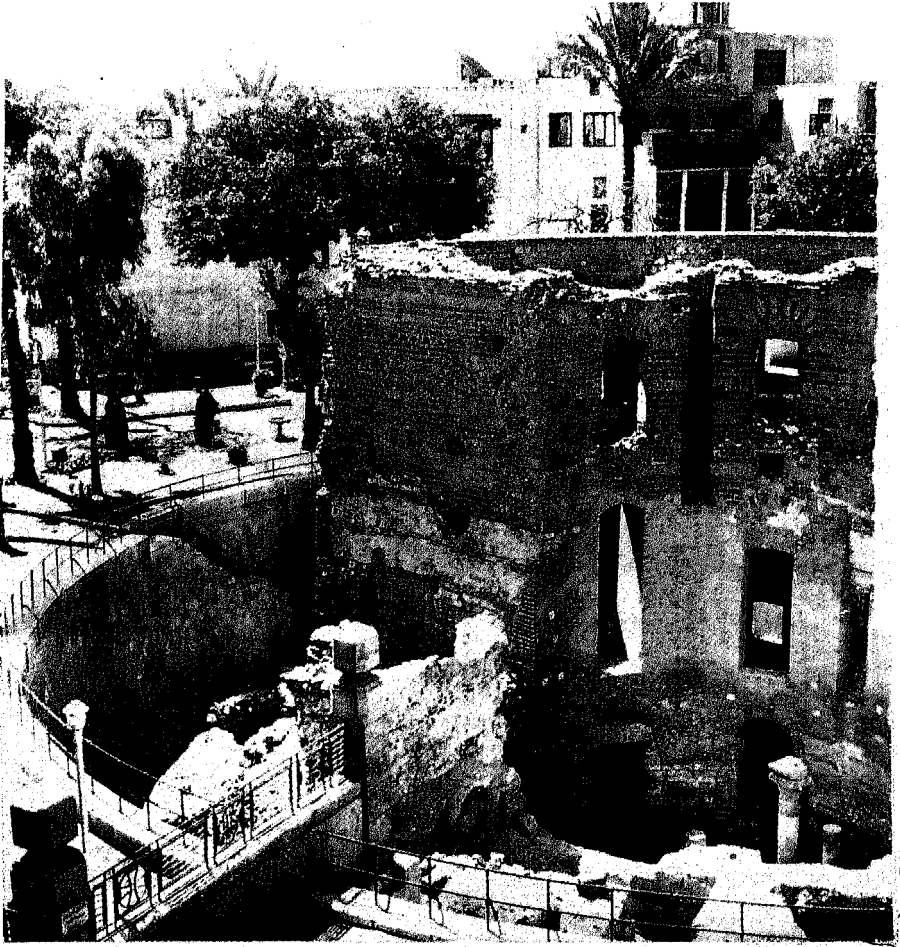
وكانت قوات الروم في حصن بابلليون قد جاءتها امدادات بدورها ، وتولى قيادتها أعظم رجال الحرب في الدولة وهو « تيودور » وبات النصر رهنا بالقادر على اجادة التعبئة . وأثبت عمرو بن العاص أنه أجدر على التفوق في هذا الميدان وضرب أساتذته القدامى من الروم . اذ رسم خطته بعد أن وصلته الامدادات على أساس « الاستطراد » أى اغراء الروم على الخروج من معقلهم المنيع في حصن بابلليون ، ثم الاشتباك معهم في السهل بعيدا عن ذلك الحصن . وعبأ تيودور قائد الروم قواته وخرج بها فعلا من

حصن بابليون معتمدا على قوة ما لديه من الخيالة والرجالة أيضا ، وزحف نحو هليوبوليس لمفاجأة المسلمين قبل تدبير خططهم وأحكامها مع الامدادات التي وصلتهم . وأجاد عمرو بن العاص استغلال هذا الموقف فأرسل فرقتين تحت جناح الليل إلى أماكن جعلها كمائن لجيش الروم . وأمر فرقة منها أن تتخذ لنفسها كميناً في « أم دنين » ، والثانية بقيادة خارجة بن حذافة اتخذت كميناً لها في « ثنية الجبل » وهو الموضع الذي تقوم عليه الآن « القلعة » . وصدرت الأوامر لهاتين الفرقتين بالهجوم عندما يبدأ الاشتباك مع الروم .

وتم تعبئة القوات الاسلامية دون أن يعرف الروم شيئاً عنها ، اذ خرجوا من حصن بابليون واجتازوا البساتين الواقعة إلى الشمال وانساحوا في السهل . وعندما بلغوا المكان المعروف اليوم باسم « العباسية » اصطدموا بشطر من القوات الاسلامية ، وهجموا عليها في عنف اعتقاداً بأنها تمثل الجيش كله . وعندما احتدم القتال خرجت الفرقة التي قادها خارجة من كمينها بثنية الجبل ، وأهوت على مؤخرة الروم ، وعندئذ اضطر جند الروم إلى الانسحاب نحو أم دنين ، فلقبهم الكمين الآخر ، وأكمل انزال الفوضى بصفوفهم ، حتى انهدمت تعبثتهم وعادوا منهارين إلى الاعتصام مرة أخرى بحصن بابليون .

وجنى عمرو بن العاص أولى ثمار هذا النصر ، فقد أصبح بانتصاره في وعة هليوبوليس سيد المنطقة الاستراتيجية المحيطة بحصن بابليون^(٦) وأخذ يعيد تعبئة قواته للاستيلاء على هذا الحصن نفسه . وكانت هذه المرحلة الجديدة من التعبئة شاقة غير هينة ، اذ كان الحصن في ذلك الوقت ينعم بكافة أسباب المنعة والقوة . فكان ماء النيل يجري تحت أسوار الحصن ، وفي استطاعة السفن الحربية والتجارية الوصول إليها . وكانت تلك الأسوار على شكل مربع غير منتظم وسمك كل سور منها ثمانية عشر قدماً ، وبنائها من الأجر والحجارة طبقة فوق طبقة على التوالي ، وتخلل الجانبين الشرقي والجنوبي من تلك الأسوار أربعة أبراج بارزة . وكان الصاعد إلى أعلى تلك الأبراج يرى منظراً عظيماً يمتد إلى جبل المقطم من الشرق ، وإلى الجيزة والأهرامات

وصحراء ليبيا من الغرب وإلى شطر كبير من نهر النيل من الشمال والجنوب . وصار
فى استطاعة هذا الحصن السيطرة بالتالى على هذا المفرق الاستراتيجى الذى يربط
مصر العليا بمصر السفلى ، فضلا عن الهيمنة على الطريق الرئيسى المؤدى إلى
الاسكندرية .



أحد أبراج حصن بابلين .

وزاد فى منعة الحصن الواجهة التى أطل بها على النيل ، حيث كان لها برجان ويمتد بينهما سور ساتر ، ينفذ منه باب اشتهر عند العرب باسم « الباب الغربى » فكان هذا الباب يؤدى إلى مرسى هام ، دأبت سفن الروم على القاء مرساها عنده . وامتد أمام السور أيضا جزيرة الروضة ، وكانت ذات حصون تعتبر جزءا مكملا لمعاقل حصن بابليون ، وتسير المراكب بينهما دون عائق .

وكان للحصن أبواب أخرى ، غير الباب الغربى المطل على المرسى ، ومن أشهرها البابان الكبيران فى الواجهة التى تضم المدخل الرئيسى . وأطلق الروم على الفضاء الواقع بين هذين البابين اسم بريوجنا كولوم Propugnaculum وهو الفضاء الذى أعدوه للمقاومة اذا اقتحم المهاجم الباب الأول وتمكن من كسر السياج الذى كان مشيدا من حسك الحديد . والحسك نبات شائك كان يعلق ثمرة بصوف الغنم . وكثر فى بلاد العرب حتى ضربوا بشوكة المثل . وكان لهذا الشوك ثلاث شعب صارت مثلا يقلده المقاتلون فى أسلحتهم . وكان هذا الفضاء مكشوبا وتحيط به جدران يعلوها دهليز تتجمع به القوات الموكل اليها الدفاع عن الحصن وعرقلة العدو . وفضلا عن ذلك أشرفت أبواب الحصن على المزارع المحيطة بالحصن من الجانب الشرقى ، وكذلك على الحدائق وبساتين الكروم بالناحية الشمالية وما تليها من الأديرة والكنائس الممتدة إلى جبل المقطم .

وكان هذا الموقع الهام بحصونه المنيعة هو المنظر الذى التقى به عمرو ابن العاص بعد انتصاره فى وقعة عين شمس . ومن ثم عمد إلى فرض الحصار على حصن بابليون ، مع الافادة من النصر الذى أحرزه . فنقل معسكره من هليوبوليس وضربه فى شمال الحصن وشرقه بين البساتين والكنائس ، وهو الموضع الذى قامت عليه مدينة الفسطاط فيما بعد . اذ أتاح هذا الموقع لعمرو بن العاص إحكام الحصار على الحصن من الجانب البحرى .

ولما بدأ الحصار كان الفيضان مرتفعا ومياهه تملأ الخندق المحيط بالحصن ، وتزيد من منعته . ومن ثم عمد عمرو إلى تفريق رجاله حول الحصن ، وتناوب كل قسم

مع الآخر الهجوم لارهاق الحامية المحاصرة ورميها بالمجانيق .

وانتهز المقوقس ارتفاع النيل ، وصعوبة اقتراب المسلمين من حصن بابلون وانتقل إلى جزيرة الروضة ، ليدخل فى مفاوضات سرية مع عمرو بن العاص مستهدفا انقاذ الموقف المتدهور .

وأعد المقوقس رسلا من خيرة رجاله ، وبعث بهم إلى عمرو بن العاص ، ومعهم الرسالة التالية للمسلمين :

انكم قوم قد ولجتم فى بلادنا وألحتم على قناتنا وطال مقامكم فى أرضنا وأنتم غصبة يسيرة . وقد أظلتكم الروم وجهزوا اليكم ومعهم العدة والسلاح وقد أحاط بكم هذا النيل . وانما أنتم أسارى فى أيدينا ، فابعثوا الينا رجالا منكم نسمع من كلامهم فلعله أن يأتى الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب ، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه . ولعلكم تندمون ان كان الأمر مخالفا لطلبتكم ورجائكم ، فابعثوا الينا رجالا من أصحابكم نعاملكم على ما نرضى نحن .

فلما أتت عمرو بن العاص رسل المقوقس أبقاهم عنده يومين وبعد انقضاء اليومين رد عليهم عمرو قائلا : أنه ليس بينى وبينكم الا احدى ثلاث خصال :

- ١ — أما ان دخلتم فى الاسلام فكنتم اخوانا وكان لكم مالنا وعليكم ما علينا .
- ٢ — وان أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون .
- ٣ — وأما ان جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو أحكم الحاكمين .

وسر المقوقس بعودة رسله وسألهم عن حال العرب فأجابوا :

رأينا قوما الموت أحب اليهم من الحياة ، والتواضع أحب اليهم من الرفة ، ليس لأحد فى الدنيا رغبة ولا نهمة . وانما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف ربيعهم من وضيعهم ولا السيد فيهم من العبد ، واذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم .

وأرهب المقوقس هذا الكلام ورأى أن قوما هذه حالهم سوف يقتحمون الحصن وينتصرون عليهم . ولذا عمد إلى متابعة التفاوض لعقد الصلح قبل فوات الأوان ، وأرسل إلى المسلمين أن يبعثوا رسلا منهم يتداعى معهم إلى ما عسى أن يكون فيه صلاح الفريقين .

وبعث عمرو بن العاص إلى المقوقس عشرة رجال عليهم عبادة بن الصامت ، وأمره عمرو أن يكون متكلم القوم ، وأن لا يجيبهم إلا إلى احدى الخصال الثلاث التي سبق أن عرضها على رسل الروم عند بدء المفاوضات . فلما دخلت رسل المسلمين معسكر الروم هاب المقوقس عبادة لسواده وفرط طوله ، وأراد أن يتقدم اليه غيره ليكلمه ، فقال المسلمون :

ان هذا الأسود أفضلنا رأيا وعلما وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا ، وإنا نرجع جميعا إلى قوله ورأيه وقد أمره الأمير دوننا بما أمره به .

ولم ير المقوقس بدا أصرار وفد المسلمين من محادثة عبادة ومفاوضته ، وابتدأ عبادة الحديث وقال : انما رغبتنا وهمتنا الجهاد فى الله ، وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة فى دنيا ولا طلبا للاستكثار منها ، إلا أن الله عز وجل قد أحل لنا ذلك وجعل لنا ما غنمنا من ذلك حلالا . وما يبالى أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعه ليلته ونهاره ، وشملة يلتحفها ، فان كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه ، وان كان له قنطار من ذهب أنفقه فى طاعة الله واقتصر على هذا الذى بيده . انما النعيم والرخاء فى الآخرة ، وبذلك أمرنا الله وأمرنا به نبينا وعهد الينا أن لا تكون همة أحدنا من الدنيا إلا ما يمسك جوعته ويستر عورته ، وتكون همته وشغله فى رضوانه وجهاد عدوه .

ووافق المقوقس على كلام عبادة ، ثم عمد إلى أن يسلك معه طريق الارهاب المصوغ فى قالب النصيحة فقال : أيها الرجل قد توجه الينا لقتالكم من جمع الروم مالا يحصى عدده ، قوم معروفون بالنجدة والشدة ما يبالى أحدهم من لقى ولا من قاتل ، وانا لنعلم أنكم لن تقدرُوا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم ، وقد أقمتم بين

أظهرنا شهرا وأنتم فى ضيق وشدة من معاشكم وحالكم . ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلة ما بين أيديكم ، ولن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين ولأميركم ثلاثمائة دينار ولخليفتم ألف دينار ، فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم مالا قوام لكم به .

فقال عبادة : يا هذا لا تغرن نفسك ولا أصحابك ، ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وأنا لا نقوى عليهم ، فلعمري ما هذا بالذى تخوفنا به ولا بالذى يكسرنا عما نحن فيه ... ان قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا فى رضوانه وجنته ، وما من شئ أقر لأعيننا ولا أحب إلينا من ذلك . وان الله عز وجل قال فى كتابه (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) وما منا رجل الا وهو يدعو ربه صباحا ومساء أن يرزقه الشهادة وأن لا يرده إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده ، فانظر الذى تريد فبينه لنا فليس بيننا وبينكم خصلة نقبلها منك ولا نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث خصال ، فاختر أيتها شئت ولا تطمع نفسك فى الباطل .

وألح المقوقس على عبادة وأصحابه أن يجيبوه إلى خصلة غير هذه الثلاث الخصال . فرفع عبادة يديه وقال : لا ورب هذه السماء ورب هذه الأرض ورب كل شئ ، مالكم عندنا خصلة غيرها فاختروا لأنفسكم . فقال المقوقس لمن حوله : أجيئوني وأطيعوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث فوالله مالكم بهم طاقة ، وان لم تجيبوا اليهم طائعين لتجيبينهم إلى ما هو أعظم منها كارهين .

ورجع المقوقس وأصحابه إلى حصن بابليون حيث عقدوا اجتماعا مع قادة الروم ، وعرضوا لهم حالهم وحال المسلمين ازاءهم ، فأبوا أن يذعنوا لمطالب المسلمين . وخالفوا المقوقس وقبحوا رأيه وعولوا على مواصلة القتال .

وتوقفت المفاوضات بين المسلمين والروم انتظارا لمزيد من التفاصيل . وغادر المقوقس جزيرة الروضة عائدا إلى حصن بابليون ، حيث أبلغ قادة الروم نتيجة مفاوضاته . ولكنهم رفضوا المطالب التى قدمها وفد عمرو بن العاص ، وهو الأمر الذى أدى إلى استئناف القتال . وقد زاد موقف الروم سوء بسبب انخفاض الفيضان وقلة

المياه بالتالى فى الخندق المحيط بالحصن . فرمى جند الروم فى قاع الخندق حسك الحديد ، وكذلك أمام أبواب الحصن عوسا عن المياه . وعمد المسلمون إلى طم جزء من الخندق استعداد للهجوم ، اذ قال الزبير لعمرو بن العاص ، « انى أهب الله نفسى وأرجو أن يفتح الله على المسلمين ، فوضع سلما الى جانب الحصن ثم صعد » وأمر جنده أن يكبروا اذا سمعوا تكبيره ، وهو بأعلى الحصن . وتم هذا الشطر من « التعبئة » ، وانتهى الأمر باقتحام المسلمين الحصن ، على حين بادر الروم إلى قبول الشروط التى سبق أن عرضها عمرو بن العاص على المقوقس ، وعقدوا المعاهدة المشهورة باسم صلح بابلون ، وجاء فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم :

— هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم . لا يدخل عليهم شئ من ذلك ولا ينقص .

— وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية اذا أجمعوا هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف .

— ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوب فله مثل مالهم وعليه مثل ما عليهم .

— عليهم ما عليهم أثلاثا فى كل ثلث جباية ثلث ما عليهم .

وقد تقرر بهذا الصلح مبادئ اسلامية سامية ، منها ارتباط الجزية بمقدار مياه النيل وانخفاضها ، وأن تدفع على ثلاثة أفساط من السنة . وانتهى بهذا الصلح عهد مصر البيزنطية وبداية عهد مصر الاسلامية ، برغم استمرار الفتح الاسلامي وسيره نحو الاسكندرية .

وكان عمرو بن العاص قد بادر غداة سقوط حصن بابلون بالزحف على الاسكندرية التى كانت عاصمة مصر البيزنطية ، وثانى مدن امبراطورية الروم ، وأشدّها تحصينا وقوة . اذ كانت هذه المدينة تنعم بأسوار شاهقة تدفع عنها العدوان من ناحية

وقد استطاعت الحامية البيزنطية بالاسكندرية ان تقاوم المسلمين طويلا ، حتى ان عمرو بن العاص قضى على حصار هذه المدينة أربعة عشر شهرا ، مما أدى إلى قلق الخليفة عمر بن الخطاب على الأوضاع فى مصر . فأرسل كتابا إلى عمرو بن العاص يستفسر عن حقيقة الأمور ويستنهضه للقتال ويحثه وأتباعه على مواصلة الجهاد والصبر . وكان المقوقس الذى عقد مع عمرو بن العاص صلح بابليون يقيم اذ ذاك بالاسكندرية ، ورأى بعد وفاة هرقل أن الأوضاع تحتم التسليم للمسلمين ، والعمل على عقد معاهدة أخرى تضمن له ولجند الروم الخروج من البلاد .

ونجح المقوقس فى عقد اتفاق ثان مع عمرو بن العاص ، اشتهر باسم صلح الاسكندرية ، وتقرر بمقتضاه ما يلى :

- ١ — أن يدفع كل فرد ممن يدخل فى هذه المعاهدة جزية مقدارها دينارين فى السنة .
- ٢ — أن تعقد هدنة مدتها أحد عشر شهرا يتم خلالها جلاء الروم نهائيا عن مصر .
- ٣ — أن يظل المسلمون فى مواقفهم أثناء تلك الهدنة ، ولا يسعوا إلى حرب الروم .
- ٤ — أن ترحل حامية الروم عن الاسكندرية ومعها متاعها وأموالها ، أما الجنود الذين يرحلوا برا فعليهم دفع الجزية عن شهر ، وهى المدة التى يستغرقها عبورهم للبلاد قبل الرحيل نهائيا .
- ٥ — أن لا يعود الروم إلى استرداد مصر .
- ٦ — أن لا يتعرض المسلمون للكنائس بسوء .
- ٧ — أن يبقى اليهود فى الاسكندرية .
- ٨ — أن يحتفظ المسلمون بمائة وخمسين من العسكر الروم ، كرهائن ضمانا لتنفيذ الاتفاقية ، التى تم ابرامها فى ٥٢١ هـ / ٦٤٢ م .

وارتبط باستيلاء المسلمين على الاسكندرية قصة مختلفة عن احتراق مكتبة هذه المدينة أثناء الحصار الاسلامى . وكان أول من نسج هذه الرواية المختلفة عبد اللطيف البغدادي (ت سنة ١٢٣١م) فى كتابه « الافادة والاعتبار » ، وذلك حين روى مشاهدته عرضا عن عمود السوارى بالاسكندرية ، فقال : « ورأيت أيضا حول عمود

وزاد هذه القصة المختلقة تراها وأباطيل مؤرخ آخر جاء بعد عبد اللطيف البغدادي واسمه أبو الفرج بن طيب يهودى اسمه قارون (أهرون) ، الذى ولد فى ملطية سنة ١٢٢٦م وتوفى فى سنة ١٢٨٦م وقد ألف كتابه بالسريانية ثم نقله إلى العربية باسم « تاريخ الدول » ، وروى فيه الكثير من الأساطير دون تمحيص أو تدقيق . فقال عن حريق مكتبة الاسكندرية على يد عمرو بن العاص وأسبابه ما يلى :

كان فى وقت الفتح رجل اكتسب شهرة عظيمة عند المسلمين يسمى « يوحنا النحوى » كان قسيسا قبطيا من أهل الاسكندرية ، وفى هذا الزمان اشتهر بين الاسلاميين بحنى المعروف عندنا « بخرما طيقوس » أى النحوى . وكان اسكندريا يعتقد اعتقاد النصارى اليعقوبية ، ثم رجع عما يعتقد النصارى فى التثليث .

فاجتمع اليه الأساقفة بمصر وسألوه الرجوع عما عليه فلم يرجع ، فأسقطوه من منزلته ، وعاش إلى أن فتح عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية . ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم ، فأكرمه عمرو ، وسمع من ألفاظه الفلسفية التى لم تكن للعرب بها أنسه ما هاله ففتن به . وكان عمرو عاقلا حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمة ، وكان لا يفارقه ، ثم قال له يحيى يوما : انك قد أحطت بحواصل الاسكندرية ، وضمنت على كل الأشياء الموجودة بها ، فمالك به انتفاع فلا أعارضك فيه وما لا انتفاع لك به فنحن أولى به . فقال له عمرو ، وما الذى تحتاج اليه ؟ قال : كتب الحكمة التى فى خزائن الملوكية . فقال له عمرو : لا يمسنى أن أمر فيها الا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . وكتب إلى عمر وعرفه قول يحيى ، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه : وأما الكتب التى ذكرتها فان كان فيها ما يوافق كتاب الله ، ففى كتاب الله عنه غنى ، وان كان منها ما يخالف كتاب الله ، فلا حاجة اليه ، فتقدم باعدامها . فشرع عمرو بن العاص فى تفريقها على حمامات الاسكندرية واحراقها فى مواقدها ، فاستنفذت فى ستة أشهر .

وقد تناقل بعض الكتاب المحدثين هذه القصة المختلقة وردوها على حين أنكرها الكثيرون ، ويلاحظ على اختلاق تلك للقصة وبطلانها ما يلى :

١ - أن هذه القصة جاءت لأول مرة عند عبد اللطيف البغدادى وأبى الفرج بعد فتح الاسكندرية بستمائة سنة . وهذا يضعف تلك القصة المختلفة ، ويهدم جذورها ، إذ لم يرد لها ذكر عند المؤرخين السابقين ، ولا سيما المسلمين منهم ، ممن عاصر أحداث الفتح الاسلامى ، وأقدمهم البطريق أتيخوس الذى روى فى اسهاب أحداث فتح الاسكندرية ، وكذلك يوحنا أسقف نقيوس ، وهو مؤرخ عاش أيضا فى القرن السابع الميلادى ، ويعتبر كتابه عن تاريخ مصر من أهم المصادر الموثوق بها . وكذلك لم يشر إلى هذه القصة أحد من المؤرخين المسلمين المتقدمين الثقة أمثال الطبرى واليعقوبى والكندى ، وابن عبد الحكم .

٢ - لم يكن للمكتبة الملكية التى أشار إليها أبو الفرج فى قصته أى وجود زمن الفتح الاسلامى للاسكندرية . لأن الكتب التى كانت بها ، وكذلك الكتب الموجودة فى مكتبة السيرابيوم المجاورة لها قد أصابها الخراب بسبب الحريق الذى اشتعل فيها عندما هجم الامبراطور يوليوس قيصر سنة ٤٧ ق.م. على الاسكندرية . فقد روى المؤرخ « اليانوس مارسيلينوس » أن مكتبة الاسكندرية قد أصابها التلف التام ولا سيما بالسبعمائة ألف مجلد التى كانت تحتويها عندما حاصر يوليوس قيصر مدينة الاسكندرية . وأيد هذه الرواية « أوراويوس » الذى زار الاسكندرية فى القرن الرابع الميلادى وشاهد رفوف مكتبة الاسكندرية خاوية . ثم زاد من خراب هذه المكتبة وقضى على البقية الباقية منها قبل الفتح الاسلامى للاسكندرية العدا الذى نشب بين المسيحيين والوثنيين فى تلك المدينة سنة ٢٩١ م . إذ قامت فى ذلك الوقت موجة من العدا للوثنية ، والقضاء على المخلفات الوثنية التى كانت تحتفظ بها مكتبة الاسكندرية ، هذا فضلا عن اغلاق المعابد الوثنية بأمر الامبراطور جستنيان .

٣ - أثبتت الأبحاث الحديثة التى قام بها نفر من المؤرخين ومن بينهم « بتلر » صاحب كتاب فتح العرب مصر ، أن يوحنا النحوى الذى نسب إليه أبو الفرج

روايته عن حريق مكتبة الاسكندرية لم يكن حيا يرزق سنة ٦٤١م ، أى زمن الفتح الاسلامى . اذ أشارت الروايات التاريخية أن يوحنا النحوى كان من الأشخاص الذين أسهموا مع ساويرس أسقف أنطاكية وديوسقوروس فى مهاجمة مجمع خلقدونية الذى انعقد سنة ٤٥١م ، وأنهم ظلوا على عدائهم لقرارات هذا المجمع إلى عهد الامبراطور جستنيان . وهذا يعنى أن يوحنا النحوى برغم أنه عاش إلى أوائل القرن السابع فإنه بحساب سنى حياته يكون قد توفى قبل دخول عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية بثلاثين أو أربعين سنة ، وهذا يهدم أساس رواية أبى الفرج ، ويصمها بالاختلاق .

٤ — ان معاهدة الاسكندرية تستبعد بنصوصها اتهام عمرو بن العاص بحريق مكتبة هذه المدينة . اذ نصت هذه المعاهدة على أن العرب لم يدخلوا الاسكندرية الا بعد هدنة مداها أحد عشر شهرا ، وأن الروم كانوا بمقتضى هذه المعاهدة أيضا قادرين على حمل جميع متاعهم وبالتالي جميع ما يروق لهم من مكتبة الاسكندرية ان كان لها وجود اذ ذاك . فلم يرد ذكر لمكتبة الاسكندرية فى مدونات القرون السادس والسابع ، وهى المرحلة التالية لحريق هذه المكتبة على يد يوليوس قيصر ثم ان الرومان كان فى استطاعتهم نقل هذه الكنوز العلمية معهم إلى القسطنطينية ، حيث أباحت لهم معاهدة الاسكندرية حمل ما يروق لهم من متاع .

٥ — وتكشف تفاصيل القصة التى رواها أبو الفرج أيضا عن مدى ما تحمله من أكاذيب وأساطير . اذ جاء فى تلك القصة أن الكتب وضعت فى سلات وأنها وزعت على أربعة آلاف حمام ، وأنها ظلت تستخدم وقودا لتسخين المياه مدة ستة شهور . فلا يعقل أن عمرو وقد أصر على اعدام مكتبة الاسكندرية أن يسمح بنقل كتبها وأن تظل ستة أشهر وقودا للحمامات . فهذه المدة تكفى لمن يريد الحصول على شئ منها ولا سيما « يوحنا النحوى » أن يجمع ما يشاء سواء دون مقابل أو بثمن بخس . ثم أن أبسط عملية احصائية تكشف بطلان قصة

حريق الاسكندرية ، فلو قدرنا لكل حمام مائة كتاب فى اليوم لسد حاجاته من الوقود ، وهو قدر ضئيل بسبب صغر حجم الكتب اذ ذاك ، لبلغ عدد الكتب التى التهمتھا النيران فى ذلك الحريق نحو اثنين وسبعين مليوناً من الكتب ، وهو ضعف عدد الكتب التى احتوتها مكتبة الاسكندرية فى أزهى عصورها القديمة . وهذا ينقض العدد الذى رواه يوحنا ، وهو أن المكتبة كان بها سبعمائة ألف مجلد فقط . ثم ان الكتب القديمة كانت تكتب على الكاغد والرق ، وهما لا يصلحان وقوداً ، ولا سيما للاستخدام فى تسخين مياه الحمامات .

ولذا فان أسطورة حريق مكتبة الاسكندرية على يد عمرو بن العاص لا نصيب لها من الصحة أو السند التاريخى ، فضلاً عن انكار التاريخ الحضارى للمسلمين لمثل هذا العمل . فالمسلمون حافظوا على تراث الحضارات القديمة وأقبلوا على نقل كتبها فى شتى الميادين إلى اللغة العربية ، وسمحوا للقائمين على تلك الكتب ولا سيما ممن أثار البقاء على دينه بالمساهمة فى حركة الترجمة . وهذه الحقيقة يشهد عليها حرص المسلمين منذ تم لهم فتح مصر على حماية هذه البلاد بجميع تراثها وكنوزها وصد عادية الأعداء عنها ولا سيما الروم ، الذين تطلعوا إلى استردادها دون مراعاة لاتفاقية صلح الاسكندرية .

وكان الروم البيزنطيون قد استعادوا استقرارهم على عهد الامبراطور قنسطانز الثانى ، حفيد الامبراطور هرقل ، وأخذوا يستعدون لارسال حملة لاسترداد الاسكندرية والزحف منها على باقى الديار المصرية واخراج المسلمين منها .

وساعد هذا الامبراطور على تنفيذ هذه الخطة نشاطه فى ميدان البحر المتوسط وتنظيم الأساطيل البيزنطية ودعم قواعد الامبراطورية فى الجزر المنتشرة فى شرق البحر المتوسط . وبلغ من دقة اعداد هذه الحملة البيزنطية المتجهة نحو مصر أن تولى القيادة العليا فيها أحد كبار رجال الجيش البيزنطى ، وهو مانويل الذى سبق أن تولى قيادة الحامية البيزنطية أثناء الدفاع عن الاسكندرية ، ضد حصار عمرو بن العاص لها . وكان هذا القائد منذ غادر الاسكندرية ، بعد اتفاقية الصلح بين المسلمين والروم ، يقدم

الأراء العديدة لشن حملة جديدة ضد المسلمين فى مصر ، وأخيرا قامت هذه الحملة سنة ٥٢٥ / ٦٤٥ م ، وتضم ثلثمائة سفينة ، وتحمل العدد والعتاد الحربى ، فضلا عن خيرة المقاتلين .

وجاء وصول هذه الحملة البيزنطية على الاسكندرية مفاجأة تامة ، حيث سلمت الاسكندرية سريعا ، واتخذها مانويل قاعدة للتوغل فى الأراضى المصرية . وكان السبب فى هذا النصر البيزنطى السريع هو افتقار المسلمين اذ ذاك إلى اساطيل لهم فى البحر المتوسط ، وعدم استطاعتهم بالتالى معرفة حركات الروم البحرية . وتقدمت القوات البيزنطية من الاسكندرية ، حتى كادت تقترب من حصن بابليون . وأفزعت أنباء هذا الهجوم البيزنطى على مصر القيادة العليا فى الحجاز حيث كان يتولى الخلافة اذ ذاك عثمان بن عفان ، واضطرت تحت الحاح المصريين إلى اعادة عمرو بن العاص ، فاتح مصر الأول إلى تولى شئون مصر مرة أخرى . وكان هذا القائد قد عزله الخليفة عمر بن الخطاب عن ولاية مصر ، بسبب خلاف نشب بينهما حول خراج الديار المصرية .

ووصل عمرو بن العاص إلى مصر سريعا ، واستطاع بفضل مساعدة المصريين أن يحول دون تقدم الروم إلى حصن بابليون وأن يهزم قواتهم عند بلدة نيقوس . واضطر مانويل ، قائد الروم إلى الانسحاب سريعا إلى الاسكندرية وتحصن بها ، ونصب المجانيق على أسوارها . ووقف عمرو بن العاص يلقي الحصار مرة أخرى على الاسكندرية ، وقد استبد به الحنق بسبب متانة أسوارها وشدة قذائف المجانيق فى أعلاها . وقد أقسم لئن استولى على تلك المدينة ليهدم أسوارها . ولم يستطع عمرو بن العاص اقتحام المدينة عنوة الا بفضل استمالة أحد حراسها ، وذلك فى سنة ٦٤٦ م ، وأنزل بحامية الروم هزيمة فادحة ، خر فيها القائد البيزنطى مانويل نفسه قتيلًا . وصارت مصر بهذا النصر آمنة من غدر الروم ، قادرة فى الوقت نفسه على أن تكون درع الاسلام وحماية المسلمين ودولتهم الوليدة فى بلاد الشام .

سمات العهد الاسلامى فى مصر :

جاء أول تقرير عن ميلاد مصر الاسلامية فى الرسالة التى بعث بها عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب يصف فيها مصر ، فقال :

« أعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء ، وشجرة خضراء طولها شهر وعرضها عشر ، يكتنفها جبل أغبر ورمل أعفر ، يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ، ميمون الروححات ، تجرى فيه الزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر له أوان ، يدر حلابه ، ويكثر فيه ذبابه ، تمده عيون الأرض وينابيعها ، حتى اذا ما أضلختم عجاجه وتعاطمت أمواجه ، فاض على جانبيه ، فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا فى صغار المراكب ، وخفاف القوارب ، وزوارق كأنهم فى المنخايل ورق الأصائل ، فاذا تكامل فى زيادته ، نكص على عقبه كأول ما بدأ فى جريته ، وطما فى درته ، فعند ذلك تخرج (أهل مصر ١٠٠٠) يحرثون باطن الأرض ويبذرون بها الحب ، يرجون بذلك النماء من الرب ، لغيرهم ما سعوا من كدهم ... فاذا أحدق الزرع وأشرق ، سقاها الندى وغذاه من تحته الثرى ، فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء اذا هى عنبرة سوداء ، فاذا هى زمردة خضراء ، فاذا هى ديباجة قشاء ، فتبارك الله الخالق لما يشاء ، الذى يصلح هذه البلاد وينميها ويقر قاطنيها منها ... »

وبلغ من قوة هذا التقرير عن طلائع العهد الاسلامى بمصر قول الخليفة عمر بن الخطاب حين استلم الرسالة حيث قال : لله درك يا ابن العاص ، لقد وصفت لى خيرا كأنى أشاهده .

ويحمل تقرير عمرو بن العاص حقيقة هامة هى : أن الفتح الاسلامى لمصر وضع حدا لمرحلة طويلة من السيادة الرومانية ثم البيزنطية ، اتسمت بالتشريعات المجحفة بحقوق الأهالى ، وحرمانهم من ممارسة الاشتراك فى ادارة شئون بلادهم (٧) . فقد كفل العهد الاسلامى لأهالى البلاد دستورا محكما يبين مالهم من حقوق وما عليهم من واجبات وبيان العلاقة بينهم فى نفس الوقت وبين رجال الحكم والادارة . وساد هذا الدستور طابع العدالة والمساواة ، وصار اقرار الحقوق والواجبات للحكام والرعية السمة الأولى من سمات العهد الاسلامى فى مصر .

وتجلت معالم هذه السمة الأولى حين انتقلت إلى عمرو بن العاص ، وهو أول
وال على مصر على عهد الخليفة عمر بن الخطاب مهام الحاكم البيزنطى العام ، الذى
كان يعرف باسم « سيمبولوس » فى البلاد . وامتد نفوذ عمرو بن العاص إلى جوانب
ادارية عديدة ، وأخرى اقتضاها الوضع الاسلامى للبلاد فأم الناس فى الصلاة نيابة عن
الخليفة ، وهو أمر كان ينص اذ ذاك على أنه الرئيس الأعلى للبلاد . وجمع عمرو أيضا
إلى جانب السلطان السياسى حق الاشراف على الادارة المالية للبلاد ، وهو أمر بالغ
الأهمية حيث يصبح الوالى الذى يجمع بين امامه الناس فى الصلاة وجمع الخراج ،
صاحب سلطان مطلق ، أى أن ولايته عامة ، على نحو المصطلح الذى أطلقه الفقهاء من
الباحثين فى الشئون الادارية للدولة الاسلامية .

ولكن ظل عمرو بن العاص يرغم هذا السلطان الواسع نموذجاً للأمير المسلم
الخاضع للإدارة المركزية وسلطانها ، الأمين على تنفيذ تعاليمها المباشرة . فقد طلب
الخليفة إلى عمرو بن العاص أن يسترشد بكبار رجال مصر فى ادارته ومعرفة أمثل
السبل للقضاء على رواسب الادارة البيزنطية القديمة فيها . ذلك أن مصر كانت تعاني
الكثير من المتاعب على يد الادارة البيزنطية الباغية ، والتي كان هدفها ابتزاز ثروة
البلاد . فكانت مصر تعاني فى القرن السابق على الفتح الاسلامى مباشرة حالة من
الفوضى ، سببها أن البيزنطيين (الروم) اعتبروا الفلاحين من أهلها مجرد أدوات
لانتاج القمح ، وأن رجال الادارة فيها موكول اليهم فقط ابتزاز الأموال من الرعية دون أن
يكون من مهامهم توفير الرفاهية لها أو تحسين أحوال الناس وتلبية مطالبهم .

وامتثل عمرو بن العاص لأوامر الخليفة عمر ، وسأل بنيامين ، أسقف مصر عن
خير وسيلة لإدارة البلاد وتنظيم أمورها . فأشار بنيامين بما يلي : أن يأتى عمارتها (أى
مصر) وخرابها من وجوه خمسة : أن يستخرج خراجها فى ابان واحد عند فراغ أهلها
من زروعهم ، ويرفع خراجها فى ابان واحد عند فراغ أهلها من عصر كرومهم ، وتحفر
خلاجها وتسد ترعها وجسورها ، ولا تقبل محل أهلها — يريد البغى — فاذا فعل هذا
فيها غمرت ، وان عمل فيها بخلافة « خربت » . وعلق بنيامين على الشرط الأخير

أهمية كبرى ، وهو ألا يختار عامل ظالم ليلى أمور الناس ، لأنه رجل الادارة المسئول عن تنفيذ الشروط الأخرى التى رأى ضرورة توافرها لعمران البلاد .

وسار عمرو بن العاص فعلا على هدى أقوال بنيامين المصرى ، إذ أتاح للأهالى الاشتراك معه فى ادارة البلاد ، وذلك بما يهيئ لهم الافادة من عدالة الادارة الاسلامية ، مع الاحتفاظ فى نفس الوقت بما ألفوه من نظم ادارية فى ظل الدولة البيزنطية . فظلت مصر تنقسم اداريا إلى أقسام تسهل للأهالى عملهم ، وهى الأقسام التى أطلق عليها العرب اسم « الكور » بدلا من الكلمة البيزنطية « باجارشى » . فكانت هذه « الكور » أو الأقاليم الادارية التى اشتملت عليها البلاد أشبه بالمحافظات فى الوقت الحاضر . وكان لكل اقليم حاكم حمل لقب « صاحب الكورة » ومهمته تنظيم العلاقات بين أهالى منطقته والادارة المركزية .

وجاء بعد هذه الطبقة من العمال من أصحاب الكور ، رؤساء القرى ومشايخها الذين عرفتهم الادارة الاسلامية باسم « موازيت » وهى نفس الكلمة اليونانية التى أطلقتها عليهم الادارة البيزنطية ، وتعنى القومة على شئون الحكم المحلى فى القرى . وجرى تنسيق العمل بين الادارة الاسلامية وتلك الادارات المحلية وفق خطة محكمة واشراف دقيق . فكان الموظفون المحليون المتصلون مباشرة بالأهالى يبدأون بدراسة المواضع المطلوبة ، ثم يرفعون الأمر إلى رؤسائهم ، « فيجتمع عرفاء كل قرية ومازوتها ، ورؤساء أهلها فيتناظرون فى العمارة والخراب ، حتى اذا أقرروا الأمر ... انصرفوا إلى الكور ، ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى » ، ويسير الأمر على هذا النحو من التدرج حتى يصل الأمر إلى الوالى .

واستطاع عمرو بن العاص عن طريق هذا النظام الادارى الدقيق أن يبقى على رجال الادارة البيزنطية ويستفيد من خبرتهم ، سواء احتفظوا بألقابهم القديمة أو بما يرادف تلك الألقاب من المسميات العربية . فكان « العريف » فى الادارة الاسلامية الجديدة هو « الكاتب » (Chartularius) فى الادارة البيزنطية ، ويقوم بنفس العمل ، ولا سيما من حيث الاحتفاظ بالسجلات الخاصة بدافعى الضرائب وممتلكاتهم ،

وأرباب المهن ، وهى السجلات التى سبق اعدادها بواسطة « الموازيت » من رؤساء القرى ومشايخها .

وقدم عمرو بن العاص تقريراً عن ولايته مصر بناء على طلب الخليفة عمر ابن الخطاب ، ضمنه وصفاً رائعاً لثرائها ، وما سبق أن أشار به بنيامين من ضرورة الاهتمام بشئون الري فيها وحفر ترعها للنهوض بعمرانها الزراعى . واقتضى هذا النظام الادارى المركزى الذى سارت عليه مصر على عهد الخليفة عمر بن الخطاب قيام هيئة للإشراف على الولاية والعمال ، يمكن أن نسميها على حد المصطلح الشائع فى الوقت الحاضر باسم « الرقابة الادارية » ومهمتها التوجيه والارشاد ، ومنع وقوع الخطأ وفى نفس الوقت توقيع الجزاء الادارى على المخطئ والمنحرف . وتولى الخليفة عمر بن الخطاب بنفسه القيام بهذه المسئولية الجسيمة .

وكانت الخطوات الأولى لهذا النظام الادارى تتجلى فى التوجيهات والارشادات التى أوضحها الخليفة عمر بن الخطاب لولائه ، سواء قبل تعيينهم ، أو فى عهود التعيين التى يمنحها اياهم ، وكذلك فى الكتب التى بعث بها اليهم ، إما دورياً أو من حين إلى آخر حسب المناسبات . واشتملت تلك التوجيهات على جانبين ، أحدهما شخصى يتعلق بمظهر الولاية والعمال ، والثانى عام ينظم العلاقة بين أولئك العمال ورعاياهم . فمن حيث الجانب الشخصى كان الخليفة يشترط على العامل التمسك بالبساطة ، ومن ذلك ألا يركب برذونا ^(٨) ولا يأكل نقياً ولا يلبس رقيقاً ^(٩) ولا يغلق بابه دون حاجات الناس . ثم يقول اللهم اشهد ، ويشهد على العامل رهطاً من كبار رجال الدولة زيادة فى الرقابة والاشراف .

ونص عمر بن الخطاب على الشروط العامة للولاية فى « عهد التعيين » ، يلخصها للعامل فى قوله « انى لم أستعملك على دماء المسلمين ولا على أعراضهم ، ولكن استعملتك لتقيم فيهم الصلاة وتقسم بينهم فيأهم وتحكم فيهم بالعدل » . ودأب الخليفة على اذاعة تلك الشروط على جماهير الناس فى مؤتمرات الحج التى حضرها العمال والوفود العديدة من الولايات حتى يصبح الناس على بينة بالمسئوليات

اللقاء على عاتق العمال ، وليشتركوا بالتالى فى مراقبتهم وكشف أى انحراف يطرأ على سلوكهم . فخطب فى جمع من عماله أمام الناس قائلاً لهم : « ألا وانى لم أبعثكم أمراء ولا جبارين ، ولكن بعثتكم أئمة الهدى يهتدى بكم ، فأدروا على المسلمين حقوقهم ، ولا تضربوهم فتذلوهم ، ولا تعجروهم فتفتنوهم ولا تغلقوا الأبواب دونهم فيأكل قلوبهم ضعيفهم ، ولا تستأثروا عليهم فتظلموهم ولا تجهلوا عليهم » .
ثم قال للناس :

« أيها الناس انى أشهدكم على أمراء الأمصار ، انى لم أبعثهم الا ليفقوا الناس فى دينهم ويقسموا عليهم فيأهم ، ويحكموا بينهم ، فان أشكل عليهم شئ رفعوه » .
واحتتم خطبته موضحاً أنه سيقص من أى وال ينحرف عن الطريق . وكان عمرو بن العاص حاضراً ، فهب قائلاً : يا أمير المؤمنين ، أرايت ان كان رجل من المسلمين واليا على رعيته فأدب بعضهم ، انك تقصه منه ؟ . قال عمر أى والذى نفسى بيده لأقصنه منه ، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه .

وتعرض عمرو بن العاص للتطبيق العملى للرقابة الادارية على يد الخليفة عمر ابن الخطاب نفسه ، وذلك حين استغل محمد بن عمرو بن العاص سلطات والده باعتباره أمير مصر ، وأساء إلى أحد أبناء البلاد . اذ أجرى ابن عمرو ابن العاص فرسه فى سباق مع فرس أحد المصريين . فلما سبقت فرس المصرى غضب ابن عمرو ، وانهاه على المصرى بسوطه وهو يقول : « خذها وأنا ابن الأكرمين » فرجع المصرى شكواه إلى عمر بن الخطاب ، الذى استدعى عمرو بن العاص وابنه ، ثم أعطى المصرى عصاة وقال له اضرب بها ابن الأكرمين . وبعد أن انتهت العقوبة التفت إلى عمرو بن العاص وقال قوله المشهور : « يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » .

وتابع الخليفة ارشاداته لعمرو بن العاص ، فكتب له « كن لرعيتك كما تحب أن يكون لك أميرك ووقع إلى عنك أنك تتكئ فى مجلسك ، فاذا جلست فكن كسائر الناس ولا تتكئ » . وصارت مراسلات عمر بن الخطاب مع ولاته نموذجاً لهذه الرقابة

والمتابعة المستمرة والتوجيه المتواصل ، ضمانا لحسن الادارة وتوفيرا للعدالة للرعية فى كل مكان .

وكان أهم صور الرقابة الادارية على عهد عمر بن الخطاب هو مقاسمة الولاة أموالهم عند انتهاء أعمالهم ، ولا سيما اذا عجزوا عن اثبات مصادر الزيادة على ثروتهم . فكان الخليفة يحصى أموال كل وال قبل مباشرته أعماله ، ثم يفحص ما يطرأ على دخل هذا الولي من حين إلى آخر ، سواء أثناء مدة الولاية أو بعدها . وكان سبب هذا النظام شكوى وصلت الخليفة من أحد الشعراء اتهم فيها العمال فى بلاد الأهواز بمخالفة شروط التعيين واستغلال سلطاتهم فى جمع المال ، فاستدعى الخليفة اليه بعض أولئك العمال وحاسبهم ، على حين أرسل لبعضهم الآخر المسئول عن جهاز الرقابة الادارية وهو محمد بن مسلمة الأنصارى لتقصي حقيقة الأمر .

وكان ممن استدعاهم الخليفة اليه لمقاسمته أبو هريرة ، الذى كان عامله على البحرين ، اذا اجتمعت لأبى هريرة اثنى عشر ألفا قدم بها إلى المدينة . فقال له عمر : يا عدو الله وعدو المسلمين ، سرقت مال الله ؟ فقال أبو هريرة لست بعدو الله والمسلمين ، ولكنى عدو من عاداهما ، ولم أسرق مال الله ، ولكن جاءت تلك الثروة نتيجة خيل لى تناتجت وعطاء مدخرا وسهاما اجتمعت . ولكن الخليفة لم يقبل هذا التعليل ، وقاسم أبا هريرة ماله .

وبعث عمر بن الخطاب عاملة محمد بن مسلمة الأنصارى إلى عمرو بن العاص فى مصر ، حيث سلمه خطابا من الخليفة جاء فيه « أما بعد فانكم معشر العمال قعدتم على عيون الأموال ، فجببتم الحرام ، وقد بعثت اليك محمد بن مسلمة الأنصارى ليقاسمك مالك ، فأحضر مالك والسلام » . وكان محمد بن مسلمة الأنصارى خير ممثل لرجال الرقابة الادارية نزاهة وحرصا شديدا على أداء مهمته . اذ قدم له عمرو بن العاص هدية رفضها ، دون أن يأبه بقول عمرو له : ان الرسول الكريم كان يقبل الهدايا ، وقال له : ان رسول الله (ص) كان يقبل بالوحى ما شاء ويمتنع مما شاء . ولو كانت هدية أخ إلى أخيه قبلتها ، ولكنها هدية أمام شر خلفها . وانتهى الأمر بأن أتم محمد بن

مسلمة الأنصارى مهمته وقاسم عمرو بن العاص ماله .

واستطاع الخليفة عمر بن الخطاب عن طريق « الرقابة الادارية » أن يحقق أمثل سبيل لانتظام العمل وفق النظام الادارى المركزى ، إذ أطلق لعماله الحرية فى ادارة ولاياتهم مع تقييدهم فى المسائل العامة ومراقبتهم فى خلواتهم وحياتهم العامة « وكان علمه بمن نأى عنه من عماله ورعيته كعلمه بمن بات معه فى مهاد واحد وعلى وساد واحد . فلم يكن له فى قطر من الأقطار ولا ناحية من النواحي عامل ولا أمير جيش الا وعليه له عين لا يفارقه ما وجده . فكانت ألفاظ من فى المشرق والمغرب عنده فى كل ممسى ومصبح . وأنت ترى ذلك فى كتبه إلى أعماله وعمالهم حتى كان العامل منهم ليتهم أقرب الناس اليه وأخصهم به » .

ويعتبر التنظيم المالى لمصر فى عهد عمرو بن العاص التطبيق العملى للادارة الاسلامية القائمة على دعوة الاسلام إلى العدالة وتحرير الناس من قيود الطغيان والظلم . ويرجع السبب فى وضوح هذه الصورة المالية عن مصر إلى أحد مؤرخيها وهو ابن عبد الحكم الذى سجل فى كتابه « فتوح مصر » دراسة تفصيلية ودقيقة لمعالم هذا التطور المالى الاسلامى فى وطنه ، مبينا علاقته فى نفس الوقت بالتنظيمات الأخرى التى سادت كلا من العراق والشام على عهد الخليفة عمر بن الخطاب .

وتناول ابن عبد الحكم فى الفصل الرابع من كتابه « فتوح مصر » وصف التنظيم المالى فى عهد كل من عمرو بن العاص وخليفته عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، مع بيان القوى المحركة لذلك التنظيم من فلسفة التشريع الاسلامى وأسلوب تطبيق تلك التشريعات كذلك . واتخذ ابن عبد الحكم من مناقشة موضوع فتح مصر ، هل تم صلحا أم عنوة ، مدخلا لوصفه ، لأنه كان يتوقف على اقرار هذا الوضع — فى فلسفة التشريع الاسلامى — أسس النظام المالى للبلد المفتوح ، وأسلوب معاملة أهله من حيث الضرائب كذلك .

وكانت النافذة التى أطل منها ابن عبد الحكم أثناء دراسته للنظام المالى نافذة مصرية قوامها جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات التى تتعلق بفتح مصر ، وما حاط

بهذا الفتح من ملاسبات توضيح طبيعته، وهل كان صلحا أم عنوة . وجمع ابن عبد الحكم الروايات التى دارت حول هذا الموضوع ، ثم قسمها قسمين : الأول احتوى الروايات التى تبين أن مصر فتحت صلحا ، والثانى اشتمل على الروايات التى تذكر أن مصر فتحت عنوة . واستند رواة القسم الأول على القول بأن حصن بابليون فتح صلحا لا عنوة بمقتضى المفاوضات التى دارت بين عمرو بن العاص والمقوقس . أما الفريق الثانى فحاول أن يبرر أقواله بأنه لم يكن للمصريين عهد .

وجعل ابن عبد الحكم من الأحداث التاريخية سندا لتفسير أسباب هذا الخلاف فى رأى . فأوضح أن المصريين استقبلوا العرب الفاتحين بالترحاب منذ البداية ، « وأنه كان بالاسكندرية أسقف يقال له أبو ميامين (بنيامين) فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص إلى مصر كتب إلى القبط يعلمهم أنه لا تكون للروم دولة وأن ملكهم قد انقطع ، ويأمرهم بتلقى عمرو فيقال أن القبط الذين كانوا بالفرما يومئذ كانوا أعوانا لعمرو » .

وأورد ابن عبد الحكم نصوص صلح بابليون ، الذى صار المصريون بمقتضاه أهل ذمة ، ويؤدون الجزية ، وأن هذه الكلمة كانت تعنى على نحو ما جاء فى سياق نص الصلح « الجزية » و« الخراج » فى نفس الوقت . فأشار إلى العرب والمصريين فى ذلك الصلح قائلا : « فاجتمعوا على عهد بينهم ، واصطلحوا على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط ديناران عن كل نفس ، شريفهم ووضيعهم ، من بلغ الحلم منهم ، ليس على الشيخ الفانى ، ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم ، ولا النساء شئ » .

وعلى أن المسلمين عليهم النزل لجماعتهم اذا نزلوا ، ومن نزل عليهم ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاث أيام مفترضة عليهم .

« وأن لهم أرضهم وأموالهم لا يعرضون لهم فى شئ منها مطلقا » .

« وحصوا عدد القبط يومئذ ، خاصة من بلغ منهم الجزية وفرض الديناران ، رفع ذلك عرفاؤهم بالايمان المؤكدة ، فكان جميع من أحصى يومئذ بمصر ، أعلاها

وأسفلها من جميع القبط ، فيما أحصوا وكتبوا ورفعوا أكثر من ستة آلاف ألف نفس .
فكانت فريضتهم يومئذ اثني عشر ألف ألف دينار فى كل سنة » .

وبدل هذا الرقم ، وهو مبلغ الأثنى عشر مليوناً ، على ما كان يجىء من مصر كلها ، من الأهالى ، سواء ما كان باعتباره جزية رؤوس ، وكذلك ما كان يحصل عن أراضيهم . إذ لو أخذنا بحرفية التعداد الذى ذكره ابن عبد الحكم ، وهو أن من وجبت عليه الجزية من الأنفس هو ستة مليون رجل ، كان ذلك يعنى أن سكان مصر كلها بلغ عند الفتح الاسلامى ثمانى عشرة مليون نسمة ، وهو أمر لا يتفق مع ما أوضحتته السجلات البيزنطية عن أن تعداد مصر بلغ سبعة مليون نسمة . وأوضح ابن عبد الحكم أن التفرقة بين استخدام الجزية والخراج لم يظهر الا فيما بعد ، فى أواخر العصر الأموى ، وإنما شاع الخلط بين الكلمتين ، حيث روى عن ابن سعد قوله : الجزية جزيتان ، جزية على رؤوس الرجال ، وجزية تكون على أهل القرية يؤخذ بها أهل القرية » .

وأتبع عبد الحكم معاهدة الصلح برأى حسم موضوع كيفية فتح مصر وهو أن البلاد عوملت معاملة الأراضي التى فتحت صلحا ، وهى المعاملة التى أقر تشريعها الخليفة عمر بن الخطاب حين رفض تقسيم الأرض على الجند . إذ قام الزبير بن العوام ، وهو أحد قادة جيش مصر وقال لعمر بن العاص : أقسمها يا عمرو (أى الأرض) . فقال عمرو والله لا أقسمها ، قال الزبير : والله لتقسمها ، كما قسم رسول الله (ص) خيبر . وقال عمرو : والله لا أقسمها حتى أكتب إلى أمير المؤمنين . فكتب اليه عمر ، وكان قد استقر رأى « الشورى » على اعتبار الأرض المفتوحة من الفى ، وقفا على المسلمين — قائلا : أقرها ، حتى يغزو منها جبل الحيلة ، (أى حتى يكون للأبناء منها نصيب) .

واقضى هذا التشريع الجديد ، وعدم تقسيم الأرض الاحتفاظ بالنظم المالية القديمة فى مصر مع بث روح العدالة الاسلامية فيها ، شأنها فى ذلك شأن البلاد الأخرى التى فتحتها المسلمون . وأورد ابن عبد الحكم هذا الموضوع فى الوثيقة

التالية :

« ان عمر كتب إلى أمراء الأجناد ألا يضربوا الجزية الا على من جرت عليه المواسى ، وجزيتهم أربعون درهما على أهل الورق (أى الفضة) منهم ، وأربعة دنانير على أهل الذهب ، وعليهم من أرزاق المسلمين من الحنطة والزيت مديان من حنطة ، وثلاثة أقساط من زيت فى كل شهر لكل انسان كان من أهل الشام والجزيرة ، وودك وعسل لا أدرى كم هو . ومن كان من أهل مصر فأردب كل شهر لكل انسان ، ولا أدرى كم من الودك والعسل ، وعليهم من البز والكسوة التى يكسوها أمير المؤمنين الناس ، ويضيفون من نزل عليهم من أهل الاسلام ثلاث ليال . وعلى أهل العراق خمسة عشر صاعا لكل انسانا ، ولا أدرى كم لهم من الودك . وكان لا يضرب الجزية على النساء والصبيان » .

وكانت جباية الجزية فى مصر تختلف من مكان إلى آخر حسب امكانية كل فرد . ذلك أن صاحب اخنا جاء إلى عمرو بن العاص وطلب منه تقرير حد ثابت للجزية ، ليصبح كل فرد ملتزما بها . ولكن عمرو بن العاص رفض ذلك ، مبينا أن هذا التحديد أمر غير عملى ، وأن الأوضاع قد تتغير وأن الوالى صاحب الحق فى تعديل ما على الفرد من جزية حسب مقتضيات تلك الأوضاع . وكان لأبناء مصر قدر كبير من الحرية والمساهمة فى الادارة المالية لبلدهم ، وذلك بما يحقق لهم العدالة والتخلص من مساوئ الاستغلال الذى سبق أن عانوا منه الكثير زمن الروم .

وشرح ابن عبد الحكم هذا التطور الجديد فى النظام المالى لمصر قائلا : « لما استوثق له (أى لعمرو بن العاص) أقر قبطها على جباية الروم . وكانت جبايتهم بالتعديل و اذا عمرت القرية وكثر أهلها زيد عليهم ، وان قل أهلها وخربت نقصوا فيجتمع عرفاء كل قرية ومازوتها فيتناظرون فى العماره والخراب حتى اذا أقروا من القسم بالزيادة ، انصرفوا بذلك القسط إلى الكور ، ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى فوزعوا على احتمال القرى وسعة المزارع . ثم ترجع كل قرية بقسمهم فيجمعون قسمهم وخراج كل قرية من الأرض العامرة فيبذرون ، فيخرجون من الأرض فدادين لكنائسهم

وجماعاتهم ومعدياتهم من جملة الأرض ، ثم يخرج منها عدد الضيافة للمسلمين ونزول السلطان . فاذا فرغوا نظروا إلى ما فى كل قرية من الصناع والأجراء فقسّموا عليهم بقدر احتمالهم فان كانت فيها جالية (أى أهل ذمة) قسّموا عليها بقدر احتمالها ، وقل ما كانت تكون الا الرجل المنتاب ، أو المتزوج ثم ينظرون ما بقى من الخراج فيقسّمونه بينهم على عدد الأرض ثم يقسمون ذلك بين من يريد الزرع معهم على قدر طاقتهم . فان عجز أحد أو شكوا ضعفا عن زرع أرضه زرعوا ما عجز عنه على الاحتمال . وان كان منهم من يريد الزيادة أعطى ما عجز عنه أهل الضعف . فان تشاحوا قسّموا ذلك على عدتهم . وكانت قسمتهم على قراريط الدينار ، أربعة وعشرين قيراطا يقسمون الأرض على ذلك . » .

وسار التنظيم المالى فى مصر على هدى مراعاة مصالح البلاد وأهلها ، وأنه لم يرسل إلى الخلافة فى المدينة الخراج المطلوب الا بعد اقتطاع ما تحتاج اليه البلاد من « حفر خلجها واقامة جسورها وبناء قناطرها وقطع جزائرها » . ثم أن هذا الخراج لم يرسله عمرو بن العاص أيضا الا بعد أن يفرغ الناس من الزراعة وعصر كرومهم ، عملا بنصيحة بنيامين ، أسقف مصر . وأدى هذا النظام المالى الجديد لمصر الاسلامية إلى تباين وجهات النظر بين الخليفة عمر بن الخطاب وبين عمرو بن العاص حول خراج مصر ، ولماذا صار فى العهد الاسلامى أقل مما كان عليه من قبل زمن الروم . ودارت بينهما المراسلات التالية :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص سلام عليك ، فانى أحمد اليك الله الذى لا اله إلا هو . أما بعد . فانى فكرت فى أمرك والذى أنت عليه فاذا أرضك أرض واسعة عريضة ريفية ، وقد أعطى الله أهلها عددا وجلدا وقوة فى بر وبحر .

وأنها قد عالجتها الفراعنة ، وعملوا فيها محكما مع شدة عتوهم وكفرهم ، فعجبت من ذلك . وأعجب مما عجبت أنها لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك ، على غير قحوط ولا جدوب .

ولقد أكثرت في مكاتبتك في الذي على أرضك من الخراج ، وظننت أن ذلك عن غير نزر ، ورجوت أن تفيق فترفع إلى ذلك ، فإذا أنت تأتيني بمعارض تغتالها ولا توافق الذي في نفسي ، ولست قابلا منك دون الذي كنت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك . ولست أدري مع ذلك ما الذي أنفرك من كتابي وقبضك . فلئن كنت مجزئا كافئا صحيحا فان البراءة لنافعة ، وان كنت مضيعا نظفا فان الأمر لعلني غير ما تحدث به نفسك . وقد تركت أن ابتلى ذلك منك في العام الماضي رجاء أن تفيق فترفع إلى ذلك . وقد علمت أنه لم يمنعك من ذلك الا عمالك عمال سوء ، وما توأس عليه وتلقف ، اتخذوك كهفا ، وعندي باذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك عنه . فلا تجزع أبا عبد الله أن يؤخذ منك الحق وتعطاه . فان النهز يخرج الدر ، والحق أبلج ، ودعني وما عنه تلجلج ، فانه قد برح الخفاء والسلام .

وبعث عمرو بن العاص إلى الخليفة بالرد التالي :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص ، سلام عليك ، فاني أحمد الله اليك ، الله الذي لا اله إلا هو ، أما بعد فقد بلغني كتاب أمير المؤمنين في الذي استبطأني فيه من الخراج ، والذي ذكر فيه من عمل الفراعنة قبلي ، واعجابه من خراجها على أيديهم ، ونقص ذلك منها منذ كان الاسلام . ولعمري للخراج يومئذ أوفر وأكثر والأرض أعمر لأنهم كانوا على كفرهم وعتوهم أرغب في عمارة أراضيهم منا منذ كان الاسلام .

« وذكرت أن النهز يخرج الدر فحلبتها حلبا قطع ذلك درها .

« وأكثرت في كتابك وأنبت وعرضت وثررت ، وعلمت أن ذلك عن شيء تخفيه على غير خبر ، فجئت لعمري بالمقطعات المقذعات ، ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق ، وقد عملنا لرسول الله (ص) ولمن بعده . ولكننا بحمد الله مؤدين لأماناتنا ، حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا ، نرى غير ذلك قبيحا ، والعمل به سيئا ، فيعرف ذلك لنا ، ويصدق فيه قبلنا .

« معاذ الله من تلك الطغم ، ومن شر الشيم ، والاجراء على كل مائم . فاقبض عملك ، فان الله قد نزهني عن تلك الطغم الدنية والرغبة فيها ، بعد كتابك الذى لم تستبق فيه عرضا ، ولم تكرم فيه أخا . والله يا ابن الخطاب لأنا حين يراد ذلك منى أشد لنفسي غضبا ، ولها انزاها واکراما . وما عملت من عمل أرى على فيه متعلقا ، ولكن حفظت مالم تحفظ . ولو كنت من يهود يثرب ما زدت ، يغفر الله لك ولنا . وسكت عن أشياء كنت بها عالما ، وكان اللسان بها عنى ذلولا ، ولكن الله أعظم من حقتك مالا يجهل . والسلام . »

واضطر الخليفة عمرو بن الخطاب إلى الرد على رسالة عمرو بن العاص قائلا :
« من عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص ، سلام عليك ، فانى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو أما بعد :

« فقد عجبت من كثرة كتبي اليك فى اباطك بالخراج ، وكتابك إلى بينات الطرق . وقد علمت أنى لست أرضى منك الا بالحق البين . ولم أقدمك على مصر أجعلها لك طعمة ولا لقومك ، ولكم وجهتك لما رجوت من توفير الخراج ، وحسن سياستك .

فاذا أتاك كتابى هذا فاحمل الخراج ، فانما هو فيئ المسلمين ، وعندى من قد تعلم قوم استنظرونى ، قوم محصورون والسلام . »

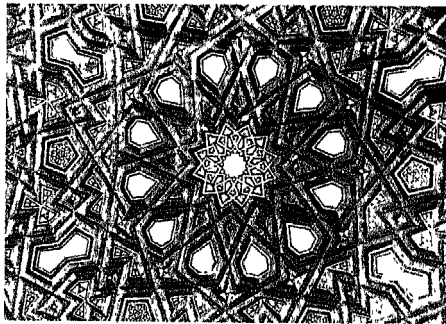
وبعث عمرو بن العاص برد آخر على رسالة الخليفة مؤكدا له عدم تأخره فى الخراج عن عمد ، وانما أحوال البلاد هى التى تحتتم عليه ذلك ، وجاء فى رسالة عمرو ما يلى :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لعمر بن الخطاب من عمرو بن العاص . سلام عليك ، فانى أحمد اليك الله الذى لا اله إلا هو . أما بعد :

« فقد أتانى كتاب أمير المؤمنين يستبطن فى الخراج ، ويزعم أنى أعيد عن الحق ، وأنكب عن الطريق . وأنى والله ما أرغب عن صالح ما تعلم . ولكن أهل الأرض

استنظرونى إلى أن تدرك غلتهم ، فنظرت المسلمين ، فكان الرفق بهم خيرا من أن يخرق بهم ، فيصيروا إلى بيع مالا غنى بهم عنه والسلام .

وتعتبر المراسلات السالفة مقارنة هامة بين وجهتين من وجهات النظر فى التنظيمات المالية فى مصر . أما وجهة نظر الخليفة عمر فتجلت فى اتهامه لعمرو بن العاص باعتماده على عمال السوء الذين حججوا عنه الحقيقة ، وتسببوا بالتالى فى تأخير الخراج . غير أن دفاع عمرو بن العاص استند إلى أحوال البلاد ، مبينا أن السبب فى تأخير الخراج هو انتظار مواعيد فيضان لنيل ، وليس عمال السوء ، وأنه يعلم تمام العلم أسس النهوض بالنظام المالى لولايته^(١١) ، ولاسيما منذ أيام الفراعنة . وكان خراج مصر الذى بعث به عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب هو : اثنى عشر ألف ألف ، على حين بلغ عمر بن الخطاب أن المقوقس جبى خراج مصر قبل عمرو بن العاص مباشرة ، مقداره عشرين ألف ألف .



الفصل الثانى

البناء السياسى لمصر الاسلامية

« ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة »
(عمرو بن العاص : أول ولاة مصر الاسلامية)

أولا : عصر الامارة فى مصر الاسلامية

أسس التكوين السياسى لمصر الاسلامية :

وصف عمرو بن العاص البناء السياسى لمصر الاسلامية قائلا : « ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة » ، وهو قول يعنى أن ولاية مصر تملك من المقومات ما يجعل « أمير البلاد » وهو لقب والى مصر من قبل الخلفاء ، يقف فى قوته على قدم المساواة مع الخليفة نفسه ، وله من الهيبة والمكانة ما للخليفة نفسه أيضا . وظهرت هذه السمة منذ خلافة عثمان بن عفان ، حيث جاء ارتباط مصر اذ ذاك بأحداث الدولة الاسلامية سبيلا أتاح بظهور جيل فيها على درجة طيبة من الثقافة السياسية ، حريص على ارتباط تفكيره السياسى دائما بالقيم الأخلاقية المستمدة من الاسلام ، وجعل تلك القيم دائما المقياس للحكم على كل ما يواجهه من أحداث أو يمر به من تجارب وتطورات .

وكانت العناصر الأساسية للفكر الاسلامى كما التقى بها أهل مصر قد تكامل وجودها منذ عهد الرسول الكريم ، واستقرت فى النواحي الثلاث التالية :

أولا : طبيعة النظام الاجتماعى الذى أقامه الرسول الكريم ، بعد نجاح الدعوة الاسلامية . فقد ظهر مجتمع جديد له قانون واحد ينظم حياته ويرسم لأفراده سبل التضامن ، فضلا عن دعم الوشائج بينهم من الجنس واللغة والدين . واكتسب هذا النظام إلى جانب الركن الدينى للاسلام الطابع السياسى الذى 'يوصف بأنه « دولة » ، وما تتطلبه من قواعد لتحقيق العدالة وجباية الأموال والدفاع عن كيانها . فهذه الأمور كلها تدور حول الفكر السياسى ، وقدرته على الانطلاق فى سبيل حماية « الدولة » أو المجتمع الجديد .

ثانيا : مبدأ حرية التفكير للفرد ، صار الجانب الهام الذى اتاح للنظام الجديد الافادة من جميع الطاقات الكامنة لدى ابنائه والعاملين من قاداته على السير به نحو الطريق السليم . فهذا المبدأ الذى أطلق عليه الفقهاء المسلمون فيها بعد اسم « الاجتهاد » غدا المحرك الأكبر للآراء العديدة التى تميز بها الفكر السياسى للاسلام ، وما تولد عنها من نظريات ومذاهب صاحبت تطور الدولة الاسلامية وأسهمت فى احداثها مساهمات عميقة .

ثالثا : تفويض الأمر للأمة أصبح العنصر الثالث من عناصر الفكر السياسى الاسلامى والضابط له من الشطط والانحراف . فالاسلام لم يضع معتقدات جامدة تحارب الفكر الحر ، وانما هيا لهذا الفكر كافة أسباب النشاط والبحث والانطلاق . وكان لذلك أثر كبير فى عدم تقيد الجماعة الاسلامية بقوانين جامدة قد تعجز عن مواجهة التطورات والملابسات الزمنية . ولكن فى نفس الوقت صار تفويض الأمر للأمة فى أى حدث من الأحداث دون تحديد وجهة نظر مسبقة بمثابة اعتراف بأن ارادة الأمة هى الفيصل الأخير ، وان الرأى العام للجماعة هو صمام الأمن الواقى من شطط « الاجتهاد » .

واستطاعت الدولة الاسلامية أن تجتاز مراحل التطور التى واجهتها فى ظل هذه القواعد الاساسية للفكر الاسلامى ، حين التقت بها مصر فى القرن الأول الهجرى . وتجلت أولى ثمار نجاح هذا الفكر السياسى فى التغلب على المشكلة التى واجهت المجتمع الجديد عقب وفاة الرسول الكريم . فقد استطاعت الأمة على هدى القرآن وسنة الرسول قولا وعملا أن تضع التقنين الدستورى والتطبيق العملى لهذا التقنين من أجل حل المشكلة التى واجهتها بوفاة الرسول الكريم . ثم اتضح التقنين فى انشاء منصب الخلافة الذى يتولى شاغله رعاية التراث الدينى والمدنى ، وذلك بالحفاظ على الدعوة الاسلامية ونشرها ، والاشراف على تماسك المجتمع الجديد فى مجال الدين والدنيا على السواء . وتقرر أيضا أن تتولى الأمة اختيار الخليفة عن طريق الجماعة التى اصطلح الفقهاء على تسميتها باسم « أهل الحل والعقد » .

وظهر مبدأ التطبيق العملى للتقنين الدستورى الجديد فى تقرير حق الرقابة والمناقشة من جانب الأمة . اذ لم ينفرد أهل الحل والعقد باختيار الخلفاء والبت فى الأمور ، وانما اشتركت الأمة معهم فى تصريف الشئون . فلم يصبح مثلا اختيار أهل العقد للخليفة قرارا نهائيا الا بعد أن تعتمد الأمة فى المسجد الجامع فى اليوم التالى ، دلالة على اتمام البيعة العامة . ودعم الخليفة عمر بن الخطاب مبدأ رقابة الأمة واشتراكها فى ادارة شئون الدولة ومسئوليتها فى محاسبة الخليفة . ونظم هذا الخليفة أيضا أسلوب الرقابة الشعبية باختيار عدد من كبار الصحابة ليمثلوا أهل الحل والعقد ، وجعلهم إلى جواره ليستعين بهم فى مواجهة ما يطرأ من أمور جديدة . وكان لذلك أثر عظيم فى حل أخطر مشكلة ظهرت على عهده فى مصر وغيرها من الولايات الاسلامية وهى « توزيع الأرض فى البلاد المفتوحة » على الجند . اذ رفض عمر تقسيم تلك الأرض على الجند باعتبارها غنائم ، وانما استطاع بفضل أهل الحل والعقد أن يجعل تلك الأرض ملكا للدولة ، ويعطى الجند رواتب أى « عطاء » مقابل نصيبهم فى الأرض .

طالب الجند المسلمون بعد فتح أرض السواد بالعراق والشام ثم مصر بتقسيم الأرض فى تلك الجهات بينهم وفق القاعدة الخاصة بغنائم الحروب ، والتى شرحتها الآية الكريمة « وأعلموا انما غنمتم من شئ فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » ، أما الأخماس الأربعة المتبقية فتكون للغنمين . وكتب قادة الجند فى الأمصار بذلك إلى الخليفة عمر بن الخطاب يسألونه الرأى ومنهم سعد بن أبى وقاص الذى كان أول من تلقى هذه المشكلة فى أرض السواد بالعراق .

واستشار الخليفة عمر اصحابه من المهاجرين والأنصار ، وعرض عليهم وجهة نظره القائلة برفض طلب الجند ، لان تقسيم الارض بين الجند يحرم الدولة مصدرا هاما من مصادرها المطلوبة للانفاق على المرافق العامة وحماية البلاد وغيرها من متطلبات التطور الاجتماعى والاقتصادى . وانتهى الأمر باقرار وجهة نظر الخليفة . وتم فى مقابل ذلك تنظيم العطاء تعويضا للجند ، واقرار الديوان ، الذى صار نواة التطور

الإدارى فى الدولة الإسلامية ومن بينها مصر .

واستطاعت الدولة الإسلامية أن تسيّر على هذا النمو السليم طيلة الثلاثين عاما الأولى من حياتها ، منذ السنة الأولى للهجرة حتى العام الثلاثين الهجرى ، أى أواسط خلافة عثمان بن عفان ، فقد أخذت عناصر المجتمع تتغير لأن سلطان المدنية المنورة اتسع من حدود هذه المدينة على عهد الرسول إلى مجال اشتمل على شبه جزيرة العرب كلها والعراق والشام ومصر وأفريقية ببلاد المغرب . إذ تحولت الحكومة الإسلامية من « دولة المدينة » إلى « دولة عالمية » ، وما ارتبط بذلك من ضرورة تغيير أسلوب الحكم وتطوره لمواجهة الظروف الجديدة . وانقسمت الآراء ازاء هذه المشكلة ، شأن الحالة التى تسود دائما المجتمعات المتطورة . فرأى البعض أن « الدولة العالمية » يجب أن تدار بنفس الأسلوب الذى سارت فى ظله « دولة المدينة » ، على حين فرضت حتمية التغيير نفسها على آراء الفريق آخر .

ودار الفكر السياسى فى هذه المرحلة من التطور حول التوافق بين المثل العليا التى أمنت بها الجماعة فى ظل « دولة المدينة » وبين واقع الحياة العملية التى أخذت تسود « الدولة العالمية الإسلامية » . إذ وقع التضارب وانقسمت الجماعة وبدأ التساؤل عن الحل السليم . وكونت كل طائفة من الجماعة آراء خاصة بها ، وضعت لها نظريات ، كما عمدت إلى تنظيم نفسها لتحقيق تلك النظريات وجعلها مطابقة للحياة الواقعية . ولم تلبث تلك الطوائف أن غدت فرقا عديدة ، لها مدارسها الفكرية ومبادئها المعينة التى تسعى وتكافح من أجل اقرارها منهجا للحكم . وزاد من دعم هذه الفرق أنها نظرت إلى مبادئها على أنها عقائد ومثل أخلاقية يجب أن تنفذ ، وتجاهد فى سبيلها بشتى السبل . وغدا الاقتران بين الفكر والتطبيق اقترانا متلازما كوجهى العملة ، والطابع المسيطر على تطور الدولة الإسلامية وانتقالها من عهد الراشدين المثالى إلى عهد الأمويين الواقعى .

التاريخ السياسى لمصر الاسلامىة زمن الدولة الأموىة

دور مصر فى قيام الخلافة الأموىة :

ظهرت طلائع التكوين السياسى لمصر الاسلامىة حين شاركت فى النشاط السياسى للبيت الأموى وصراعه للوصول إلى عرش الخلافة الاسلامىة . وكان هذا النشاط السياسى الأموى قد أخذ صورة واضحة منذ ولى عثمان بن عفان الخلافة أى بعد ثلاثة أعوام فقط من الفتح الاسلامى لمصر . واستهل هذا النشاط الأموى معاوية ابن أبى سفيان والى الشام ، مستغلا قرابته لعثمان بن عفان .

واتخذت الأوضاع على عهد عثمان بن عفان تيارا جديدا اختلف عما كانت تسير عليها أيام أبى بكر وعمر . ولكن تصدى لهذا التيار الجديد الجماعة التى رأت ضرورة التمسك « بحكم دولة المدنية » زمن أبى بكر وعمر ، وما شهدته هذا العهد من عدالة مطلقة ، وبعد عن التعصب للأقارب . وعبر عن هذه الجماعة على بن أبى طالب حين دار بينه وبين الخليفة عثمان نقاش ونقد لاطلاق عمال بنى أمية فى مناصب الدولة الاسلامىة . اذ قال على لعثمان : ان معاوية يقطع الأمور دونك ، وأنت تعلم ، ويقول للناس : هذا أمر عثمان ، فيبلغك ذلك ولا تغير على معاوية » .

وانطلقت بذلك الأزمة التى اشتهرت فى عهد عثمان باسم « الفتنة » ، ويقصد بها المؤرخون انفصام وحدة المسلمين السياسىة واختلاف آرائهم ، وهى الوحدة التى بناها أبو بكر حين قضى على الردة ، ثم دعمها الخليفة عمر بحزمه وعدله . اذ أخذ الناس فى البلاد المفتوحة ينتقدون الخليفة وتصرفاته . وقد صارت مصر مركز الحركة المعادية لعثمان بن عفان ومحاباته لأبناء البيت الأموى حين وفد عليها الرأس المدبرة لتلك الحركة وهو عبد الله بن سبأ ، وكان يهوديا من أهل اليمن ثم أسلم ، واتخذ من ذلك سبيلا ليكيد للاسلام ، وانهز السخط الذى ساد الولايات ضد سياسة عثمان فى محابة أبناء البيت الأموى وأخذ يتنقل بين تلك الولايات ويثير أهلها على الخليفة . وقد اتخذ عبد الله بن سبأ من الدعوة لعلى بن أبى طالب ومناداته أيضا بأحقية بيت

النبي في الخلافة سندا يخفى وراءه أغراضه الخبيثة . فنادى بأراء غريبة على الاسلام قائلاً : بمذهب الوصاية ، بمعنى أن لكل نبي وصي ، وأن علي بن أبي طالب وصي النبي محمد (ص) ، وبما أن محمد خاتم الأنبياء فان عليا خاتم الأوصياء ، أى أن عثمان قد اغتصب الخلافة من وصي رسول الله .

وقد وصل عبد الله بن سبأ إلى مصر بعد ست سنوات فقط من تولى عثمان الخلافة ، وأخذ يتراسل منها مع نفر من الرجال الذين مالوا إلى دعوته فى كل من البصرة ، والكوفة والشام . وكان ممن استجاب لدعوة ابن سبأ فى مصر نفر من كبار أبناء الصحابة ، منهم محمد بن أبى بكر الصديق ، ومحمد بن أبى حذيفة من سلالة عبد شمس بن عبد مناف ، هذا فضلاً عن نفر آخر من رجالات مصر الذين كانوا يعتقدون أن علياً أحق بالخلافة بعد وفاة الرسول الكريم . وساعد على انتشار دعوة ابن سبأ فى مصر انشغال والى البلاد وهو عبد الله بن سعد بن أبى سرح بالفتوح الاسلامية ، التى امتدت من مصر إلى كل من النوبة وافريقية ببلاد المغرب . ولم يدرك الخليفة عثمان بن عفان بذلك خطورة دعوة ابن سبأ فى مصر ، لأنها اتخذت طابع السرية الشديدة .

وظهرت دعوة ابن سبأ جهاراً سنة ٣٥هـ وهو العام الذى عاد فيه عبد الله بن سعد والى مصر منتصراً من وقعة بحرية عظمت فى البحر المتوسط انتصر فيها على أساطيل الروم ، وهى الواقعة التى اشتهرت باسم « ذات الصوارى » . وبعث الخليفة عثمان بن عفان بأحد رجاله وهو عمار بن ياسر إلى مصر ليستطلع حقيقة الأمر فيها ، ولكنه تأثر بدعوة ابن سبأ ، وانضم إليها . وأرسل والى مصر عبد الله بن سعد إلى الخليفة يخبره بما حدث . وعندئذ أمر الخليفة بعقد مؤتمر فى المدينة بالحجاز إستدعى إليه سائر عماله من الولايات الاسلامية لدراسة الموقف . وقد استخلف عبد الله بن سعد على البلاد عقبة بن عامر الجهنى ، ولكن رجال دعوة ابن سبأ ثاروا على هذا الوالى القائم بالأعمال فى مصر ، وأخذوا يعبثون صفوفهم تحت زعامة محمد بن أبى حذيفة .

وكان لعثمان بن عفان والبيت الأموي شيعة في مصر ، اشتهر من رجالها معاوية ابن حديج ، وخارجة بن حذافة ومسلمة بن مخلد وسر بن أبي أرطاه ، وهم من كبار القادة الحربيين والخبراء بشئون الإدارة كذلك . وحاول الخليفة عثمان معالجة الموقف في مصر باتباع سياسة اللين ، حيث أرسل إلى البلاد سعد بن أبي وقاص ، وفوضه إزالة أسباب السخط هناك . ولكن ابن أبي حذيفة تصدى لمندوب الخليفة ، وأثار عليه الناس وحمله على العودة فاشلا إلى الحجاز .وكذلك لم يستطع عبد الله بن سعد والي مصر أن يدخل البلاد عند عودته من الحجاز ، واضطر إلى الذهاب إلى عسقلان حيث ظل بها إلى أن قضى نحبه .

وظهر وسط هذا الموقف الحرج الذي أخذ يطبق على الخليفة عثمان شخصية معاوية بن أبي سفيان والي الشام . فقد استطاع وسط هذه « الفتنة » أن يبلور مفاهيم البيت الأموي ، ويوضح أيضا مسئولية هذا البيت في الدفاع عن الخليفة وعن حقوقه وبالتالي في الخلافة نفسها . وأفصح معاوية عن تلك المفاهيم إلى الخليفة حين وقد عليه سنة ٥٣٤ هـ مع سائر ولاة بني أمية وغيرهم للتشاور في الفلاقل والفتن التي انتشرت في بلاد الدولة . إذ قال معاوية للخليفة بعد انتهاء المؤتمر واتضح الأسباب الحقيقية للسخط : « يا أمير المؤمنين ، انطلق معي إلى الشام قبل أن يهجم عليك من لا قبل لك به ، فإن أهل الشام على الأمر لم يزالوا » .

ورفض عثمان طلب معاوية وأبى مفارقة الحجاز . وعندئذ أعلن معاوية عن مسئولية بني أمية في الدفاع عن عثمان في خطاب ألقاه في جمع من المهاجرين بالمدينة قبل عودته إلى الشام ، فقال لهم : قد علمتم أنه ليس منكم رجل إلا وقد كان قبل الإسلام مغموراً في قومه ... حتى بعث الله رسوله ، فسبقتم إليه ... فسدتم بالسبق لا بغيره .. وسيدوم هذا الأمر ما استقمتم ، فإن تركتم شيخنا هذا (أي عثمان) يموت على فراشه ، وإلا خرج منكم ولا ينفعكم سبقكم وهجرتكم . وكشف معاوية بذلك عن مفهوم جديد ، هو أن بقاء الخلافة في عثمان حق من حقوق البيت الأموي ، وأن الإلتجاء إلى القوة سوف يؤدي إلى رجحان كفة الأمويين لاعتمادهم على أهل الشام .

وكان تلويح معاوية لعثمان بالانتقال إلى لشام ، وبأهمية اعتماد البيت الأموي على هذا الإقليم يمثل مفهوماً جديداً في التطور السياسي الذي شهدته الدولة الإسلامية إذ ذاك . فقد أثبتت الحوادث أن بلاد الحجاز لم تعد المركز الذي تدار منه شؤون الدولة الإسلامية بعد أن اتسعت رقعتها ، إذ هاجرت معظم القبائل الهامة من الحجاز ، وأقامت في المعسكرات التي تحولت إلى مدن زاخرة في الأقاليم المفتوحة ، وفقدت بلاد العرب بذلك مكانتها باعتبارها محور ارتكاز الدولة الإسلامية .

وظهرت صحة رأى معاوية وأبناء البيت الأموي في الوضع السياسي حين وفد الثوار سنة ٦٥٥/٣٥ م من مصر وغيرها من الأمصار الإسلامية إلى المدينة ^(١) المنورة لشد أزر الناقلين فيها على الخليفة . إذ حين حاصر الثوار بيت الخليفة قال لهم مروان ابن الحكم الأموي ، ومستشار عثمان بن عفان : « ما شأنكم ، قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لنهب ! شأهت الوجوه ؟ أجنتم تريدون أن تنتزعوا ملكنا من أيدينا ، ارجعوا إلى منازلكم فإننا والله ما نحن بمغلوبين على ما فى أيدينا » . ولكن الثوار طلبوا من الخليفة أن يعزل نفسه ، فأجابهم عثمان بقوله : « لا أخلع قميصاً ألبسنيه الله » . ولم يلبث أن تطور الأمر إلى اقتحام الثوار لمنزل الخليفة وقتله وهو يقرأ القرآن ، كما تقطعت أصابع زوجته نائلة وهى تدافع عنه .

شيعه البيت الأموي فى مصر :

غدت مصر بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان مركزاً من مراكز القوى الكبرى التى تطلعت إلى اجتذابه الأطراف المتصارعة على منصب الخلافة . وحمل لواء البيت الأموي فى هذا الصراع معاوية بن أبى سفيان والى الشام ، الذى رفض الاعتراف بعلى بن أبى طالب ، الذى بايعه الثوار خليفة بعد مقتل عثمان بن عفان . وكان معاوية قد أصبح يمثل فى الفتنة التى حدثت على عهد عثمان زعيم البيت الأموي والرأس المفكرة المدبرة لأبناء هذ البيت وتطلعهم إلى السيادة العليا فى الدولة الإسلامية . وحين انتهت الفتنة بمقتل عثمان بن عفان تولى معاوية بن أبى سفيان الزعامة السافرة للبيت الأموي فى المطالبة بدم الخليفة المقتول باعتباره من أبناء

ورفض معاوية بن أبى سفيان الامتثال للخليفة الجديد على بن أبى طالب الذى عزل ولاية عثمان جميعاً ومن بينهم معاوية نفسه والى الشام ، إذ نادى معاوية بأنه يجب أولاً المطالبة بدم عثمان ، ثم الاتفاق على خليفة المسلمين وأن الواجب يقضى على الخليفة الجديد ، وهو على بن أبى طالب المبادرة قبل أى شئ بتسليم قتلة عثمان إلى معاوية الممثل الشرعى للبيت الأموى وصاحب الولاية للخليفة القتيلى . وكانت نائلة زوجة عثمان بن عفان قد بعثت بقميص زوجها المقتول ، وأصابعها التى قطعها الثوار من قتلة الخليفة إلى معاوية بن أبى سفيان بالشام لتحرضه على الأخذ بثأر الخليفة . وقد علق معاوية قميص الخليفة وأصابع نائلة على المنبر فى دمشق لتحريض أهل الشام على الأخذ بثأر الخليفة القتيلى .

وكانت الأحوال فى ذلك الوقت تجرى بما يزيد قوة معاوية بن أبى سفيان ودعوته ، وذلك بفضل نشاط أبناء البيت الأموى وشيعتهم فى مصر . فعندما عاد الثوار إلى مصر بعد مقتل عثمان سنة ٥٣٥ هـ بادرت شيعة البيت الأموى إلى التصدى لهم تحت زعامة معاوية بن حديج . وقد أخذت جماعات الأمويين بمصر تتجمع فى الصعيد بعيدا عن بطش واليها ابن أبى حذيفة ورأس الفتنة ضد عثمان . وعجزت قوات والى مصر عن القضاء على تجمعات أنصار البيت الأموى فى الصعيد ، ولقيت هزيمة فادحة عند البهنسا . وسار زعيم البيت الأموى بمصر وهو معاوية بن حديج على رأس قواته التى ازداد عددها إلى الاسكندرية . ونالت قوات الأمويين نصرا على جيش والى مصر مرة أخرى عند خربتنا ، وهى مدينة تقع بالقرب من الاسكندرية ، وذلك فى شهر رمضان سنة ٥٣٦ هـ .

وجرت تلك الأحداث فى مصر فى صالح البيت الأموى دون أن يستطيع الخليفة الجديد ، وهو على بن أبى طالب التصدى لها . إذ كان مشغولا فى نفس العام بأحداث وقعة الجمل التى جرت فى العراق بينه وبين طلحة والزبير والسيدة عائشة . وعلى الرغم من انتصار على بن أبى طالب فى تلك المعركة إلا أنه اضطر إلى البقاء فى

العراق لإعادة تنظيم صفوفه وجيشه. ولذا انتهز معاوية بن أبي سفيان تلك الفرصة وخرج على رأس قواته إلى مصر نفسها لضمها إليه، أملاً في الإفادة من موقعها الاستراتيجي ومواردها الهائلة في الصراع المنتظر بينه وبين علي بن أبي طالب . ووصلت تلك الطلائع الأموية ، وعلى رأسها معاوية نفسه في شهر شوال سنة ٥٣٦هـ إلى « سلمت » من كورة عين شمس .

وتصدى والى مصر وهو ابن أبي حذيفة لمعاوية ومنعه من دخول البلاد . ثم دارت بينهما مفاوضات ظهرت فيها مواهب معاوية في الدهاء . إذ أعلن معاوية أنه حضر إلى مصر ليس فاتحاً ولكن مطالباً بدم عثمان . ورد عليه ابن أبي حذيفة ذاكراً إنه يرفض هذا الإدعاء ، ثم قال لمعاوية : لو طلبت منا جدياً رطب السرة بعثمان ما دفعناه إليك ا . . . وقد تابع معاوية سياسة الدهاء حيث عرض على ابن أبي حذيفة تقديم نفر من الرهائن من قوات مصر حسماً للقتال . وقبل ابن أبي حذيفة عرض معاوية وقدم نفراً من الشخصيات التي اشتركت في مقتل عثمان ، منهم ابن عديس وكنانة بن بشر ، كما خرج بنفسه على رأس تلك الرهائن امعاناً في إبعاد معاوية عن مصر . ولكن معاوية ما كاد يعود برهائه إلى الشام حتى قتلهم انتقاماً مما قاموا به ضد الخليفة عثمان ابن عفان ، وصار بذلك مرهوب الجانب عند أهل مصر برغم عجزه عن دخولها .

وتابع معاوية بعد ذلك سياسته في العمل على ضم مصر إليه ، وإبعاد الخليفة الجديد عن دعم سلطانه بها . إذ حين علم على بن أبي طالب بمقتل ابن أبي حذيفة بعث والياً من قبله جديداً على مصر ، هو قيس بن سعد بن عبادة ، الذي دخل البلاد في ربيع الأول سنة ٥٣٧هـ . وكان الوالى الجديد من دهاء السياسة ، واستطاع بحسن سياسته أن يكسب إليه شيعة البيت الأموي في مصر ، ويحملها على الهدوء باغداق العطايا . ولكن معاوية لجأ هنا إلى المكيدة مرة أخرى ، حيث أفسد ما بين هذا الوالى وبين علي بن أبي طالب نفسه ، فقد روج الشائعات التي تقول إن عطف الوالى على البيت الأموي ليس إلا سياسة منه إقرار بميوله للأمويين واحترامه أيضاً لحقوق البيت الأموي في الخلافة . ونجحت هذه المكيدة حيث شك علي ابن أبي طالب في

إخلاص واليه على مصر وعزله عنها . وقال معاوية حين بلغه هذا النبأ « ما ابتدعت من مكايده قط أعجب إلى من مكايده كدت بها قيس بن سعد حين امتنع منى قيس » .
وتعشرت جهود على بن أبي طالب وأتباعه من العلويين في مصر بعد حادثة المكايده الخاصة بقيس بن سعد . إذ أرسل الخليفة واليا جديدا على مصر هو الأشتر مالك بن الحارث النخعي . ولما وصل هذا الوالي إلى القلزم شرب عسلا مسموما ، ومات لتوه ، وذلك بتدبير معاوية . وحين « أخبر معاوية عمرو بن العاص ^(٢) بما حدث لهذا الوالي قال عمرو متهكما « إن لله جنوداً من عسل » وأرسل على بن أبي طالب واليا آخر إلى مصر هو محمد بن أبي بكر ، الذي دخل البلاد في رمضان سنة ٣٧هـ .
واتبع هذا الوالي سياسة خطيرة منذ اللحظة الأولى لوصوله ، قوامها استفزاز شيعة البيت الأموي في مصر ، دون أن يعمل أولاً على دعم صفوف أتباع البيت العلوي في البلاد . إذ بعث إلى دور شيعة البيت الأموي من قام بهدمها ومصادرة أموالها ، وعندئذ لجأت شيعة البيت الأموي إلى معاوية في دمشق ، وشجعتة على القيام بعمل حربي للاستيلاء على مصر .

وكانت أحوال معاوية بالشام تساعده إذ ذاك على تلبية مطالب شيعة البيت الأموي بمصر . إذ كان قد فرغ من وقعة صفين بينه وبين على بن أبي طالب بقيام التحكيم ، الذي كان بمثابة هدنة بين الفريقين المتحاربين .

وكان أخطر خطأ وقع في اتفاقية التحكيم هو أنها جاءت خلوا من أية إشارة إلى مصر أو النص فيها على عدم قيام معاوية بأي عمل حربي في هذه البلاد . ولذا بادر معاوية إلى الاستعداد للاستيلاء على مصر عملاً بقول عمرو بن العاص له : « أهمك أمر مصر وخراجها الكثير وعدد أهلها فتدعوننا لنشير عليك فيها فاعزم وانهض ، في افتتاحها عرك وعز أصحابك وكبت عدوك » .

وتمت استعدادات معاوية الحربية للاستيلاء على مصر سنة ٣٨هـ ، ونصب على القوات الحربية الأموية أعظم رجاله دهاء وأوسعهم خبرة بمصر وهو عمرو بن العاص ، ووعده إن فتحها أن يجعلها طعمة له مدى سبع سنين . ووصلت قوات عمرو بن العاص

إلى مصر، والتقت بجيش واليها محمد بن أبي بكر عند « المسناة » التي تقع بين عين شمس وأم دنين (شمال القاهرة الحالية) ودارت رحى معركة حامية انتصر فيها عمرو بن العاص ، وتم إلقاء القبض على محمد بن أبي بكر وقتله (وذلك فى شهر صفر سنة ٣٨هـ / ٦٥٨م) .

وغدت مصر منذ سنة ٣٨هـ قوة تشد من أزر البيت الأموى ، وتساند قضاياه . وكانت إجراءات التحكيم بين على بن أبى طالب ومعاوية قد دخلت فى دور التنفيذ ، ولذا غادر عمرو البلاد ليشارك فى تلك الإجراءات ممثلاً لمعاوية ابن أبى سفيان ، على حين كان على بن أبى طالب قد اختار أبا موسى الأشعري ممثلاً له . وقد انتهت إجراءات التحكيم بالخدعة التى أقر فيها أبو موسى خلع على بن أبى طالب من الخلافة ، على حين ثبت عمرو بن العاص شخص معاوية فى الخلافة . وزاد هذا الحدث من قوة البيت الأموى الذى صار يستند إلى دعامتين قويتين هما الشام ومصر ، وأخذ ينظم أمورهما بما يكفل له السيادة العليا فى الدولة الإسلامية . ولم تلبث الأحداث مرة أخرى أن ساعدت هذا البيت الأموى على الفوز حين قام نفر من الخوارج باغتيال على بن أبى طالب سنة ٤١هـ / ٦٦٠م ، اذ تم اعلان معاوية خليفة بعد أن تنازل له الحسن بن على بن أبى طالب عن حقه فى الخلافة ، وصار هذا العام يعرف باسم « عام الجماعة » حيث اجتمعت كلمة المسلمين فيه على خلافة معاوية بن أبى سفيان ، وبدأت بذلك مرحلة هامة من مراحل التاريخ السياسى لمصر الإسلامية كانت فيها موضع أنظار القوى السياسية جميعها فى العصر الأموى .

ولاية مصر الإسلامية فى العصر الأموى

موقف مصر من أحزاب المعارضة للدولة الأموية

شهدت مصر المعترك السياسى الذى واجه البيت الأموى بعد وصوله إلى منصب الخلافة ، ووقفت على أبعاد هذا المعترك وأهدافه . وقاد هذا المعترك ثلاث جماعات هى :

الخوارج : وكانوا أسبق من غيرهم فى نشاطهم وأعنف ضد نظام الخلافة الوراثية . وامتد نشاط الخوارج إلى مصر عقب هزيمتهم فى وقعة النهروان على يد على ابن أبى طالب ، اذ اتفق ثلاثة من الخوارج على قتل على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص — الذى كان قد استرد مصر ووضعها فى خدمة البيت الأموى ، وذلك فى يوم واحد هو السابع عشر من شهر رمضان سنة ٤٠ هـ . وبينما نجح أحد الخوارج وهو عبد الرحمن بن ملجم فى اغتيال على بن أبى طالب فشل الخارجيان الآخران فى اغتيال معاوية وعمرو . وكان السبب فى نجاة عمرو هو عدم خروجه إلى الصلاة فى اليوم المحدد بسبب مرض ألم به ، وانتدب للصلاة خارجه بن حذافة قاضى مصر . ولما علم الخارجى أن الذى قتله هو خارجه صاح « أردت عمرو وأراد الله خارجه » وهو قول ذهب مثلاً .

وكان نجاة عمرو سببا فى قبضه بيد من حديد على البلاد ، وحمل الخوارج فيها على الاختفاء ووأد كل نشاط لهم . وكان هذا العمل سببا فى حماية مصر من عنف الخوارج الذى انفجر ضد الخلافة الأموية .

وقد تجنبت مصر أيضا جميع هذه التيارات العديدة والعنيفة للخوارج طوال العصر الأموى بفضل ولاتها وحزمهم ، واستطاعت أن توجه جهودها نحو بناء الحضارة العربية الإسلامية ، والمساهمة فى حركة الفتوحات فى الميدان الأفريقى .

الشيعة : انطلق نشاط الشيعة إلى مصر نتيجة التطورات التي صاحبت بيت علي ابن أبي طالب في جهاده من أجل الخلافة وقرار نظامها المثالي^(٣) . وكان أهم معالم تلك التطورات اشتراك الحسين بن علي بن أبي طالب مع الساخطين على معاوية بن أبي سفيان لاقراءه مبدأ الوراثة بالبيعة لابنه يزيد ، ثم خروجه أثرا ضد خلافة يزيد . وقد لقي الحسين مصرعه على يد قوات الأمويين عند كربلاء بالقرب من الكوفة في ١٠ محرم سنة ٦١هـ / ١٠ أكتوبر سنة ٦٨٠ م . وصارت هذه الحادثة تمثل نقطة تحول هامة في ظهور فرقة الشيعة ، وتنظيم قوتها المادية والمعنوية لمحاربة « نظام الخلافة الوراثي » للأمويين واشتراكها مع القوى الأخرى المناهضة لهذا النظام^(٤) .

وقد تجنبت مصر أحداث هذا العنف بسبب يقظة ولائها على نحو ما حدث مع الخوارج ، وسارت في طريقها الذي رسمته لنفسها وهو تكريس جهودها لنشر الإسلام في أفريقيا .

ثورة أبناء الصحابة بالحجاز : ظهرت طلائع التحرك السياسي لأبناء الصحابة في مصر ، عقب مقتل الحسين بن علي بن أبي طالب في كربلاء . وكان يتولى قيادة هذا التحرك السياسي في الحجاز عبد الله بن الزبير ، أعظم أبناء الصحابة شأنًا في ذلك الوقت .

وبدأ اعداد ابن الزبير للثورة حين أعلن معارضته ليزيد ، وأبى الامتثال لطلب والى المدينة الأموى بالتوجه إلى دمشق حيث احتفى بالكعبة وسمى نفسه العائد بالبيت .

ووجدت ثورة ابن الزبير في أحداث البيت الأموى نفسه قوة أتاحت لها تهديد « نظام الخلافة الوراثي » للأمويين تهديدا مباشرا وفعالا . فاستغرقت تلك الثورة عهود أربعة من الخلفاء الأمويين هم يزيد بن معاوية ومعاوية الثاني من رجال الفرع السفيناني ، ومروان بن الحكم وعبد الملك ابن مروان من رجال الفرع المرواني . ودخل في النصره لهذه الثورة أيضا العراق ومصر ، فضلا عن الحجاز كما بايع نفر من أهل دمشق والشام ، حيث مقر الأمويين ، عبد الله بن الزبير بالخلافة .

غير أن أبناء البيت الأموي أجمعوا رأيهم في ذى القعدة سنة ٥٦٤ على نقل الخلافة من الفرع السفيناني إلى الفرع المرواني ، حين عهدوا بالخلافة إلى مروان بن الحكم . وقد تولى الخليفة الجديد وأبناؤه من بعده في حماسة وتخطيط رائع تضيق الخناق على ابن الزبير بقص الأجنحة الموالية له أولا ثم فرض الحصار عليه في عقر داره بالحجاز أخيرا . فاستهل مروان بن الحكم أعماله غداة توليه الخلافة بانتزاع مصر من التبعية لابن الزبير ، ثم انتدب خيرة رجاله وقادة دولته ، ومن أشهرهم الحجاج لضرب مصعب بن الزبير الذى تولى أمور العراق نيابة عن أخيه القابع بالحجاز . وأخيرا جاء سقوط الحجاز فى يد الأمويين ثمرة تلقائية لسيطرتهم على كل من مصر والعراق . إذ سارت جيوش الأمويين تحت قيادة الحجاج إلى ابن الزبير ، الذى وجد نفسه بعد فوات الأوان وحيدا فى مكة ، وقد انفض من حوله الأتباع ، واضطر إلى خوض غمار معركة يائسة ، أودى فيها بحياته سنة ٥٧٣ / ٦٩٢ م .

وأخذت مصر بانتهاة ثورة ابن الزبير تتابع سياستها فى دعم كيانها الإسلامى وتوثيق الروابط بينها وبين التطور الجديد الذى ساد الدولة الإسلامية .

التنظيم الإدارى لمصر :

كشف الدور الذى أسهمت به مصر فى قيام الخلافة الأموية وكذلك موقفها من أحزاب المعارضة لتلك الخلافة عن أهمية تلك البلاد فى الحفاظ على استقرار الأمور فى « دار الإسلام » وتشكيل معالمه وأحداثه العظمى أيضا . ومن ثم قامت سياسة معاوية بن أبى سفيان فى مصر على أساسين رئيسيين ، أحدهما خلق إدارة قوية فى البلاد ، والأخرى تنظيم الميزانية المصرية بما يحقق أداء الرسالة الجديدة التى اضطلعت بها مصر فى ظل الدولة الأموية .

ورأى معاوية بن أبى سفيان أن تحقيق أهدافه ، على ضوء تجربته فى مصر يقتضى حسن انتقاء وإعداد الهيئة التى ستتولى الإدارات التنفيذية ومؤسساتها . وجعل معاوية أساس هذه الهيئة ليست الكفاءة فحسب ولكن ضرورة العمل أيضا على أن يكون رجالها من شيعته المخلصين ، أو ممن يربطهم بالبيت الأموي روابط مادية أو

منافع يتطلبها التطور الجديد للدولة . وساعد معاوية على النجاح فى وضع أسس النظام الإدارى اللامركزى ثلاثة عوامل : أولا ، اشتغاله بعد إسلامه مع الرسول الكريم ، وثانيا البيئة ، التى نشأ فيها وترعرع ، وثالثا ، دراسته للتطورات الجديدة التى سادت الدولة الإسلامية منذ نهاية عصر الخلفاء الراشدين .

وتجلى إفادة معاوية من العامل الأول فى تحديد علاقته بالشخصيات التى دفعت أحداث التطور فى الدولة الإسلامية أن يتصل بها سواء فى ميدان المنجبة والصدقة أو العداوة والبغضاء . فكان كثير من الشخصيات التى ناهضت معاوية أو تلك التى استطاع أن يجذبها إلى جانبه من صحابة الرسول ، وممن إلتفت حوله واضطلعت بأداء مشاريعه . ووقف معاوية بالتالى على طبيعة كل شخص من صحابة الرسول ومطامحها ، كما عرف أمثل السبل لاكتسابها إلى جانبه والإستفادة منها فى إعداد النظام الإدارى اللامركزى الجديد للدولة الإسلامية . وكفلت هذه الخطوة لنظام الخلافة الوراثى أن يقترن منذ مطلع نشاطه بالنظام الإدارى اللامركزى ، وأن يتم الإنسجام بينهما بما يحقق للدولة الإسلامية أهدافها فى الداخل والخارج بنجاح باهر وسرعة فائقة ومنقطعة النظر .

وكان للبيئة التى نشأ فيها معاوية أثر كبير أيضاً فى اختيار رجال إدارته اللامركزية عن ثقة ودراسة وعلم راسخ . فهو ابن أبى سفيان ، زعيم مكة ، وأعظم شخصياتها حنكة وتجربة وأوسعها اتصالا وخيرة بالبيوتات الكبرى فى مدن الحجاز وخارجها كذلك . فتلقن معاوية على يد هذا الوالد الخبير أصول الحكم وإدارته كما يفهمه أهل مكة ، ووفق وجهة النظر التى آمن بها أبو سفيان من حيث تكوين الأنصار والأشياء واصطناع الرجال والعمال . ووقع اختيار معاوية على أبناء ثقيف من أهل الطائف لتشكيل إدارته الجديدة . ونبع من بنى ثقيف على عهد معاوية المغيرة بن شعبة الذى تولى « إمرة الكوفة » وزيادة بن أبيه الذى تولى « إمرة البصرة » . إذ حمل هذان الرجلان فى إخلاص عميق ومثالية رائعة لواء النظام الإدارى اللامركزى فى شرق الدولة ، وأسهما مع معاوية فى وضع أسس هذا النظام الجديد وإقراره .

وأخيراً عزز معاوية هذه الطبقة من رجال إدارته بمجموعة اختارها من ذوى التجارب الواسعة ، وكذلك ممن لهم مطامح يمكن استغلالهم عن طريقها لتحقيق أهداف نظامه اللامركزي . ومن ثم ظهرت طبقة جديدة من الرجال (Homines Novi) استفاد منها معاوية لخلق توازن داخل الإدارة اللامركزية والهيئات المختلفة العاملة فيها . وتكونت هذه المجموعة من أبناء الطبقة الوسطى من قريش ، الذين لا يخشى الأمويون منهم بأساً أو وصراً ، وصار من الممكن الاعتماد عليهم فى إدارة المناطق النائية أو الولايات المليئة بأسباب الفتن والقلقل .

ووضع معاوية بن أبى سفيان قاعدتين أخريتين لضمان سير النظام اللامركزي سيراً سليماً ، وللحيلولة دون أى انحراف قد يطرأعلى عماله . وتمثلت القاعدة الأولى فى فصل الإدارة المالية للولاية عن التبعية للأمير ، وجعلها تابعة مباشرة للخلافة فى دمشق . واشتهر رأس تلك الإدارة باسم « صاحب الخراج » الذى صار قوة يعمل أمير الولاية له كل حساب ، ولاسيما أن شئون المال كلها فى يده . غير أن الإلتزام بهذه القاعدة لم يكن مطلقاً ، إذ عهد الأمويون إلى نفر من ولاتهم المشهود لهم بالتفانى والاخلاص التام بإدارة الشئون المالية ، أو تعيين « صاحب الخراج » من قبلهم وصار أولئك الولاة أصحاب سلطان عريض ، وخير نموذج لثقة الأمويين فى سلامة نظامهم الإدارى اللامركزي .

وتمثلت القاعدة الثانية التى وضعها الأمويون فى تعيين عمال إدارة الولايات مهمتهم مراسلة الخلافة مباشرة ، وإحاطتها علماً بكل ما يجرى فى الولاية ، سواء ما يختص بالأمير أو بالأهالى . ولكن هذه القاعدة بدورها لم تكن قيداً على أمراء الولايات وإنما كانت سبيلاً للمشاركة فى التوجيه بما يحفظ لنظامهم الإدارى الاستقرار وتجنب المزالق التى تخفى على الأمراء أنفسهم . إذ ظل الأمويون حريصين على منح أمراء الولايات كل حرية مطلقة ، إيماناً منهم بأن الشاهد أقدر من الخليفة المقيم فى دمشق على إدراك حقيقة الأمور ، وعلى البت والتالى دون إضرار بمصالح الرعية .

واحترم خلفاء بنى أمية هذه الحرية التي تمتع بها أمراء الولايات ولا سيما أولئك الخلفاء الذين عرف عنهم الحرص الشديد على الصالح العام . ومن أمثلة ذلك ما قام به الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي اشتهر لعدالته بأنه خامس الخلفاء الراشدين ، الحريص على إعادة سيرة سمييه عمر بن الخطاب فى إدارة الدولة الإسلامية . إذ ظل هذا الخليفة متمسكا بالقاعدة الأساسية للنظام الإدارى اللامركزى للدولة الأموية ، والتأكيد على حرية الأمراء ، وتوجيه كل منهم إلى العمل مع حرية التصرف ودون الرجوع إليه فى بعض المسائل التي قد يضر تأخير البت فيها بمصالح أهالى ولاياتهم . فكتب الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى عامله على اليمن : أما بعد فانى أكتب إليك أمرك أن ترد على المسلمين مظالمهم ، فتراجعتى ولا تعرف مسافة ما بينى وبينك ، ولا تعرف أحداث الموت حتى لو كتبت إليك أن أردد على مسلم مظلمة شاة لكتبت أردھا عفراء أو سوداء ، فانظر أن ترد على المسلمين مظالمهم ولا تراجعنى . وأكد هذا الخليفة نفس السياسة لسائر ولاته ، حيث كتب إلى عامله على الكوفة « إنه يخيل إلى أنى لو كتبت إليك أن تعطى رجلا شاة لكتبت إلى أضأن أم ماعز ، فإن كتبت بأحدهما كتبت إلى أصغير أم كبير ، فإن كتبت إليك ، كتبت إلى أذكر أم أثنى . فإذا أتاك كتابى هذا فى مظلمة فاعمل به ولا تراجعنى (٥) .

وعرف فقهاء المسلمين هذا اللون من الإدارة اللامركزية للولايات بأنها « إمارة استكفاء » وهى « التي يعقدها الخليفة لمن يختاره من رجاله الأكفاء مفوضين إليهم إمارة الإقليم على جمع أهله ، ويجعله عام النظر فى كل أموره . فصارت إمارة الاستكفاء لون من الإمتياز يختص به الخليفة الرجال ذوى القدرة العظيمة أو أصحاب الفضل الكبير على الدولة . فكان الخليفة يولى الفرد منهم ولاية كاملة على ناحية يعينها أو على بضع نواحى ، أى كان يستكفى بهذا نفر عمن عداهم ويدهم السلطات كلها على ما أيديهم ، فهم مسئولون عن الأموال والقضاء وإمامة الناس » .

ادارة مصر :

واقضى الحكم اللامركزى إعادة التقسيم الإدارى للدولة بما يحقق للأموين

السيطرة الفعلية على أزمة الأمور، وتوجيهها فى نفس الوقت إلى ما يكفل لسلطانهم الهيبة والاحترام فى كل مكان . وجاء هذا التقسيم إستجابة لمظاهر التطور الذى ساد بلاد الدولة الإسلامية منذ « الفتنة » على عهد الخليفة عثمان ، وما صاحب هذا التطور من تباين المشارب والأهواء . ثم إن الفتوحات التى قام بها الأمويون فى المشرق والمغرب أضافت إلى الدولة الإسلامية أرجاء شاسعة كان لابد من تنظيمها بما يحقق لها الإنسجام الإدارى مع الدولة الشاسعة .

وقسم الأمويون دولتهم إلى ست ولايات كبرى ، جاءت متفقة مع مزاج أهالى تلك الولايات نحو الحكم المحلى ، وما سيطر عليهم من نزعات واتجاهات . ثم انتقى الأمويون لكل ولاية الأمير الذى يصلح لها ، مع مراعاة الأسس التى سبق أن تقررت منذ خلافة معاوية بن أبى سفيان . وجرت إدارة مصر على النحو التالى :

تكونت مصر من نفس المقاطعات التى حافظ عليها العرب المسلمون عند فتح البلاد ، التى أطلقوا عليها اسم « الكور » بدلا من الإسم البيزنطى القديم وهو « بجارشى » . وأولى الأمويون مصر عناية فائقة بعد أن تبين لهم أهميتها أثناء الصراع بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان ، وقدرة تلك البلاد ، بسبب موقعها الفريد ومواردها الوفيرة على أن ترجح كفة من يسيطر عليها . واستطاع معاوية أثناء سعيه للحصول على الخلافة إنتزاع مصر من التبعية لعلى بن أبى طالب بفضل مهارة عمرو ابن العاص وذلك سنة ٥٣٨هـ ، ثم استفاد منها فى تحقيق النصر النهائى له .

وفرضت أهمية مصر على الأمويين إختيار أمرائها من طبقتين مميزتين ، الأولى من أصحاب الولاء التام للبيت الأموى مع القدرة العالية على التصرف السياسى والتنظيم ؛ والثانية من أبناء البيت الأموى ، ومن أصحاب القربى المباشرة للخلفاء أنفسهم . فكان من أمراء مصر زمن الفرع السفينانى عمرو بن العاص صاحب اليد الطولى على معاوية أثناء التحكيم ، والقائد الذى ضم مصر إلى قبضة الأمويين . وقد خلف عمرو على تلك البلاد عتبة بن أبى سفيان ، أخو الخليفة معاوية نفسه . وسار الفرع المروانى على نهج الفرع السفينانى فى انتقاء أمراء مصر ، حيث اشتهر منهم عبد

العزیز ابن مروان ، وهو ابن الخليفة مروان بن الحكم وأخو الخليفة عبد الملك بن مروان ، ثم قرّة بن شريك الذي ولاه الوليد بن عبد الملك على مصر .

وحکم عمرو بن العاص مصر جریاً على أسس النظام الإداری اللامركزی حکماً مطلقاً حيث منحها له معاوية بن أبى سفيان ، على نحو ما أوضحته المراجع « طعمة » أى يستأثر وحده بخراجها بعد سداد الإلتزامات التى تتطلبها الولاية من نفقات الجند والعمال والمرافق العامة . وظل عمرو بن العاص صاحب السلطان الأعلى فى البلاد منذ سنة ٥٤١هـ ، وعمل طوالها على تنظيم أحوالها بما عرف عنه من خبرة عميقة وسابقة بثئون البلاد ، وتدعيم سلطان البيت الأموى فى سائر أرجائها . وازدهرت مصر فى تلك الحقبة من تاريخها ، واستطاعت أن تصبح قاعدة للفتوح الإسلامية فى ميدان شمال إفريقيا ، وظل عمرو بن العاص يحكم مصر دون منازع حتى توفى سنة ٥٤٣هـ .

ونصب معاوية بن أبى سفيان على ولاية مصر أخاه عتبة بن أبى سفيان ، وهو من المشهود لهم بالكفاءة العالية فى الميدان السياسى والإدارى ، وهى المؤهلات التى اشتهر بها معاوية بن أبى سفيان نفسه . واستطاع هذا الوالى استكمال سياسة عمرو بن العاص فى القضاء على رواسب الفتن التى سبق أن تجمعت فى مصر منذ مقتل عثمان بن عفان ضد البيت الأموى ، وفرض النظام التام على البلاد . وسجلت المراجع سياسة هذا الوالى الإدارية فى مجموعة من الخطب^(٧) ذات الأسلوب الناصع البليغ ، الملىء بالحزم المقترن فى نفس الوقت بالشدة فى غير ضعف أو لين .

وتابع أمراء مصر من عمال الفرع المروانى إدارة البلاد وفق قواعد النظام اللامركزى وأهدافه أيضاً الخاصة بإقرار الأحوال ، والإفادة من هذه الولاية العظمى فى دعم سلطان البيت الأموى . وتجلّى ذلك حين تقلد رأس الفرع المروانى ، وهو مروان ابن الحكم الخلافة سنة ٥٦٤ / ٦٨٤ م . إذ سار بنفسه على رأس جيش لاسترداد مصر من أنصار ابن الزبير^(٧) . وكان على مقدمة هذا الجيش ابنه عبد العزيز بن مروان الذى أثبت مهارة حربية عالية هيأت له النصر ، والسيطرة على البلاد فى جمادى الأولى سنة ٥٦٥هـ وبعد أن أقام مروان بن الحكم فى مصر شهرين غادرها فى رجب سنة ٥٦٥هـ ، مولياً

ابنه عبد العزيز عليها .

ونقل مروان بن الحكم لابنه « أمير » مصر خبراته فى ميدان الإدارة حين هم بمغادرة البلاد . إذ قال له ابنه : يا أمير المؤمنين كيف المقام فى بلد ليس به أحد من بنى أبى ؟ ، فنصحه مروان قائلاً : « يا بنى عمهم بإحسانك يكونوا كلهم بنى أبىك واجعل وجهك طلقاً تصف لك مودتهم ، وأوقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره ، يكن عيناً لك على غيره ، وينقاد قومه إليك . وقد جعلت معك أخاك بشراً مؤنساً ، وجعلت لك موسى بن نصير وزيراً ومشيراً ، وما عليك يا بنى أن تكون أميراً بأقصى الأرض ، أليس ذلك أحسن من إغلاق بابك وخمولك فى منزلك » ؟

وتصرف عبد العزيز بن مروان فى ولايته تصرفاً مطلقاً ، وكرس مواردها المالية لدعم إدارته وللنهوض بمستوى المرافق العامة فيها أيضاً . وكان من مظاهر إدارته السديدة العناية بوسائل الرى ، وتوفير الأسواق والحمامات ، وإقامة القناطر ، وأخيراً تعمير حلوان سنة ٧٣هـ واتخاذها مقراً له بعد أن أصيب بمرض الجذام . وبلغت إمارة عبد العزيز بن مروان عشرين سنة وعشرة أشهر وثلاثة عشر يوماً ، وهى فترة تشهد بقوة النظام الإدارى اللامركزى للدولة الأموية ، وعظمة العاملين فى مؤسساته ، إذ توفى عبد العزيز بن مروان وهو على ولاية مصر سنة ٨٦هـ .

وتعتبر ولاية قره بن شريك على مصر سنة ٩٠هـ / ٧٠٩م نموذجاً لسياسة الأمويين فى اختيار أمراء مصر من بين الشخصيات المشهود لها بالولاء مع الكفاءة الإدارية العالية . إذ كان على شئون مصر قبل قره بن شريك عبد الله بن عبد الملك (٨٩هـ / ٧٠٨م) ، وهو ابن الخليفة عبد الملك بن مروان . وكان هذا « الأمير » مزوداً بتعليمات أوضحها له أبوه حين عهد إليه بولاية مصر ، قائلاً : « أنظر — أى بنى — إلى أهل عملك ، فإن كان لهم عندك حق غدوة فلا تؤخره إلى عشية ، وإن كان عشية فلا تؤخره إلى غدوة . وأعظمهم حقوقهم عند محلها ، تستوجب بذلك الطاعة منهم . وإياك أن يظهر لرعيك منك كذب ، فإنهم إن ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك فى الحق .

واستشر جلساءك وأهل العلم فإن لم يستبن لك فاكتب إلى يأتيك رأيي فيه إن شاء الله. وإن كان بك غضب من رعبتك فلا تأخذه به عند سورة الغضب ، واحبس عقوبتك حتى يسكن غضبك . ثم انظر إلى أهل الحسب والدين والمروءة ، فليكونوا أصحابك وجلساءك . ثم ارفع منازلهم منك على غيرهم . أقول هذا ، واستحلف الله عليك . »

وعجز عبد الله بن عبد الملك عن تنفيذ هذه الوصية حتى ساءت سيرته . ولذا اضطر الخليفة الوليد بن عبد الملك أن يعزل هذا الوالي برغم صلة القربى المباشرة معه ، وعين على مصر قرّة بن شريك ، الذي أثبتت الوثائق علو كعبه في ميدان الإدارة مع الإخلاص التام للبيت الأموي . ذلك أن مجموعة من وثائق البردي^(٨) اكتشفت في قرية كوم اشقاو ، التي اشتهرت في العصر البيزنطي باسم أفروديتو ، واشتملت على معلومات قيمة عن إدارة قرّة بن شريك لمصر ، ودحضت كثيراً من الدعاوى الباطلة التي حاولت بعض المراجع ترويجها عن هذا « الأمير » الأموي .

وتناولت وثائق البردي في تفصيل دقيق ادارة قرّة بن شريك من حيث أسلوبه في إسناد المناصب ومراقبته العمال والإشراف على الشؤون المالية لولايته ، وكذلك عن نظام المساهمات التي قدمتها مصر في ميدان الفتوح الحربية ، البرية والبحرية في سبيل إعلاء كلمة الإسلام ونشر رايته . واشتملت وثائق البردي على مراسلات دارت بين قرّة بن شريك وصاحب كورة إشقاو ، صارت نموذجاً للإدارة اللامركزية في مصر ، وعلاقتها بالخلافة في دمشق في نفس الوقت . فأوضحت تلك الوثائق امتداد سلطان قرّة بن شريك المطلق على سائر أرجاء البلاد ، ويقظته في مراقبة عماله . ففي إحدى وثائق البردي نص كتاب أرسله قرّة إلى صاحب كورة اشقاو يطلب منه إرسال كشف بالأماكن المختلفة لمعرفة عدد الرجال فيها ، والمقدار المفروض عليهم من الجزية ونوع الأعمال التي يجيدونها ، مع التأكيد على صاحب الكورة في نفس الوقت بألا يظلم أحداً أو يدع مجالاً للشكوى من أعماله . ويختتم كتابه بأنه مصمم على مكافأة المحسن ومعاقبة المنحرف عن جادة الصواب .

وكشفت أوراق البردى عن قوة الصلة بين « الأمير » فى الفسطاط وبين رجال إدارته فى سائر أرجاء البلاد ، وسرعة إصدار الأوامر ، وسرعة تلبيتها فى نفس الوقت . فى كتاب بعث به قره إلى صاحب كورة أشقاو يخبره بأن عامل البريد أبلغه وقوع غرامة مجحفة على الأهالى ويطلب منه رد المظالم دون إبطاء . وبلغت المراقبة الإدارية أعظم صورها فى تدخل « الأمير » فى تقدير أجور العمال والصناع حرصاً على العدالة وتحقيق فرص المساواة أمام الجميع . وكان لدى قره بن شريك مجموعة كبيرة من « الكتاب » تحرر له الرسائل إلى جميع العمال ، ويوقع كل كاتب فى نهاية الرسالة حتى يسهل مراجعة المواضيع والقضايا التى تتناولها . وظل قره يدير الولاية بهذا الأسلوب القدير حتى توفى سنة ٩٦٦هـ تاركاً عن طريق أوراق البردى أعظم النماذج عن قوة النظام الإدارى فى مصر .

(ب) الادارة المالية :

سارت معالم النظام المالى لمصر زمن الأمويين خطوة خطوة مع طبيعة النظام الإدارى اللامركزى وشخصية « أمراء مصر » . إذ جعل معاوية بن أبى سفيان بعد أن صار خليفة ولاية مصر « طعمة » لعمر بن العاص ، بعد أن يدفع عطاء الجند ونفقات المرافق العامة فى البلاد . وقام عمرو بن العاص بتدوين الديوان ، أى تسجيل المستحقين للعطاء ، وهو أول تدوين بمصر فى ذلك العهد . وقد حاول معاوية بن أبى سفيان أن يفرض على ولاية مصر زيادة فى الخراج ، ولكن عمرو بن العاص رفض إرسال شئ إلى دمشق ، لأن فى ذلك إخلال بما سبق الإنفاق عليه ، وهى أن تكون مصر « طعمة » له ، أى يكون خراجها له ولآل بيته .

وظل النظام المالى لمصر بعد وفاة عمرو بن العاص سنة ٤٣هـ يسير على نفس المعالم الخاصة بالإدارة اللامركزية . إذ حاول الخليفة معاوية أن يفصل إدارة الخراج عن والى مصر الجديد وهو أخوه عتبة بن أبى سفيان ، وجعل شخصاً اسمه وردان صاحب تلك الإدارة . ولكن سرعان ما اضطر الخليفة إلى العدول عن ذلك الإجراء . إذ حدث أن خرج والى مصر ، على رأس وفد من أهل البلاد لزيارة الخليفة فى دمشق ،

وعندما سأل معاوية رجال الوفد عن واليهم قالوا له : « حوت بحريا أمير المؤمنين على بر » . فقال معاوية لأخيه عتبة ، اسمع ما تقوله فيك رعيتك ، فقال : صدقوا يا أمير المؤمنين ، حجبتنى عن الخراج ، ولهم على حقوق ، وأكره أن أجلس فأسال ، فلا أفعل . فضم إليه معاوية الخراج .

وكان السبب الحقيقى فى هذا التعديل هو أن معاوية كان قد طلب من وردان أن يزيد على كل رجل من المصريين « قيراطا » ، ولكن هذا العامل أبى ، وكتب إلى معاوية : كيف تزيد عليهم وفى عهدهم ألا يزداد عليهم شئ » . ومن ثم عزل معاوية وردان وعين أخاه عتبة بدلا منه . وكان معاوية فى حاجة ملحة إلى زيادة المال ليستطيع تلبية مطالب أنصاره وأعوانه العديدين ، وبخاصة فى مصر ، ذلك أن المسجلين فى ديوان مصر على عهد معاوية قد زاد عددهم ، حيث ارتفع من ستة عشر ألفا على عهد عمرو بن العاص إلى أربعين ألفا على عهد خلافة معاوية ، واضطر الخليفة معاوية أن يعين رجلا لتسجيل تلك الزيادة التى تطرأ على القبائل فى مصر يوما بيوم تحديداً للعطاء . وكان هذا العامل « يصبح كل يوم ، فيدور على المجالس ، هل ولد فيكم مولود ، وهل نزل بكم نازل . فقال : ولد لفلان غلام ، ولفلان جارية ، فيقول : سموهم ، فيكتب . ويقال : نزل بها رجل من أهل اليمن بعياله فيسمونه وعياله . فإذا فرغ من القبائل كلها أتى الديوان » .

وانفرد ديوان مصر على عهد الأمويين بكثرة الأشخاص الذين يأخذون عطاء ممتازا ، حيث بلغ عددهم عشر المسجلين فى ذلك الديوان ، وهو أمر لم يحدث مثله فى دواوين الولايات الأخرى . فكان الديوان « فى زمان معاوية أربعين ألفا ، وكان منهم أربعة آلاف فى مائتين (أى ينال مائتى دينار ، وهى العملة المصرية) . وظل أمراء مصر يشرفون على الإدارة المالية إلى جانب مهامهم الأخرى للنهوض بتلك الأعباء المالية ، وذلك على نحو ما حدث فى ولاية مسلمة بن مخلد ، الذى جمع له معاوية « الصلاة والخراج » على مصر من سنة ٤٧هـ ، إلى ٦٢هـ ، وهى مدة طويلة بلغت خمس عشرة سنة تقريبا . ولم يستطع هذا الوالى أن يبعث إلى دمشق نتيجة كثرة المصروفات

فى مصر إلابالقليل من الخراج الذى بلغ ستمائة ألف دينار فقط . إذ « أعطى مسلمة ابن مخلد الانصارى ، أمير مصر ، أهل الديوان أعطيائهم ، وأعطيات عيالهم ، وبأرزاقهم ونوائبهم ، ونوائب البلاد من الجسور وأرزاق الكتبة ، وحملان القمح إلى الحجاز ، وبعث إلى معاوية ستمائة ألف دينار فضلاً » .

واتضحت معالم النظام المالى لمصر زمن الأمويين على عهد ولاية قره بن شريك على البلاد (٩٠ - ٩٦ هـ) ، إذ كشفت أوراق بردى كوم إشقاو عن نظام الجزية والخراج فى مصر وغيرها من الضرائب التى كانت تجبى من الأهالى ، وذلك فى دقة تامة وإحصاء شامل . وكانت مصر تدفع الجزية حسب مقدرة أهاليها ، ووفق ما سبق أن تقرر على عهد الخليفة عمر بن الخطاب . إذ تشتمل إحدى أوراق البردى على أمر صادر من قره بن شريك إلى صاحب كورة إشقاو يطلب فيه إرسال كشف بالأماكن المختلفه فى كورته ، وعدد من بها من الرجال والجزية المفروضة على كل منهم ، ومساحة الأرض التى يملكها كل فرد أيضاً . إذ يحمل تحديد المساحة معنى التفاوت فى تقدير الجزية ، وذلك دفعاً لأى شكوى ، وسوء فى التقدير وإجحاف بالأهالى . وكانت الجزية كما تدل على ذلك أوراق البردى تدفع نقداً ، على حين يدفع الخراج عيناً ونقداً . وأطلق العرب على الضرائب العينية اسم « ضريبة الطعام » وهى مرادفة للكلمة اليونانية على عهد الروم « أمبوليه » . واشتملت هذه الضريبة غالباً على القمح ، فضلاً عن مقادير من الزيت والعسل وأنواع أخرى من الأطعمة . أما الخراج فكان يقدر حسب مساحة الأرض ، ويراعى فى تحصيل مقاديره نظام الزراعة وفيضان النيل ووفرة المحصول . إذ ظل النظام المالى الإسلامى فى مصر هو النظام المالى المميزنطى ، مع تحقيق روح العدالة الإسلامية . إذ دأب قره بن شريك فى أوامره التى اشتملت عليها أوراق البردى على تحذير عماله من التمادى أو الشطط فى جباية الضرائب .

وظل تقدير الجزية والخراج على كل كورة يسير على نفس الأسلوب الذى جرت عليه الإدارة المالية زمن عمرو بن العاص . إذ تحمل إحدى أوراق البردى تعليمات من

قرة بن شريك إلى صاحب كورة اشقاو تأمره بأن يجمع رؤساء كل قرية وأصحاب النفوذ فيها ليختاروا رجالا أمناء أكفاء يتولون تقدير الضرائب المطلوبة على كل قرية ، وذلك تحت إشراف صاحب الكور نفسه . ثم يرسل صاحب الكورة نسخة من تلك الكشوف بعد الاحتفاظ بصورة منها لديه . وطلب قرة من صاحب الكورة أن يكتب أسماء الذين أعدوا تلك الكشوف وألقابهم ومحل إقامتهم لمراجعته من أى خطأ قد يقع أو سوء تقدير قد يتضح ، وأن أمير البلاد سوف يعاقب هؤلاء الذين يحملون القرى ضرائب أكثر مما تتحملها مواردنا (٩) .

وكانت هناك ضرائب أخرى تجبى من مصر إلى جانب الجزية والخراج ، وأهمها الضرائب على الصناعات والأجراء ، وكانت تقدر بدورها حسب احتمال كل فرد منهم . وسجلت أوراق البردى نظام الخدمات والضرائب التى قدمها أولئك الصناع والأجراء من أجل بناء البحرية المصرية ، ومساهمتها فى النشاط البحرى الإسلامى . وصاحب هذه الضرائب الجماعية نوع آخر من الالتزامات الجماعية التى قدمتها كل قرية حسب ما تخصصت فيه من أنواع الإنتاج ، أو ما كان يفرض عليها من عمل عام . واشتهرت هذه الضرائب الجماعية باسم « اليتورجيا » وهو الإسم اليونانى القديم . ولكن كان أصحاب هذه الالتزامات يعفون فى ظل النظام الإسلامى من تقديم الضرائب الأخرى مقابل أدائهم ذلك الالتزام ، إذ حرصت السلطات الإسلاميه على العدالة فى تطبيق النظام المالى ، وهو ما أيدته أوراق البردى التى ترجع إلى عهد قرة بن شريك وإشرافه على إدارة مصر وشئونها .

وظلت مصر طوال العصر الأموى تقوم بفضل نظامها المالى بالاكتماء الذاتى فى الإنفاق على مرافقها ، فضلا عما أسهمت به فى ميادين النشاط الأخرى العامة للدولة الأموية . وكانت الزيادة فى الموارد المالية تتم وفق تعداد دقيق ومسح شامل . ومن أهم تلك النماذج للنظام المالى الأموى فى مصر ما قام به عامل الخراج على مصر وهو عبد الله بن الحبحاب زمن الخليفة هشام بن عبد الملك . إذ قام هذا العامل بإحصاء الناس والبهائم وإعادة مساحة الأراضى الزراعية والبور ، كما وضع علامات للمسافات فى

الحقول . ثم كتب إلى الخليفة بعد ذلك أن أرض مصر تحتل الزيادة ، وزاد على كل دينار قيراطا .

وكان الولاة فى مصر يخرجون بأنفسهم لمسح البلاد عند إعادة النظر فى تقدير الخراج ، ومن ذلك ما حدث على عهد ولاية الوليد بن رفاعة من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك أيضا . إذ خرج هذا الوالى ومعه جماعة من الكتاب والأعوان لمسح البلاد ، حيث أقام فى الصعيد ستة أشهر بلغ فى نهايتها أسوان ، كما أقام بالوجه البحرى ثلاثة أشهر . وتم إحصاء أكثر من عشرة آلاف قرية وتعداد ما بها من السكان . وكان أصغر قرية منها تشتمل على خمسمائة رجل ممن يخضعون لضريبة الجزية .

وكان معظم موظفى عمال الإدارة المالية زمن الأمويين فى مصر من الأقباط ، وأشرف بعضهم على فروع ديوان الخوارج فى الأقاليم ، حيث اشتهر صاحب هذا الديوان الفرعى بنفس الإسم البيزنطى القديم وهو « جسطال » . وتولت هذه الدواوين الفرعية إرسال الضرائب النقدية والعينية إلى الديوان الرئيسى فى الفسطاط عاصمة الولاية . واتسم النظام المالى الإسلامى فى مصر بالدقة ومراعاة أحوال البلاد أيضا . فكان كل فرد يتسلم بعد أداء الضريبة إيصالا اشتهر فى أوراق البردى باسم « براءة » . واتبع العرب عند جباية الخراج من مصر تحويل السنة الخراجية القبطية إلى السنة الهلالية القمرية ، وذلك عن طريق اتباع نظام « الازدلاق » ، ومعناه إسقاط سنة عند رأس كل اثنين وثلاثين سنة قمرية ، وذلك على أساس أن لكل ثلاث وثلاثين سنة قمرية اثنين وثلاثين سنة شمسية تقريبا .

وغدت الإدارة فى مصر عنصرا هاما فى بناء مصر ليس سياسيا فحسب ، بل واجتماعيا كذلك ، وهو الأمر الذى ظهر جليا فى نهاية العصر الأموى .

دور مصر فى قيام الخلافة العباسية :

كان العصر الأموى عهد تحول كبير فى النظام الاجتماعى فى مصر وسائر أمصار الدولة الإسلامية ، بما يهئ سيادة المواطنة الكاملة فى ظل التعاليم الإسلامية

السامية . وتجلت أولى معالم هذا التحول الاجتماعى فى تخلى القبائل العربية عن كثير من مفاهيم البداوة ، وبخاصة التى تحتقر بعض المهن ، ونزول أفرادها إلى ميدان الأشتغال بالزراعة التى كانت محرمة عليهم من قبل .

وصاحب استيطان القبائل العربية واشتغالها بالزراعة تحول اجتماعى آخر كبير بين أبناء مصر وغيرها من ولايات الدولة الإسلامية من غير العرب ، اتخذت ظاهرة الهجرة من الريف إلى المدن . واتخذت هذه الظاهرة الجديدة طابع الأقبال أولا على اعتناق الاسلام من بين سكان الولايات الجديدة سواء عن ايمان أو رغبة فى التخلص من الالتزامات المالية التى أهمها الجزية والخراج . ثم أعقب ذلك هجرة من الريف إلى الأمصار الإسلامية الجديدة للفادة من امكانيات الحياة الواسعة هناك ، والمشاركة فى معالمها الحيوية .

وبلغت ظاهرة الهجرة من الريف إلى المدن حدا خطيرا زمن الأمويين ، وبخاصة على عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك ، فقد اقترنت الأزمة الاجتماعية بالمشاكل الاقتصادية ، وذلك فى العراق ، زمن ولاية الحجاج بن يوسف الثقفى وفى مصر على عهد ولاية قره بن شريك . إذ أدى تطوع الفلاحين إلى الحياة الاجتماعية الجديدة إلى حرمان الريف من السواعد الفتية واصابة الانتاج الزراعى بالشلل ، فاتخذ كل من الحجاج وقره بن شريك اجراءات عنيفة فى معالجة هذا الوباء الاجتماعى الخطير . إذ عمد كل منهما إلى اعادة الفلاحين إلى الريف بالقوة ، ووضع وشم على سواعدهم يبين القرى التى جاءوا منها ، وليسهل مراقبتهم وسد السبل أمام هجرتهم إلى المدن . وساعد على سرعة التحول الاجتماعى فى مصر وغيرها من الولايات أواخر أيام الدولة الأموية تداخل التيارات التى اتخذت من تأكيد الإسلام على « العدالة الاجتماعية » قوة دافعة لها ، إذ أوجد الايمان بتلك المفاهيم نتيجة انتشار الدين الإسلامى الذى يدعو إليها تيارا اجتماعيا جديدا تمثل فى ازدياد عدد الموالى وقوتهم كذلك .

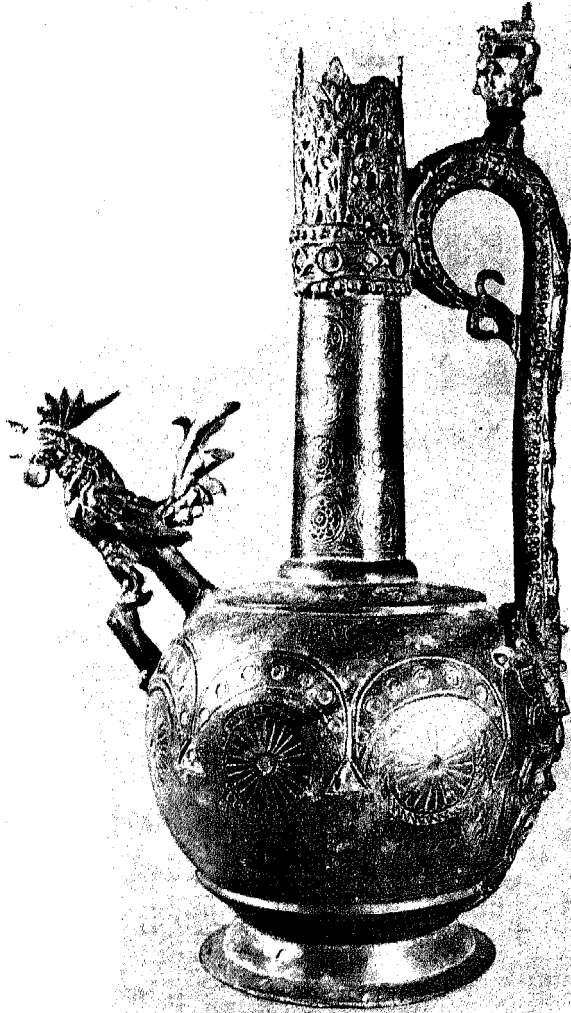
وظهرت قوة الموالى حين شاركوا فى الفتوحات التى قامت زمن الأمويين سواء فى المشرق أو المغرب و قدموا خدمات جليلة فى هذا الميدان . وصاحب هذا المظهر الأخير مشكلة اجتماعية قوامها أن أولئك الموالى لم يدرجوا فى « ديوان الجند » الذى كان يحدد العطاء للمقاتلة طبقا للقواعد التى سبق أن تقررت منذ عهد عمر بن الخطاب . فأصبح المقاتلة من الموالى يغزون مع المقاتلين من العرب ولكن لا ينالون عطاء أو يأخذون عطاء أقل مما كان يأخذه المقاتل من العرب .

وبدأ الموالى يعبرون عن سخطهم عن هذه التفرقة التى حملت فى نظرهم هدماً لأساس مئين من أسس العدالة التى دعا إليها الإسلام . وظهر فى ذلك الوقت جماعة العباسيين الذين آلت اليهم قيادة المتذمرين والساخطين على بنى أمية ، نتيجة تنازل أحد قادة العلويين اليهم عن حقه فى توجيه شئون الدعوة لاسقاط بنى أمية . ويرجع هذا التحول إلى أن أحد العلويين وهو أبو هشام بالسم يسرى فى جسده أدرك أن دعوته ضد البيت الأموى قد انكشفت أمرها . ومن ثم أسرع هذا الامام إلى مقره فى الحميمة بالشام ، وأفضى هناك بأسرار دعوته إلى أحد أقربائه من العباسيين وهو محمد بن عبد الله العباسى ، كما زوده بقوائم تضم أسماء دعائه وأنصاره .

وبدأ العباسيون يدبرون أمر دعوتهم فى خراسان ، ولكن تقررت على أرض مصر مصير هذه الدعوة برغم قيامها فى خراسان ببلاد فارس ، حيث أعلن قائد العباسيين هناك وهو أبو مسلم الخرسانى الثورة على الأمويين (سنة ١٢٩هـ) . اذ بادر آخر الخلفاء الأمويين وهو مروان الثانى الملقب بالحمار بالتصدى للثورة التى سيطرت على فارس والعراق ، وأعلنت أبا العباس السفاح سنة ١٣٢هـ أول خليفة عباسى . وقد لقى مروان الثانى هزيمة أمام جيوش العباسيين فى نفس السنة التى تم فيها اعلان السفاح العباسى خليفة ، وذلك فى معركة دارت عند نهر الزاب وهو أحد روافد دجلة .

وقد نقل مروان الثانى مقره بعد هذه المعركة سريعا إلى مصر حيث هاله انتشار الدعوة العباسية فيها وكثرة الموالين لها . وفى نفس الوقت أسرع جيوش العباسيين

إلى مصر بقيادة صالح بن علي العباسي لتفسد على مروان آخر تدبير له لضرب الدعوة العباسية . وانتهى عند بلدة بوصير من أعمال الجيزة مطاردة العباسيين لجيوش الأمويين وقتل الخليفة الأموي مروان الثاني (شهر ذى الحجة سنة ٥١٣٢ هـ) .



ابريق من البرونز عثر عليه في مصر (بجوار قبر مروان بن محمد — آخر خلفاء الدولة الأموية) .

تأسيس مدينة العسكر :

وأقام القائد العباسي ، صالح بن علي ، بعد انتصاره على الأمويين في مصر ، عاصمة له أطلق عليها اسم « العسكر » ، سنة ١٣٢هـ / ٧٥٠م . وقامت هذه العاصمة في الفضاء الواقع في الشمال الشرقي من الفسطاط ، والممتد من النيل حتى جبل يشكر ، وهو الفضاء الذي كان يعرف منذ الفتح الإسلامي لمصر باسم « الحمراء القصوى » وأنشأ القائد العباسي « دار الامارة » إلى جانب ثكنات جنده . وفي سنة ١٦٩هـ / ٧٨٥م أسس أحد الولاة العباسيين على مصر وهو الفضل بن صالح مسجدا إلى جانب دار الامارة بمدينة العسكر ، التي أخذ العمران يزداد بها بعد ذلك ، وحفلت بالدور والبساتين والأسواق حتى اتصلت بمدينة الفسطاط ، وغدت أشبه بضاحية لها ، وامتدادا جديدا لرقعة عاصمة مصر الأولى ، وهي الفسطاط .

عصر الامارة في مصر الإسلامية

التاريخ الميلادي	التاريخ الهجري	الحكام	الآثار	السنة الهجرية
٦٤٠ - ٨٦٨	٢٠ - ٢٥٤	٩٨ حاكما في ظل	جامع عمرو	٢١
		خلفاء دمشق وبغداد	مدينة الفسطاط	٢١
			مقياس النيل الأول في الروضة	٩٨
			العسكر	١٣٢
			مقياس النيل الثاني في الروضة	٢٤٧

ثانيا : عصر الدول المستقلة فى مصر الإسلامية وطلائع الشخصية المصرية فى العالم الإسلامى

دور مصر فى الصراع بين الأمين والمأمون :

تعتبر فترة الولاة العباسيين فى مصر التربة التى نمت فيها طلائع الشخصية المصرية فى العهد الإسلامى ، والقاعدة التى قامت عليها الدول الاقليمية فى الديار المصرية ، وتبدأ هذه الفترة من سنة ١٣٢هـ / ٧٥٠م وذلك عقب مقتل الخليفة الأموى مروان الثانى بمصر . وتنتهى هذه الفترة سنة ٢٥٤هـ / ٨٦٨م عندما قامت أولى الدول الاقليمية بمصر على يد أحمد بن طولون .

وامتألت فترة الولاة العباسيين بالأحداث السياسية الجسام التى ظهرت فيها شخصية مصر ، وقدرتها على فرض معالم تلك الشخصية . وكان الصراع الذى قام بين الخليفة الأمين وأخيه المأمون الثغرة التى انطلقت منها طلائع الشخصية المصرية وميلها إلى الاستقلال بأمورها . ذلك ان نفرا من الجند فى مصر غضبوا حين علموا بخلع الأمين لأخيه المأمون ، وطالبوا بعزل الأمين . وتزعّم هذه الحركة المعادية للأمين أحد قادة الجند فى مصر ، وهو السرى بن الحكم . وفى نفس الوقت أخذ المأمون يشجع هذه الحركة المؤيدة له ، وجعل عباد بن محمد بن حيان هو المنظم للدعوة لخلافته بمصر . وفى ١٩٧هـ / ٨١٣م ، بعث عباد جيشا لحرب الحزب المعادى له ، والذى اتخذ من الحوف الشرقى فى الدلتا مقرا لحركاته . ولكن قائد هذا الجيش ، وهو عبد العزيز الجروى ، لقى هزيمة فادحة ، والتجأ إلى قومه من لحم وجذام فى فاقوس .

وفى تلك الأثناء أخذ الموقف فى مصر يتطور من نزاع بين « الأمين » و« المأمون » إلى نزاع بين رجالات البلاد للاستئثار بالسلطة من دون الخلافة . ذلك أن أقارب الجروى فى فاقوس حرصوه على أن يدعوا لنفسه ، وقالوا له « لم لا تدعو لنفسك ، فما أنت بدون هؤلاء الذين غلبوا على الأمر » وصادف ذلك قبولا فى نفس الجروى ، واتخذ من بلبيس مقرا له . وبعث منها عماله لجباية الخراج من مصر

السفلى . ولم ينته النزاع فى مصر بعد أن وردت الأنباء بمقتل الأمين ، ومجئ والى جديد للبلاد من قبل الخليفة المأمون . اذ تطلع السرى الذى سبق له القيام بالدعوة للمأمون إلى السيطرة على مقاليد الأمور فى مصر ، ومنافسة الجروى فى الحكم . وانتهى الأمر بأن انقسمت البلاد بين هذين القائدين ، حيث امتد سلطان الجروى على شرق الدلتا ، على حين استولى السرى على الوجه القبلى ، من مصر (الفسطاط) إلى أسوان .

ولم يغير وفاة الجروى والسرى كذلك فى سنة ٥٢٠٥هـ / ٨٢٠م ، من الأحوال فى مصر . فقد ورث أبناء هذين القائدين ما كان بين أبيهما من خلاف ، واشتد النزاع بينهما ، دون أن يفعل الخليفة المأمون شيئا ، لانه كان مشغولا بمسائل داخلية عديدة . وانتهى هذا النزاع أخيرا فى صالح عبيد الله بن السرى ، حيث اضطر على بن الجروى إلى الفرار إلى العريش سنة ٥٢٠٩هـ / ٨٢٤م وخضعت مصر كلها لابن السرى ، الذى أسس لنفسه أسرة مستقلة فى البلاد .

وكان الخليفة المأمون قد انتهى اذ ذاك من متاعبه الداخلية ، وتفرغ لشئون مصر . فبعث قائده عبد الله بن طاهر على رأس جيش عظيم للقضاء على الفتن الداخلية بمصر . وعندما اقترب هذا القائد من البلاد انضم اليه على بن الجروى ، على حين رفض عبيد الله بن السرى التسليم . ولذا دارت الحرب بين الطرفين ، وانتهت بهزيمة عبيد الله بن السرى ، وطلبه الدخول فى مفاوضات من أجل التسليم ، والحصول على امان لنفسه من الخلافة . وانتدب عبد الله بن طاهر رئيسا لسفارته إلى ابن السرى ، والذ المؤرخ ابن عبد الحكم ، وهو عبد الله بن عبد الحكم .

وكادت المفاوضات تفشل لولا حكمة عبد الله بن عبد الحكم مرة أخرى ، فقال لقائد الخليفة المأمون ليهدئ من غضبه : « أصلح الله الأمير ، ان الذى يجرى الله عز وجل على يدى الأمير من حقن الدماء وصلاح ذات البين سهل مثل هذا عليه . » وأعجب القائد عبد الله بن طاهر بهذا الرد اللبق ، وقيل أن يشهد على ما جاء فى كتاب الأمان ، ثم منح ابن السرى قدرا كبيرا من المال . وانتهت بذلك الفتن التى ظلت

تقريبا عشر سنوات ، بفضل دبلوماسية والد المؤرخ ابن عبد الحكم .

وظل عبد الله بن عبد الحكم موضع ثقة القائد عبد الله بن طاهر ، ولا سيما بعد أن تولى ولاية مصر ، فقد جمع الوالى عبد الله بن طاهر مجلسا كبيرا من الفقهاء ، من بينهم عبد الله بن عبد الحكم ، واستشارهم فى تعيين قاض جديد ، وذكر الحاضرون عدة أسماء لم يقبل منها الوالى غير الشخص الذى أشار به عبد الله بن عبد الحكم ، وهو القاضى عيسى بن المنكدر .

ولكن لم تلبث أحوال عبد الله بن عبد الحكم أن تغيرت سنة ٥٢١٤ / ٨٧٩م حين وردت الأخبار بأن الخليفة المأمون عين أخاه المعتصم على مصر . اد ذهبت جماعة من الصوفية بمصر إلى القاضى ابن المنكدر ، وطلبوا منه أن يكتب إلى الخليفة المأمون خطابا بأن المصريين لا يقبلون ولاية المعتصم . ولكن عبد الله بن عبد الحكم نصح القاضى بالألا يستمع لاقوال الصوفية ، فأبى القاضى وكتب إلى المأمون ، وعندما ورد الخطاب إلى الخليفة عرضه على المعتصم ، الذى استبد به الغضب ، واقسم لينتقم من أهل مصر . وحين حضر إلى مصر عزل القاضى وحجسه كما حبس عبد الله ابن عييد الحكم ، متهما اياه بالاشتراك فى العمل الذى سبق أن قام به القاضى ، على الرغم من عدم ثبوت الأدلة عليه ، وظل عبد الله فى السجن أياما مرض بعدها وتوفى أثرها سنة ٥٢١٤ / ٨٢٩م .

موقف مصر من مسألة خلق القرآن :

يعتبر موقف مصر من مسألة خلق القرآن من أهم أحداث تلك البلاد فى عصر الولاة العباسيين ، والمظهر المبكر لطلائع الشخصية المصرية المستقلة وسط الكيان السياسى للدولة الإسلامية .

وترتبط أصول هذه المسألة بجماعة المعتزلة ، وهى احدى الفرق الإسلامية التى نادى بتحكيم العقل فيما شب بين المسلمين من خلاف ونزاع حول الخلافة . وتتلخص مبادئ المعتزلة فى النقاط الآتية :

- (١) عدم تكفير مرتكب الكبيرة واعتباره فى منزلة بين المؤمن والكافر .
- (٢) قالوا بالقدر أى أن الناس هم الذين يخلقون أفعالهم وأنهم بذلك يثابون ويعاقبون .
- (٣) قالوا بالتوحيد المحض للخالق ونفى الصفات عنه سبحانه وتعالى .
- (٤) نادوا بخلق القرآن وأنه مرتبط بالحوادث التى اقتضى نزوله رداً منهم على المحدثين والفقهاء الذى قالوا بأن القرآن كلام الله قديم قدمه سبحانه وتعالى . وحمل المعتزلة لواء النشاط الفكرى والسياسى فى الدولة الإسلامية قرابة قرن من الزمان . وقد بلغوا قمة نفوذهم زمن الخلفاء العباسيين الثلاثة : المأمون والمعتصم والواثق .

واتخذت الدولة العباسية الاعتزال مذهباً رسمياً لها فى هذا الوقت ، واهتمت بمسألة خلق القرآن التى بدأت تظهر بصورة عملية فى سنة ٢١٨هـ / ٨٢٣م وذلك حين أصدر الخليفة المأمون بتأثير القاضى ابن أبى داود وهو من المعتزلة اعلانه الخطير الذى قرر فيه مبدأ خلق القرآن مخالفاً فى ذلك رأى أهل السنة الذين يقولون بأزليته . وصدرت الأوامر إلى عمال الدولة الإسلامية فى كل مكان بامتحان القضاة والفقهاء والمحدثين فى خلق القرآن ومعاقبة من لا يقر بخلقه . وكان والى مصر العباسى اذ ذاك هو كيدر نصر بن عبد الله الذى كان يحكم مصر نيابة عن المعتصم ، اذ وصل هذا الوالى خطاب من المعتصم بأن يكلف قاضى مصر وهو هارون بن عبد الله الزهوى أن يمتحن الناس فى مصر وألا يأذن لأحد فى حديث أو فتوى أو شهادة الا اذا أقر بخلق القرآن . غير أن هذا القاضى لم يشتد فى امتحان الناس ، وظل الحال على ذلك إلى أن توفى المعتصم وتولى الخلافة من بعده أخوه الواثق سنة ٢٢٧هـ / ٨٤٢م .

وكان الخليفة الواثق يقول بخلق القرآن عن عقيدة كما قال به المأمون . ولذا عهد إلى أحد الفقهاء المقيمين بمصر وهو محمد بن الليث الخوارزمى بأن يتولى امتحان الناس فى القول بخلق القرآن فلم يبق أحد إلا أخذ بالمحنة .

غير أن أهل مصر عارضوا معارضة شديدة المحنة دون أن يأبهوا بما نزل بهم من أذى . وكان خير مثال هو أبناء أسرة ابن عبد الحكم المصرى ، اذ كان فقهاء الأسرة من رؤساء المالكية وبالتالي من أنصار السنة الذين لا يقولون بخلق القرآن .

ووقع الأذى بأكبر أبناء هذه الأسرة وهو عبد الحكم الذى أبى أن يعترف بخلق القرآن ، ولم يثنه التعذيب عن رأيه ، واضطر القاضى إلى ارساله لبغداد لتتولى السلطة المركزية هناك استجوابه وامتنع عن أن يقول بخلق القرآن دون أن يأبه بما حدث له من ضرب بالسياط والسجن والتعذيب .

واستخدم ابن أبى الليث أساليب أخرى قاسية ضد الأخ الثانى فى هذه الأسرة وهو محمد بن عبد الحكم ، الذى آلت إليه اذ ذاك رئاسة طائفة المالكية فى مصر ، فأصدر القاضى أمرا بمنع اتباع هذه الفقية من الجلوس فى المساجد والتشهير به وبأتباعه فى كل مكان .

وقد تركت الاضطهادات التى صاحبت مسألة خلق القرآن أسوأ الآثار فى نفوس أهالى مصر وازدادت مقاومتهم لتلك الاضطهادات .

وظل الحال على ذلك حتى ولى الخلافة العباسية الخليفة المتوكل اذ رأى أن مسألة المحنة قد طال أمدها دون جدوى ، فبعث إلى واليه على مصر سنة ٥٢٤هـ / ٨٤٨م يأمره بترك الجدل فى القرآن وإبطال المحنة ، كما تم عزل القاضى محمد ابن أبى الليث الذى تولى اضطهاد للناس بالمحنة .

والأمر الجدير بالملاحظة هنا هو :

أن أهم النتائج التى ترتبت على موقف مصر من مسألة خلق القرآن فى عصر الولاية هى ظهور قوة الرأى العام المصرى واحترام السلطات له والعمل على استرضائه ، وصار هو الأساس الذى شيد عليه دعاة الدول المستقلة فى مصر سلطانهم ، وذلك على نحو ما قام به أحمد بن طولون .

الدولة الطولونية

(٢٥٤ - ٥٢٩٢ / ٨٦٨ - ٩٠٥ م)

قام فى مصر منذ القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى سلسلة متصلة الحلقات من الدول الاقليمية ، تمثلت فيها روح القومية فى تلك البلاد ، وأهميتها فى حماية « دار الإسلام » وكان النظام الادارى الذى وضعته السلطات العباسية فى القرن الثالث الهجرى لمصر ، عاملا مساعدا فى انطلاق ظاهرة الدول الاقليمية فى تلك الأرجاء واشتداد نشاطها . اذ كانت مصر تعتبر طبقا للتقسيم الادارى العباسى وحدة يتولى شئونها مع بلاد الشام ولى العهد الأول بنفسه ، باعتباره نائبا عن الخليفة ، وذلك دلالة على أهمية هذين القطرين فى حياة الدولة الإسلامية . ودأب ولى العهد الأول على تقسيم وقته بين دمشق والفسطاط للاشراف على شئونه الادارية . واستعان ولى العهد فى بعض الأحوال بنفر من العمال ينوبون عنه بدوره فى الحالات الضرورية .

وبدأ هذا النظام الادارى يهتز حين استخدم نائب الخليفة فى ادارته لمصر نفرا من العمال الأتراك الذين علا شأنهم فى الدولة العباسية منذ عهد المعتصم (٥٢١٨ / ٨٣٣ م) . اذ وصل أولئك الأتراك إلى مركز القوة الحقيقى على عهد الخليفة المتوكل (٥٢٣٢ / ٨٤٧ م) ، وقبضوا على مقاليد الأمور ، وأطاحوا بكل من اعترض سبيلهم . وتجلى ذلك حين منعوا المتوكل نفسه من الانتقال إلى دمشق وتأمروا مع ابنه المنتصر ، صاحب مصر والشام طبقا للتقسيم الادارى العباسى ، وقتلوا الخليفة أخيرا سنة ٥٢٤٧ / ٨٦١ م . ويعتبر المؤرخون المسلمون هذه السنة حدا فاصلا فى الحكم اللامركزى فى العصر العباسى الثانى وما ساه من انتشار ظاهرة الدول الاقليمية فى جميع أرجاء الدولة الإسلامية عامة ، ومصر خاصة . وقام فى هذا القطر الدول المستقلة ومنها الدولة الطولونية .

وينتمى مؤسس الدولة الطولونية وهو أحمد بن طولون إلى العنصر التركى الذى زحف على مقاليد الدولة الإسلامية منذ ولى المأمون العباسى الخلافة ، حتى استبد بالأمور تماما حين تولى الخلافة المتوكل العباسى سنة ٥٢٣٢ . وقد بعث والى مدينة

بخارى فى بلاد ما وراء النهر بأحد أولئك الأتراك وهو طولون والد أحمد بن طولون هدية إلى الخليفة المأمون العباسى . ونال طولون اعجاب الخليفة وظل يمنحه المناصب حتى وصل طولون إلى منصب « أمير الستر » وهو يشبه منصب رئيس الحرس الخاص فى الوقت الحاضر . وامتد العمر بطولون حتى انه خدم المأمون ثم المعتصم ، وذلك طوال مدة بلغت عشرين عاما ، وانجب عدة أبناء كان من بينهم أحمد بن طولون الذى ولد سنة ٢٢٠هـ / ٨٣٥م وقد توفى طولون وابنه أحمد فى العشرين من عمره .

وقد تولى أحمد بن طولون منصب والده ، ثم تقلب بدوره فى الوظائف ، وأثبت طوال ذلك سعة أفق وقدره على تجنب المشاكل التى أحاطت بعزل الخلفاء العباسيين .

وبدأت صلة أحمد بن طولون بمصر حين أقطع الخليفة المعتز بلاد مصر لأحد القادة الأتراك من أصحاب النفوذ الواسع فى بغداد واسمه باك باك ، وذلك فى سنة ٢٥٣هـ اذ فضل هذا القائد التركى البقاء فى عاصمة الخلافة ليتابع المنافسات الدائرة فيها . وعهد إلى أحمد بن طولون بإدارة مصر نيابة عنه ، وذلك لما عرف عنه من خبرة وكفاءة وأمدته بجيش دخل به مصر سنة ٢٥٣هـ — ٨٦٨م . ولم يلبث سلطان أحمد بن طولون أن اتسع حين ولى اقطاع مصر يارجوخ وهو صهر أحمد بن طولون . اذ تلقى يارجوخ كتابا بولاية مصر جاء فيه « تسلّم من نفسك إلى نفسك » وبدأ منذ ذلك الوقت جهود أحمد بن طولون للاستقلال بمصر . وتنقسم تلك الجهود إلى قسمين :

(١) الجهود لدعم الاستقلال الداخلى فى مصر .

(٢) الجهود لدعم الاستقلال الخارجى .

جهود أحمد بن طولون لدعم الاستقرار الداخلى :

رأى أحمد بن طولون أن مهمته فى ادارة مصر تتطلب توفير الاستقرار السياسى لها فى الداخل وكذلك فى الخارج نظرا لأهمية ولايته ومكانتها الفريدة فى الدولة الإسلامية . واقتضى الاستقرار السياسى الداخلى القضاء على عناصر العداة فى

البلاد للسلطان الجديد وتنظيم موارد البلاد المالية والقضاء على دعاة الفتن والفوضى .
ولم تكن مهمة أحمد بن طولون سهلة أو يسيرة ، اذ كان عليه أن يتخلص أولا
من صاحب البريد فى مصر وهو شقير غلام أم الخليفة المعتز . اذ كان صاحب البريد
لا يخضع لأحمد بن طولون ويقوم بتتبع أخباره أولا بأول ويرسلها إلى الخلافة .

واستطاع أحمد بن طولون الحصول على الخطابات التى بعث بها عامل البريد
ضده إلى الخلافة ، ونجح أخيرا فى الاطاحة بهذا العامل بعد مصرع الخليفة المعتز
وذهاب سلطان أمه .

واصطدم أحمد بن طولون غداة دخوله مصر أيضا بعامل الخراج فيها وهو « أحمد
ابن المدبر » الذى كان يشغل هذا المنصب منذ سنة ٢٤٧هـ ، وغدا قوة ذات بطش وله
حرسه الخاص الذين بالغوا فى عسف الأهالى والاشتطاط فى جمع الضرائب .

وقد حاول ابن المدبر استمالة أحمد بن طولون اليه بتقديم الهدايا الثمينة وذلك
جريا على العادة التى سبق أن اتبعها مع ولاء مصر السابقين . ولكن أحمد بن طولون
رفض قبول تلك الهدايا وطلب بدلا منها وفى لباقة أن يحصل على الحرس الخاص
« لأحمد بن المدبر » مستهدفا فى ذلك حرمان هذا العامل من مصادر قوته . ولذا وقع
بين أحمد بن طولون وابن المدبر نزاع ، وانتهى الأمر بنقل ابن المدبر إلى دمشق سنة
٢٥٨هـ . وهناك تابع ابن المدبر دسائسه ضد أحمد بن طولون ولكن سنحت الفرصة
لابن طولون حين استولى على بلاد الشام سنة ٢٦٤هـ للقبض على ابن المدبر وحبسه
والتخلص من هذه الشخصية الخطيرة . وانتقل ابن طولون بعد ذلك إلى القضاء على
الفتن الداخلية التى انتشرت فى مصر فى مطلع عهده .

نشاط أحمد بن طولون للقضاء على الفتن الداخلية :

واجه أحمد بن طولون بقايا الثورات التى كان ينظمها وبعد لها جماعات
الكارهين للبيت العباسى .

وتلك الثورات تمثلت فيما يلى :

(أ) ثورة بوغا الأصغر سنة ٢٥٥هـ ، حيث اتخذ مقرها أولا فى مكان اسمه الكنائس

بين برقة والاسكندرية ، ثم بسط سلطانه على الصعيد . واستطاع أحمد بن طولون القضاء على هذه الثورة .

(ب) ثورة ابن الصوفى العلوى الذى جعل من اسنا بالصعيد مقرا له سنة ٥٢٥٥هـ . واستطاع أحمد بن طولون القضاء على تلك الثورة عند اخميم سنة ٥٢٥٦هـ حيث فر ابن الصوفى إلى بلاد الحجاز .

(ج) تقليم أظافر أبو عبد الرحمن العمرى الذى انتهز هجوم « البجة » على بلاد الصعيد وكون جيشا طرد به « البجة » وصار قوة لا تعترف بطاعة أحمد بن طولون . ولكن تمكن أحمد بن طولون أخيرا من القضاء على العمرى .

(د) القضاء على ثورة العباس بن أحمد بن طولون ، اذ انتهز العباس خروج والده إلى بلاد الشام وأعلن العصيان بتشجيع نفر من الحاقدين على أحمد بن طولون . وقد خرج العباس على رأس قوات كبيرة من مصر سنة ٥٢١٥هـ وجعل مقره برقة ، ثم اتجه إلى افريقية « تونس الحالية » واصطدم فى أفريقية بعاملها هناك وهو ابراهيم بن الاغلب .

وقد تمكن أحمد بن طولون من القضاء على ثورة ابنه سنة ٥٢٦٨هـ ، أى بعد اضطراب دام ثلاث سنوات تهددت فيه الدولة الطولية الفتية بالفناء .

ويلاحظ أثناء ثورة العباس واتجاهه إلى افريقية اصطدامه مع القبائل من أهالى البلاد ومن أشهرها قبائل نفوسه .

جهود أحمد بن طولون لدعم الاستقرار الخارجى :

رأى أحمد بن طولون أن الاستقرار الخارجى أمر مهم لأنه يحمل معنى استقلال مصر وتثبيت أركان الدولة الجديدة التى أسسها فى تلك البلاد .

ويجب علينا أولا أن نحدد مفهوم الاستقلال فى تلك العصور الوسطى ، كان الاستقلال اذ ذاك على غير ما هو معروف اليوم من السيادة الكاملة للدولة ، اذ كان الاستقلال فى العصور الوسطى يستلزم اعتراف الوالى بسطان الخليفة وذلك بذكر

اسمه فى خطبة الجمعة وسك اسمه على النقود ، وفيما عدا ذلك كان للوالى مطلق التصرف فى شئون الولاية وادارتها .

وقد اصطدم أحمد بن طولون غداة فراغه من مشاكله الداخلية بالدسائس التى كانت تحاك له فى بغداد لهدم استقلاله بمصر . وتولى تلك المؤامرات « الموفق طلحة » أخو الخليفة العباسى المعتمد ، بينما كان الخليفة حريصا على مودة أحمد بن طولون وكسب مساعدته . وكان « الموفق طلحة » يحقد على أحمد بن طولون ويرغب فى هدم استقلاله بمصر واتخذ « الموفق طلحة » من ثورة الزنج التى قامت فى العراق وطلب مساعدات مالية من أحمد بن طولون وذلك سنة ٢٥٤هـ . ولما وصلت المساعدات المالية من مصر رأى الموفق طلحة انها قليلة وكتب إلى أحمد بن طولون يتهمه بالتباطؤ فى ارسال المبالغ المطلوبة . وكان الخليفة يطلع أحمد بن طولون فى ذلك الوقت على حقيقة دواعى « الموفق طلحة » ومؤامراته وجواسيسه الذين كان يرسلهم إلى مصر . ولم يقبل أحمد بن طولون اتهامات « الموفق طلحة » وبعث اليه بخطاب يدل على انه مستقل بمصر وله حرية التصرف فى أموالها وأحوالها . ودخل الصراع حول الاستقلال بمصر مرحلة هامة حين عمد أحمد بن طولون إلى الاتفاق مع الخليفة المعتمد سنة ٢٦٨هـ على الحضور إلى مصر والخلاص من سيطرة « الموفق طلحة » واستهدف أحمد بن طولون من ذلك تقويض شرعية « الموفق طلحة » فى الحكم وأن يجعل من مصر حامية حمى الخلافة العباسية نفسها ، وهو الأمر الذى يكسبها سمعة ومكانة عالية فى العالم الإسلامى . ولكن الموفق طلحة اكتشف هذا الاتفاق ، وحال بين الخليفة وبين خروجه من بغداد . وعندئذ عقد أحمد بن طولون مؤتمر دمشق واستصدر منه قرارا بخلع « الموفق طلحة » واتهامه بخيانة الأمانة فى الحكم .

وقد استغرق هذا الصراع بين أحمد بن طولون والموفق طلحة ثلاثة عشر عاما انتهى باقرار كل منهما بالأمر الواقع ، وهو ما ترتب عليه استقرار أحمد بن طولون بمصر وما آل اليه من حكم بلاد الشام ، لأن الخلافة العباسية اضطرت برغم سوء العلاقة مع أحمد بن طولون والموفق طلحة ان تعهد بحكم الشام ومناطق الثغور الشامية إلى أحمد

ابن طولون لقدرته على الدفاع عنها ضد اغارات الروم « البيزنطيين » . وقد استغل أحمد ابن طولون هذا الوضع وأنشأ لنفسه جيشا وأسطولا صار عماد استقلاله الحقيقي ومصدر هيئته فى العالم الإسلامى والبيزنطى .

أحمد بن طولون والشام :

اضطرت الخلافة العباسية أن تخطب ود أحمد بن طولون بسبب ما وصل اليه من قوة ، كما رأت أن تتخذ منه حليفا مؤيدا لها ضد الروم البيزنطيين الذين دأبوا على الاغارة من آسيا الصغرى على شمال الشام ، الذى كان يعرف وقتذاك باسم اقليم العواصم والثغور لاشتماله على المنافذ والحصون القائمة فى جبال طوروس . لذلك لم يكن عجبا أن يعهد الخليفة إلى أحمد بن طولون بولاية الثغور الشامية للدفاع عنها . فبعت بجزء من جيشه وأسطوله للمرابطة فى مدنها وحماتها ، ثم لم تلبث الحوادث أن أيدت سلطان أحمد بن طولون فى بلاد الشام حين توفى واليها التركى سنة ٢٦٤هـ . فضم أحمد بن طولون بلاد الشام اليه استكمالا لوسائل الدفاع عن اقليم الثغور وحماته . وصارت مصر والشام على عهد الدولة الطولونية وحدة لها قوتها فى الشرق العربى ، وتؤدى رسالتها فى الدفاع عن أرض الإسلام ضد الروم ، فى وقت عجزت فيه الخلافة العباسية عن القيام بأى عمل ايجابى فى ذلك الميدان .

وبلغ من قوة الوحدة العربية بين مصر والشام أن خشى أباطرة الروم سلطان أحمد ابن طولون وراسلوه لعقد هدنة معه . ثم حدث أن عزم الخليفة العباسى نفسه وهو المعتمد على مغادرة بغداد سرا ، فرارا من سيطرة أخيه الموفق طلحة ، وقرر الالتجاء إلى أحمد بن طولون صاحب القوة الجديدة فى مصر والشام ، فأعيد إلى عاصمته بالعراق . وعلى الرغم من ذلك ظلت وحدة مصر والشام قائمة ، وأخذت القوات البحرية والبرية الطولونية تحمى هذه الوحدة وتعلى من شأنها فى شرق البحر المتوسط .

خماروية وعلاقته بالخلافة العباسية :

وبعد وفاة أحمد بن طولون آلت الدولة الطولونية إلى ابنه خماروية . وتابع الحاكم الجديد سياسة والده في الدفاع عن مصر والشام وحمايتها من قديم دسائس الموفق طلحة ، أخى الخليفة . فأعد خماروية جيشا تولى قيادته بنفسه ، وهزم قوات أخى الخليفة عند دمشق ، وعقد صلحا اعترفت فيه الخلافة العباسية بولاية خماروية على مصر والشام ولأبنائه من بعده . ودعم هذا النصر سيطرة خماروية على منطقة العواصم والشغور وصار قوة يرهبها الروم البيزنطيون .

وزادت علاقة خماروية بالخلافة العباسية قوة حين تولى المعتضد العرش فى بغداد ، اذ تزوج هذا الخليفة من العباسة ابنه خماروية ، المشهورة باسم قطر الندى ، ولا يزال اسم الأميرة اسما لبلدة قرب الصالحية الحالية ، كما لا يزال اسمها باقيا فى الأغانى الشعبية بالقاهرة حتى الوقت الحاضر .

واتبع خماروية سياسة والده فى الاهتمام بمرافق الدولة ، وتخصيص الأموال للفقراء والمحتاجين ، كما اشتهر بالقصور الفخمة التى شيدها فى عاصمته القطائع .

زوال الدولة الطولونية :

غير أن خلفاء خماروية لم يستطيعوا السير على نهج سياسته وانغمسوا فى لهوهم مما أثار عليهم الناس والجيش ، وبدأ عمالهم فى الأقاليم يجنحون إلى الانفصال عن السلطة الطولونية فى القطائع ، فولى مصر بعد خماروية ثلاثة من آل طولون لم يزد حكمهم على عشرة سنين ، ولم تستفد البلاد منها شيئا غير انتشار الفوضى واشتداد التنافس بين الطامعين فى السلطان . وانتهى الأمر بأن أعدت الخلافة العباسية جيوشها لاسترداد مصر من رابع الولاة الطولونيين عليها وهو شيبان ، الذى بلغت الفوضى والاضطرابات فى أيامه درجة خطيرة . وفى سنة ٥٢٩٢ / ٩٠٥م دخلت الجيوش العباسية القطائع ، وأزالت الدولة الطولونية التى حكمت مصر والشام مدة ثمانية وثلاثين عاما .

حضارة الدولة الطولونية :

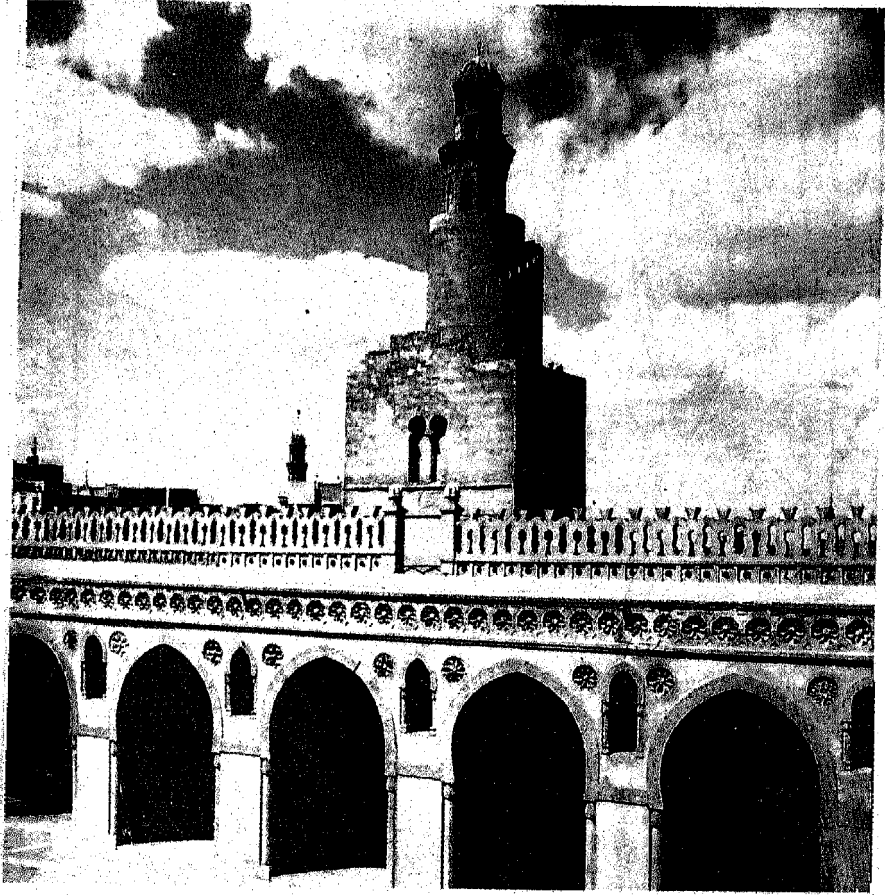
أسهمت مصر فى عهد الدولة الطولونية بنصيب وافر فى شتى ميادين الحضارة الإسلامية ، وقدمت العديد من المنجزات التى حملت فى الوقت نفسه معالم الشخصية المصرية وأصالتها الإسلامية . وتتمثل مظاهر الحضارة لمصر الإسلامية زمن الطولونيين فيما يلى :

أ - فن العمارة :

أسس أحمد بن طولون عاصمة جديدة لدولته ، حيث كان تأسيس العواصم فى مصر الإسلامية يعتبر دلالة على الاستقرار السياسى للعهد الجديد ، فسار أحمد بن طولون على نهج عمرو بن العاص الذى أسس الفسطاط ، وصالح بن على العباسى الذى أسس مدينة العسكر ، وأقام فى سنة ٢٥٦هـ / ٨٧٠م عاصمة للدولة الطولونية فى المنطقة الواقعة شمالى الفسطاط بين جبل يشكر وسفح المقطم ، قرب دار امارة العسكر ، وأطلق على هذه العاصمة الجديدة اسم « القطائع » ، حيث اتخذت كل طائفة من الجند قطيعة لها سميت باسمها ، هذا فضلا عن أن كل جماعة من أرباب الحرف والصناعات قد نزلت فى مجموعة من تلك القطائع التى خصصت لها ، وموضع « القطائع » مجموعة الأراضى والشوارع والحارات الواقعة اليوم بين السيدة زينب والقلعة بالقاهرة .

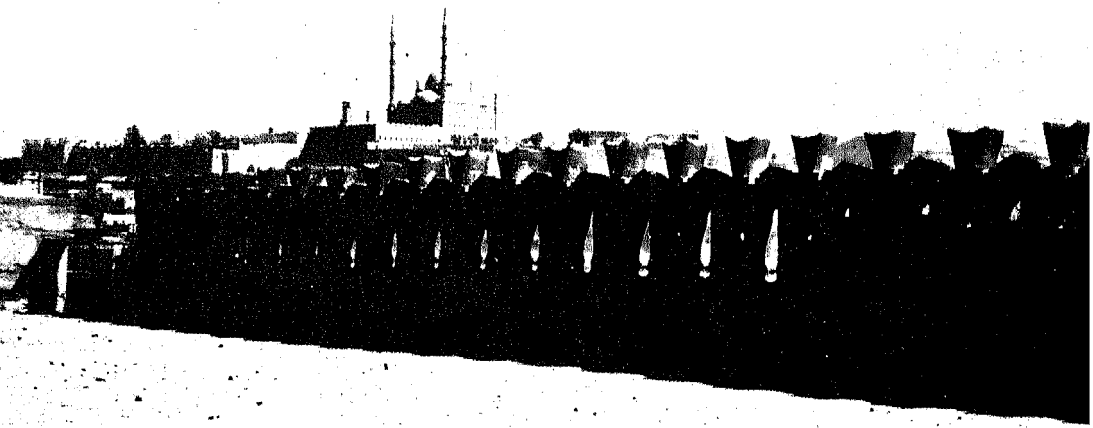
وكثر العمران بالقطائع حتى امتدت معالمها إلى الفسطاط والعسكر ، وأصبحت هذه العواصم الثلاث مدينة واحدة تتصل مبانيها ومرافقها فى صورة تبعث على العظمة والبهاء . وكان القصر الذى بناه أحمد بن طولون بالقطائع أول معلم من المعالم العظمى للعاصمة الجديدة . وكان هذا القصر يشغل مساحة واسعة ، يقوم عليها اليوم ميدان صلاح الدين ، وبلغ من اتساع هذا القصر أن كانت له عدة أبواب يدخل منها الناس وهى باب الخاصة لدخول المقربين إلى الأمير وباب الميدان لدخول الجنود وباب الصلاة ، وكان يؤدى إلى جامع ابن طولون .

ويعتبر جامع ابن طولون بالقطائع من معالم التجديد فى فن العمارة فى مصر الإسلامية . ذلك أن المساجد الإسلامية كانت تعتمد على كثرة الأعمدة ، وكان تخطيط جامع ابن طولون يتطلب ثلاثمائة عمود ، ولكن المهندس المعماري الذى وضع نموذجا لمسجد أحمد بن طولون اعتمد على القليل من الأعمدة ، وترك مساحات واسعة بينها ، كما استخدم فى البناء الدعامات المبنية من الآجر .



جانب من جامع أحمد بن طولون ومئذنته الملوية .

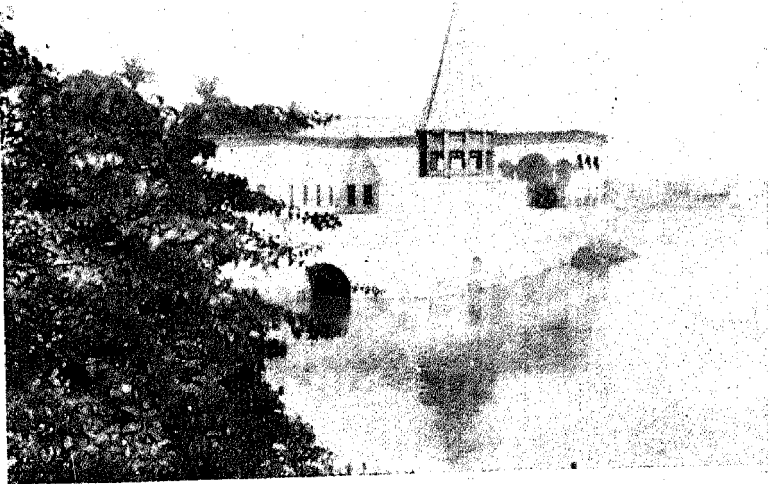
وصار جامع ابن طولون منذ تأسيسه سنة ٢٦٣هـ مثالا يحتذى فى بناء المساجد الجامعة بمصر . وكان موقعه على جبل يشكر ، الذى سمي باسم أحد الصالحين ، وهو يشكر ابن جديله ، واشتهر المكان بأن الدعاء مستجاب فيه وكان هذا الجبل يشرف اذ ذاك على النيل . وقد شيد أحمد بن طولون جامعہ على شكل مربع تبلغ مساحته ستة أفدنة ونصف الفدان . وفى وسطه صحن مكشوف يحيط به عدة أروقة . فى وسط الجامع فوارة عليها قبة مذهبة مقامة على عشرة أعمدة ، وأرض الفوارة مغطاة بالرخام . وعلق المهندس فى الجامع القناديل بالسلاسل الطويلة الرشيقة ، وعلى سطحه مزولة لتبين أوقات الصلاة ، مصنوعة من خشب الساج . على أن أهم عناصر الجامع المعمارية هى المثانة التى جاءت على نمط ملوية جامع سامرا بالعراق . وما زالت آثار هذا الجامع باقية على حالها الأصلى إلى اليوم ، وذلك بجهة الصليبية وقلعة الكبش ، تؤكد عظمة العمارة بمصر الإسلامية وشخصيتها المميزة منذ الدولة الطولونية .



الشرافات التى تملو جامع أحمد بن طولون .

وأهتم أحمد بن طولون بالعمارة المدنية حيث أمر سنة ٥٢٥٩هـ ببناء مارستان لمعالجة المرضى على اختلاف طبقاتهم ودون أجر ، وكان هذا المستشفى يقع بين الفسطاط والقطائع ، ويشتمل على حمامين أحدهما للرجال والآخر للنساء ، وتخضع ادارة المستشفى لنظام دقيق ، حيث كان المريض ينزع ملابسه عند الدخول ويعطى ملابس جديدة خاصة بالمستشفى ، كما دأب أحمد بن طولون على الذهاب بنفسه كل يوم جمعه للتفتيش على أعمال الأطباء ، ويواسى المرضى بما يبعد عنهم سأم المرض وكأبته . وكان الأطباء يفحصون المرضى فحفا دقيقا ويكتبون الدواء المناسب . وبلغ ما أنفقه أحمد بن طولون مع هذا المارستان نحو ستين ألف دينار .

وقام أحمد بن طولون سنة ٥٢٥٩هـ بإصلاح مقياس النيل بالروضة ، تنظيما للخراج الذى ارتبط بمياه النيل وتسجيل منسوبها . ولا يزال هذا المقياس باقيا إلى اليوم فى بساتين المانسترلى بجهة الروضة . وكان أحمد بن طولون قد بنى فى جزيرة الروضة حصنا منيعا له ولآل بيته .



جزيرة الروضة ومقياس النيل .

وأمر أحمد بن طولون بإنشاء قناطر تمتد من جهة البساتين الحالية إلى القرافة الكبرى لتزويد تلك المنطقة بما تحتاجه من مياه . وبنى أحمد بن طولون هذه القناطر على مثال ما شاهده في مدينة طرسوس بآسيا الصغرى ، حين أقام في تلك الجهات ، فقد أعجبه ما شاهده في تلك المدينة من قناطر مقامة على أعمدة ، لتوصيل المياه إلى المناطق التى يتعذر وصول الماء إليها عن طريق الأنهار .

وإزداد الاهتمام بالعمارة فى الدولة الطولونية على عهد خماروية بن أحمد بن طولون . فقد قام بتوسيع قصر أبيه ، كما أنشأ المكان المعروف باسم « بيت الذهب » وكان عبارة عن غرفة فسيحة تتصل برواق واسع ، وطلبت حيطانه بالذهب المجدول باللزورد (وهو نبات أزرق اللون ، طيب الرائحة) وعليها صور بارزة مصنوعة من الخشب ، تمثل خماروية ومغنياته على مقدار قامة ونصف ، ويغطى رؤوس النساء أكاليل من الذهب النخالص .

وأقام خماروية فى قصره بالقطائع بركة مربعة ، مساحتها حوالى مائتين وخمسة وعشرين مترا مربعا ، اشتهرت باسم « بركة الزئبق » ، أقامها للتغلب على ما كان يشكو منه من أرق ، وذلك بناء على مشورة طبيبه الخاص . وكانت الفسقية بتلك البركة تملأ بالزئبق ، ويلقى عليها مرتبة تنفخ بالهواء ، وهو الأمر الذى كان يؤدي إلى حركة المرتبة حين يرتجح حركة الزئبق ، مما يبعث الراحة فى نفس خماروية . وبنى خماروية فى قصره أيضا قبة سماها « الدكة » ، حيث كان يجلس فيها ليستمتع بالنظر إلى البساتين والنيل . وأقام خماروية فى قصره دارا للسباع ، تشتمل على بيوت صغيرة تسع كل منها زوج من الأسود ، ذكر وانثى ، ولكل بيت باب يفتح بحركة معينة ، كما اشتمل القصر أيضا على دار أخرى للنمور والفهود والفيلة أشبه بحدائق الحيوانات اليوم .

(ب) الحياة الاقتصادية :

كانت أولى ثمار الاستقلال هو عناية السلطات الطولونية بالفلاح باعتباره العمود الفقرى لاقتصاد البلاد المصرية والقاعدة العريضة للمجتمع المصرى ، فحققت له

العدالة وخففت عنه الضرائب وزودته بالبذور والآلات اللازمة للزراعة فضلا عن العناية بوسائل الري .

وتدعمت الصناعات الأصلية فى البلاد مثل صناعة النسيج ، ودخلت صناعات جديدة ، ولاسيما الصناعات التى تستند إلى الانتاج الزراعى مثل استخراج الأصباغ وصناعة الذهب وغيرها من صناعات الترف .

وظهرت العناية بتشجيع التجارة والافادة من موقع مصر على طريق التجارة العالمى بين الشرق والغرب حتى أصبحت الاسكندرية تنافس بغداد فى تحديد أثمان السلع وتسويقها . وسك أحمد بن طولون عمله جديدة صارت تعرف نسبة إليه باسم « الدينار الأحمدي » وذلك لدعم التبادل التجارى عن طريق مصر . هذا فضلا عن اعتماد التجار على النشاط الزراعى والتقدم الصناعى .

وانعكست معالم هذا الاستقرار الذى صاحب الاستقلال فى رخاء الشعب المصرى وظهور طبقات جديدة فى المجتمع . وتألقت هذه الطبقات من كبار التجار وكبار رجال الجيش والعلماء ، وخير مثال لهذه الطبقات الجديدة أسرة « الماذرائين » التى اشتهر أفرادها سنة ٢٦٩هـ فى عهد أحمد بن طولون حيث علا شأنها فى ميدان الخراج « ميدان المال » والكتابة « الدواوين » والادارة المدنية « والانشاء » وفن التعبير والمراسلات .

وامتد الرخاء إلى عامة الشعب حيث انخفضت الضرائب التى يدفعها ، ونعم بما ساد الاقتصاد المصرى من ازدهار ، اذ انخفض سعر الغلال وخلت البلاد من الأزمات الاقتصادية وزاد الانتاج فى الحبوب زيادة هائلة . وانعكس صدى هذا الرخاء فى روعة الاحتفالات الشعبية بكل من الأعياد الإسلامية والمسيحية على حد سواء ، ومشاركة السلطات فيها ، ومن أمثلة ذلك الاحتفال فى مصر بيوم الغطاس . وقد شاهد هذا الاحتفال المؤرخ « أبو الحسن السعودى » وترك وصفا دقيقا راعا عنه فى كتابه « مروج الذهب » .

وأخيرا بلغت مظاهر هذا الاستقلال أروع نتائجها فى استقرار القبائل العربية فى مصر وامتزاجها مع السكان المحليين ، وبناء الشعب المصرى العربى الذى احتل مكانة القيادة فى العالمين العربى والإسلامى منذ ذلك الوقت .

(ج) الحركة العلمية والأدبية فى عهد الدولة الطولونية :

أسهمت مصر فى عهد الدولة الطولونية بنصيب وافر فى الحركة الثقافية التى شهدتها الدولة الإسلامية طوال القرن الثالث الهجرى ، التاسع الميلادى . وكان المسلمون قد أصبحوا بفضل هذه الحركة سادة التراث الانسانى سواء عن طريق الترجمة أو التأليف . ولكن مساهمة مصر فى هذه الحركة فى العصر الطولونى تتميز بطابع معين يكشف عن شخصية مصر الإسلامية . ويرجع السبب فى ذلك إلى أن الطولونيين اعتبروا المساهمة فى الحركة العلمية والأدبية عملا متمما لاستقلالهم ومظهرها من مظاهر دولتهم وهيبتها .

وتنعكس مظاهر الشخصية المصرية فى الحركة العلمية والأدبية فى عهد الدولة الطولونية فى الميادين التطبيقية التى أسهم فيها أولئك العلماء . فتجلى اهتمام المصريين بالعلوم ، ونرى بدايتهم فى علم الرياضيات وفى فن العمارة الدينى والمدنى على حد سواء .

وتجلت روعة العمارة المدنية فى اصلاح مقياس الروضة وانشاء القناطر لتوفير مياه الشرب .

وكان المهندس الذى بنى قناطر المياه فى عهد الدولة الطولونية حاذقا فى تطبيق النماذج التى يمكن الافادة منها من البلاد الأخرى . وكانت النماذج التى طبقت على قناطر الدولة الطولونية مقتبسة من مدينة طرسوس فى آسيا الصغرى . فقد كانت قناطر طرسوس مقامة على أعمدة هدفها توصيل المياه إلى الأماكن العليا ، وكان المكان الذى يصل اليه الماء عبارة عن صهريج بحيث يكون منسوب الماء يسمح بانتقاله إلى أعلا .

وكان ميدان الطب من أهم مظاهر تقدم النهضة العلمية فى مصر الإسلامية فى العهد الطولونى ، وكان الأطباء على درجة عالية من الكفاءة ومعهم هيئة مدربة على فن التمريض . وكان لكل طبيب أعوانه ومساعدوه ، ومهمتهم دق العقاقير وعجن الأدوية ، كما كانت للأطباء وسائلهم فى الفحص والعلاج وكانوا يحددون للمريض أنواع الأطعمة فضلا عن استخدام العلاج النفسى .

وكانت أعظم الأماكن التى تدرّب فيها الأطباء وتابعوا فيها أبحاثهم هى (المارستان) الذى أمر أحمد بن طولون بإنائه لعلاج المرضى ، وجعله مستشفى عام دون تمييز بين الطبقات والأديان .

وكانت دلالة شفاء المريض قدرته على أكل رقيق ودجاجة . وعندئذ يعاد فحصه طبيا ثم يسمح له بمغادرة المستشفى .

وظهر تقدم العلوم البيولوجية وعلم النبات والحيوان ، وتجلّى ذلك فى كثرة البساتين وتنسيق أشجارها . فكثرت السلالات وقامت دور خاصة للحيوانات سواء الأليفة أو المفترسة . وبلغت روعة النهضة العلمية أوجها فى صناعة المنسوجات التى اشتهرت بها مصر منذ أقدم العصور وما تطلّبت هذه الصناعة من مهارات عالية فى فن الصباغة والألوان .

الحركة الأدبية فى عهد الدولة الطولونية :

تجلت مظاهر شخصية مصر فى الحركة الأدبية على عهد الدولة الطولونية فيما

يلى :

(١) تشجيع الشعر والشعراء ، ليس تذوقا للفن فحسب ولكن استمرارا للمديح والافادة من أقلام الشعراء للاتساع بالدولة الطولونية . وكان أحمد بن طولون وابنه خماروية يقربان الشعراء ويبالغان فى الاغداق عليهم ، وظهرت من أولئك الشعراء طبقة من الشعراء المتكسبين تجلت فى قصائدهم طابع البيئة المصرية ومزاج أهلها .

(٢) تشجيع الكتابات الديوانية حيث أنشأ ابن طولون أول ديوان للانشاء فى مصر ، ومهمته متابعة المراسلات والنهوض بأغراضها مع أمراء العالم العربى وغير العربى . وحفلت مصر بطائفة من مشاهير الكتاب مازالت أعمالهم باقية فى كثير من المؤلفات التاريخية ، وتشهد لهم بالبراعة فى الصياغة مع دقة المعانى الدبلوماسية .

ومن أمثلة هؤلاء : جعفر بن عبد الغفار المصرى .

(٣) ازدياد نشاط المدارس التى سبق أن ظهرت فى مصر وأصبحت أكثر تخصصا فى العلوم الدينية ، مثل علم القرآن وعلم الحديث وعلم الفقه . وظهر فى هذا الوقت انتشار المذهب الشافعى فى مصر ، وكثر تلاميذه فى أنحاء البلاد . واشتداد دفاعهم عنه ، ووضع الكثير من المؤلفات لهذا المذهب لخدمة الأجيال التالية .

(٤) ازدهار الدراسات اللغوية وكثرة العلماء المتخصصين فيها ، منهم : أحمد بن جعفر ، صاحب كتاب المهذب فى علم النحو ، وأبو جعفر النحاس صاحب معانى القرآن .

(٥) اشتداد حركة التأليف من ميدان التاريخ المحلى ومن أمثلة ذلك ما قام به المؤرخ المصرى ابن عبد الحكم صاحب كتاب تاريخ فتوح مصر والمغرب والاندلس ، وما قام به المؤرخ أحمد بن يوسف المعروف بابن الداية الذى ألف كتابا فى سيرة أحمد بن طولون .

وقد ترتب على هذه النهضة الأدبية ازدياد حركة التعريب فى مصر ولا سيما فى سائر أنحاء البلاد ، إذ اتخذت المدارس الأدبية فى الفسطاط فروعا لها فى المدن المصرية بالدلتا والصعيد . واجتذبت إليها الكثيرين من أبناء البلاد .

. الدولة الطولونية :

السنة الهجرية	الأثار	الحكام	التاريخ الهجرى	التاريخ الميلادى
٢٥٦	القطائع	أحمد بن طولون	٢٥٤	٨٦٨
٢٥٦	قصور القطائع			
٢٥٩	المارستان			
٢٦٣ - ٢٦٥	جامع ابن طولون (باقى إلى الآن)			
٢٧٠	قصور القطائع	خماروية بن طولون	٢٧٠	٨٨٣
		جيش بن خماروية	٢٨٢	٨٩٥
		هارون بن خماروية	٢٨٣	٨٩٦
		شيبان بن طولون	٢٩٢	٩٠٤
		ثلاثة عشر حاكما من قبل الخلافة العباسية	٢٩٢ - ٣٢٣	٩٠٥ - ٩٣٤

(ب) الدولة الأخشيدية

٢٢٣ - ٨٣٥٨ / ٩٣٥ - ٩٦٩ م

قيام الدولة الأخشيدية :

ظل النفوذ العباسي غير مستقر في مصر بعد زوال الدولة الطولونية مما شجع الولاة العباسيين على الاستقلال مرة أخرى بشئون البلاد . وتطلع أحد قادة الأتراك في الجيش العباسي في مصر وهو محمد بن طفج الأخشيد الى الانفراد بالسلطة دون القادة المتنازعين والولاة العباسيين الضعاف . وساعده على ذلك ما قدمه من خدمات في الدفاع عن البلاد ضد هجمات الدولة الفاطمية التي قامت اذ ذاك في تونس ببلاد المغرب . وفي سنة ٨٣٢٣ / ٩٣٥ م تولى محمد الأخشيد ولاية مصر وصار الحاكم المطلق في البلاد .

ورغب الخليفة الراضي العباسي في اكتساب محمد بن طفج الى جانبه ، فمنحه لقب الأخشيد ، وهو لقب إيراني تلقب به الأمراء . على أن ذلك الحدث جاء دلالة على ما بلغه الأخشيد من سلطان واسع في مصر ، وصار مؤسس دولة في أسرته انتسبت الى اللقب الذي منحه اياه الخليفة ، وعرفت باسم الدولة الأخشيدية . وظلت العلاقات طيبة بين الخلافة العباسية والأخشيد حتى سار القائد العباسي محمد بن رائق الى الشام بأمر من الخلافة لانتزاع مصر من الأخشيد الذي قطع اسم الخليفة العباسي من خطبة الجمعة ، وأعلن استقلاله بمصر . واستطاع الأخشيد هزيمة القائد ابن رائق والاحتفاظ بملكه سليما . ونجح الأخشيد بعد ذلك في القضاء على الفتن والقلقل الداخلية ، وصار قادرا على دراسة أحوال العالم العربي المجاور لمصر ، وعمل على خلق وحدة بين أرجائه تحفظ له سلامته من العدوان الخارجي المتصل من جانب دولة الروم .

مصر والشام والحجاز :

وبعد سنتين من قيام الدولة الأخشيديّة ضم الأخشيديّ اليه الشام ليعيد القوة الى الشرق العربي ، وليستطيع الوقوف في وجه الروم البيزنطيين . وخشى أباطرة الروم قوة الدولة الجديدة ، وراسلوا الأخشيديّ كما راسلوا ابن طولون من قبل كسبا للسلام والمودة . واحتفظت المراجع بصورة من المكاتبات التي دارت بين الفريقين ، يتضح منها هيبة الشرق العربي في ظل وحدة مصر والشام زمن الأخشيديّ .

وفي العام التالي لهذه الوحدة مد الأخشيديّ نفوذه الى مكة والمدينة ليكون له الاشراف على الحرمين الشريفين بهما .

كافور الأخشيديّ :

وبعد وفاة الأخشيديّ تولى وزيره أبو المسك كافور الوصاية علي ولديه الصغيرين . وأثبت هذا الوصي مقدرة وهمة عالية في ادارة شئون البلاد والدفاع عنها ضد الأخطار التي تهددتها من ناحية جيوش الطائفة المعروفة باسم القرامطة ، ونجح في القضاء عليها ، وحافظ علي وحدة مصر والشام وبلاد العرب . وامتد سلطان الدولة الأخشيديّة الى جبال طوروس ، وصارت قوية الجانب ، وترهبها دولة الروم البيزنطيين .

وأبو المسك كافور هذا هو الذي أشاد به الشاعر المتنبي في قصائده المشهورة سواء في المدح أو الهجاء . وشجع كافور بدوره الشعراء والعلماء ، ونبغ في عهده كثير من المؤرخين منهم الحداد وتليمذه الكندي والحسن بن زولاقي . وبلغت امارة كافور علي مصر ثلاثا وعشرين سنة ، حكم فيها باسم أبناء الأخشيديّ ، عدا سنتين انفرد فيهما بالأمر والحكم . وظل اسمه طوال هذه المدة موضع الهيبة والاجلال ، ويدعى له من منابر المساجد من طرسوس بأطراف الشام الى مصر والحجاز .

ولما توفي كافور خلفه أبو الفوارس أحمد حفيد الأخشيديّ ، وكان طفلا لم يبلغ الحادية عشرة من عمره ، ولذا عادت الفوضى الى البلاد ، واشتدت المنافسات بين الطامعين في الدولة . وزادت تلك الحالة سوءا اشتداد هجمات الفاطميين من بلاد

المغرب على مصر ، حيث تطلع الخليفة الفاطمي المعز لدين الله للاستيلاء عليها .
وعجزت الخلافة العباسية عن مد يد المساعدة للأخشيديين ، وانتهى الأمر باستيلاء
الفاطميين على مصر سنة ٣٥٨هـ وحلوا بها محل الدولة الأخشيديية .

حضارة الدولة الأخشيديية :

سارت الدولة الأخشيديية على نهج الدولة الطولونية فى رعاية معالم الحضارة
بمصر الاسلامية . فأسس الأخشيد لنفسه قصرا بجزيرة الروضة أطلق عليه اسم
« المختار » ، كما أقام ميدانا عرف نسبة اليه باسم « ميدان الأخشيد » جمع فيه
الخيول السلطانية . وبنى الأخشيد قصرا آخر كان يقع غربى سوق النحاسين الحالى .
وتولى كافور الأخشيدي هذا القصر بالرعاية ، وكان يتنزه به أيام الجمعة والأحد
والثلاثاء من كل اسبوع ، كما يذهب الى الميدان المجاور له حيث يشاهد ما به من
خيول ، وصار القصر يعرف باسم « البستان الكافورى » نسبة الى هذا الحاكم الساهر
على مطالب الدولة .

واهتم كافور ببناء المساجد ، ومنها المسجد الذى أطلق عليه اسم « مسجد
الفقاعى » ، والذى اشتهر بوجود محراب فى وسطه مبنى من الطوب ، كان أول
محراب يبنى فى مصر . وشيد كافور الأخشيدي الدار التى تعرف باسم « دار
الفيل » ، وكانت تقع على بركة قارون بالقرب من جامع أحمد بن طولون ، وسكن بها
فى رجب سنة ٣٤٦هـ / ٩٥٧م

واهتم رجال الدولة الأخشيديية بالعمارة أيضا ، حيث شيد أبو بكر محمد بن
على المادرائى جوسقا ، أى ما يشبه الحصن وسط المقابر كان يجتمع به الناس فى ليلة
النصف من شعبان وأيام الأعياد لتلاوة القرآن الكريم . وأنشأ الوزير أبو الفضل جعفر بن
الفرات بئرا بالفسطاط تشتهر باسم « بئر الوطاويط » ، وذلك سنة ٣٥٥هـ / ٩٦٥م
وقد اندثرت معالم هذه العمارة الأخشيديية ، ولم يبق إلا ذكرها فى كتب
التراث ، بما يشهد بما كان لها من عظمة وبهاء .

— الدولة الأخشيديّة :

التاريخ الميلادي	التاريخ الهجري	الحكام	الأثار
٩٣٤	٣٢٣	محمد الأخشيد	قصر في جزيرة الروضة
٩٤٦	٣٣٤	أبو القاسم أنوجور بن الأخشيد	مارستان في الفسطاط
٩٦٠	٣٤٩	أبو الحسن علي بن الأخشيد	جامع الجيزة
٩٦٦	٣٥٥	أبو المسك كافور	البستان الكافوري
٩٦٨	٣٥٨	أبو الفوارس أحمد بن علي	

(ج) قيام الدولة الفاطمية ببلاد المغرب

وبينما تلك الحوادث تجرى ، قامت فى شمال أفريقيا حركة شيعية تنتسب الى فاطمة بنت النبى ، حتى صارت هذه الحركة تنسب الى اسمها . وأسفر ذلك عن قيام الدولة الفاطمية بالمغرب سنة ٢٩٧هـ — ٩٠٩م .

وتفصيل ذلك أن الدعوة الشيعية غدت منذ قيام الدولة العباسية سرية ، بسبب امعان معظم الخلفاء العباسيين فى اضطهاد أشياعها . واتخذ بعض دعاة الشيعة مقرا لهم فى اليمن لقربها من الحجاز ، ملتقى الحجاج المسلمين . وفى أحد مواسم الحج تعرف أحد أولئك الدعاة واسمه أبو عبد الله الشيعى بجماعة من الحجاج من قبيلة كتامة من سكان شمال أفريقيا ، ونجح فى استمالتهم الى العقيدة الشيعية ، وصحبهم بعد انتهاء موسم الحج الى بلادهم .

وتولى حكم أفريقية (تونس) وقتذاك من قبل العباسيين أفراد أسرة الأغالبة (١٨٤ — ٢٩٦هـ / ٨٠٠ — ٩٠٩م) ، التى لم تنجح فى تأليف القلوب حولها ، وأذت الخلافة العباسية بمحاولة الاستقلال عن بغداد . فوجد أبو عبد الله الشيعى ميدانا لتأليف قلوب الناس بشمال أفريقية لدعوته . وما زال يعمل سرا حتى أضحت قوة عسكرية بفضل ما اجتمع حوله من الكارهين للأغالبة من مختلف القبائل العربية والبربرية . واستطاع أبو عبد الله أخيرا أن يقضى على الأغالبة نهائيا سنة ٢٩٦هـ — ٩٠٩م ، وأن ينادى بأحد سلالة على بن أبى طالب ، ويدعى سعيد بن الحسين أماما ، ولقبه عبيد الله المهدي .

واتخذ عبيد الله المهدي عاصمة له فى رقاده ، وهى ضاحية من ضواحي القيروان . ثم قويت شوكته وكثر أتباعه ، فانتقل سنة ٩٢٠م عن رقادة الى مدينة بناها لنفسه وسماها المهديية نسبة اليه ، وهى على ساحل تونس ، على مسافة ثمة عشر ميلا من الجنوب الشرقى لمدينة القيروان الحالية . وبدأ عبيد الله المهدي يعمل من عاصمته الجديدة على امتداد سلطانه نحو مختلف البلاد المجاورة غربا ، مثل الجزائر

ومراكش ، وشرقاً نحو برقة وليبيا ومصر . وأعلن نفسه خليفة ، فصار بالعالم الاسلامى ثلاث خلافات ، وهى العباسية ببغداد ، والأموية بقرطبة ، والفاطمية بمدينة المهديّة . وبدأ الفاطميون يتطلعون الى الامتداد من بلاد المغرب الى مصر . وتتلخص أهداف الفاطميين وجهودهم للاستيلاء على مصر ابتداء من خلافة المهدي في الخطوات التالية :

أرسل الفاطميون حملة سنة ٣٠٠هـ / ٩١٣م استطاعت القضاء على سلطان العباسيين في برقة . وكانت برقة تعتبر تابعة اداريا لمصر ، وذلك تمهيدا لتحقيق أهدافهم في مصر .

وفى سنة ٣٠١هـ سار جيش فاطمى بقيادة ابن الخليفة نفسه وولى عهده « القائم » وزحف على الاسكندرية والقيوم ، ولكن انتهى هذا الجيش بالعودة بعد أن تصدت له جيوش الخلافة العباسية بقيادة « مؤنس الخادم » .

وفى سنة ٣٠١هـ جاء جيش فاطمى آخر بقيادة « حباسة الكتامى » واستولى على الاسكندرية مرة أخرى . وتمت هزيمة هذا الجيش الفاطمى على يد « مؤنس الخادم » أيضا . ولكن الذى يستلفت النظر فى هذه الحملة الفاطمية الثانية هو ظهور شخصية « محمد بن طغج الأخشيد » ، وكان أحد عمال الادارة العباسية فى مصر . اذ اسهم هذا العامل فى صد تلك الحملة الفاطمية الثانية وأظهر مقدرة فائقة . مما جعل نجمه يعلو ويسير قدما نحو السيطرة على مصر واعادة سيرة أحمد بن طولون وجهاده للاستقلال بمصر . وكان تكرار الحملات الفاطمية على مصر هو الطريق الذى حقق لمحمد بن طغج تحقيق أهدافه .

وفى سنة ٣٠٧هـ جاءت حملة أخرى بقيادة « القائم الفاطمى » ثم تابعت الحملات الفاطمية حتى كان أشدها خطرا سنة ٣٢١هـ . واستطاع العباسيون صد هذه الحملة عن مصر بفضل جهود « محمد بن طغج الأخشيد » . وعندئذ عهدت اليه السلطات العباسية بحكم مصر وذلك سنة ٣٢٣هـ / ٩٣٥م . وجاء ذلك ايذانا بقيام الدولة الأخشيدية فى مصر ، وهى التى ستظل تحكم البلاد حتى سنة ٣٥٨هـ /

٩٦٩م ، وهى السنة التى استولى فيها الفاطميون على مصر .

وفى سنة ٣٥٨هـ كان « المعز لدين الله الفاطمى » رابع الخلفاء الفاطميين ببلاد المغرب قد أعد جيوش دولته واطمأن لقوة ونشاط دعائه داخل مصر ، وأرسل جيوشه بقيادة « جوهر الصقلى » الذى تمكن من فتح مصر . وقام القائد الفاطمى فى نفس تلك السنة بتأسيس مدينة القاهرة تمهيدا لانتقال السلطان الفاطمى اليها .
وفى سنة ٣٦٢هـ / ٩٧٢م انتقل « المعز لدين الله الفاطمى » الى مصر ، واحضر معه آل بيته حتى وفاة أجداده . وكان ذلك ايدانا بأن مصر أصبحت مقر دار الخلافة وهى خلافة جهد الشيعة على الوصول اليها منذ فجر تاريخهم السياسى .

الخلافة الشيعية :

وأدى استقرار الخليفة الفاطمى بالقاهرة الى اشتداد المنافسة بين الفاطميين والعباسيين . فأخذ المعز لدين الله الفاطمى وخلفاؤه يعملون على امتداد دولتهم شرقا حتى اشتملت على الشام ، ثم استقر نفوذ الفاطميين هناك على عهد العزيز بالله (٣٦٥هـ — ٩٧٥م) ، اذ ورث الفاطميون ممتلكات الأخشيديين فى الحجاز والشام ، وغدا اسم الخليفة الفاطمى يذكر فى خطب الجمعة من جميع المساجد من المحيط الأطلسى الى البحر الأحمر واليمن ومكة ودمشق .

وضعف شأن الخلافة العباسية ضعفا شديدا فى ذلك الوقت ، حتى أن اسم الخليفة الفاطمى ذكر فى بعض مساجد العراق نفسها . اذ اغتصب البساسيرى أحد قادة الأتراك فى بغداد جميع مظاهر السلطة من الخليفة العباسى ، وذكر اسم الخليفة المستنصر الفاطمى (٤٢٧هـ — ١٠٣٥م) فى مساجد العاصمة العباسية مدة أربعين جمعة متتالية نكايه فى العباسيين . وحذت مساجد واسط والبصرة حذو مساجد بغداد ، فأعلنت اسم الخليفة الفاطمى من منابرها . وترتب على ذلك كله ضعف الخلافة العباسية وحيرة خلفائها بين قادتهم العسكريين من الترك ، حتى أن الخليفة القائم العباسى كاد ينزل عن خلافته للفاطميين . وبذا وصلت الخلافة الفاطمية الى

مركز الصدارة فى العالم الاسلامى ، وغدت الدولة الوحيدة صاحبة النفوذ والسلطان فى شرق البحر المتوسط ، وبلغ أسطولها مبلغا كبيرا من السيطرة والتفوق على أسطول الامبراطورية البيزنطية فى العدد والضخامة وحسن الاستعداد . وتحدى الفاطميون خلافة الأمويين بالأندلس ، وحاولوا بسط نفوذهم على القسم الغربى من البحر المتوسط .

انهيار الدولة الفاطمية :

غير أن الدولة الفاطمية على عظمتها واتساع مساحتها وعنايتها بالترفيه عن الشعوب الخاضعة لها ، لم تستطع أن تجتذب إليها أهل السنة ، بل ابتعد عنها علماء السنة وفقهاؤها ، حتى اذا جاء الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٣٨٦هـ - ٩٩٦م وادعى الألوهية لنفسه أخذت الدولة الفاطمية تفقد هيبتها فى قلوب الناس . وأساء الحاكم بأمر الله الى نفسه والى دولة آبائه وأبنائه بعده باصراره على الدعاية لمذهبه ، واضطهاد الطوائف التى أصرت على مخالفته ، بل امتد اضطهاده الى الأقباط واليهود . وبدل على ذلك اغتياله ليلا فى صحراء المقطم على يد رجل سنى بايحاء من سيدة الملك أخت الحاكم .

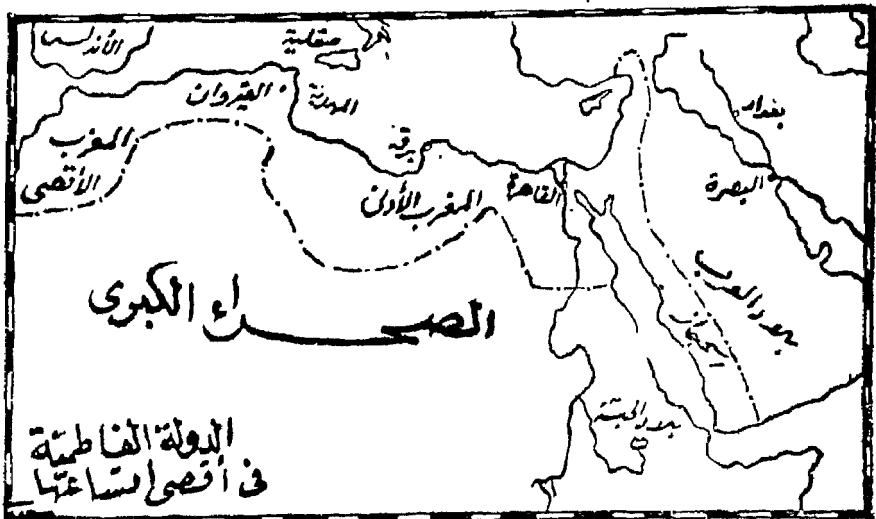
ومع هذا استطاعت الخلافة الفاطمية أن تعيش مدة طويلة بعد الحاكم بأمر الله ، اذ عمدت الى استجلاب مختلف الأجناس من المودان والبربر والترك والأرمن لتقوية جيوشها ، فهيات بذلك أسباب كراهيتها ولا سيما فى مصر . ومع أن الرحالة الفارسى ناصرى خسرو أشاد أثناء زيارته لمصر سنة ١٠٤٥م بما فى القاهرة من بهاء ونظام وثروة على عهد الخليفة المستنصر فان الأحوال لم تلبث أن تغيرت لتنافس أجناس الجيش وثوراتهم ، واهمالهم أمر الأمن اللازم لنمو النشاط الاقتصادى والثقافى للدولة الفاطمية . ثم طرأ على الدولة الفاطمية غلاء فى عهد الخليفة المستنصر هذا ، وظل هذا الغلاء سبع سنوات أعقبها طاعون ، حتى سمي المعاصرون هذا الغلاء باسم « الشدة العظمى » . ومع حدوث غلاء فى عهود سالفة لأيام الشدة العظمى ،

فإنه يبدو أن ما حدث أيام الغلاء على عهد المستنصر أزال ما بقى من هيبة الدولة الفاطمية .

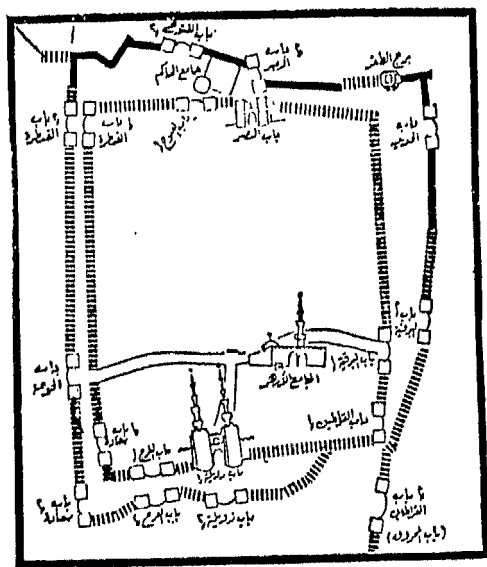
ولم ينقذ الدولة من الانهيار الا سلسلة الوزراء القادرين المعروفين باسم الوزراء العظام ، وهم يبدأون من بدر الجمالى على عهد الخليفة المستنصر ، وينتهون بشاور على عهد الخليفة العاضد . ذلك أن خطرا خارجيا أخذ يستولى على انتباه أولئك الوزراء من ناحية الدولة السلجوقية ومملكة بيت المقدس الصليبية ، إذ أزال السلاجقة سلطان الفاطميين من معظم الشام ، وأتم الصليبيون القضاء نهائيا على نفوذ الفاطميين فى تلك البلاد . وذهب كذلك سلطان الفاطميين عن شمال أفريقيا ، لاستقلال ولاتهم هناك ، ولم يبق للدولة الفاطمية سوى مصر .

وإزداد الموقف سوءا فى الدولة الفاطمية حين أخذت مملكة بيت المقدس الصليبية تطمع فى مصر نفسها ، مع بقاء الخطر السلجوقى ماثلا كذلك فى صورة جديدة قوامها الدولة الزنكية ، التى تفرغت عن الدولة السلجوقية بقيام الأتابك عماد الدين زنكى فى الموصل وحلب . واستولى نور الدين بن عماد الدين زنكى على دمشق سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م ، وعمد الى سياسة منع الصليبيين من امتداد نفوذهم الى مصر . ثم تطورت هذه السياسة الى تنافس بين مملكة بيت المقدس الصليبية ونور الدين بن زنكى عندما اضطرب الموقف الداخلى فى مصر . ذلك أن الوزير الفاطمى ضرغاما سمح للصليبيين بالتدخل فى شئون الدولة الفاطمية ، بل رضى بأن يدفع لهم مبلغا سنويا من المال ضمانا لمساعدتهم له على منافسه فى منصب الوزارة وهو شاور والى الوجه القبلى ، وأن يعد الوعود الكثيرة نظير هذه المساعدة . ولم يستطع شاور الا أن يطلب بدوره المساعدة من نور الدين ، وسرعان ما أصبحت مصر ميدانا لحملات وحرور بين جيوش الصليبيين والجيوش النورية . أما الصليبيون فقاد جيوشهم الملك أمورى الأول ، على حين قاد الجيوش النورية شيركوه الأيوبى والشاب يوسف ، وهو الذى عرفته الأحداث باسم صلاح الدين ، وهو ابن نجم الدين أيوب أخى شيركوه .

وتم النصر لجيوش نور الدين بقيادة شيركوه بعد مقتل ضرغام ، وطلب شيركوه من الوزير شاور أن يفى بما قدمه من وعود مقابل مساعدته على غريمه . لكن شاور نكث بوعوده وراوغ وماطل حتى قرر شيركوه التخلص منه ، وتم ذلك على يد الشاب صلاح الدين . ورأى الخليفة الفاطمي العاضد وقتذاك أن ينقذ الموقف بتعيين شيركوه وزيرا ، فقام فى الوزارة مدة ثلاثة أشهر ، وتوفى بعدها سنة ١١٦٩م . فرأى الخليفة العاضد أن يسند الوزارة الى الشاب صلاح الدين ، أملا أن يكون فى ذلك تمهيدا للتخلص من الجيوش النورية . لكن مواهب صلاح الدين عكست الآية ، اذ تولى صلاح الدين الوزارة ، وطلب الى سيده نور الدين أن يرسل اليه أهله ، كما طلب نور الدين من تابعه صلاح الدين أن يعمل على الغاء الدولة الفاطمية الشيعية . واستطاع صلاح الدين بفضل الخطط التى حبكها أهله ولا سيما أبوه أيوب أن يسقط الخطبة للفاطميين من منابر القاهرة سنة ٥٦٧هـ - ١١٧١م ، ويقال أنه توفى دون أن يعلم بذلك الحادث . وهكذا انتهت الخلافة الفاطمية فى غير جلبة أو ثورة أو حرب ، وهى الخلافة التى عجزت الدولة العباسية عن ازالتها بالحرب أو السياسة .



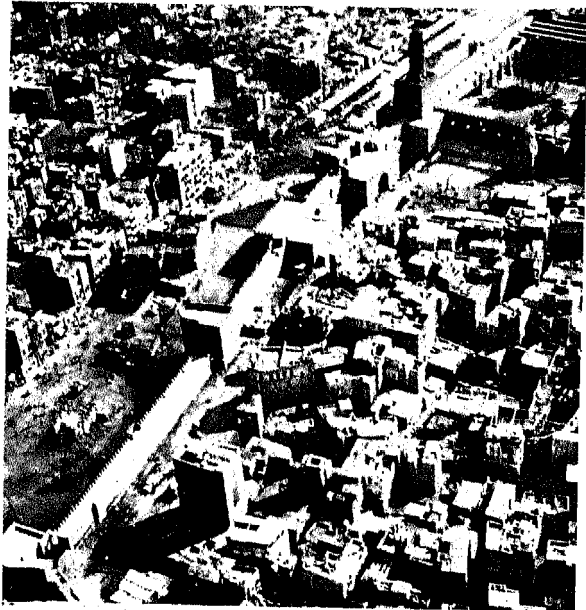
وكانت القاهرة أيام جوهر الصقلى صغيرة ، ليس بها سوى قصر الخليفة والجامع الأزهر وثكنات الجنود . وكان جوهر قد وضع فى ١٨ شعبان ٥٣٥٨ / ٩٦٩م أساس القصر الذى بناه لمولاه المعز لدين الله الفاطمى قبل حضوره الى مصر ، وكان هذا القصر يقع فى شرق المدينة وصار يعرف باسم القصر الشرقى الكبير . ثم أخذ العمران يدب الى القاهرة وتوسع أرجاؤها ، فبنى الخليفة العزيز قصراً آخر فى مواجهة قصر والده ، صار يعرف باسم القصر الغربى ، وكان أصغر من قصر أبيه بعض الشيء . وكان بين القصرين فضاء متسع ، يجتمع فيه عشرة آلاف جندى ، وهى المنطقة التى صارت تعرف باسم « بين القصرين » ، كما كان هناك طريق عام اختطه جوهر الصقلى يمر وسط المدينة ، بحيث يمتد من باب زويلة الى باب الفتوح .



أبواب القاهرة الفاطمية .

وأتم الخليفة المعز لدين الله عند حضوره الى مصر القصر الشرقى الكبير ، وذلك يوم ١٧ رمضان سنة ٥٣٦٢ هـ واشتمل هذا القصر على دواوين الحكومة وخزائن السلاح ، حيث بلغت حجرات القصر أربعة آلاف حجرة . وكان لهذا القصر أبواب كثيرة ، منها باب الذهب حيث كانت تعلوه منظره الآن مجلس الخليفة بها ليشرف على الاحتفالات التى تقام هناك ، وكذلك باب العيد وأمامه رحبة متسعة كانت الجنود تقف بها فى يومى العيدين ، وباب الديلم وموضعه الآن مسجد الحسين ، ويصل الى باب الزعفران ، وهى مقبرة الخلفاء وسائر أفراد الأسرة المالكة وموضعه الآن خان الخليلى . وكان المعز لدين الله قد أحضر معه جثث اقربائه الذين حكموا بالمغرب وهم : المهدي والقائم والمنصور ، حيث وضعها فى توابيت ثم دفنها فى هذه المقبرة تربة الزعفران .

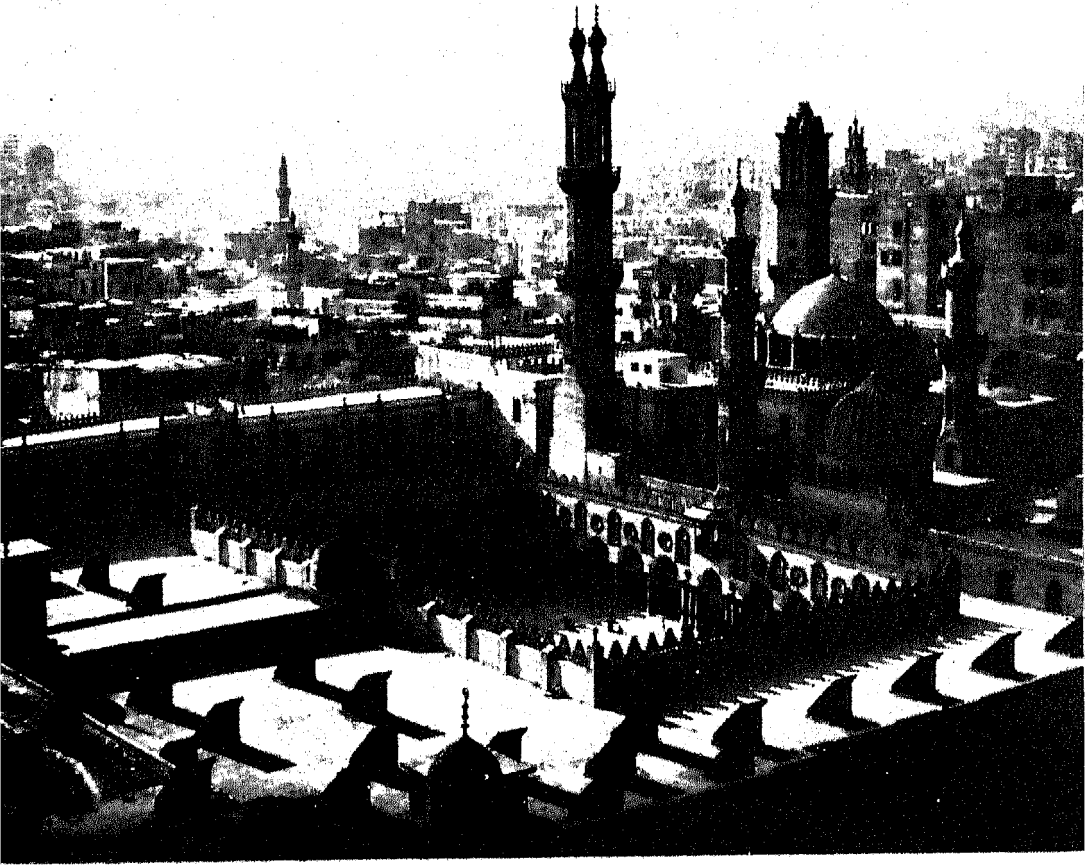
وأحيطت القاهرة الفاطمية بسور تناوله التجديد مرات عديدة باتساع رقعتها ، وأصبحت دار خلافة تنافس دار الخلافة العباسية ببغداد .



الجانب الشمالى للسور الذى بناه بدر الجمالى حول مدينة القاهرة الفاطمية سنة ١٠٨٧ / ٥٤٨٠ م .

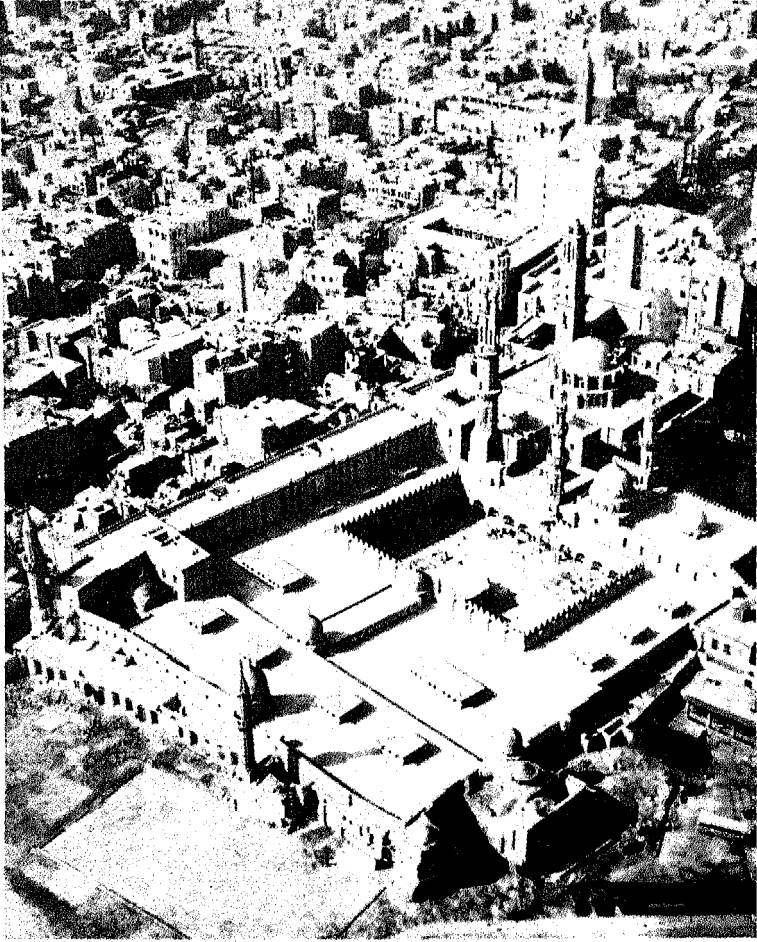
الجامع الأزهر :

ولما أتم جوهر تأسيس القاهرة رأى أن يبني جامعا تقام فيه شعائر المذهب الشيعى ، تجنبا لاثارة شعور أهل السنة . فوضع الحجر الأساسى للجامع الأزهر المعروف سنة ٣٥٩هـ — ٩٧٠م ، وانتهى جوهر من بناء هذا الجامع الكبير بعد سنتين تقريبا ، وأقيمت فيه الصلاة لأول مرة فى رمضان سنة ٣٦١هـ . وكان هذا الجامع يقع على مقربة من القصر الشرقى الكبير .



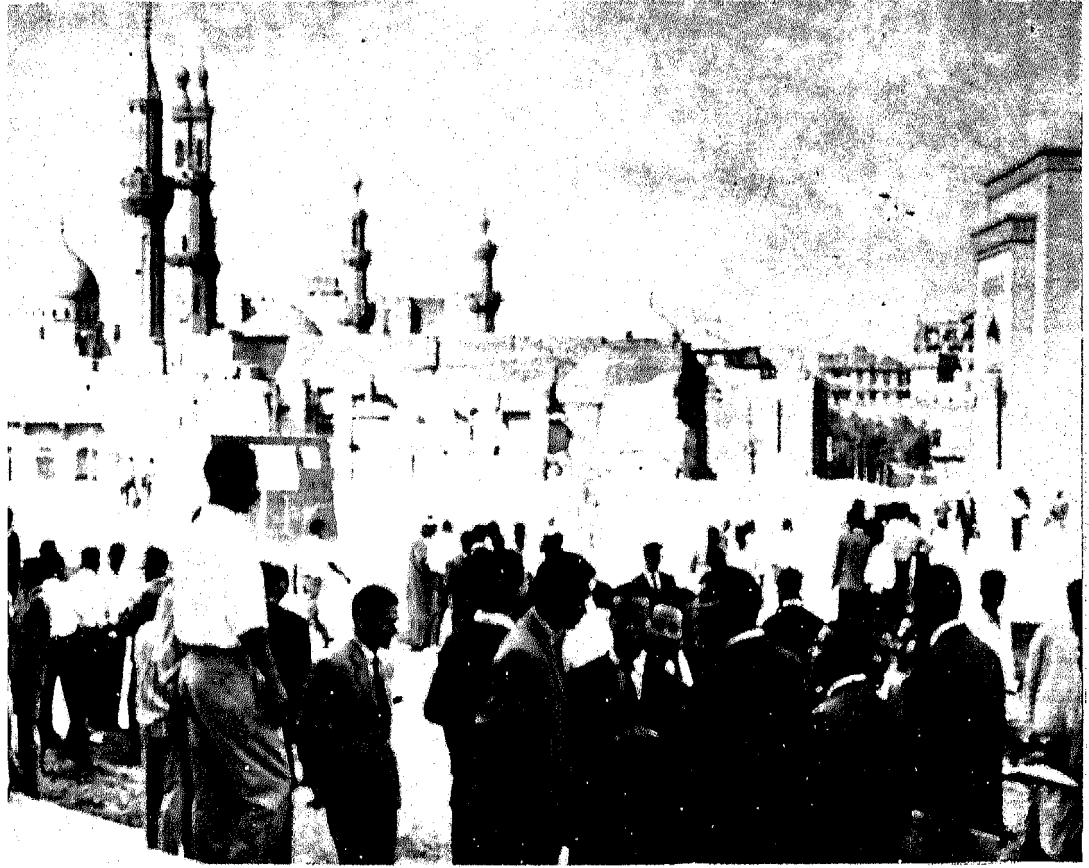
. القاهرة الفاطمية ويتوسطها الجامع الأزهر .

ولم يلبث أن تطور الجامع الأزهر الى جامعة تلقى فيها الدروس والمحاضرات في علوم الدين على المذهب الشيعي ، وذلك باشارة يعقوب بن كلس وزير الخليفة العزيز بن المعز لدين الله سنة ٣٧٨ هـ ، ليكون للدولة الفاطمية مركز علمي يفد اليه الطلاب من ممتلكاتها لدراسة العلوم الدينية ومبادئ الشيعة .



جامعة الأزهر بالقاهرة والمنطقة المحيطة بها .

واجتذب الخليفة العزيز وخلفاؤه الطلاب الى جامعتهم وقدموا اليهم المأكل
والمسكن . ولم يفقد الجامع الأزهر مكانته العلمية بعد زوال الخلافة الفاطمية ، اذ
تولاه سلاطين مصر من المماليك بالرعاية والعناية ، وحفظوا له هيئته وسمعته .
ونال هذا المسجد عناية على مر العصور بحيث صار من الصعب الاهتداء الى
تخطيطه الأصلي ، حيث أعيد تجديد الكثير من أجزائه خلال العصور المتتالية .



. الطلبة الوافدون بجامعة الأزهر بالقاهرة .

قصور الفاطميين :

وأبدع الفاطميون فى بناء القصور الفخمة ، وتنظيم البلاط الخليفى على نسق فاخر ، فبنى جوهر الصقلى أثناء تأسيس القاهرة قصرا للخليفة المعز لدين الله . واهتم ابنه الخليفة العزيز كذلك بتشيد القصور ، وبنى لنفسه قصرا غربى مدينة القاهرة ، وبنيت الملكة تغريد أم الخليفة العزيز قصر القرافة وألحقت به بستانا وحماما فاخرا ، وتردد للناس من على القوم على هذا القصر طلبا للراحة . وأسست هذه الملكة كذلك « منازل العز » وهو قصر فخم على النيل ، دأب ابنها الخليفة العزيز وخلفاؤه على الاستجمام فيه طلبا للراحة .

واهتم الخلفاء الفاطميون بتزيين قصورهم أبهى زينة ، فأنشأ الخليفة العزيز قاعة الذهب التى جعلها مقرا لمجلس الحكومة ، ومكانا لاستقبال الوفود ، وزينها بالسور والطنافس الحريرية ، وكلها من رسم ولون واحد . واتخذ الخليفة العزيز مقعده فى صدر هذه القاعة خلف ستارة لا ترفع الا بعد انعقاد المجلس واكتمال عدد الحاضرين .

واشتهر الفاطميون فضلا عن ذلك ببناء « المناظر » ، وهى الأماكن التى تشرف على الجهات التى يقام فيها الحفلات الرسمية أو تقع فى نواح هادئة تصلح للاستجمام والراحة . ومن أمثلة هذه المناظر ، منظره المقس التى استعرض الخلفاء منها الاحتفال بسير الأساطيل الحربية فى النيل ، ومنظره باب الفتوح لاستعراض الجيوش الفاطمية حين خروجها من القاهرة أو عودتها إليها .

ومازال يشهد بتطور القاهرة الفاطمية ونموها بقايا الأسوار التى أقامها أمير الجيوش بدر الدين الجمالى سنة ٥٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م ، وهى السور الثانى بعد سور جوهر ، وتميزت أبواب السور الثانى بأنها بنيت من الحجارة ، وما زالت باقية ، يشهد بعظمتها باب زويلة الحالى ، وكذلك باب الفتوح وباب النصر . ويشهد بعظمة القاهرة الفاطمية بعض آثارها الباقية أيضا الى اليوم وهى :

أ — جامع الحاكم ، الذى بدأ بناءه الخليفة العزيز بالله فى رمضان سنة ٥٣٨٠ / ٩٩٠ م ، ثم أتمه ابنه الخليفة الحاكم سنة ٥٣٩٣ / ١٠٠٢ م ، وصار ينسب اليه ، ويعرف باسم جامع الحاكم . ويمثل هذا الجامع سجلا معماريا لما حفل به من الزخارف والكتابات ، فضلا عن انه يحتوى على باب للدخول بارز عن الواجهة ، بما يمثل أول طراز من نوعه عرفته العمارة بمصر الاسلامية .

ب — أضرحة السبع بنات ، حيث توجد آثارها على بعد نحو نصف ميل غرب ضريح الامام الليث بن سعد فى السهل القبلى لخرائب القسطنطين . وتنسب هذه الأضرحة الى سبعة أشخاص من أسرة المغربى الذى قتله الخليفة الحاكم سنة ٥٤٠٠ / ١٠١٠ م . وتتميز هذه البقايا المعمارية بأنها تمثل أول تحول فى طريقة بناء القبة ، حيث تحولت المنطقة المربعة الى منطقة مثمثة من الداخل بواسطة محاريب ركنية ، تعلوها رقبة مثمثة ، ثم قبة على منطقة دائرية .

ج — جامع الجيوشى ، ويقع على حافة جبل المقطم خلف القلعة ، أمر ببنائه أمير الجيوش بدر الجمالى سنة ٥٤٧٨ / ١٠٨٥ م . ويعتبر أول جامع بالقاهرة بنى بالحجارة ، كما تميز بمئذنته ذات القاعدة المربعة ، والتي تنتهى بمقرنص يعلوه آخر ، فمثنى مقام على قبة .

د — جامع الأقرم ، وهو يقع بشارع المعز لدين الله ، أنشأه الخليفة الأمر بأحكام الله سنة ٥٥١٩ / ١١٢٥ م . ويتميز بواجهته التى تعتبر أول واجهة مزخرفة فى مساجد مصر الاسلامية .

هـ — المشهد الحسينى ، حيث دفن به رأس الامام الحسين بن على ابن ابى طالب بعد نقله من عسقلان ، حيث شيد لذلك قبة فى سنة ٥٥٤٩ / ١١٥٤ م .

ز — جامع الصالح طلائع ، ويقع فى ميدان باب زويلة ، أنشأه سنة ٥٥٥٥ / ١١٦٠ م الصالح طلائع بن زريك ، وزير الخليفة الفاطمى الفائز . وقد بنى هذا الجامع مرتفعا بنحو أربعة أمتار عن سطح الأرض ، حيث توجد بأسفل الواجهة

حوانيت ، كما تميز باقتباسات معمارية نقلها الفاطميون من المغرب ومن سوريا . ويعتبر هذا الجامع آخر عمارة دينية قامت بالدولة الفاطمية .

الأعياد والمواسم :

وبالغ الفاطميون فى الاحتفال بالمواسم الاسلامية والأعياد وغيرها من المواسم غير الاسلامية كذلك ، واشتهر احتفال الفاطميين بيوم عاشوراء ومولد النبى و ليلة النصف من شعبان . ويقال أن العرائس المصنوعة من السكر ، والحلوى والسكرية وغيرها من هدايا الموالد المصرية فى العصر الحاضر ترجع الى أيام الفاطميين .

ومن أعياد الفاطميين غير الاسلامية خميس العهد الذى يحتفل به النصارى قبل الفصح بثلاثة أيام ، ويوم الغطاس ، وعيد الميلاد عند المسيحيين .

واهتم الفاطميون كذلك باحياء المواسم المصرية القديمة مثل عيد النيروز وهو أول السنة القبطية ، اذ دأب الناس فى مستهل شهر توت على ابقاء النيران مشتعلة ليلة عيد النيروز مع رش الطرقات والبيوت تبركا بقدم فيضان النيل . ووزعت الحكومة الرواتب الاضافية على موظفيها احتفالاً بهذا العيد القومى .

غير أن القاهرة الفاطمية ظلت مدينة حربية ليس للمصريين فيها سوى أعمالهم فى الصناعة وخدمة قصور الخلفاء ، والوظائف الكتابية الصغرى ، والابتهاج بالمواكب الخليفية وليالى الوقود ، وهى ليالى أول رجب و ليلة النصف منه ، و ليلة أول شعبان والنصف منه كذلك وليالى رمضان .

ومما يدل على موقف المصريين من الدولة الفاطمية أن هذه الخلافة زالت فى صمت وسهولة ، وأن صلاح الدين الأيوبي لم يجد مقاومة عندما قام بالغاء الخطبة للخليفة الفاطمى فى صلاة الجمعة . وعندما زالت الدولة الفاطمية ظل المصريون على موقفهم الهادىء ، أما بقايا الفاطميين فأخذت تدبر المؤامرات لاسترداد سلطانها .

الدولة الفاطمية :

الأثار	الحكام	التاريخ الهجرى	التاريخ الميلادى
تأسيس القاهرة القصر الشرقى العظيم جامع الأزهر	المعز	٣٥٨	٩٦٩
القصر الغربى جامع الحاكم	العزیز	٣٦٥	٩٧٥
جامع الحاكم جامع المقس	الحاكم	٣٨٦	٩٩٦
جامع الجيوشى باب النصر باب الفتوح السور الثانى باب زويلة	الظاهر المستنصر	٤١١ ٤٢٧	١٠٢١ ١٠٣٦
جامع مقياس النيل	المبستعلى	٤٨٧	١٠٩٤
جامع الأقرم بضعة مساجد	الأمير	٤٩٥	١١٠١
جامع الأقرم جامع الأقرم جامع الصالح طلائع	الظافر الفائز العاضد	٥٤٤ ٥٤٩ ٥٥٥	١١٤٩ ١١٥٤ ١١٦٠

(د) الدولة الأيوبية

صلاح الدين :

ولد صلاح الدين يوسف الأيوبي سنة ٥٣٣هـ / ١١٣٨م بمدينة تكريت على نهر دجلة شمالي سامرا ، واتصل والده نجم الدين أيوب وعمه شيركوه بالأتابك زنكى ، فنشأ صلاح الدين فى ظل البيت الزنكى ، وتعلم علوم أولاد الأمراء ، وهى حفظ القرآن ودرس الفقه والأدب ، والتدريب العسكرى والفروسية والفنون الحربية المختلفة . واشترك صلاح الدين مع عمه شيركوه فى الحملات التى أنفذها السلطان نور الدين لمنع الصليبيين من الاستيلاء على مصر أواخر أيام الدولة الفاطمية . وأسفرت هذه الحملات النورية عن قيام شيركوه ، ثم صلاح الدين فى الوزارة بالقاهرة ، ولم يكد صلاح الدين يستقر فى شئون وظيفته المزوجة ، وهى قيامه وزيراً فى دولة شيعية لا خليفة لها ، ونائبا لمملكة صاحبها نور الدين ، حتى أخذ رجال القصر الفاطمى يحيكون له المؤامرات . ثم توفى نور الدين سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م فاستطاع صلاح الدين أن يعلن نفسه سلطانا على مصر وعلى جميع أجزاء مملكة نور الدين تدريجيا ، ووافق الخليفة العباسى على سلطنته . والتفت صلاح الدين الى كثير من الأعمال الداخلية فى مصر ، فبنى القلعة الحالية ، وأحاط القاهرة والفسطاط معا بتسور واحد ، وشجع على اقامة معاهد الدراسة الفقهية السنية وهى المعروفة بالمدارس ، ومنها مدرسة الامام الشافعى التى زارها الرحالة ابن جبير سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩م ، ووصفها فى مذكراته وصفا طيبا ، وأنشأ صلاح الدين فى مصر كذلك مستشفى ، هو الثانى من نوعه فى مصر فى تلك العصور .

ثم اتجه صلاح الدين الى حرب الصليبيين ، وتابع سياسة الجهاد ضيدهم حتى انتصر عليهم انتصارا حاسما فى حطين سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م ، بل استولى على كثير من مدنهم بعد ذلك ، حتى لم يبق لهم بالشام سوى صور وعكا وأنطاكية وطرابلس وبعض المدن الداخلية .

ضعف الدولة الأيوبية :

غير أن أبناء البيت الأيوبي في مصر والشام اختلفوا فيما بينهم بعد صلاح الدين وتحاربوا حروبا انتحارية كثيرة . واستعان ملوك الأيوبيين سواء بالشام أو مصر بأجناد من المماليك المجنوبة من مختلف البلاد المجاورة . وازداد نفوذ أولئك الجند المماليك بسبب استمرار الحروب بين أبناء البيت الأيوبي ، حتى أضحى أولئك الجند المماليك أصحاب الأراضي والأملاك والسلطة والنفوذ والحكم والادارة ، فضلا عن القوة الحربية . وأولئك المماليك هم الذين دفعوا الصليبيين عن مصر ، والسلطان وقتذاك الصالح أيوب (سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م) .

ثم توفى السلطان الصالح أيوب ، وولى شئون الدولة بعده زوجته شجر الدر ، وأصلها مملوكة لهذا السلطان . ثم جاء توران شاه بن الصالح أيوب ، واختلف مع زوجة أبيه ، فحرضت شجر الدر زعماء المماليك على التخلص منه بقتله حريقا غريقا في فارسكور سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م ، وبذا انتهت الدولة الأيوبية وقامت دولة المماليك في مصر .

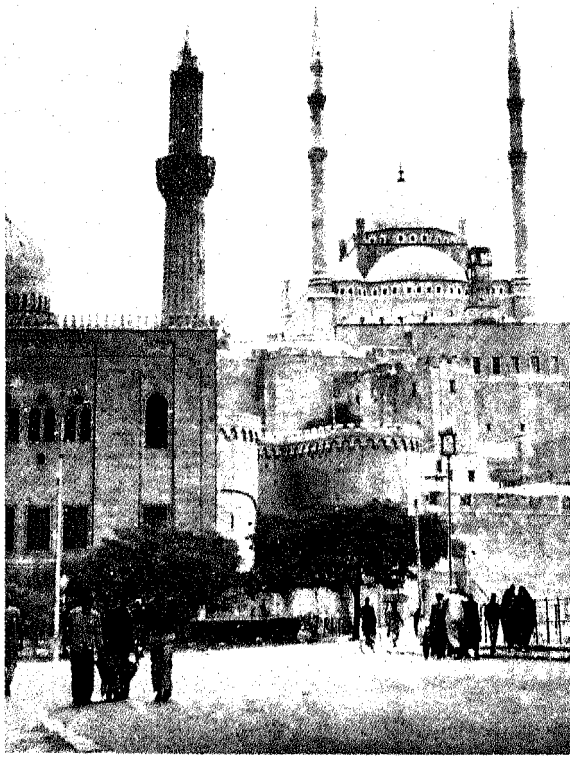
حضارة الدولة الأيوبية :

حفل عصر الدولة الأيوبية بالمنجزات العظمية في حضارة مصر الاسلامية ومنها :

قلعة الجبل (قلعة صلاح الدين)

تمثل القلعة التي بناها صلاح الدين على جبل المقطم فكرة مبتكرة في ميدان العمارة بمصر الاسلامية . وقد عهد صلاح الدين الى وزيره بهاء الدين قراقوش سنة ٥٧٣هـ / ١١٧٧م ببناء هذه القلعة ، ولكن أتم بناءها الملك الكامل سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م . وكان لهذه القلعة سور وأبراج وثلاثة أبواب ، أحدها من جهة القرافة وجبل المقطم والثاني من جهة جدارها البحري ويعرف باسم باب السر ، والثالث يقع مدخله في أول الجانب الشرقي من القلعة ، ويؤدي الى فناء مستطيل به دوواوين الحكومة .

وكان الملك الكامل قد انتقل الى القلعة بعد اتمام بنائها ، واتخذها مقرا
لحكمه ولادارته . ومن ثم صارت القلعة مقرا للدواوين السلطانية ودور الحكومة ،
وغدت تشتمل على كثير من القصور والايوانات والطباق والأحواش والميادين
والاصطبلات والمساجد والمدارس والحمامات . وكان بها أيضا دار الوزارة وديوان
الانشاء (وزارة الخارجية) وبيت المال وخزانة السلطان الخاصة والدور السلطانية
والأبراج التي كان يحبس بها الخارجون على السلطان من الأمراء والمماليك ..
ودخلت تعديلات عديدة على القلعة وبخاصة فى عهد محمد على حيث أخذت
منذئذ شكلها الحالى .

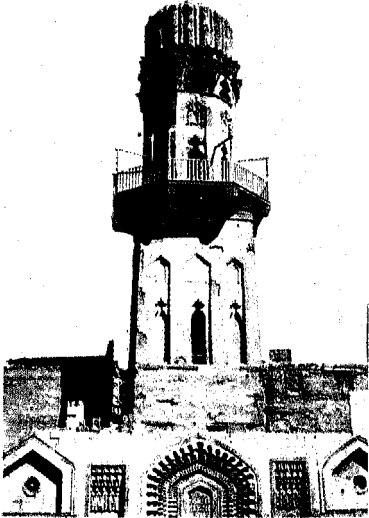


قلعة صلاح الدين .

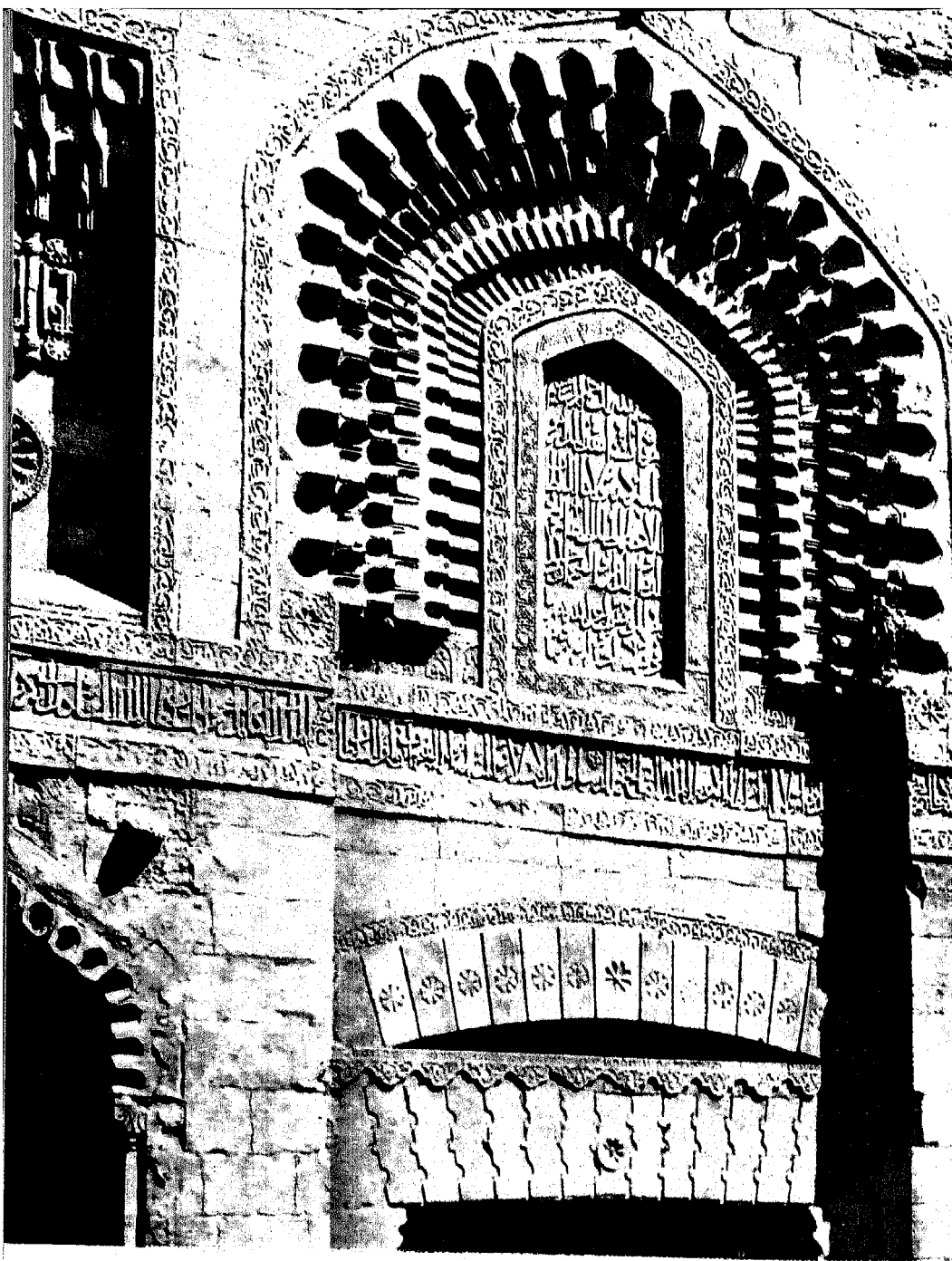
أسوار القاهرة :

وعمل صلاح الدين على ضم القلعة مع عواصم مصر الاسلامية السابقة وهي
الفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة ، ثم أحاطها جميعا بسور عظيم بلغ طوله نحو
خمسة عشر كيلو مترا ، ومتوسط عرضه نحو ثلاثة أمتار ، ويتراوح ارتفاعه بين سبعة
وعشرة أمتار . وكانت واجهة هذا السور مبنية من الحجر المنحوت ، تتخلله الأبراج ،
التي لا تزال بقاياها قائمة في بعض نواحي القاهرة الى اليوم .

وأسس الأيوبيون المدارس لتدريس المذهب السني ، رغبة في ازالة أثر
المذهب الشيعي ومعاهده في مصر . فبنى صلاح الدين مدرسة بالقرب من قبر الامام
الشافعي بالقرافة وكذلك المدرسة الناصرية والقمحية . وبنى الملك الكامل دار
الحديث أو الكلية الكاملية . وكانت هذه المدارس عبارة عن بناء متجه الى القبلة ،
وفي وسطه صحن كبير مربع ، وفي كل جانب من جوانبه الأربعة إيوان تعلوه قبة تحتها
محراب . وكانت هيئة المدارس في جملتها أشبه بالمسجد ، وكان الطلاب يذهبون
الى تلك المدارس ويتلقون العلم بالمجان .



مئذنة المدارس الصالحية .



زخارف تعلقو مدخل المدارس الصالحة .

ومن أشهر عمائر المدارس الأيوبية مدرسة الصالح نجم الدين أيوب ، حيث كانت أول مدرسة فى مصر الاسلامية للمذاهب الأربعة ، وغدت أساسا لتطوير تصميم المدرسة . وتكونت مدرسة الصالح نجم الدين من جزئين رئيسيين يفصلهما ممر ، وتعلو مدخله مئذنة ، وكل جزء يتكون من إيوانين متقابلين بينهما فناء . وأضيف إلى المدرسة ضريح بجوار الإيوان الغربى تعلوه قبة .

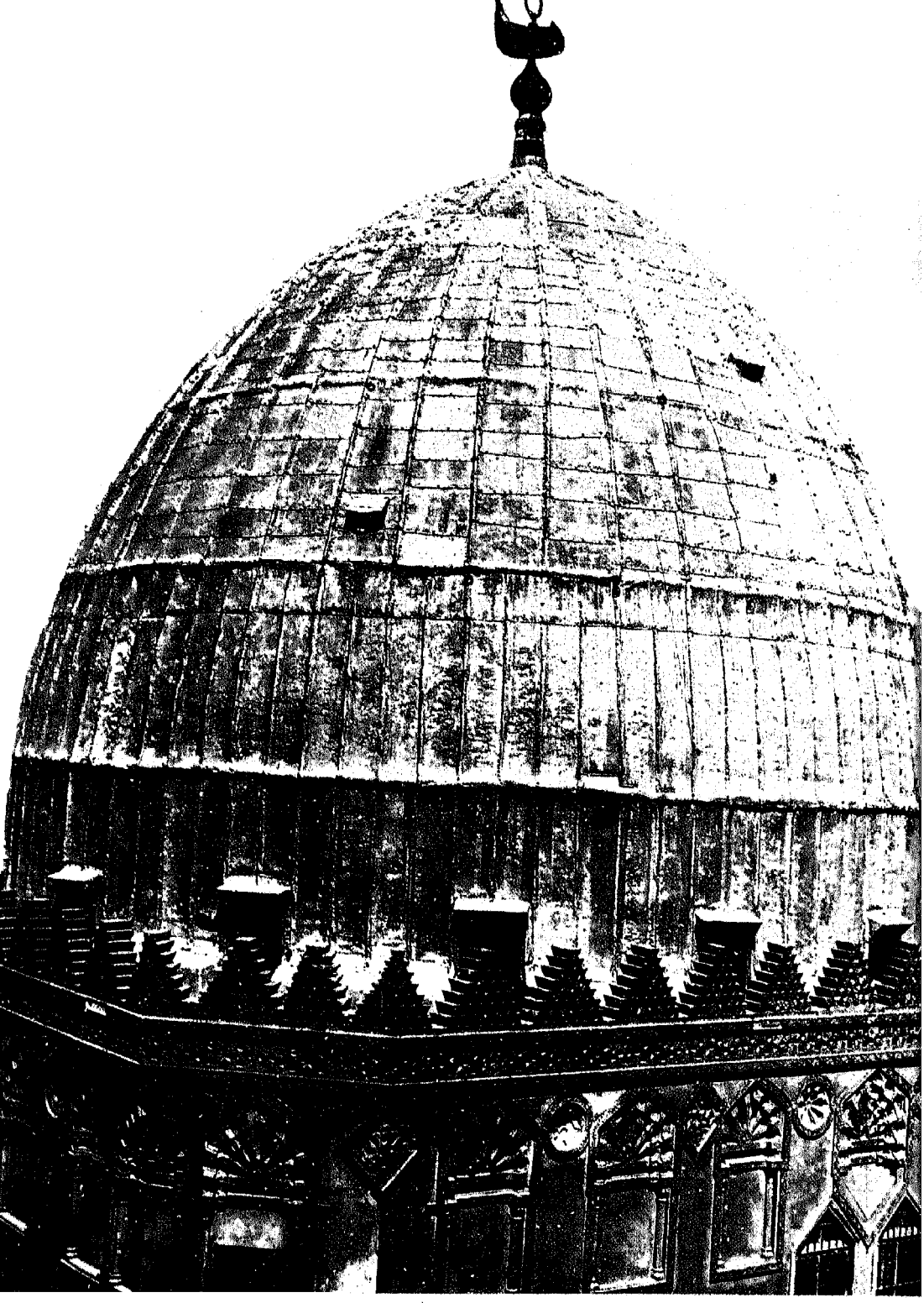
بناء المنصورة :

شيد الأيوبيون مدينة جديدة هى المنصورة ، أنشأها السلطان الكامل سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م . على الشاطيء الشرقى لفرع دمياط ، لتكون مقرا يصمد منه زحف الصليبيين وحملتهم التى قادها ملك فرنسا لويس التاسع على مصر . واستطاعت المدينة الجديدة أن توقف الخطر الصليبي ، وأن توقع بالصليبيين الهزائم ، حيث أسر لويس التاسع نفسه ، ووضع أسيرا فى دار ابن لقمان بالمنصورة . ولم تلبث المنصورة أن اتسعت وازدادت عمارتها وغدت تحمل معالم الحضارة الأيوبية ومنجزاتها الرائعة .

القباب

وارتبط بالعمارة الأيوبية الاهتمام ببناء القباب ، ومنها قبة الامام الشافعى ، حيث بنى صلاح الدين فى سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦م تربة الشافعى ، وأنشأ بجوارها المدرسة الصلاحية . وفى سنة ٥٧٤هـ / ١١٧٨م انتهى من عمل التابوت الخشبى الذى يعلو تربة الشافعى ، عليه ترجمة حياة الشافعى ، مع بعض الآيات القرآنية . وشيد الملك الكامل قبة كبيرة ضمها الى قبر الشافعى ، حيث دفن بها ؛ كما أجرى إليها الماء ، وكان الفراغ منها سنة ٦٠٨هـ / ١٢١١م .

وما تزال بعض القباب الأيوبية باقية الى اليوم تشهد مع قبة الامام الشافعى بأهمية هذا اللون من العمارة الاسلامية ، ومنها قبة الخلفاء العباسيين التى انشئت حوالى سنة ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م ، وقبة شجر الدر التى بنتها سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م ، وهى تقع بشارع الخليفة تجاه مشهد السيدة رقية .



قلعة الروضة

وتقترن هذه القلعة بالرغم من بنائها فى أواخر العصر الأيوبي بقلعة الجبل التى بناها صلاح الدين . ذلك أن قلعة الروضة من العمائر التى أمر ببنائها آخر السلاطين الأيوبيين فى مصر وهو الصالح نجم الدين ، حيث شيدها سنة ٥٦٣٨هـ / ١٢٤١م بجزيرة الروضة لتكون سكنا وثكنات لمماليكه الذين أكثر من شرائهم ، وصاروا يعرفون نسبة الى هذا المكان من النيل باسم « المماليك البحرية » . ولما تم بناء هذه القلعة انتقل اليها السلطان وأفراد أسرته واتخذها مقرا لملكه ، وأطلق عليها اسم « قلعة الروضة » تمييزا لها عن القلعة التى بناها صلاح الدين ، حيث سماها « قلعة الجبل » . وأنشأ السلطان نجم الدين بقلعة الروضة القصور والأبراج ، كما جهزها بالكثير من الأسلحة والمعدات الحربية .

الدولة الأيوبية :

التاريخ الميلادى	التاريخ الهجرى	الحكام	الأثار	السنة الهجرية
١١٦٩	٥٦٥	الناصر صلاح الدين بن أيوب	جامع نجم الدين أيوب	٥٦٦
			المدرسة الناصرية	٥٦٦
			المدرسة القمحية	٥٦٦
			المدرسة القطبية	٥٧٠
			المدرسة السيوفية	٥٧٢
			قلعة الجبل	٥٧٢
			البدء فى السور الثالث	٥٧٢
			المارستان	٥٧٥

السنة الهجرية	الأثار	الحكام	التاريخ الهجرى	التاريخ الميلادى
٥٩٢	المدرسة الشبكشية	العزیز بن صلاح الدين	٥٨٩	١١٩٣
		المنصور بن العزیز	٥٩٥	١١٩٨
	المدرسة العادلية	العادل سيف الدين	٥٩٦	١٢٠٠
٦١٢	المدرسة الشريفة			
٦٠٧	أحياء مسجد الشافعى	الكامل بن العادل	٦١٥	١٢١٨
٦٢٢	المدرسة الكاملية			
٦٢٢	المدرسة الفخرية			
٦٣٦	المدرسة الصيرمية	العادل (الثانى) بن الكامل	٦٣٥	١٢٣٨
٦٣٩	المدرسة الصالحية	الصالح أيوب بن الكامل	٦٣٧	١٢٤٠
	جامع الروضة			
٦٤٧	زواية خدام	المعظم توران شاه بن الصالح	٦٤٦	١٢٤٩

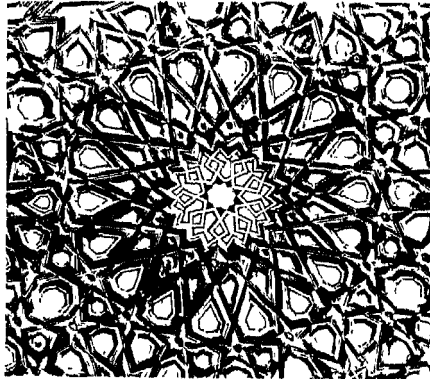
(ه) دولة المماليك

وأقام المماليك شجر الدر سلطنة ، وعينوا أحدهم وهو أيبك التركمان الى جانبها . غير أن الخلافة العباسية صاحبة السيادة الأسمية على مصر لم ترض بتعيين شجر الدر سلطنة على البلاد ، فأقام المماليك أيبك سلطانا ، وخلعت شجر الدر نفسها وتزوجت من أيبك ، بعد أن انفردت بمقاليد البلاد مدة بلغت ثمانين يوما فقط . ويعد أيبك (سنة ٦٤٨ — ٦٥٥ هـ / ١٢٥٠ — ١٢٥٧ م) أول سلاطين المماليك . وجرى المصطلح على تقسيم عهد المماليك الى قسمين ، وهما دولة المماليك البحرية (٦٤٨ — ٥٧٨٤ هـ / ١٢٥٠ — ١٣٨٢ م) ودولة المماليك البرجية (سنة ٧٨٤ — ٩٢٣ هـ / ١٣٨٢ — ١٥١٧ م) . والمماليك البحرية من حرس السلطان الصالح الأيوبي ، أما البرجية فنشأوا حرسا للسلطان المملوكى قلاوون (٥٦٧٨ هـ / ١٢٧٩) . وجاء هؤلاء وأولئك من أجناس مختلفة ، فمنهم التركى والشركسى والمغولى والايطالى والألمانى واليونانى .

وتداول عرش مصر من سلاطين المماليك المعروفين باسم المماليك البحرية أربعة وعشرون سلطانا ، ومن المماليك المعروفين باسم المماليك البرجية ثلاثة وعشرون سلطانا . ولم يحترم المماليك مبدأ الوراثة للعرش لأنهم اعتبروا أنفسهم أسوياء ، لا فضل لمملوك على آخر الا بالشجاعة والسياسة والمقدرة على استمالة التابعين من المماليك .

وبلغت مصر مبلغا عظيما من القوة والثروة والأبهة على عهد سلاطين دولة المماليك الأولى والثانية ، وصدت كثيرا من الأخطار الجسيمة التى هددت البلاد الاسلامية عامة ، والشرق العربى خاصة . ففضى المماليك على النخطر المغولى الذى أزال الخلافة العباسية من بغداد سنة ٦٥٦ هـ — ١٢٥٨ م ، وأخرجوا جيوش الصليبيين من الشام . وأضححت دولة سلاطين المماليك هى القوة العظمى الوحيدة المدافعة عن كيان العالم الاسلامى ، وآخر الدول المستقلة التى عاشت بمصر .

وأصاب المماليك الترف والعافية بعد أن استقر الأمر لهم ، وتدفقت عليهم الثروات الواسعة بسبب التجارة . فذب الضعف فيهم وكثرت فئاتهم وأحزابهم ، وتضاربت مصالح هذه الفئات والأحزاب ، على حين تطورت الدولة العثمانية التركية فى ذلك الوقت من قوة الى قوة فى آسيا الصغرى والبلقان ، حتى غدت ترى نفسها جديرة بالسيادة العظمى على العالم الاسلامى . ولذا حاربت دولة سلاطين المماليك وقضت عليها فى مصر سنة ٥٩٢٣ / ١٥١٧ م .



الحضارة المصرية زمن المماليك

نظام الحكم :

سار سلاطين دولة المماليك الأولى والثانية على وتيرة أسلافهم وسادتهم الأيوبيين . فالسلطان المملوكى رأس الادارة المصرية والموجه لشئون البلاد . واتخذ المماليك لفظ سلطان جريا وراء العرف الذى ساد الأيوبية فى تلقيب حكامها بالسلاطين . على أن السلطان المملوكى لم يختلف عن سائر مماليك الدولة ، اذ نشأ مثلهم وعاش نظامهم الحربى ، وكثيرا ما نعت نفسه بلفظ المملوك امعانا فى الدلالة على أن وظيفة السلطان لم ترفعه عن سائر اخوانه من المماليك .

وعلى الرغم من محاولة بعض السلاطين أن يجعلوا منصب السلطنة وراثيا فى أبنائهم بعدهم ، لم ينجح مبدأ الوراثة الا أحيانا . اذ اعتمد السلطان على قوته الحربية ، وكثيرا ما اغتصب قادة الجيش المملوكى الأقوياء منصب السلطنة لأنفسهم . فالجيش المملوكى هو الأداة المحركة للشئون السياسية فى البلاد ، وهو جيش اقطاعى يأخذ الأمير المملوكى منه اقطاعا من الأرض مقابل ما يقدمه من الجند والخدمات الحربية فى حروب السلطان . فيقوم أمير مائة مثلا بتقديم مائة جندى يكون هو على رأسهم ، ويقوم أمير خمسين بما يناسب اقطاعه ، أى خمسين جنديا يذهب بهم الى جيش السلطان ، وهكذا .

وسار النظام الادارى فى السلطنة المملوكية على قواعد المركزية الدقيقة ، فالسلطان هو الذى يختار رؤساء الدواوين الكبرى فى القاهرة ، ويعهد اليهم بالاشراف على الادارات المحلية فى الأقاليم . وتعددت الدواوين الحكومية على عهد سلاطين المماليك ، وأهمها ديوان الانشاء الذى تشببه وزارة الخارجية فى العصر الحداثى ، وأهم اختصاصاته تنظيم العلاقات الخارجية للدولة . وديوان الجيش وهو الديوان الذى يقوم على توزيع الاقطاعات وضبطها ونقلها من أمير مملوكى الى آخر . وديوان الأعباس وهو يقوم بما تقوم به وزارة الأوقاف اليوم . وديوان الخصاص ويشرف على

الشؤون المالية التي تتعلق بالسلطان . وديوان النظر وتُشبهه وزارة المالية في العهد الحاضر . ومن المعروف أن هذه الدواوين وغيرها من أدوات الجهاز الحكومي قامت زمن الفاطميين ، غير أنه زاد عليه ما أدخله سلاطين الأيوبيين والمماليك من تنظيم في ادارتها واختصاصاتها .

واشتهر رئيس كل ديوان باسم الناظر في أعماله ، ثم يليه نائب يسمى مستوفى الصحبة ، لملازمته الناظر في أعماله ، ثم يليه موظفون آخرون وهم المعروفون باسم المستوفين ، وكتاب التوقيع وكتاب الدرج والمشددين والكشاف .

انتقال الخلافة العباسية الى القاهرة :

دأب سلاطين المماليك منذ أيام السلطان أيبك على الرجوع الى الخلافة العباسية في بغداد للحصول على تفويضها لهم بالسلطنة وليك بوا حكمهم صبغة شرعية في مصر . ثم تبدلت هذه السياسة تماما بعد أن زالت الائمة العباسية من بغداد على يد هولاءكو وجنوده ، وفكر السلطان قطز ثالث سلا المماليك في اعادة الخلافة العباسية الى بغداد . ثم حدث أن اغتيل السلطان قطز ، وتولى بيبرس السلطنة بالقاهرة ، فاستدعى بيبرس الى القاهرة أحد أبناء البيت العباسي ، واسمه أبو القاسم سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦١م ، وعقد مجلسا عاما حضره جميع رجال الدولة وكبار التجار والناس بالقاهرة ، وشهد جماعة من العربان أمام ذلك الجمع أن أبا القاسم هو ابن الخليفة الظاهر العباسي ، وبذا تمت له البيعة بالخلافة ولقب بالمستنصر . ولما تمت البيعة قلد الخليفة السلطان بيبرس البلاد الاسلامية وما يضاف اليها ، وما سيفتحه الله على يديه من البلاد .

وأخذ بيبرس بعد ذلك يجهز الخليفة بالمال الوافر والجند الكثير لاسترجاع بغداد من المغول . غير أن هذا الخليفة مات قتيلا على يد التتار قبل أن يصل الى بغداد ، فعقد بيبرس النية على اقامة الخلافة العباسية بالقاهرة ، واستدعى عباسيا ثانيا لمبايعته بالخلافة . فلما تمت البيعة وتلقب الخليفة الجديد بلقب الحاكم بأمر

الله ، أمر السلطان بيبرس بالدعاء له فى خطبة الجمعة ، وخطب له فيما بعد على منابر دمشق والمدينة والقدس . وهكذا بعثت الخلافة العباسية بالقاهرة .

وأفاد المماليك من الوضع الجديد ، اذ صار سلاطينهم منذ أيام السلطان بيبرس الى الفتح العثمانى لمصر يتمتعون بمقام سام فى العالم الاسلامى ، باعتبارهم حماة الخلافة ، والمتمتعين ببيعتها . وصارت القاهرة مركز الخلافة تأتى اليها وفود الملوك من البلاد الاسلامية القريبة والبعيدة تطلب تقليدها السلطة فى بلادها .

الأحوال الاقتصادية والاجتماعية :

وساعدت هذه الادارة المملوكية على تنشيط التجارة التى أفادت من موقع مصر الجغرافى على الطريق العالمى بين الشرق والغرب ، واستطاع المماليك بذلك الحصول على أموال كثيرة بالقياس الى ما حصل عليه الفاطميون قبلهم من هذا الطريق .

أما العناية بالزراعة وأحوال الفلاحين فاقترصر اهتمام السلاطين المماليك فيها على استغلال الأرض دون مصلحة الفلاح ، وعاشوا بعيدين عن الأراضى ما عدا أيام الخروج للصيد أو تربيح الخيل فى الربيع ، شأن الملاك المتغييبين الذين لا يعرفون عن أرضهم شيئاً سوى محصولاتها من عرق الفلاح .

والواقع أن المماليك عاشوا طبقة منفصلة تمام الانفصال عن سائر سكان سلطنتهم بمصر والشام . ووصفهم المعاصرون بأنهم أرباب السيف تمييزاً لهم عن أرباب القلم ، أى طائفة الموظفين المدنيين فى مختلف دواوين السلطنة وولايتها ودور القضاء والحسبة ومعاهد العلم . وجاءت هذه الطائفة من الموظفين من المصريين والشاميين الذين ظلوا كذلك طبقة منفصلة عن المماليك وعامة السكان من التجار وأرباب المهن . وعاشت هذه الطبقات الثلاث بمعزل عن الفلاحين وأهل الريف الذين لم يعرفوا عن القاهرة أو الاسكندرية شيئاً ، وقنعوا بتأدية أعمال الزراعة وواجبات النظام الاقطاعى السائد فى البلاد ، وربما عاش الفلاح طول حياته دون أن يرى

صاحب الأرض التى يزرعها مرة واحدة . على أن هذا النظام الطبقي ظل جامدا ما عدا بعض حوادث الزواج والاختلاط بين بضعة المماليك وأصحاب القلم من العلماء أو القضاء وغيرهم من كبار الموظفين المدنيين .

ومع هذا غلبت القناعة على أهل البلاد ، بسبب ما أفادوا من أجور ومكافآت مقابل ما قاموا به للماليك أرباب السيف وللموظفين أرباب القلم من صناعة الأسلحة والأقمشة والملابس والأواني والأطعمة . ثم ان العصر المملوكى امتلأ بأنواع الملاهى مثل لعب الكرة بالصولجان « البولو » وسباق الخيل ، ومواكب النصر وحفلات الأعياد الاسلامية والمسيحية .

العلوم والآداب :

واستطاع المماليك بفضل حصولهم على الأموال الكثيرة توجيه عنايتهم الى العلوم . وتجلى التقدم العلمى فى ميدان الطب والتاريخ . فاشتهر فى دمشق على عهد المماليك ابن أبى أصيبعة ، أعظم مؤرخى الطب فى العالم العربى (١٢٠٣م — ٥٦٠٠هـ) ، وهو طبيب باطنى درس الطب فى دمشق والقاهرة ، وألف كتابه المشهور « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » . ويدل المستشفى الذى بناه قلاوون وهو « المارستان المنصورى » على مبلغ تقدم الطب على عهد المماليك ، واحتوى هذا المستشفى على أجنحة خاصة لمعالجة الأمراض المختلفة ، مثل الحمى والرمد ، وأقيمت به مدرسة لتعليم الطب ، ولا يزال مبنى قلاوون قائما الى العصر الحاضر ، اذ جعلته وزارة الأوقاف مستشفى للعيون بالقاهرة .

وحفل عصر المماليك بطائفة من كبار المؤرخين منهم ابن وصل وابن أيبك الصفدى وابن دقماق والذهبى والمقريزى والعينى وابن حجر والسيوطى وابن اياس . وحفظت مؤلفاتهم الكثير من أحبار دولة المماليك وألوان الحضارة فيها . وكثرت فى ذلك العصر المؤلفات المعروفة باسم الموسوعات وأشهرها « نهاية الأرب » للنويرى ، و« صبح الأعشى » للقلقشندى .

العمارة المملوكية :

وتجلى بذخ سلاطين المماليك وأمرأؤهم وكذلك ثراؤهم فى ميدان العمارة ، حرصا على الظهور بالتقوى والصلاح معظم الأحيان . اذ امتلأت مصر الاسلامية بالمساجد والمدارس والمدافن التى تميز مآذنها وقبابها سماء القاهرة والاسكندرية حتى الوقت الحاضر . وعنى المماليك بتزيين عمائرهم وقصورهم بالمصاييح والنوافذ ذات الزجاج الملون فى أشكال زخرفية بديعة .

ويمكن القول بأن عصر المماليك هو العصر الذهبى فى تاريخ العمارة بمصر الاسلامية ، وذلك على امتداد دولة المماليك بشطريها المماليك البحرية والمماليك البرجية . وتتضح أهم منجزات هذا العصر الذهبى فيما يلى :

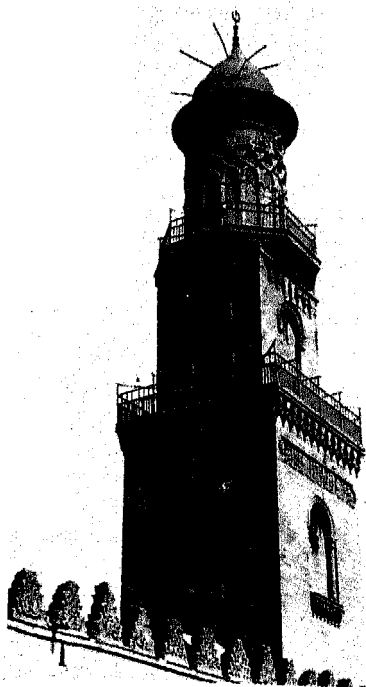
عمارة دولة المماليك البحرية

شهدت العمارة الاسلامية فى عهد دولة المماليك البحرية نشاطا واسعا وحاقتا ، فضلا عن اشراف سلاطين تلك الدولة بأنفسهم على بناء منشآتهم ، والمشاركة أيضا مع المعمارين المسلمين فى التخطيط والتنفيذ . وبدأت معالم هذه العمارة وسماتها المميزة مع السلطان الظاهر بيبرس (٥٦٥٨ / ١٢٧٠ م) الذى يعتبر المؤسس الحقيقى لدولة المماليك البحرية . فقد كثرت المنشآت المعمارية فى عهده حتى فاقت ما تم بناؤه على عهد الدولتين الفاطمية والأيوبية ، وغدت كلها عمائر متصلة الحلقات ، تسود رقعة القاهرة التى اتسعت مساحتها ، وذلك فى تناسق معمارى بديع يجمع بين الأبنية والرباع والخانات والدور والمساجد والحمامات .

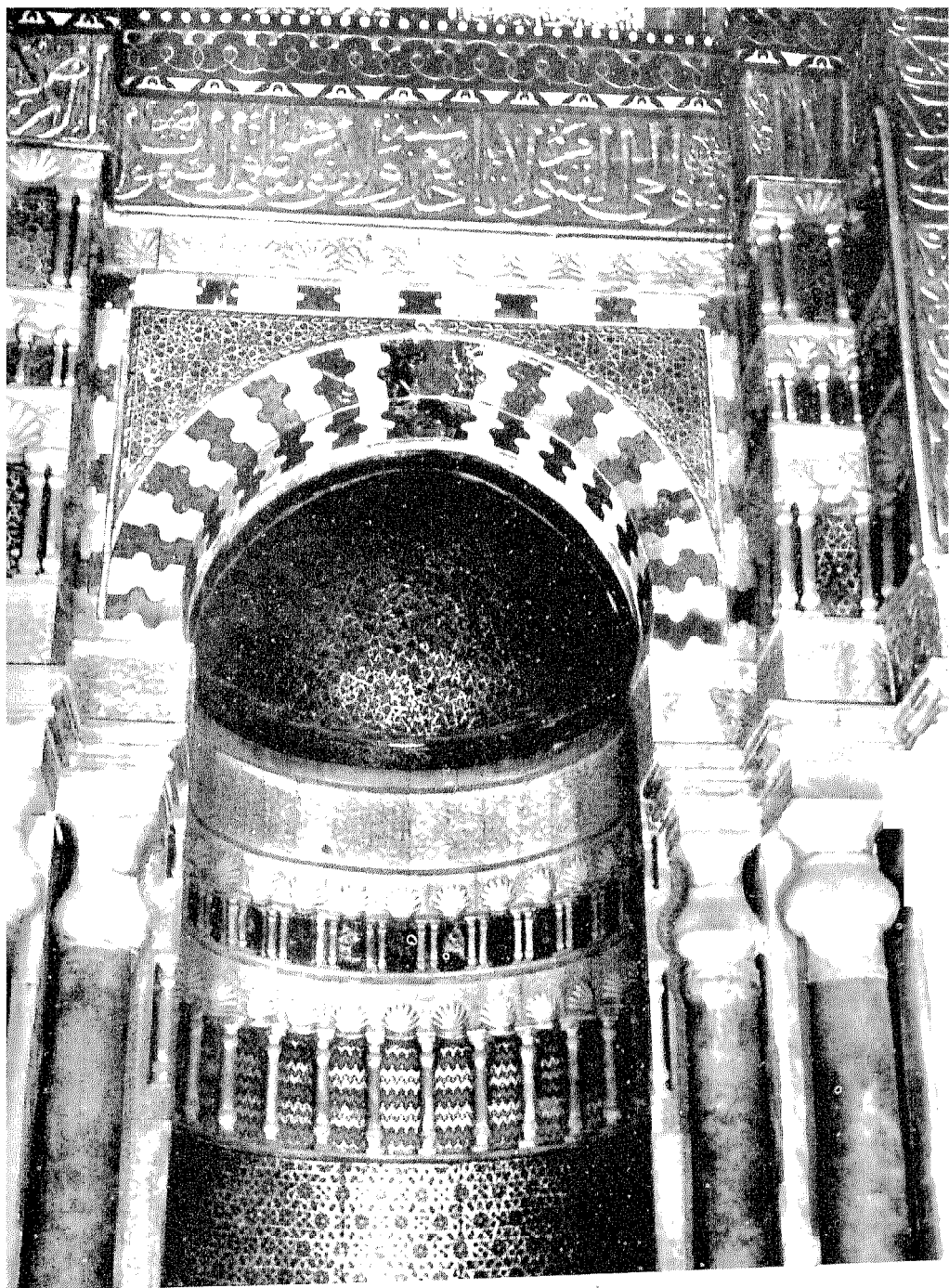
ويحمل تراث هذا النشاط المعمارى للظاهر بيبرس أثرين باقين الى اليوم ، أحدهما المدرسة التى أسسها سنة ٥٦٦٠ / ١٢٦٢ م ، والتى تطل على شارع المعز لدين الله اليوم ، والآخر هو الجامع الذى أسسه سنة ٥٦٦٥ / ١٢٦٦ م خارج باب الفتوح ، والذى ما زال يحمل اسمه الى اليوم فى ميدان حى الظاهر . وبلغ من اهتمام السلطان الظاهر بهذا الجامع أنه شارك بنفسه فى اختيار موقعه وكذلك تخطيطه . أذ رفض هذا السلطان المكان الذى اختاره رجاله للجامع ، وإنما توجه بنفسه الى منطقة

الحسينية التي تقع خارج باب الفتوح في صحبة المهندسين حيث « نزل السلطان »
— كما ذكر المقرئى — ومعه المهندسون الى الموقع الذى حدده ، ورسم بين يديه
هيئة الجامع ، فأشار بأن يكون بابه مثل باب المدرسة الظاهرية وأن يكون على محرابه
قبة على قدر قبة الامام الشافعى .

واستمر النشاط المعمارى من بعد السلطان الظاهر ، ولا سيما فى عهد أسرة
السلطان قلاوون . فقد بدأ هذا السلطان العمارة بإقامة مجمع فى شهر ربيع الآخر سنة
١٢٨٣ / ١٢٨٤م وانتهى منه فى شهر جمادى الأولى سنة ١٢٨٤ / ١٢٨٥م ، ويضم
المدرسة والبيمارستان والضريح ، القائمة آثارها الى اليوم بسوق النحاسين (حاليا
شارع المعز لدين الله) . وقد ظل البيمارستان يؤدي وظيفته كمستشفى فى سنة
١٨٥٦م ، ثم أقامت وزارة الأوقاف مكانه فى سنة ١٩١٥م مستشفى لمعالجة أمراض
العيون .

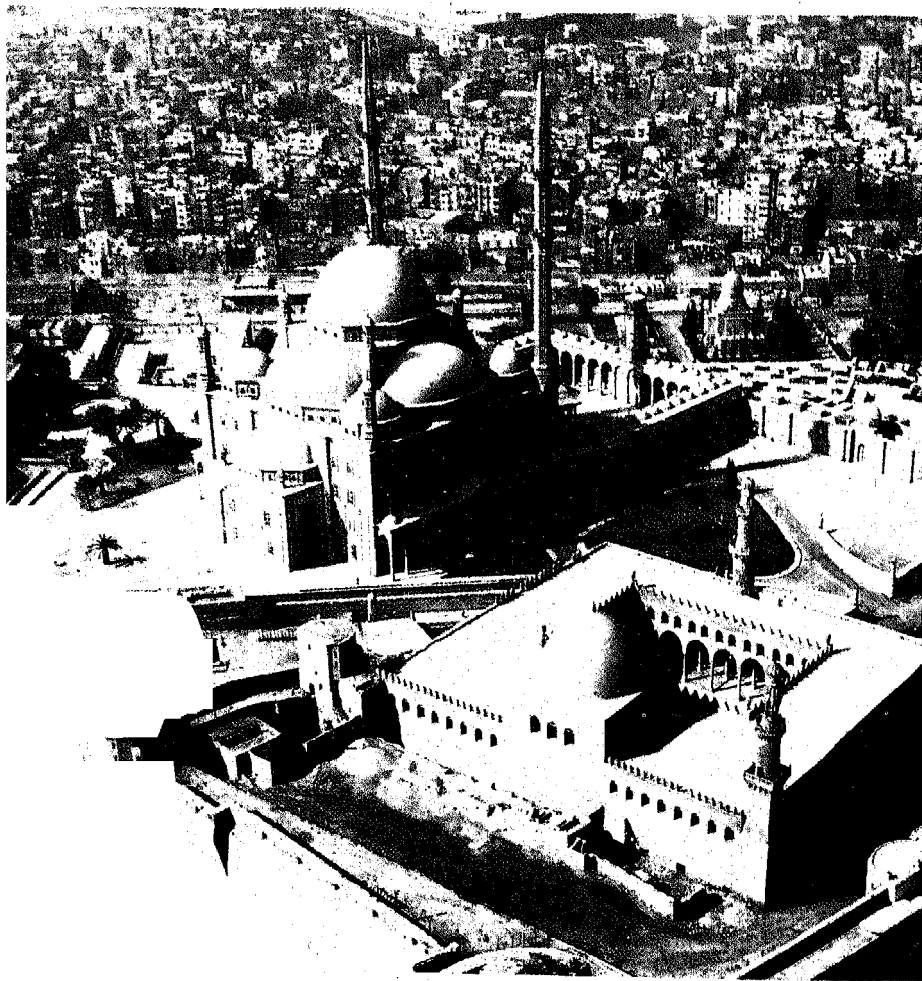


المئذنة التى تملو ضريح المنصور قلاوون .



محراب داخل ضريح المنصور قلاوون .

رتفع شأن العمارة في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣هـ -
 ١٢٩٣ - ١٣٤١م) ، حيث بلغ من شغف هذا السلطان وحبه للعمارة أن
 لها ديوانا قائما بنفسه سماه « ديوان العمائر » ، وبلغ مصروف هذا الديوان
 نى عشر ألف درهم نقرة .

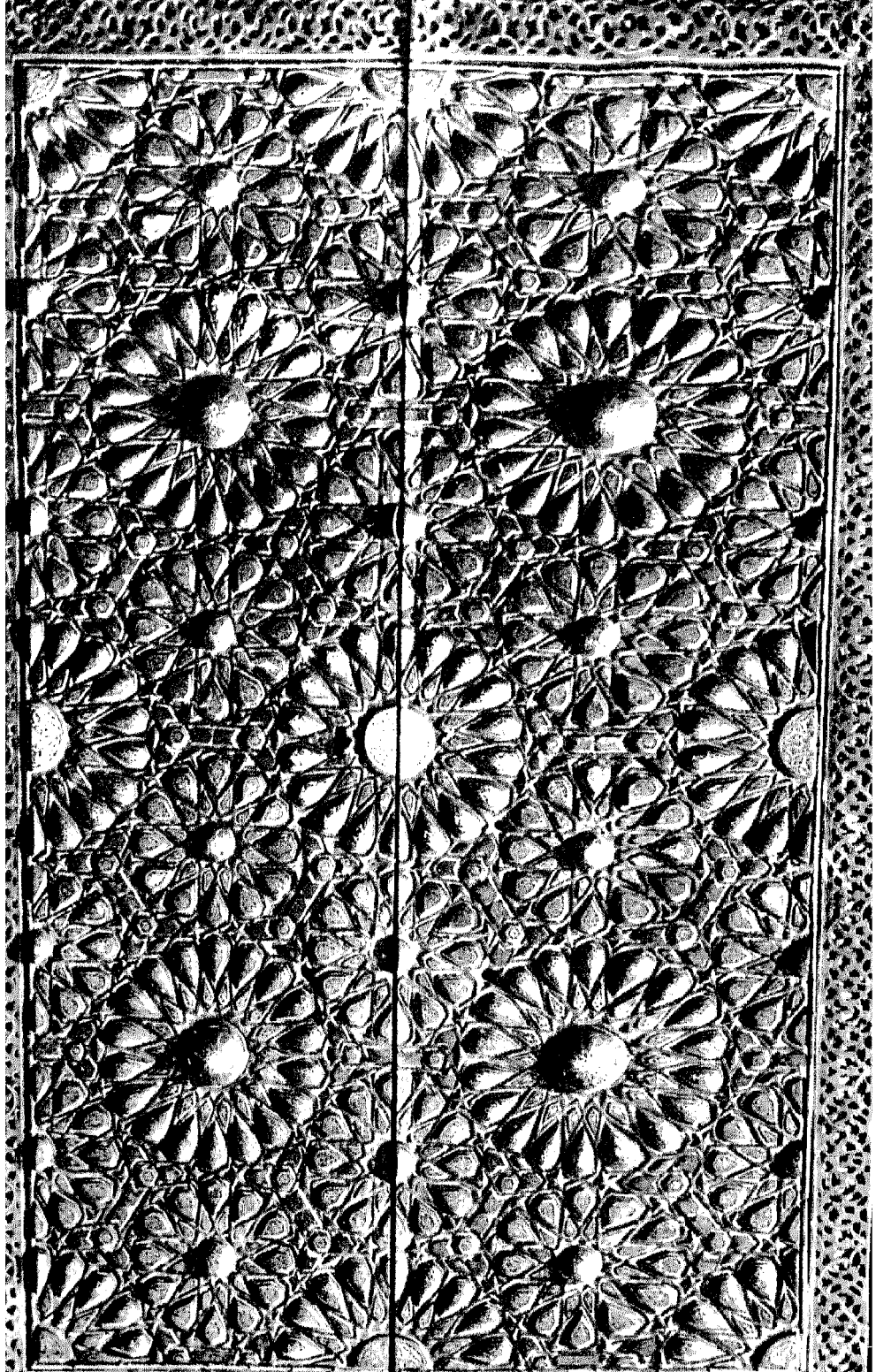


قلعة صلاح الدين وبداخلها مسجد الناصر محمد وجامع محمد على .

وكان الناصر على دراية واسعة بالشئون الهندسية ، وشارك فى كل عمل معمارى تم على عهده حتى قال عنه المؤرخ المقرئى : « وكانت له (أى للناصر محمد) معرفة بأمر العماره وحدث جيد ونظر سعيد ورأى مصيب » وقد شيد الناصر محمد عدة عمائر ، منها « المدرسه الناصريه » التى تقع فى شارع المعز لدين الله وخصصها لتدريس المذاهب الأربعة . وبنى الناصر أيضا القصر الأبلق بقلعة الجبل ، وهو اسم يدل على أسلوب بنائه ، وأنه كان من الحجر الأبيض والأسود . وشيد الناصر بالقلعة أيضا مسجده (٥٧١٨ / ١٣١٨ م) ، كما أنشأ سنة ٥٧٢٣ / ١٣٢٣م خانقاه سرياقوس بضواحي القاهره .

وجرى أمراء الناصر على دين سلطانهم فى العناية بالعمارة ، حيث شيد الأمير قوصون سنة ٥٧٣٠ / ١٣٣٠م جامع الموجود حاليا بشارع القلعة (شارع محمد على سابقا) ، وأقام كذلك الماردانى وكان ساقى الناصر محمد (٥٧٤٠ / ١٣٤٠م) جامع بخط التبانة خارج باب زويلة (وهو حاليا بشارع التبانة بالدرب الأحمر ، وهو من أجل الآثار الباقية الى اليوم بالقاهره من منشآت عصر الناصر محمد .

وتبلغ عمارة دولة المماليك البحرية أوجها فى المدرسه التى أسسها أحد أبناء السلطان الناصر محمد وهو السلطان حسن ، وذلك سنة ٥٧٥٧ / ١٣٥٦م ، وهى المدرسه التى ما زالت تقف شامخة الصرح الى اليوم بميدان صلاح الدين فى مواجهة القلعة . وخصص السلطان حسن مدرسته لتدريس المذاهب الاسلاميه الأربعة ، كما ألحق بها مساكن للطلبة . وتبلغ مساحة هذه المدرسه ٧٩٠٠ متر مربع وارتفاع مدخلها ٣٧ر٨٠ مترا ، هذا فضلا عما تحفل به من زخارف عديدة تجعلها جديرة بأن تكون محط الزائرين الى القاهره ، من داخل البلاد وخارجها ، وأن تهىء للعمارة الاسلاميه نموذجا تزهو به وسط آثار مصر القديمه وتراثها



أهم آثار عصر المماليك البحرية
(٦٤٨ - ٥٧٨٤ / ١٢٥٠ - ١٣٨٢ م)

التاريخ		اسم الأثر	رقم الأثر
الميلادي	الهجري		
٦٣ - ١٢٦٢	٦٢ - ٦٦٠	مدرسة الظاهر بيبرس البندقداري بالحساسين	٣٧
٦٩ - ١٢٦٦	٦٧ - ٦٦٥	جامع السلطان الظاهر بيبرس بالظاهر	
٨٥ - ١٢٨٤	٦٨٣	زاوية وخانقاه أيديكين البندقداري بشارع السيوفية	١٤٦
٨٥ - ١٢٨٤	٦٨٣ - ٨٤	مدرسة وبيمارستان وقبة السلطان قلاوون بالحناسين	٤٣
١٢٨٨	٦٨٧	قبة الأشرف خليل بشارع الأشرف (شارع الخليفة)	٢٧٥
١٢٩٠	٦٨٩	حسام الدين توران طاي	٥٩٠
١٢٩٣	٦٩٣	قصر الين آق (الحسامي) بشارع التبانة باب الوزير	٢٤٩
١٣٠٤ - ١٢٩٥	٦٩٥ - ٧٠٣	قبة الناصر محمد ومدرسته بالحناسين	٤٤
١ - ١٣٠٠	٧٠٠	مدرسة قراسقر بالجمالية	٣١
٤ - ١٣٠٣	٧٠٣	مدرسة ومسجد سجر الجاولي بقلعة الكيش	٢٢١
١٠ - ١٣٠٦	٧٠٦ - ٩	خانقاه بيبرس الجاشنكير بالجمالية	٣٢
١٣١٢	٧١٢	قناطر المياه (عصر الناصر محمد بن قلاوون) بقم الخليج	٧٨
١٣١٤	٧١٤	بقايا قصر محمد بن قلاوون	٥٤٩

التاريخ		اسم الأثر	رقم الأثر
الميلادي	الهجري		
١٣١٥	٧١٤	قبة صفى الدين جوهر بالركيبة	٢٧٠
٢١ - ١٣١٥	٧١٥ - ٢١	مدرسة وقبة سنقر السعدى (حسن صدقة)	٢٦٣
١٣١٩	٧١٩	مسجد الملك الجوكندار بشارع أم الغلام	٢٤
١٣١٩	٧١٩	جامع الأمير حسين بالمناصرة	٢٣٣
١٣٢٢	٧٢٢	قبة سنجر المظفر	٢٧١
٢٥ - ١٣٢٤	٧٢٥	مسجد أحمد المهنندار بالدرب الأحمر	١١٥
١٣٢٦	٧٢٦	سبيل الناصر محمد	٥٦١
١٣٣٠ - ١٣٢٩	٧٣٠	مدرسة مغطاي الجمالى بقصر الشوق	٢٦
٣٠ - ١٣٢٩	٧٣٠	مسجد الأمير الماس بالحلمية	١٣٠
١٣٣٥	٧٣٥	مسجد الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة	١٤٣
١٣٣٥	٧٣٥	قبة طشتمر (حمص أخضر) بالقرافة الشرقية	٩٢
١٣٣٦	٧٣٦	مسجد الأمير بشتاك (الباب الداخلى والمنارة)	٢٠٥
٣٧ - ١٣١٧	٧١٧ - ٣٨	جامع شرف الدين بالحمزواى	١٧٦
١٣٣٧	حوالى ٧٣٨	قصر الأمير يشبك (قوصون)	٢٦٦
٣٩ - ١٣٣٤	٧٣٥ - ٤٠	قصر الأمير بشتاك بالنحاسين	٣٤

التاريخ		اسم الأثر	رقم الأثر
الميلادى	الهجرى		
١٣٣٩ — ١٣٤٠	٧٣٩ — ٤٠	مسجد الطنبغا الماردانى بالتبانة	١٢٠
١٣٣٩ — ٤٠	٧٤٠	مسجد الست مسكة بالحنفى	٢٥٢
١٣٤١	قبل ٧٤٢	وكالة قوصون بباب النصر	١١
١٣٤١	قبل ٧٤٢	مدخل حمام بشتاك بسوقة العزى	٢٤٤
١٣٤٤ — ٤٥	٧٤٥ — ٤٦	مسجد أصلم السلحدار بدرب شعلان	١١٢
١٣٤٦	قبل ٧٤٧	مسجد ايدمر البهلوان بأم الغلام	٢٢
١٣٤٦ — ٤٧	٧٤٧ — ٤٨	مسجد آفسنقر ابراهيم أغا مستحفظان بشارع التبانة باب الوزير	١٢٣
١٣٤٧	٨٤٨	مسجد أرغون شاه الاسماعيلى بالناصرية	٢٠٣
١٣٤٧	٧٤٨	مدرسة قطلوبغا الذهبى بسوقة العزى	٢٤٢
١٣٤٨ — ١٣٦٠	٧٤٨ — ٧٦١	قبة ومدرسة تتر الحجازية بالجمالية	٣٧
١٣٤٩	٧٥٠	مسجد منجك اليوسفى بالحطابة بالقلعة	١٣٨
١٣٥٠	٧٥١	مسجد الأمير شينخو بشارع الصليبية	١٤٧
١٢٥٠	٧٥١	قاعة محب الدين	٥٠
١٣٥٢	٧٥٣	قصر الأمير طاز بالسيفوية	٢٦٧

التاريخ		اسم الأثر	رقم الأثر
الميلادى	الهجرى		
١٣٥٤	٧٥٥	سبيل الأمير شيخو بالحطابة	١٤٤
١٣٥٥	٧٥٦	خانقاه وقبة الأمير شيخو بشارع الصليبية	١٥٢
١٣٥٦	٧٥٧	مسجد خانقاه نظام الدين بالحطابة	١٤٠
١٣٥٦	٧٥٧	مدرسة سرغتمش بشارع الخضيرى (الصليبية)	٢١٨
١٣٥٦ - ٦٢	٧٥٧ - ٦٤	مسجد ومدرسة السلطان حسن بشارع القلعة	١٢٣
١٣٥٩	حوالى ٧٦٠	قبة تنكزيغا بالقرافة القبليّة	٢٩٨
١٣٥٩ - ٦٠	٧٦١	مدرسة بشير أغا الجمدار بنور الظلام	٢٦٩
١٣٦١ - ٦٢	٧٦٢	مدرسة الأمير مثقال بدرم قرمز	٤٥
١٣٦٢	٧٦٤	قبة الأمير تنكزيغا بالقرافة الشرقية	٨٥
١٢٦٣ - ٦٤	٧٦٥	قبة الأمير طولبية بالقرافة الشرقية	٨٠
١٣٦٦ - ٧٧	٧٦٨ - ٧٨	مدرسة خشقدم الأحمدى بشارع الصليبية	١٥٣
١٣٦٨ - ٦٩	٧٧٠	مدرسة أم السلطان شعبان بشارع التبانة (باب الوزير)	١٢٥
١٣٧٠	٧٧١	قبة أفسنقر بقنطرة سنقر	٣١٠
١٣٧٠	٧٧٢	مسجد أسبنغا بدرم سعادة	١٨٥

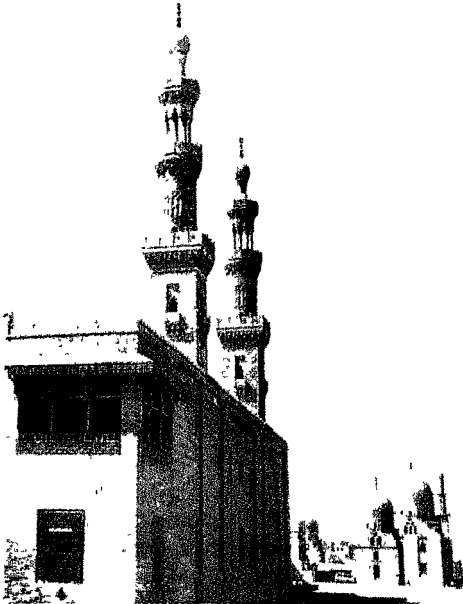
التاريخ		اسم الأثر	رقم الأثر
الميلادي	الهجري		
١٣٧٤	قبل ٧٧٦	المدرسة البقرية بحارة عطوف	١٨
١٣٧٣	٧٧٤	مدرسة الجاي اليوسفي بسوق السلاح	١٣١
١٣٨٢	قبل ٧٨٣	قبة الأمير يونس الدوادار بالحطابة	١٣٩
١٣٨٢	٧٨٣ — ٨٤	قبة الأمير يونس الدوادار (أنس) بالقرافة الشرقية	١٥٧
القرن الرابع عشر	القرن الثامن	بوابة درب اللبانة بالمحجر (القلعة)	٢٢٥
القرن الرابع عشر	القرن الثامن	بقايا ريع طغج بالسيوفية	٢٨٧

هذا الجدول نقلا عن : عبد الرحمن زكي ، القاهرة ، ص ١٠١٥٧

عمارة دولة المماليك الجراكسة

وقفت عمارة دولة المماليك الجراكسة تكمل مسيرة عمارة دولة المماليك البحرية ، وتقدم في الوقت نفسه نموذجا رائعا في تطوير فن العمارة بمصر الاسلامية . ذلك أن عمارة دولة المماليك البحرية اتخذت طابع الضخامة في المبنى تقليدا لها ، على حين استبدلت عمارة دولة المماليك بالضخامة الاهتمام بجمال الفن ودقته وحسن التنسيق بين وحدات المبنى بالرغم من صغر حجمه .

وتتجلى أولى معالم عمارة دولة المماليك الجراكسة في منشآت السلطان برقوق (٧٨٦ — ٧٨٨ هـ / ١٣٨٤ — ١٣٨٦ م) ومن أثارها الباقية الى اليوم مدرسته القائمة بشارع المعز لدين الله ، والتي فرغ السلطان من بنائها سنة ٧٨٨ هـ ، وكذلك خانقاه برقوق التي أكملها ابنه فرج (٨١٣ هـ / ١٤١٠ م) وهي تقع في الجزء البحري من قراقة المماليك ، وتعتبر من أروع المجموعات في ميدان العمارة الاسلامية ، والتي قامت لأداء أغراض متعددة ، اذ تجمع بين مسجد لإقامة الشعائر الدينية وخانقاه لإقامة الصوفية ومدافن للظاهر برقوق وأفراد أسرته ومدرسة لتلقى العلم وحفظ القرآن الكريم ، وكذلك سبيل لتزويد المارة بالمياه .



خانقاه فرج بن برقوق بقراقة المماليك .

وظهرت براعة العمارة فى عصر المماليك الجراكسة فى جامع المؤيد شيخ
١٤١٩م / ٨٢٢هـ ، اذ استغل المعمار وجود باب زويلة ملتصقا بالجامع ، واتخذ من
بدنتى هذا الباب قاعدتين لمنارتى الجامع ، وأتاح لهما بالتالى ارتفاعا شامخا جميلا
وسط عمائر مصر الاسلامية وعلمنا من أعلامها الباقية الى اليوم .

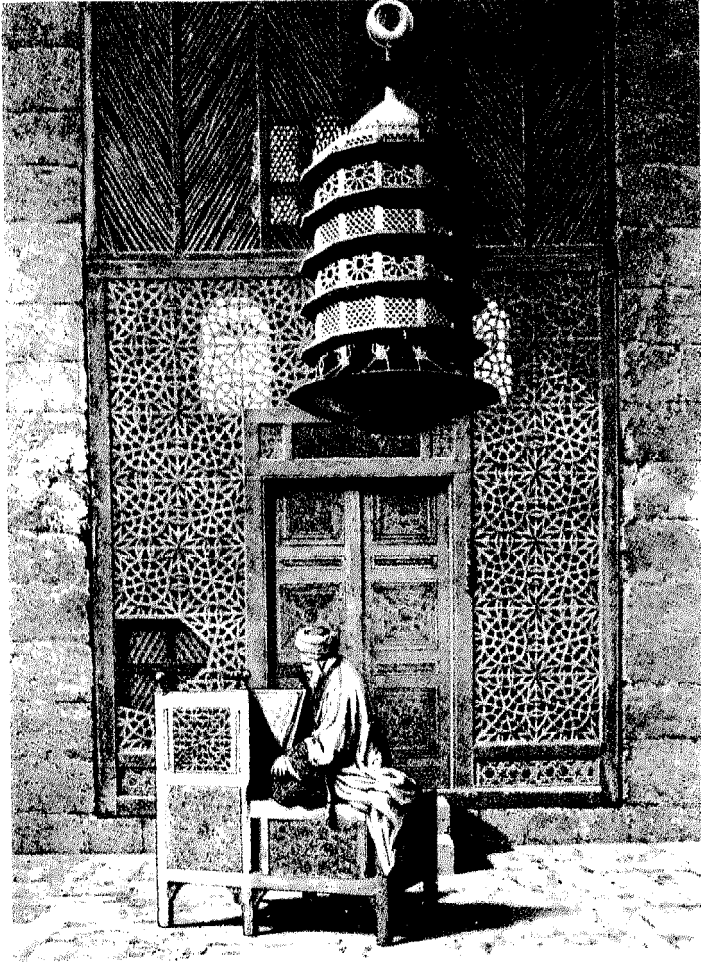


محراب ومنبر جامع المؤيد شيخ

باب زويلة تعلق بدنتيه مثلنتى جامع المؤيد شيخ .



وأخذت معالم العمارة في دولة المماليك الجراكسة تزداد وضوحا وتناسقا في النظام الذي يضم عددا من الوحدات ، وذلك في « خانقاه » الأشرف برسباي بالقرافة الشرقية ، حيث تم انشاء هذه المجموعة سنة ٨٣٥هـ / ١٤٣٢م ، وتشتمل على خانقاه لاقامة الصوفية ، ثم حوش كبير فيه قبور وبقايا قبة ، ومصلى لاقامة الشعائر الدينية .



دكة المقرئ يعلوها تنور من البرونز .

وتابع سلاطين الجراكسة بناء عمائرهم فى القرافة الشرقية حيث غدت فى النصف الأول من القرن النامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى معلما هاما من معالم القاهرة وما حفلت به من عمارة اسلامية . ويتجلى ذلك فيما فام به السلطان قايتباى ، الذى أعاد النشاط الى العمارة المملوكية على نحو ما حفلت به أعمال الناصر محمد . فقد كان السلطان قايتباى موفعا فى أعماله فضلا عن ذوقه الرفيع فى فن الهندسة وعنايته بالتفاصيل المعمارية . ويتجلى ذلك فى مدرسته القريبة من جامع ابن طولون ووكالته بالقرب من الأزهر ، ومجموعة قايتباى بالقرافة الشرقية التى تعتبر من أجمل نماذج العمارة المملوكية ، حيث تضم مدرسة ومسجدا وسبيلا وكتابا وضريحا ومثذنة جيدة المنظر ، حسنة النسق .

وامتد نشاط قايتباى فى ميدان العمارة الى خارج القاهرة ، حيث أقام قلعة بالاسكندرية سنة ٥٨٨٤هـ / ١٤٧٩م ، ما زالت تقف بأثارها شامخة على سواطى مصر على البحر المتوسط . وينسب الى قايتباى ما يزيد عن سبعين أثرا اسلاميا .

وتصل عماره دولة المماليك الجراكسة الى نهايتها فى عصر السلطان قانصوة الغورى الذى زالت بزوال حكمه تلك الدولة ، وما حفلت به من أمجاد سياسية وعمرانية . فقد فام السلطان الغورى ببناء وتجديد الكثير من العمائر ، شملت شتى النواحي بالقاهرة وخارجها ، بل وفى خارج القطر المصرى نفسه . ومن أهم ما قام به هذا السلطان هو اصلاح قلعه الجبل وأبراج الاسكندرية وجدد خان الخليلى وأصلح قبة الامام الشافعى ، ومسجد الامام الليث وأنشأ منارة للجامع الأزهر ، كما شيد عددا من القصور والوكالات والخانات يأتى فى صدارتها مجموعته الباقية الى اليوم فى نهاية شارع الغورية مع تقاطعه مع شارع الأزهر ، وهى المجموعة التى تتكون من وكالة وحمام ومنزل ومقعد وسبيل وكتاب ومدرسة وفبة ، ثم مسجد الغورى الذى يقف علما سامحا فى الوقت الحاضر على أمجاد دولة المماليك بشطريها البحرى والچركسى .

غير أن النشاط المعمارى للسلطان قانصوة الغورى كان أشبه بصحوة الموت ، فما كاد ينتهى فى سنة ٩٠٩هـ — ٩١٠هـ / ١٥٠٣ — ١٥٠٤م من العمل فى المجموعة

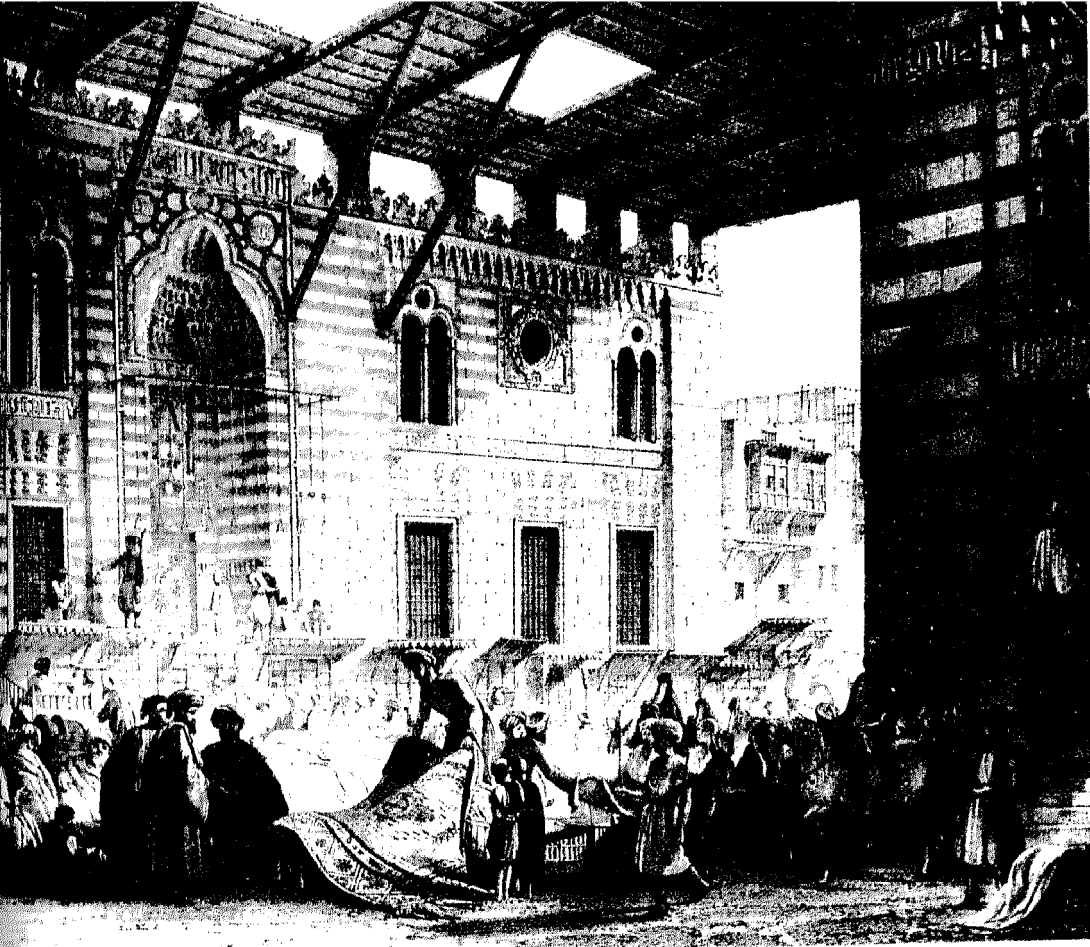


الكبرى التى ما زالت شامخة الى اليوم بالغورية بحى الأزهر حتى دهمت مصر أخطار العثمانيين ، ومصرع السلطان قانصوه الغورى نفسه ، وهو يتصدى لهذا الخطر عند مدينة مرج دابق بالشام سنة ١٥٢٢هـ / ١٥١٦م . وطوت العمارة المملوكية نشاطها مع نهاية السلطان الغورى ، تاركة بأثارها العديدة والشامخة الى اليوم فى شتى أرجاء مصر نماذج عالية عن منجزات العمارة التى قدمتها مصر الاسلامية ، تلبية وخدمة لمطالب الدنيا والدين ، والنهوض بمتطلبات المجتمع على اختلاف طبقاته ومؤسساته .

نهاية دولة المماليك :

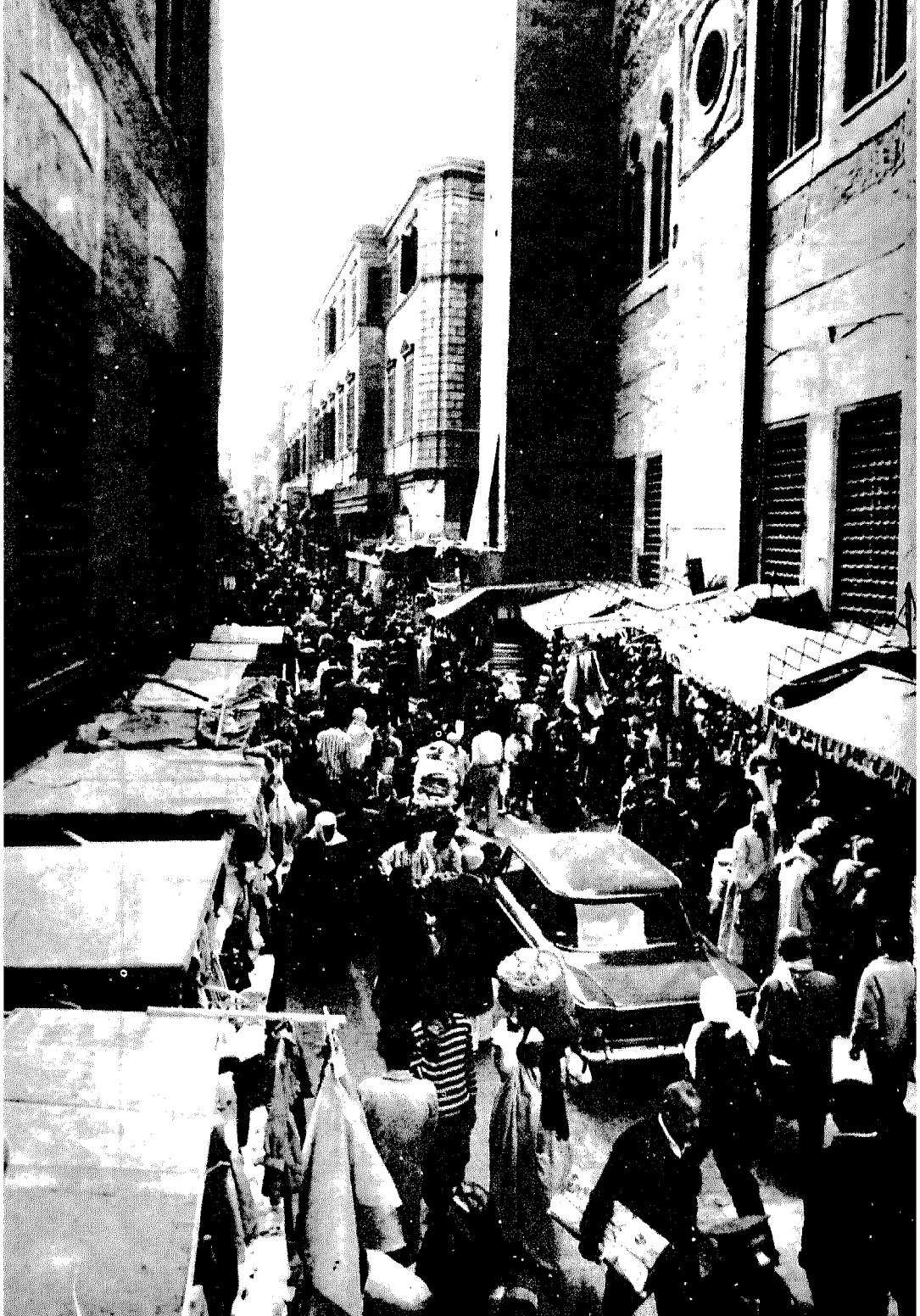
ويرجع علو المستوى الحضارى فى مصر زمن السلاطين الى التجارة الدولية التى قامت مصر فيها بدور الوسيط بين الشرق والغرب ، حتى غدا بعض التجار المصريين أصحاب فروع تجارية بالحبشة والسودان واليمن والهند والصين . وأدرك سلاطين المماليك أهمية هذه التجارة ، ففرضوا الضرائب الجمركية العالية على الصادرات والواردات ، وصرفوا من حصيلة هذه الضرائب على عمائرهم وقصورهم وحرورهم .

ثم أخذت هذه التجارة تتحول تدريجيا عن مصر والبحر الأحمر بعد أن كشف البرتغاليون طريق الوصول الى الهند والخليج العربى بالطواف حول افريقيا ورأس الرجاء الصالح ، والسفر بحرا من أوروبا الى الهند بهذا الطريق مباشرة . ومن ثم فقد المماليك أعظم مواردهم المالية السهلة ، فصارت الأحوال الاقتصادية تدريجيا من رخاء الى ضيق ، ومن غنى الى فقر . وعجز السلاطين ، وأصبح كيان الدولة مهددا ، حتى اذا هجمت جيوش العثمانيين على مصر ، زالت سلطنة المماليك فى سرعة غير منتظرة (سنة ١٥١٧هـ / ١٥١٧م) .



شكل يمثل سوق الغورية .

سوق الغورية بين الماضى والحاضر



أهم آثار القاهرة فى أيام المماليك الجراكسة
(٧٨٤ - ٥٩٢٣ / ١٣٨٢ - ١٥١٧ م)

التاريخ		اسم الأثر	رقم الأثر
الميلادى	الهجرى		
١٣٨٣	٧٨٥	مسجد إيتمش البجاسى بباب الوزير	٢٥٠
٨٦ - ١٣٨٤	٨٨ - ٧٨٦	مسجد السلطان برقوق بالنحاسين	١٨٧
٩٣ - ١٣٩٢	٩٥ - ٧٩٤	مدرسة اينال اليوسفى بالخيامية	١١٨
١٣٩٥	١٩٧	مسجد الكردي (المدرسة المحمودية) بالخيامية	١١٧
١٣٩٥	٧٩٨	مدرسة مقبل الداودى بالحمزاوى	١٧٧
١١ - ١٤٠٠	١٣ - ٨٠٣	خانقاه الناصر فرج بن برقوق بالقرافة الشرقية	١٤٩
١٤٠١	٨٠٤	مدرسة الأمير سودون من زاده بسوق السلاح	١٢٧
١٤٠٨	٨١١	جامع جمال الدين يوسف الاستادار بالجمالية	٣٥
١٤٠٨	٨١١	زاوية وسبيل فرج بن برقوق بشارع تحت الربع	٢٠٣
١٥٠٥	٩١١ - ٨١١	مسجد الامام الليث بمقبرة الامام الشافعى	٢٨٦
١٤١١	٨١٤	مدرسة العينى بشارع الداودارى	١٠٢
١٤١٣	٨١٦	مسجد قايتباى المحمدى بشارع الصلبية	١٥١
٢٠ - ١٤١٥	٢٣ - ٨١٨	جامع السلطان المؤيد بشارع السكرية	١٩٠
١٤١٨	٨٢١	مدرسة الأمير عبد الغنى الفخرى بشارع منصور باشا	١٨٤

التاريخ		اسم الأثر	رقم الأثر
الميلادي	الهجري		
١٤١٨ — ٢٠	٨٢١ — ٢٣	البيمارستان المؤيدى بالمحجر	٢٥٧
١٤٢٠	٨٢٣	حمام السلطان المؤيد	٤١٠
١٤٢٠	٨٢٣	مدرسة القاضي عبد الباسط بالخرنفش	٦٠
١٤٢٥	٨٢٩	المدرسة الأشرفية بالأشرفية	١٧٥
١٤٢٦ — ٢٧	٨٣٠	مسجد جاني بك بالمغربلين	١١٩
١٤٢٧	قبل ٨٣١	قبة جاني بك الأشرفي بالقراة الشرقية	١٢٢
١٤٣٠	٨٣٣	مسجد جوهر اللالا بدرب اللبان	١٣٤
١٤٣٠	حوالي ٨٣٤	مسجد السويدى بمصر القديمة	٣١٨
١٤٣٢	٨٣٥	خاتناه ومسجد السلطان برسباي بالقراة الشرقية	١٢١
١٤٤٠	٤٤	مدرسة ابن تغرى بردى بالصلبية	
١٤٤١ — ٤٢	٨٤٥	منارة قايتباي الجركسى بالمنشية	
١٤٤١ — ٤٢	٨٤٥	مسجد قراقجا الحسنى بدرب الجماميز	
١٤٤٢	٨٤٦	سبيل الوفائية	٥٥٧
١٤٤٤	٨٤٨	جامع القاضي يحيى زين الدين ببين النهدين	١٨٢
١٤٤٦	حوالي ٨٥٠	مسجد الجمالى يوسف بالحمزاوى	١٧٨
١٤٤٨ — ٤٩	٨٥٢ — ٥٣	مسجد القاضي يحيى ببولاق	٣٤٤
١٤٤٩	٨٥٣	مسجد لاجين السيفى بشارع مراسينا	٢١٧

التاريخ		اسم الأثر	رقم الأثر
الميلادي	الهجري		
١٤٥١	٨٥٥	مدرسة جقمق بدرب سعادة	١٨٠
١٤٥١ - ٥٦	٨٥٥ - ٦٠	قبة وخانقاه ومدرسة السلطان الأشرف إينال بالقرافة الشرقية	١٥٨
١٤٥٢	٨٥٦	مسجد يحيى زين الدين بالحبانية	٢٠٤
١٤٥٦	حوالي ٨٦٠	قبة برسباى البجاسى بالقرافة الشرقية	١٢٤
١٤٥٦	حوالي ٨٦٠	رباط زوجة السلطان اينال بالخرنقش	٦١
١٤٥٦	٨٦١	حمام اينال (بالمعز)	٥٦٢
١٤٦٠	حوالي ٨٦٥	جامع ابن برد بك بأم الغلام	٢٥
١٤٦٠	حوالي ٨٦٥	قبة عمر بن الفارض	٦٠١
١٤٦٥	٨٦٩	مدفن جاني بك (نائب جده) بشارع القادرية	١٧١
١٤٦٦	حوالي ٨٧١	قبة عبد الله الدكرورى	٢٨٠
١٤٦٦	٨٧١	مسجد ومنارة مغلباى طاز بحارة بنت المعمار	٢٠٧
١٤٦٨	قبل ٨٧٣	منزل زينب خاتون بحارة الدوادار	٧٧
١٤٦٨	قبل ٨٧٣	قبة سودون القصرى بالباطنية	١٠٥
١٤٦٩	٨٧٣	باب قايتباى والمنارة بالجامع الأزهر	٩٧
١٤٧٢	٨٧٦	مسجد وسبيل تمرآز الأحمدي	٢١٦
١٤٧٢ - ٧٤	٨٧٧ - ٧٩	مسجد وضريح السلطان قايتباى بالقرافة الشرقية	٩٩

التاريخ		اسم الأثر	رقم الأثر
الميلادي	الهجري		
١٤٧٤	٨٧٧ - ٧٩	حوض وضريح السلطان قايتباي بالقرافة الشرقية	١٨٣
١٤٧٤	٨٧٩	مقعد وضريح السلطان قايتباي بالقرافة الشرقية	١٠١
١٤٧٤ - ٧٥	حوالي ٨٧٩	قبة الكلشنى بالقرافة الشرقية	١٠٠
١٤٧٤	٨٧٩	ربع قايتباي بالقرافة الشرقية	١٠٤
١٤٧٤	٨٧٩	سبيل قايتباي	٤١٢
١٤٧٥	٨٨٠	حوض السلطان قايتباي بقلعة الكبش	٢٢٢
١٤٧٥	٨٨٠	مدرسة قايتباي بقلعة الكبش	٢٢٣
١٤٧٧	٨٨١	سبيل وكتاب السلطان قايتباي بالأزهر	٧٦
١٤٧٧	٨٨٢	وكالة السلطان قايتباي بالأزهر	٧٥
١٤٧٨ - ١٥١٠	٨٨٣ - ٩١٦	مدرسة وقبة جاني البهلوان بالسروجية	١٢٩
١٤٧٩ - ٨٠	٨٨٤	مدرسة أبو بكر مزهر خان مرجوش	٤٩
١٤٧٩	٨٨٤	سبيل السلطان قايتباي بالصليبية	٣٢٤
١٤٨٠ - ٨١		وكالة السلطان قايتباي بباب النصر	
١٤٧٩ - ٨١	٨٨٤ - ٨٦	قبة الفداوية	٥
١٤٨٠ - ٨١	٨٨٥ - ٨٦	مسجد وحوض قجماس الاسحاقى بالدرب الأحمر	١١٤
١٤٨١ - ٩٠	٨٨٦ - ٩٦	مسجد قايتباي	٥١٩
١٤٨٥	٨٩٠	منزل قايتباي بحارة الماردنى	٢٢٨

التاريخ		اسم الأثر	رقم الأثر
الميلادي	الهجري		
١٤٨٥	حوالي ٨٩٠	مسجد السلطان أبي العلاء	٣٤٠
١٤٩٤	٨٩٩	باب قايتباي بالسيدة عائشة (المنشية)	٢٧٨
القرن الخامس عشر	القرن التاسع	باب قايتباي بسوقة العزى	٢٣٥
أواخر القرن الخامس عشر	نهاية القرن التاسع	قبة ازدمر بالقرافة الشرقية	٩٠
١٤٩٤ - ٩٥	٩٠٠	مدرسة الأمير أزبك اليوسفي بشارع أزبك	٢١١
قبل ١٤٩٦	قبل ٩٠١	حوض السلطان قايتباي بالأزهر	٧٤
١٤٩٦	قبل ٩٠٤	مسجد السلطان شاه بغيظ العدة	٢٢٩
١٤٩٦	٩٠١	مقعد الأمير ماماي بالنحاسين	٥١
١٤٩٥ - ٩٦	٩٠١	قبة يعقوب شاه المهمندار بسفح المقطم	٣٠٣
١٤٩٩	٩٠٤	قبة قانصوه أبو سعيد	٣٦٠
١٤٩٩	٩٠٤	قبة السلطان قانصوه أبو سعيد	١٦٤
١٥٠١	٩٠٦	قبة طومانباي بالعباسية	٢
١٥٠٢	٩٠٨	مسجد خير بك بشارع التبانة باب الوزير	٢٤٨
١٥٠٣	٩٠٨	مدرسة قايتباي أمير أخور بالمنشية	١٢٦
١٥٠٣ - ٤	٩٠٩ - ١٠	منزل ومقعد وقبة وسبيل وكتاب قانصوه الغوري بالغورية	٦٧ و ٦٦
١٥٠٤	٩٠٩	مسجد السلطان قانصوه الغوري بالمنشية	١٤٨

التاريخ		اسم الأثر	رقم الأثر
الميلادى	الهجرى		
٥ — ١٥٠٤	١٠ — ٩٠٩	مدرسة السلطان الغورى بالغورية	١٨٩
٥ — ١٥٠٤	١٠ — ٩٠٩	وكالة قانصوه الغورى بشارع التبليطة	٦٤
١٥٠٤	حوالى ٩١٠	قبة الأمير سودون	٢٩٤
١٥٠٦	٩١١	مسجد قايتباى الرماح بالناصرية	٢٥٤
٧ — ١٥٠٦	١٣ — ٩١١	مسجد الأمير قرقماش (أمير كبير) بالقرافة الشرقية	١٦٢
١٥٠٦	٩١٢	جامع الدشطوطى بباب الشعرية	١٢
٨ — ١٥٠٦	١٤ — ٩١٢	قناطر المياه (عصر الغورى) بفم الخليج	٧٨
١٦ — ١٥٠١	٢٢ — ٩٠٦	بقايا قصر الغورى بالصلبية	٣٢٢
١٥١١	٩١٧	باب خان الخليلى بخان الخليلى	٥٤
١٥١١	٩١٧	باب خان الخليلى بخان الخليلى	٥٦
١٥١١	٩١٧	قبة قرقماش بشارع باب الفتوح	١٧٠
أول القرن السادس عشر	أول القرن العاشر	خان الزراكية	٣٥١
القرن السادس عشر	أول القرن العاشر	وكالة العجلاية	٤٢٥

هذا الجدول نقلا عن : عبد الرحمن زكى ، القاهرة ، ص ١٨٩

الفصل الثالث

بناء الجيل العربى فى مصر

«ولن نستطيع أن ننظر الى خريطة العالم نظرة بلهاء لا ندرك بها مكاننا في هذه الخريطة ، ودورنا بحكم هذا المكان ... أيمكن أن نتجاهل أن هناك دائرة عربية تحيط بنا ، وأن هذه الدائرة منا ونحن منها ، امتزج تاريخنا بتاريخها ، وارتبطت مصالحنا بمصالحها حقيقة وفعلا وليس كلام» .

(جمال عبد الناصر — فلسفة الثورة)

أولا : جذور الجيل العربى فى مصر

يكون الجيل العربى البنية الأساسية لمصر الاسلامية وما قام على تلك البنية من شوامخ الصروح المجيدة التى شيدتها مصر فى الميدانين السياسى والحضارى لكل من العالمين العربى والاسلامى على حد سواء . وصاحب ارساء قواعد بناء هذا الجيل العربى طلائع الفتح الاسلامى لمصر ، وما اقترن بذلك . من قيام ادارة اسلامية حققت فى نجاح تطبيق العدالة الاسلامية ورعاية حقوق المواطنين فى مصر ، وكذلك نجاح أول عاصمة اسلامية فى مصر وهى الفسطاط فى ربط مواطنى البلاد بمنابع العروبة الأصلية ، وتقديم اسهامات مبكرة فى بناء الجيل العربى الذى ما زالت تزهو به مصر الى اليوم ، ليس بين العرب والمسلمين فحسب ، بل بين أبناء الدنيا كلها أيضا .

وتجلت معالم جذور الجيل العربى وامتداده الأصيل حين نجحت الادارة الاسلامية فى مصر ، منذ ولاية عمرو بن العاص فى خلق انسجام بين سكان البلاد يوفر لهم أسباب الطمأنينة والعيش الرغد لكل منهم . وقام هذا النظام على أساس تحديد حقوق المواطنة بما يكفل لمصر الاسلامية كيانها ويهئ لها أداء رسالتها السامية ، وهى نشر الدين الاسلامى واعلاء كلمته . واشتمل هذا النظام على قواعد جليلة الشأن ، ليس بالمسلمين فحسب ، بل بأولئك الذين آثروا البقاء على دينهم أيضا من سكان مصر ، امثالاً لقوله تعالى : « لا اكراه فى الدين » . فأرسى النظام الاجتماعى الاسلامى قواعد

محددة للجماعات التي أطلق عليها من سكان الدولة اسم « أهل الذمة » ، وهم أهل الكتاب من أصحاب الديانات السماوية المنزلة ، من اليهودية والنصرانية . اذ نص القرآن الكريم على حسن معاملتهم ومعاشرتهم ، وذلك فى قوله تعالى « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا تعبدوا الا الله ، ولا نشرك به شيئا ^(١) » وقال تعالى : « اليوم احل لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ، وطعامكم حل لهم ^(٢) » .

وكلمة الذمة تعنى لغويا العهد والأمان والضمان ، أى أن أهل الذمة هم الذين شملهم الاسلام من النصارى واليهود بعهد و أمانه ، ثم أولئك الذين طبق عليهم المسلمون فيما بعد قواعد « نظام أهل الذمة » من غير النصارى واليهود . وقد أشار القرآن الكريم الى طوائف أهل الذمة وتحديد طبيعة معاملتهم وعلاقتهم بالمسلمين فى قوله تعالى : « ان الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والصابئين ، والنصارى ، والمجوس ، والذين أشركوا ، ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ^(٣) » .

وكان الرسول الكريم أول من طبق عمليا قواعد « نظام أهل الذمة » على النصارى واليهود فى الحجاز ، ثم على مجوس البحرين حين امتد اليهم سلطان الدولة الاسلامية الفتية . اذ فرض الجزية على النصارى واليهود ، ثم قررها أيضا على المجوس قائلًا لعمالة « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » . وكان أخذ الجزية امتثالا لقوله تعالى : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ، ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » . ولم تكن تلك الجزية كما حاول البعض تحريفها نوعا من العقوبة أو الجزاء على الذمى ، وانما كانت اسمى قاعدة لاقرار أهل الذمة على دينهم ، ودفعها مقابل تعهد المسلمين بالمحافظة على أرواحهم وأموالهم ودياناتهم ، واعفائهم من أداء الخدمة العسكرية . ثم ان الجزية فرضت على الذكور البالغين وحدهم من أهل

الذمة ، مما يدل على انها نظام من نظم الدولة ، وليس عقابا ، والا كانت قد تم فرضها على جميع أهل الذمة دون استثناء ، اطفالا ونساء وشيوخا الى جانب الرجال .

وهيا « نظام أهل الذمة » لغير المسلمين أن يكونوا رعايا من أبناء الدولة الاسلامية ينعمون بحمايتها ويمارسون جميع حقوقهم وواجباتهم فى ظل الأمان والضمان والعهد الذى يحصلون عليه مقابل أداء الجزية . وساعدت السوابق التى تقرررت على عهد الرسول الكريم على توضيح معالم هذا النظام بما لا يدعو الى أى خلل فيه ، نظرا لأهميته ومكانته فى البناء الاجتماعى للدولة الاسلامية . فكان يباح لهم الحرية التى يرغبون القيام فيها . وتجلى ذلك فى العهد الذى أعطاه الرسول الكريم لنصارى نجران ، اذ جاء فيه « ولنجران ، وحاشيتها جوار الله ، وذمة محمد النبى رسول الله على أموالهم ، وأرضهم وملتم ، وغائبهم وشاهدهم ، وعشيرتهم ، وبيعهم ، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ، لا يغير أسقفا من أسقفيته ، ولا راهبا من رهبانية ولا كاهنا من كهانته ، وليس عليهم دية ، ولادم جاهلية ، ولا يحشرون ولا يعشرون ، ولا يطاء أرضهم جيش ، ومن سأل منهم جزيتهم فسهمهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين ، ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر ، وعلى ما فى هذا الكتاب جوار الله ، وذمة محمد النبى رسول الله » .

واستهدفت سياسة الرسول الكريم بتأكيد هذه العهود العمل على مزج أهل الذمة مع أبناء المجتمع الاسلامى الجديد ، وتوفير كافة أسباب الطمأنينة الاجتماعية لهم باعتبارهم من رعايا الدولة . فكان يحضر ولائتهم ويعود مرضاهم ويشيع جنازاتهم ويكرمهم . وكان آخر ما تكلم به النبى هو الحث على احترام هذا النظام الاجتماعى الخاص بأهل الذمة ، وذلك فى قوله : احفظونى فى ذمتى .

وتابع الخلفاء الراشدون رفع القواعد التى وضعها الرسول الكريم فى « نظام أهل الذمة » وذلك فى دقة واحترام كامل . ذلك أن الفتوحات الاسلامية تطلبت تطبيق

« نظام أهل الذمة » على سكان الولايات التي خضعت للمسلمين من حدود الصين شرقا الى جبال البرت (البرانس) غربا . وتباينت أديان أولئك السكان ومذاهبهم الدينية ، التي كان أهمها المجوسية فى فارس والبوذية فى الهند الى جانب المسيحية فى مصر والأندلس .

وواجه الخلفاء الراشدون هذا الحشد من السكان وديانتهم فى طمأنينة بفضل قواعد « نظام أهل الذمة » والسوابق التى سبق اقرارها منه على عهد الرسول الكريم . فقد تردد عمر بن الخطاب أولا فى معاملة مجوس العراق وقال : « ما أدرى كيف أصنع بالمجوس ؟ » فقال له عبد الرحمن بن عوف : أشهد أنى سمعت رسول الله يقول « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » . ثم خطا الخليفة عمر خطوة هامة فى دعم نظام أهل الذمة حين حدد مقدار الجزية التى تجبى منهم وأسلوب تطبيقه لتلك الجزية فجعلها حسب ثروة كل فرد من أهل الذمة من الذكور فقط ، مع ابقاء شروط هذا النظام وهو اعفاء الأطفال والنساء والشيوخ من أدائها . فكانت الجزية على القادر أربعة دنانير أو ثمانية وأربعين درهما ، وعلى متوسط الحال ديناران أو أربعة وعشرون درهما ، وعلى الشخص العادى ديناراً أو اثنا عشر درهما . واستهدف الخليفة من ذلك الاجراء جعل الجزية تقنيا محددًا لا يصح لأحد أن ينحرف به أو يستخدمه للاساءة الى أولئك الرعايا من أهل الذمة .

ودعم الخليفة سياسته ازاء أهل الذمة بأن قال : لا يحل تكليفهم مالا يقدرون عليه ولا تعذيبهم على أدائها ، ولا حبسهم ولا ضربهم « وقد روى عن هذا الخليفة أنه مر بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب الناس ، فقال له عمر : ما أنصفتاك ان كنا أخذنا منك الجزية فى شيببتك ، ثم ضيعناك فى كبرك . ثم أجرى عليه من بيت ' ، ما يصلحه . وروى أن هذا الخليفة أكد دائما لعماله حسن معاملة أهل الذمة ، وى لهم قول الرسول الكريم : من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه امة .

وتابع الخلفاء الراشدون من بعد عمر بن الخطاب سياسة حسن معاملة أهل
الذمة ، فكتب عثمان بن عفان الى عماله : لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فان الله
خصم لمن ظلمهم .

وقد تولى فاتح مصر ، وهو عمرو بن العاص تطبيق « نظام أهل الذمة » بنفسه
على الأقباط سكان مصر ، وأتاح لهم التمتع بالحرية الكاملة فى ظل العهد الاسلامى
الجديد . ذلك أن مصر كانت تعاني قبل الفتح الاسلامى لها الاضطهاد الشديد من
البيزنطيين لاختلافهم فى المذهب الدينى مع أولئك المستعمرين المستبدين . فكان
سكان مصر يدينون اذ ذاك بالمسيحية على المذهب « اليعقوبى » على حين كان
المستعمرون البيزنطيون على المذهب الملكانى . وقد بلغ اضطهاد البيزنطيين الدينى
للمصريين أشده حتى اضطر أسقف الاسكندرية المصرى ، وهو بنيامين الى
الاختفاء ، وقيادة حركة المقاومة ضد البيزنطيين .

وظل بنيامين مختفيا حتى فتح عمرو بن العاص مصر . ولما علم هذا القائد
المسلم بقصة ذلك البطريق المصرى واختفائه أصدر الى جميع أقاليم مصر كتابا جاء
فيه « الموضوع الذى فيه بنيامين بطريق النصارى القبط ، له العهد والأمان والسلامة من
الله فليحضر أمنا مطمئنا ، ويدبر حالة بيعته وسياسة طائفية » . وحين علم الأب
بنيامين بذلك عاد الى الاسكندرية وتولى رئاسته الدينية بعد غيبة دامت ثلاثة عشر
عاما ، وسط مظاهر فرح الأقباط وحفاوة المسلمين . وقد ألقى بنيامين خطابا فى
حضرة عمرو بن العاص عبر فيه عن تقديره لنظام المسلمين ازاء أهل الذمة قائلا :
« كنت فى بلدى وهو الاسكندرية ، فوجدت بها أمنا من الخوف واطمئنانا بعد
البلاء ، وقد صرف الله عنا اضطهاد الكفرة وبأسهم » .

وردد عمرو بن العاص لعماله وصايا الرسول بأهل الذمة وخاصة بالقبط من أهل
مصر . ومن ذلك أنه روى عن الرسول قوله : « ان الله عز وجل سيفتح عليكم بعدى
مصر . فاستوصوا بقبطها خيرا ، فان لهم منكم صبها وذمة » لأن هاجر زوج ابراهيم
الخليل وأم ولده اسماعيل كانت مصرية ، وكذلك تزوج الرسول الكريم نفسه من مارية

القبطية ، وأنجب منها ابنا سماه ابراهيم . وترك عمرو بن العاص للطريق بنيامين الحرية الكاملة فى رعاية شئون الأقباط وتدبير أمورهم . ثم ان هذا القائد بسط تلك السياسة الخاصة بنظام أهل الذمة على الأديرة المنتشرة فى سائر أرجاء البلاد . ومن ذلك أنه كان بوادى هيب — بين مريوط والفيوم المعروف اليوم باسم وادى النظرون مائة دير للنصارى . وقد خرج منه سبعون ألف راهب ولقوا عمرو بن العاص بالطوانة بالقرب من الاسكندرية وسألوه الأمان لأنفسهم وأديارهم ، فكتب لهم بذلك أمانا بقى عندهم .

وتجلت فى مصر الحرية فى احتفال الأقباط ليس بأعيادهم الدينية فحسب ، بل وبأعيادهم القومية كذلك . وذكر ابن عبد الحكم من تلك الاحتفالات قصة فيضان النيل وما جرت به عادة المصريين اذ ذاك . فقال ان المصريين ذكروا لعمرو ان لنيلنا هذا سنة لا يجرى الا بها . فقال لهم : وما ذلك . قالوا : انه اذا كان لأثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر بؤونة ، عمدنا الى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلوى والثياب أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها فى هذا النيل . فقال لهم عمرو : هذا لا يكون فى الاسلام ، وان الاسلام يهدم ما قبله . فأقاموا بؤونة وأبيب ومسرى لا يجرى فيضان النيل قليلا ولا كثيرا حتى هموا بالجلء . فلما رأى ذلك عمرو كتب الى عمر بن الخطاب ، فكتب اليه عمر : قد أصبت ، ان الاسلام يهدم ما كان قبله ، وقد بعثت اليك ببطاقة فألقها فى داخل النيل اذا أتاك كتابى . فلما قدم الكتاب على عمرو وفتح البطاقة فاذا فيها : « من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى نيل أهل مصر ، وأما بعد فان كنت تجرى من قبلك فلا تجر ، وان كان الله الواحد القهار الذى يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك . فألقى عمرو بالبطاقة فى النيل قبل يوم الصليب (عيد يحتفل به الأقباط يوم ١٧ توت) بيوم ، وقد تهياً أهل مصر للجلء والخروج لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها الا النيل . فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله ستة عشر ذراعا فى ليلة ، وقطع تلك السنة أسوء عن أهل مصر » .

وهذه الرواية التي انفرد ابن عبد الحكم بذكرها في كتابه « فتوح مصر » تحمل على غرابتها وما فيها من مبالغة معنى هاما وهو أن السلطات الاسلامية بدأت تهتم في مصر بأعياد الأقباط حتى القومية منها ، جريا على القواعد الخاصة بأهل الذمة . اذ أخذ عيد فيضان النيل مظهرا اسلاميا مع احتفاظه بالطابع القومي ، وغدا مناسبة طيبة للتقارب بين الأقباط باعتبارهم من رعايا الدولة الاسلامية وبين العرب المسلمين من أولى الأمر في مصر . ولم يلبث الأقباط أن اشتركوا مع العرب المسلمين أيضا في صلاة الاستسقاء ، وذلك في الحالات التي يأتي فيها النيل في موسمه منخفضا .

ونعم أهل مصر منذ فجر تاريخهم الاسلامي بما توافر لهم وفق « نظام أهل الذمة » ، من حرية فضلا عن الأمان واحترام العهود . وأفاق المصريون من الاضطهادات الطائفية والمذهبية التي سبق أن عانوا منها أيام تبعيتهم للروم (البيزنطيين) قبل الفتح الاسلامي . وعبر عن هذه الحقيقة المبكرة أحد الأساقفة المسيحيين ، وذلك بعد الفتح الاسلامي لمصر بخمس عشرة سنة ، اذ قال : « ان العرب الذين وهبهم الله السيادة في أيامنا قد أصبحوا سادة لنا ، ولكنهم لا يحاربون الدين المسيحي قط ، بل يحافظون على ديننا ، ويحترمون الأساقفة والقديسين ، ويقدمون هدايا لكنائسنا وأديرتنا » ، وهو قول يشبه ما أكده الأساقفة المسيحيون في البلاد الاسلامية الأخرى .

وأناحت قواعد نظام أهل الذمة للأقباط في مصر سرعة الامتزاج مع العرب المسلمين ، وتفهم الدين الاسلامي عن إيمان صادق . ثم اقترن بتلك الظاهرة سرعة اقبال الأقباط المصريين على تعلم اللغة العربية ، والتحدث بها . وأتى نظام أهل الذمة ثماره في مصر حين أتاح لأهلها اعتناق الاسلام في سرعة رائعة وأن يصبحوا جزء لا يتجزأ من أبناء الدولة الاسلامية الشاسعة ، ويعيشون معهم متمتعين بالوحدة والمساواة ، في ظل تعاليم الاسلام السامية التي تقررت قواعدھا في « نظام المواطنة الكاملة » .

ثانيا : دور الفسطاط فى بناء الجيل العربى

الظاهرة الكبرى فى تاريخ مصر هو سرعة ازدهار الحياة العربية فيها ، وتفانى المصريين فى خدمة الحضارة العربية ونشر رسالتها . فاذا كانت مصر تعتبر درة العالم قبل الاسلام . فانها أصبحت أعلى درة فى الوطن العربى بعد الاسلام . ويرجع السبب فى ذلك الى سرعة امتزاج العرب الوافدين الى مصر بعد الفتح الاسلامى ، بسكان البلاد ، وظهور جيل عربى جديد صار الحارس الأمين على المجتمع العربى الناشئ ، وتنمية تقاليده ودعم أوتاده .

وبدأت طلّائع الجيل العربى الجديد فى مصر عقب الفتح الاسلامى لها بوقت قصير ، اذا اقتضى انتشار العرب فى مصر وضع نظام اجتماعى يكفل لهم تحقيق الرسالة السامية التى خرجوا من أجلها من ديارهم ، وهى نشر الاسلام والجهاد فى سبيله . وتمخضت معالم هذا النظام عن تأسيس الأمصار ، لتحفظ لأولئك العرب كيانهم وتوفر لهم المناخ السليم فى البيئات الجديدة التى انتشروا فى أرجائها . ووضع الخليفة عمر بن الخطاب أسس تلك « الأمصار » فى الولايات الاسلامية ، ومنها مصر ، التى شهدت تأسيس الفسطاط .

وأسس هذا المصر المعروف بالفسطاط القائد عمرو بن العاص بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب . وكان هذا القائد حين فتح الاسكندرية وشاهد منازلها وديارها هم باتخاذها معسكرا لجنده وقال : « مساكن قد كفيناها » . ثم كتب الى الخليفة عمر ابن الخطاب يستأذنه فى ذلك . وسأل الخليفة الرسول : « هل يحول بينى وبين المسلمين ماء ؟ قال : « نعم يا أمير المؤمنين اذا جرى النيل » . فكتب الخليفة الى عمرو : « انى لا أحب أن ينزل المسلمون منزلا يحول الماء بينى وبينهم فيه شتاء ولا صيف » .

وتحول عمرو بن العاص عن الاسكندرية ، واختار مكانا قرب حصن بابليون كان قد سبق اقامة معسكره فيه أثناء حصار هذه الحصن ، وتأسس فى هذا المكان « المصر » الذى اشتهر باسم الفسطاط . وتشعبت الآراء حول السبب الذى من أجله

اختار عمرو بن العاص المكان الذى شيده عليه الفسطاط . فروت المراجع العربية كابن عبد الحكم والمقرئى وغيرها حادث اليمامة على أنه السبب الأساسى . وخلصه روايتهم أن عمرو بن العاص ، بعد أن استولى على حصن بابلون ، وهم بالسير الى الاسكندرية أمر بنزع فسطاطه — أى خيمته — فاذا فيه يمامة قد أفرخت وعندئذ قال : تحرمت بمتحرم ، وأمر بالفسطاط فأقر كما كان وأوصى أحد المصريين بالمحافظة على الخيمة حتى تفرخ اليمامة وتطير فراخها . ثم ان عمرو بن العاص حين عاد من الاسكندرية وجد الفسطاط فى مكانه ، فنزل هو وجنده بجواره ، حيث شيده عاصمته هناك ، وانها سميت لذلك باسم « الفسطاط » سنة ٥٢١ / ٦٤١ م .

وذكرت المراجع الأوروبية فى تحليل اسم الفسطاط رأيا يختلف عما روته المصادر العربية ، اذ قال مؤرخو الفرنجة ان اسم العاصمة مشتق من الكلمة الاغريقية fossatum أى المدينة . وان العرب نقلوا هذه الكلمة عن اليونان عند اتصالهم بهم فى حروب الشام . وقد ناقش الاستاذ الدكتور الشيال آراء كل من المؤرخين العرب والأوربيين قائلا : غير أننا يجب أن ندلى برأى يختلف عن هذين وأقرب منهما الى الحقيقة ، ذلك أن كلمة « الفسطاط » كلمة عربية تعنى « مجمع أهل الكورة » ووجدنا أن الكورة هى « الصقع أو المدينة » وبذلك تكون الفسطاط هى مجمع أهل المدينة .

وجاء اختيار مكان الفسطاط فى موضع ثبت أنه موضع مثالى على اختلاف العصور لحكم مصر ، والاشراف على شئون الوجهين القبلى والبحرى ، ومراقبة المداخل المصرية من الصحراء الغربية . وقد بدأ اتخاذ العواصم فى هذا المكان منذ فجر التاريخ المصرى ، عندما أنشأ الفراعنة منف ، واتخذوها عاصمة لهم عقب توحيد الوجهين . وشيد الفراعنة فى نفس الوقت موضعاً آخر على الضفة الشرقية للنيل الى الشمال ، وهو الذى عرف باسم مدينة « أون » التى عربها العرب الى « عين شمس » ، ولا زال اسمها عين شمس الى اليوم . وفيما بين عين شمس وحصن بابلون امتدت مبان وحدائق كان يطلق عليها اسم بابلون ، واحيانا مصر .

وكان فى مضر زمن الفتح العربى مدينتان هامتان ، احدهما الاسكندرية التى كانت العاصمة زمن العهد الرومانى لوقوعها على البحر المتوسط الذى تسيطر عليه الدولة الرومانية ، والمدينة الثانية « بابلون » أو « مصر » . وكانت العاصمة الثانية لوقوعها على رأس الدلتا واشرافها على كل من الوجهين ومداخل الطرق الصحراوية . ولذا لم يكن اختيار عمرو بن العاص هذا المكان ليشيد عليه « الفسطاط » اختيارا اعتباطا ، وانما توافر لهذا المكان جميع الشروط التى اشتراطها عمر بن الخطاب على قاده عند تأسيس « الأمصار » وأهمها القرب من الصحراء ، وسهولة الاتصال بالسلطات المركزية فى شبه الجزيرة العربية .

وبدا عمرو بن العاص تأسيس « المصر الجديد » المعروف باسم الفسطاط على نفس النهج الذى اتبع فى الأمصار الأخرى . اذ شيد أولا المسجد ، ثم أخذت القبائل العربية تشيد لها خططا حول هذا المسجد الذى اشتهر باسم مسجد عمرو ، والذى صار أيضا بمثابة قلب العاصمة النابض . والخطبة معناها الأرض التى ينزلها الانسان ، ولم ينزلها قبله نازل ، أو ما يخطه الانسان لنفسه من الأرض ، أى يجعل لها حدودا ليعلم أنه نازلها . ثم اتسع معناها ، وصار يقصد به الحى الذى يختص به القبيلة أو اصحاب المهنة الواحدة ، أو طائفة من الناس عند تعمير مدينة من المدن .

واتخذت كل قبيلة من القبائل العربية التى جاءت مع عمرو بن العاص خطة فى الفسطاط ، أى أن كل قبيلة نزلت فى جهة معينة أو قسم من تلك المدينة التى اختطوها . وصارت كل خطة تعرف باسم الجماعة التى نزلت فيها . وانتدب عمرو بن العاص أربعة رجال للأشراف على توزيع القبائل على تلك الخطط ، وهم : معاوية بن بيج التميمى . وشريك بن سمي الغطيفى ، وعمر بن مخزوم الخولانى ، وحيويل اشرة المغافرى . وأتم هؤلاء الأربعة عملهم فى سرعة ودقة تامة . وبدأ تخطيط طاط بسيطا ، حيث اختط عمرو بن العاص داره قرب المسجد ، والى جوارها دار عبد الله .

وروى ابن عبد الحكم أن عمرو بن العاص كتب الى عمر بن الخطاب ، أنا قد أخططنا لك دارا عند المسجد الجامع . فكتب اليه عمر . انى لرجل بالحجاز تكون له دار بمصر ؟ وأمره أن يجعلها سوقا للمسلمين . وشيد كبار الصحابة خططا لهم بالفسطاط الى جانب خطة عمرو بن العاص ، منهم خارجة بن حذافة العدوى . وعبد الله بن سعد ابن أبى سرح العامرى ووردان مولى عمرو بن العاص ، وكان حامل لواء عمرو بن العاص ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد الانصارى والزبير بن العوام . وغيرهم كثير . والى جانب منازل قريش والأنصار من رؤساء الجند ، شيدت القبائل الأخرى خططا خاصة بها .

واشتهر من بين خطط الفسطاط خطة مهرة ، وخطة نجيب ، وخطة لخم وجذام وخطة بنى بحر وهم قوم من الأزد ، وخطة ثقيف ، وخطة غافق ، وخطة حضر موت وخطة يحصب ، وخطة بنى وائل وخطة بلى وغيرهم من القبائل العربية . وكانت هذه الخطط فى أول الأمر متقاربة ، لا يفصل الواحدة منها عن الأخرى غير فضاء بسيط ، وكانت بيوت الفسطاط أيضا فى هذه المرحلة من فجر حياتها تتكون من طابق واحد ، ولم يسمح الخليفة عمر بأن يبنى الناس فيها « غرfa » أى طابقا ثانيا (٤) . فروى ابن عبد الحكم : « واختط خارجة بن حذافة غربى المسجد . وكان أول من بنى غرفة بمصر ، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فكتب الى عمرو بن العاص ، أما بعد ، فانه بلغنى أن خارجة بن حذافة بنى غرفة ، ولقد أراد خارجة أن يطلع على عورات جيرانه ، فاذا أتاك كتابى هذا فاهدهما أن شاء الله والسلام .

وأخذت الفسطاط تتسع وتنمو منذ عصر مبكر . وساعد على اتساعها نزول بعض القبائل العربية فى الضفة المقابلة لها على النيل المعروفة باسم « الجيزة » اذ نزلت تلك الضاحية قبيلة همدان ومن تبعها . واتخذت لنفسها منازل هناك دون أن تنضم الى سائر القبائل فى الفسطاط . ووافق الخليفة على ذلك ، مما دعى الى اهتمام السلطات الاسلامية فى مصر بربط الفسطاط بالجيزة ، حتى غدت المنازل

على ضفتى النيل أهلة بالسكان العرب . وتنافس أهل الجيزة فى تجميل دورهم حتى ان ابن عبد الحكم أشاد بدار شخص اسمه « عمير بن مدرك » ، دأب والى مصر اذ ذاك وهو عبد العزيز بن مروان سنة ٦٥هـ / ٦٨٥م ، على التردد على هذا المنزل ونقل الكثير من أشجاره الى قصره .

وحافظ العرب فى الفسطاط على النظم الاجتماعية التى عاش فى ظلها أقرانهم فى « الأمصار » الاسلامية الأخرى . فكان لكل قبيلة عريف أخذت سلطاته تحل تدريجيا محل سلطات شيخ القبيلة فى العصر الجاهلى . وبدأ هذا النظام الجديد منذ خط عمرو بن العاص الفسطاط ، اذ جعل لكل جماعة من الناس عريفا ، صار مسئولوا عما يتعلق بشتى شئون القبيلة ، وساعد العريف « المحرس » وهم رجال يتولون حراسة خطة القبيلة أشبه بالخبراء اليوم . وكان لكل قبيلة مسجد خاص تعقد به اجتماعاتها ، ولها أيضا مكان خاص فى المسجد الجامع ، واشتهر من هذه الأمكنة « مجلس قيس » الذى طلاقه بن شريك والى مصر ، رؤوس أعمدته بالذهب . ففى هذه المجالس تابعت القبائل تدبير شئونها فى ظل النظم الاسلامية وشرائعها .

ومارست القبائل العربية نظمها الاجتماعية فى اطار التكوين الاسلامى ، فقام تحالف بين بعض القبائل رغبة فى توسيع نفوذها السياسى أو الاقتصادى . فتحالفت مثلا قبيلة مدلج (من مضر) مع قبيلة ذبجان (من حمير) واختار أفرادها لأنفسهم بعض الأماكن الخصبة للاقامة فيها . ولعب الجوار أيضا دورا هاما بين تلك القبائل وخاصة وقت الأزمات السياسية . ومن ذلك ما قام به كريب بن أبرهة سيد حمير ، اذ أجاز الخليفة مروان بن الحكم سنة ٦٥هـ ، حين تجمع المصريون على بابه يريدون قتله ، انتقاما لما أوقعه ببعض رجالاتهم . وكان نفر من الأفراد يتبع قبائل أخرى لا ينتمى اليها أصلا ، وكان يطلق عليه اسم « عديد قبيلة كذا » . ومن أمثلة ذلك قاضى مصر سنة ٨٣هـ وهو مالك بن شراحيل الخولانى ، فكان من همدان ، ولكنه كان « عديد خولان » أى أن اسمه مسجل فى ديوان العطاء ضمن قبيلة خولان وليس همدان .

نظام الارتباع

عاشت القبائل العربية فى « الأمصار » فى ظل نظمها الاجتماعية وتحيا حياتها الخاصة بها . ولكن تلك « الأمصار » لم تكن أماكن منعزلة عما حولها من بلاد ، أو مراكز للاستعلاء العنصرى وإنما غدت منذ فجر حياتها مراكز للتنسيق الاجتماعى بين القبائل العربية وأهالى البلاد ، وينابيع لنشر الاسلام وحضارته أيضا بين أولئك السكان . ونمت هذه الرسالة الاجتماعية للأمصار الاسلامية وفق قواعد محددة هيات للنظام الاجتماعى الاسلامى السمو والاجلال وأن يساعد هذا الدين على أداء رسالته الاجتماعية الجليلة .

وكان خير نموذج لهذا التنظيم الاجتماعى الجديد للعرب الصورة التى اشتهرت فى مصر باسم « نظام الارتباع » منذ عهد فاتح مصر نفسه القائد عمرو بن العاص ومؤسس الفسطاط . فلم تبق القبائل العربية رهن الفسطاط ، وإنما كانت تخرج كل ربيع الى القرى المصرية ، حيث يطلقون خيولهم ترعى فى حقول البرسيم الخضراء ، على حين يمارس أفراد القبائل الصيد ويتناولون اللبن الذى يقدمه لهم المصريون ، ويلتزمون الخراف التى يحصلون عليها أيضا ، وقد تمت هذه العملية وفق قواعد محددة ، بعيدة عن الارتجال وحسب نظم تنسق مجراها الاجتماعى دون انحراف أو أضرار . وجاءت الخطوط الرئيسية لنظام الارتباع فى خطب عمرو بن العاص التى دأب على القائها على جنده فى مطلع كل ربيع حين يأتى ميعاد هذا النظام . ومن ذلك قوله فى احدى تلك الخطب لجنده :

« يا معشر الناس انه قد تدلت الجوزاء ، وذكت الشعرى ، وأقلعت السماء ، وارتفع الوباء وقل الندى ، وطاب المرعى ، ووضعت الحوامل ، ودرجت السخائل وعلى الراعى بحسن رعيته وحسن النظر . فحى لكم على بركة الله الى ريفكم ، فنالوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده ، وأربعوا خيولكم وأسمنوها وصونوها وأكرموها فانها جنتكم من عدوكم ، وبها مغانمكم وأثقالكم .

واستوصوا بمن جاورتهم من القبط خيرا . وأياى والمشمومات والمعسولات فانهن يفسدن الدين ويقصرن الهمم . حدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله (ص) يقول : ان الله سيفتح عليكم بعدى مصر ، فاستوصوا بقبطها خيرا ، فان لكم منهم صهرا وذمة . فحفوا أيديكم وفروجكم ، وعضوا أبصاركم .

« ولا أعلمن حال رجل قد أسمن جسمه وأهزل فرسه ، واعلموا أنى معترض الخيل كاعتراض الرجال ، فممن أهزل فرسه من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك » .

« واعلموا أنكم فى رباط الى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم ، وتشوف قلوبهم اليكم والى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية . وحدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله (ص) يقول : اذا فتح الله عليكم مصر ، فاتخذوا فيها جندا كثيفا ، فذلك الجند خير أجناد الأرض . فقال له أبو بكر : ولم يا رسول الله ؟ قال : لأنهم وأزواجهم فى رباط الى يوم القيامة » .

« فاحمدوا الله معشر الناس على ما أولاكم ، فتمتعوا فى ريفكم ما طاب لكم ، فاذا يبس العود ، وسخن العمود ، وكثر الذباب ، وحمض اللبن ، وصوخ البقل ، وانقطع الورد من الشجر فحى على فسطاطكم على بركة الله . ولا يقدمن أحد منكم ذو عيال على عياله الا ومعه تحفة لعياله على ما أطاق من سعته أو عسرته » .

وأوضح الخطاب السالف قواعد الارتباع على النحو التالى :

أولا : ان موسم الارتباع كان يبدأ فى آخر الشتاء ، وقد « تدلت الجوزاء وذكت الشعرى » ، ويستمر هذا الموسم ثلاثة أشهر تقريبا حتى ينتهى بأوائل الصيف ، وعلامته « اذ يبس العود ، وسخن العمود » .

ثانيا : الاهتمام بالخيل باعتبارها ركيزة القوة الحربية . وأن الوالى سيعترض الخيل كاعتراض الرجال بعد انتهاء موسم الارتباع ، وأنه سيوقع عقوبة مادية على كل شخص ، تخصص من عطائه اذا أهزل فرسه .

ثالثا : حسن معاملة أهالي البلاد المحليين أثناء موسم الارتباع . فكان محظورا على العرب الاساءة الي أولئك الأهالي والغض عما يجلب الفحش .

رابعا : بيان أهمية مصر وضرورة الاستعداد العسكرى الدائم للدفاع عنها بسبب كثرة الأعداء حولها ، وأن يكون الارتباع وسيلة لدعم هذا المفهوم وتحقيقه .

خامسا : حمل الهدايا من الريف الى نساء العرب فى الفسطاط وأولادهم ، اماعانا فى ربط أواصر المودة بين أفراد القوات الاسلامية وأسرههم ، ودعمنا لنظمهم وحياتهم الاجتماعية .

وصار « نظام الارتباع » وتكراره كل سنة وسيلة لتوسيع الروابط الاجتماعية بين القبائل العربية بعضهم البعض أولا ، ثم بين مجموعاتهم الكبرى وأهل البلاد المحليين ثانيا ، وفق القواعد المقررة لهذا النظام . ثم أن السلطات الاسلامية نظمت أيضا الخطوات التنفيذية للارتباع بتحديد الأماكن التى تتجه اليها القبائل العربية . فكان الوالى يصدر كل ربيع كتابا يبين فيه لكل قبيلة الجهة التى تذهب اليها وتحديد كميات اللبن المسموح لها الحصول عليها . وتركزت حركة الارتباع أولا فى الجهات القريبة من الفسطاط ، ثم اتسعت رويدا رويدا حتى شملت أرجاء الدلتا والصعيد . وكانت « الكور » الخصبة المتاخمة من الشرق للصحراء محط أنظار كثير من القبائل ، مثل كور عين شمس وأتريب وينا ، وهى الكور التى صارت تتألف منها فيما بعد منطقة « الحوف الشرقى » .

وكانت القبائل الكبيرة وذات النفوذ الواسع تستأثر بالقرى الخصبة المجاورة للفسطاط ، فكانت بلية ، وتجيب وآل عبد الله بن سعد تختار أماكن ارتباعها فى منف ووسيم قرب العاصمة . واشتركت عدة قبائل فى اختيار أماكن معينة تبعا لقوتها ونفوذها أيضا . وصارت الفسطاط أشبه بمركز الدائرة لنظام الارتباع ، تخرج منه القبائل بمطلع الربيع ، وتقضى حوالى ثلاثة أو أربعة شهور ، ثم تعود الى الفسطاط . ولكن لم تلبث بعض القبائل أن اتخذت من مناطق الارتباع أوطان دائمة لها ، وذلك على نحو ما قامت به مذحج وذبحان حيث سكنت كل منهما فى حربنا ، ولحم وجذام فى

مناطق الحوف الشرقى . ووصلت بعض القبائل الى أقاصى الصعيد وتخوم الدلتا الشمالية ، ثم ان كثرة المناطق الساحلية المعرضة لهجوم الأعداء ، وهى المعروفة باسم « الثغور » ساعدت على اقامة الجند العرب وأسرههم هناك ، وذلك فيما بين العريش ولوبيه فى برقة . واشتهرت من تلك المناطق رشيد واخنا والبرلس ودمياط ، وهى الجهات التى صار يطلق عليها اسم « المواحيز » ، أى المكان الواقع بين القوم وأعدائهم ، أى مناطق الأطراف والتخوم .

وقد اختارت بعض القبائل مناطق نائية ذات مناخ يتفق ومزاجها الطبيعى ، أى البيئة التى سبق أن جاءت منها . فاقبل العرب من قريش وأهل الحجاز على الاقامة فى أسوان ، لأن جوها يشبه جو الحجاز ، فضلا عن سهولة اتصالها عن طريق عيذاب على البحر الأحمر ببلاد الحجاز نفسها . وغدت الديار المصرية تشهد مجتمعا جديدا يتكون نتيجة « الارتباع » واختلاط القبائل العربية مع أهالى البلاد المحليين . وزادت سنة التطور فى دعم هذا النظام الاجتماعى ورفع قواعده ، وبخاصة حين اتجهت القبائل العربية الى الاشتغال ببعض الأعمال التى كان محرما عليهم من قبل القيام بها ، مثل الزراعة .

وكان ولاية مصر يسهلون للقبائل العربية التى ينتمون اليها سواء من حيث القرابة أو الولاء السياسى المجىء الى مصر والاقامة بها ، وهو الأمر الذى أعلا من شأن « نظام الارتباع » وحافظ على أهدافه . ومن ذلك ما حدث على عهد الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك ، اذ وفد اليه عبيد الله بن الحبحاب سنة ١٠٩هـ / ٧٢٧م وسأله أن ينقل الى مصر بيوتا من قبيلة قيس ، وذلك لتعمير منطقة بلبيس ، ولا سيما أن نزولهم هناك لن يضر أحدا . فوافق الخليفة على ذلك ، وبعث ابن الحبحاب الى البادية ، فقدم عليه مائة أهل بيت من بنى نصر ، ومائة أهل بيت من بنى عاصم ، ومائة أهل بيت من أبناء هوزان ، ومائة أهل بيت من بنى سليم . فأنزلهم بلبيس وأعطاهم الصدقة من العشور ، فاشترى بها ابلا ، واشتغلوا بحمل الطعام الى القلزم والسويس وكسبوا أرباحا وفيرة ، ومن تلك الأرباح كان الفرد يشتري المهر ، ويربيه

شهرها واحدا يصبح بعدها صالحا للركوب ، وذلك نظرا لجودة المراعى ، وللتسهيلات العديدة التى قدمتها لهم السلطات الرسمية . ولما بلغ قبيلة قيس ما أصابه أهلهم فى مصر من الرخاء ، جاء منهم خمسمائة أهل بيت أخرى ، حتى أنه لم ينته عهد الخليفة هشام حتى صار فى بلبس ألف وخمسمائة من أهل بيت قيس .

وتوضح الحقيقة السالفة أن نظام الارتباع أتاح للعرب الوافدين الى مصر الاختلاط بالمصريين ، وأنه لم يأت عهد الخليفة الأموى هشام حتى صار العرب يشتغلون فى شتى النواحي الاقتصادية بالبلاد ومنها الزراعة ، العمود الفقرى لثروة مصر ، وبدأت بنهاية القرن الأول الهجرى ، تظهر أولى ثمار « نظام الارتباع » وهو تغلغل القبائل العربية فى ريف مصر ، وامتزاجها مع أهالى القرى وبناء طلائع الجبل العربى الاسلامى الجديد فى الديار المصرية .

وصار نظام الارتباع أعظم مظاهر التنظيم الاجتماعى للعرب ، وصورة لما حدث فى شتى الأجزاء التى حمل اليها العرب راية الاسلام . اذ اتخذت القبائل العربية فى كل بلد من البلاد التى أقامت فيها سبلا تتفق وطبيعة « العمران » فيها من أجل الامتزاج مع أهلها ، والارتباط فى نفس الوقت مع مهدها الأصيل فى شبه الجزيرة العربية . فهى نظام الأمصار للقبائل العربية أن تظل مرتبطة مع بعضها البعض برغم انتشارها فى النواحي التى أقامت بها ، وأن تتولى الأمصار فى نفس الوقت ربط هذه الدوائر الواسعة من الانتشار العربى بمركز الخلافة ، سواء حين كانت فى المدينة المنورة المهد الأول للعروبة والاسلام ، أو فى دمشق حيث تابع الأمويون سياسة الاهتمام بالعنصر العربى والتقاليد العربية .

وظل سيل القبائل العربية على هذا النحو يتدفق على مصر كذلك فى العصر العباسى الأول ، وكثر تصاهرها مع المصريين . ومن ذلك أنه قدم الى مصر بعد سنة ٨٢٤٠ / ٨٥٣م ، أى فى خلافة المتوكل على الله العباسى ، جماعة من أولاد الكنز ، وأصلهم من ربيعة بن معد بن عدنان ، أى من عرب الشمال . وهذه الظاهرة بدورها لها أهميتها أيضا ، لأن معظم العرب الذين وفدوا الى مصر منذ أيام الفتح كانوا

من عرب الجنوب ثم من أولاد الكنز الذين انتشروا فى سائر أنحاء البلاد ونزلت طائفة منهم بأعلى الصعيد . وكان لهذه الطائفة الأخيرة أثر كبير فى استقرار الأمور فى مصر العليا . ذلك أن القرى الشرقية بالصعيد تعرضت لاغارات جماعات تعرف باسم البجة ، سكنت المنطقة الممتدة من صحراء قوص الى أول بلاد الحبشة . واضطرت السلطات الرسمية فى مصر الى مصالحة البجة لتأمين شر اغاراتهم على القرى . ولكن بمجيء أولاد الكنز الى الصعيد وقفت اغارات البجة ، كما بدأت تنتعش اقتصاديات البلاد ، لأن أرض البجة المجاورة للصعيد غنية بمعدن التبر ، وبدأت القبائل العربية فى استخراجها .

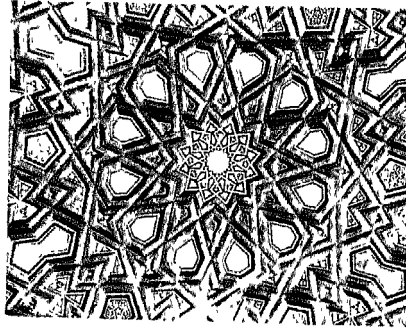
وانتشرت القبائل العربية فى شتى ارجاء البلاد المصرية ، واختصت كل ناحية بقبيلة أو أكثر . فسكن حول أسيوط عرب من جهينة ، وفى الفيوم نزل بنو كلاب ، ومن منية غمر الى زفيتا سكنت جماعات من جذام ، واشتغل أكثرهم مشايخ للبلاد وخفراء ، وامتلكوا المزارع . وفى نفس الوقت انتقلت طوائف من فزارة الى الغربية وقلوب ، كما سكن الدقهلية عرب ينتسبون الى قريش ، واستقر حول تنيس ودمياط قوم ينتسبون الى هوزان ، وصار لهم شأن عظيم فى تلك الأرجاء . واختصت مدن مصر بعدد كبير كذلك من العرب الذين رابطوا فيها للدفاع عنها ، وحماية الاسلام فى البلاد . ومن أمثلة المدن التى اعتبرها العرب من الثغور — أى الواجب حراستها ، والجهاد فى سبيلها — البرلس ورشيد والاسكندرية والبحيرة واخنا ودمياط وشطا وتنيس والأشتموم والفرما والعريش وأسوان وقوص والواحات . وبعبارة أخرى صار العرب يعيشون تماما بين المصريين سواء فى المدن الكبرى أو فى صميم الريف ، وأخذت تقوى بينهم أوامر المودة والألفة .

ووفد مع القبائل العربية كثير من موالها ، الذين أسهموا بدورهم فى الاشتغال بشتى النواحي الاقتصادية فى البلاد . وبمرور الوقت لم يعد هناك أية تفرقة بين العرب ومواليهم فى أرض الوطن الجديد ، وأخذت حلدة العصبية القبلية تضعف ، وبدأت تتلاشى . وساعد هذا التطور الهام على سرعة الامتزاج بين العرب والمصريين ، حتى

أنهم وقفوا صفا واحدا أمام عنت بعض الولاة الذين جنحوا أحيانا الى الاشتطاط فى جمع الضرائب ، أو التماذى فى فرض أخرى جائزة . فاحس الجميع ، من العرب والمصريين أنهم أبناء وطن واحد ، وأن الروابط تجمع بينهم فى السراء والضراء . ولم تلبث الأحداث ان زادت من انصهار العرب والمصريين ، ليس نتيجة التزاوج فحسب ، ولكن بسبب التطورات الجديدة التى خضعت لها الدولة الاسلامية على عهد الخليفة المعتصم العباسى . ذلك أن العرب فقدوا على عهد هذا الخليفة مركزهم فى ادارة الدولة بسبب اعتماده على الأتراك فى الحكم والادارة . اذ ضاق المعتصم ذرعا بالنزاع والتنافس بين العرب والفرس على السلطان ، وظن واهما ان تخليه عن كل من العرب والفرس ، واستبدالهم بالعنصر التركى فيه ضمان لاستقرار الأمور لدولته . وكان العرب لهم ديوان تسجل فيه اسمائهم من أجل الحصول على العطاء الذى قرره الدولة لهم . وترجع هذه الظاهرة الى أيام الخليفة عمر بن الخطاب ، وظلت تعتبر عنوانا على تمتع العرب بمكانة ممتازة فى ادارة الدولة . ولذا عندما جاء الخليفة المعتصم الى عرش الخلافة ، وأخذ يفضل الأتراك على العرب والفرس فى مناصب الدولة رأى أن يحرم العرب نهائيا من العطاء .

وكتب الخليفة المعتصم الى والى مصر ، وهو كيدر نصر بن عبد الله (٢١٦هـ / ٨٣١م) باسقاط من فى الديوان من العرب ، وعدم صرف العطاء لهم . وكان الاختلاط قد عظم بين العرب والمصريين اذ ذاك ، لأن قرار المعتصم بمنع العرب من أخذ العطاء لم يكن له رد الفعل عنيف بين أصحابه . فعندما قطع كيدر العطاء عن العرب ثار « يحيى الجروى » ، ولكن لم يتبعه أكثر من خمسمائة شخص . والنتيجة الهامة التى ترتبت على قرار المعتصم هو ازدياد الامتزاج والمصاهرة والاختلاط بين العرب والمصريين ، واشتركوا جميعا فى أعمال الزراعة والتجارة والصناعة ، والتعاون على النهوض بمستوى بلادهم الاقتصادى . وبعبارة أخرى أفاد قرار المعتصم من حيث لا يدرى ، فى تدعيم الجيل العربى الناشئ فى مصر ، وتقوية الطابع العربى فى تلك البلاد .

ومن ثم لم يكد ينتهى القرن الأول والقرن الثانى للهجرة حتى ظهرت طلائع الجيل العربى فى مصر قوية وواضحة . ذلك أن العرب احتفظوا بالانتساب لقبائلهم حوالى هذين القرنين من الزمان ، حيث أوضحت معظم شواهد القبور التى اكتشفت منذ وقت قريب فى مقابر أسوان والفسطاط أن اسم الميت يتبع باسم قبيلته فى خلال القرنين الأولين للهجرة . ولكن فى خلال القرن الثالث الهجرى ، أى بعد قرار الخليفة المعتصم باسقاط العرب من الديوان ، نجد أن اسم القبيلة قد حل محله اسم الجهة أو الاقليم الذى ينتسب اليه المتوفى ، وصار يكتب فلان المصرى . وفى نفس الوقت أقبل المصريون على تعلم اللغة العربية ، حتى ظهرت آيات التجاوب الطيب بين الجيل الجديد فى مصر ، ممثلة فى اعتزاز الأفراد — دون نظر لأصلهم الأول — بوطنهم المصرى ، وتعاونوا جميعا على تدعيم أو اصر القربى بينهم وبين الوطن العربى الكبير .



حركة التعريب وانتشار اللغة العربية

صاحب بناء الجيل العربى فى مصر ظاهرة أخرى فريدة اختصت بها مصر من دون غيرها من البلاد التى شاركتها فى الانضمام الى دائرة العروبة . فالشعب المصرى وقف طوال تاريخه العريق وقفة عناد لكل لغة أجنبية يحملها إليه أى دخيل عليه ، من أمثال اليونان والرومان . فلم تتغلب اللغة اليونانية أو الرومانية على لغة المصريين الأصلية برغم سيادة اليونان والرومان على البلاد المصرية ، حتى اضطر أحد المعاصرين لأولئك الدخلاء الى القول : « اذا أراد يونانى أن يعلم المصريين شيئاً من القانون فخير له أن يتعلم لغة المصريين حتى يستطيع أن يتفاهم معهم ، أما إذا خاطبهم باليونانية فلا فائدة من حديثه » . وفضلاً عن ذلك أبطل المصريون اللغة اليونانية فى الكنائس واستبدلوها باللغة القبطية ، على نحو ما حدث فى القرن السادس الميلادى ، أى القرن السابق مباشرة للفتح الاسلامى لمصر .

• وباستقرار الفتح الاسلامى فى مصر ، وانتشار القبائل العربية فى سائر أرجاء البلاد المصرية ، بدأ المصريون يقبلون على تعلم اللغة العربية عن طواعية ، ودون إكراه ، مما يدل على شدة التجاوب بين العرب والمصريين ، وأن عهداً جديداً أخذ يشرق على الديار المصرية . وساعد على هذا التجاوب القواعد الجديدة التى وضعتها الدولة الأموية لتعريب ديون الخراج ولضبط النظام المالى ، وهى أمور ساعدت أيضاً على سرعة التعريب فى مصر .

إذ اقتضى اتساع موارد الدولة وتعدد أوجه إنفاقها إذ ذاك ضبطاً للمؤسسات المالية ، ووضع قواعد جديدة للإشراف على نشاطها وسير العمل بها . وكان معاوية ابن أبى سفيان أول من أحس تلك الحاجة نتيجة الاستقلال المالى للولايات . إذ أمر لعمرو بن الزبير بمائة ألف درهم ، وسلمه كتاباً بذلك ليأخذ المبلغ من والى العراق زياد ابن أبيه ، وفتح عمرو بن الزبير الكتاب فى الطريق وجعل المائة مائتين . وعند مراجعة الخليفة لميزانية العراق ساورته الشكوك ، وأنكر هذا التلاعب . وعلى الرغم

من استرداد السلطات المالية لهذا المبلغ إلا ان معاوية رأى أنه لابد من ضبط جديد للمؤسسات المالية ، وأنشأ لهذا الغرض « ديوان الخاتم » .

وصار هذا الديوان الجديد من أهم معالم القواعد المالية الجديدة زمن الأمويين . فكانت له نظم دقيقة وعمال يقظون ، فإذا صدر توقيع من الخليفة بأمر من الأمور ، أحضر التوقيع إلى ذلك الديوان ، وأثبتت نسخته فيه ، وحزم بخيط وختم بشمع ... وختم بخاتم صاحب الديوان « . وتولى رئاسة هذا الديوان على عهد معاوية أحد القضاة العدول وهو عبد الله بن محصن الحميرى ، رغبة فى توفير الأمانة للمسائل المالية .

واتضح على عهد الخليفة عبد الملك بن مروان وابنه الوليد أن ديوان الخاتم وحده لم يعد كافياً . وأن التنظيم المالى للدولة بات يتطلب تعريب ديوان الخراج فى كل ولاية ، باعتباره المؤسسة المالية الرئيسية المشرفة على الموارد وكافة الشئون المتعلقة بها . فكانت لغة دواوين الخراج فى الولايات هى نفس اللغة التى اتبعتها قبل الفتح الاسلامى ، إذ كانت لغة ديوان الخراج فى العراق هى الفهلوية (الفارسية) وفى الشام اليونانية ، وفى مصر اليونانية والقبطية . ولم يعد هذا الوضع يتفق مع اتساع سلطان الولاية العرب ، وتعدد موارد الدولة .

وصار الدافع على تعريب دواوين الخراج هو تمكين الولاية العرب من الاشراف اشرافا تاما على شئون ولاياتهم المالية . إذ كان تدوين السجلات باللغات الأجنبية حافظراً شجع صغار العمال على التزوير والتلاعب فى السجلات دون أن يكتشف أمرهم . وقد روت بعض المراجع أسباباً أخرى مبهمة لتعليل نقل الدواوين إلى العربية : فذكر البلاذرى مثلاً : « أن رجلاً من كتاب الروم احتاج أن يكتب شيئاً فلم يجد ماء ، فبال فى الدواه ، فبلغ ذلك عبد الملك ، فأدبه » وأمر سليمان بن سعد بسائل الدبهان « .

وكاد، سليمان بن سعد الخشنى كاتب الخليفة عبد الملك بن مروان على الرسائل هو الذى تولى تعريب ديوان خراج الشام ، وذلك سنة ٥٨١ هـ . وجاءت هذه

الخطوة عملاً هاماً فى التنظيم المالى للدولة الاسلامية ، حيث كان المشرف العام على هذا الديوان وأساراه منذ عهد معاوية هو « منصور بن سرجون الرومى » . ومنح الخليفة سليمان بن سعد مقابل هذا العمل الجليل خراج الأردن مكافأة له ؛ وقدره ١٨٠ ألف دينار . وكان أبلغ تقدير لنجاح تعريب ديوان الخراج قول منصور بن سرجون لكتاب الديوان القدامى من أصحاب اللغة اليونانية : « أطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة » .

وكان يشرف على ديوان الخراج بالعراق فى ذلك الوقت « زادان فروخ » من قبل الحجاج بن يوسف الثقفى . وتصادف أن قتل هذا العامل أثناء فتنة عبد الرحمن ابن الأشعث بين سنتى ٨٢ ، ٨٣ هـ ، وهو الأمر الذى سهل على الحجاج تحقيق سياسة الدولة المالية الجديدة . إذ كلف « صالح بن عبد الرحمن » ممن كان يجيد اللغة الفارسية والعربية تعريب ديوان خراج العراق . وقد حاول « مردانشاه » ابن زادان فروخ « أن يدفع رشوة لصالح بن عبد الرحمن حتى يثنيه عن عمله . وأبى هذا العامل العربى ، وأتم عمله بنجاح باهر ، وتخرج على يديه نفر من كبار موظفى المالية العرب فى العراق .

وتم تعريب ديوان خراج مصر على عهد الوليد بن عبد الملك ، وذلك تحت إشراف أخيه والى مصر ، عبد الله بن عبد الملك سنة ٧٨ هـ / ٧٠٧ م . إذ عزل صاحب هذا الديوان ، وهو « أنتناش » ، وعين مكانه أحد رجال العرب واسمه « ابن يربوع الفزارى » . وتبع ذلك تعريب باقى الدواوين فى بلاد المغرب على يد موسى بن نصير ، وكان آخرها ديوان خراج خراسان ، الذى تولى تعريبه سنة ١٢٤ هـ « اسحق بن طليق » بتكليف من والى نصر بن سيار .

وصارت جميع دواوين الخراج فى الدولة الاسلامية تستخدم لغة واحدة هى اللغة العربية ، وهى خطوة هامة مهدت السبيل لنشر العروبة بين سائر أرجاء تلك الدولة . إذ اضطر الناس إلى تعلم اللغة من أجل تسهيل التعامل مع رجال إدارتها الجدد ، وضمناً للحصول على حقوقهم وصيانة مستحقاتهم أيضاً . وكانت هذه

الظاهرة الخاصة بتعريب دواوين الخراج هي التي جعلت الذهن ينصرف عن أهميتها في النواحي المالية إلى تتبع آثارها في ميدان الحضارة العربية الاسلامية . وتنهض هذه الظاهرة دليلاً رافعاً في نفس الوقت على أن النظام المالي ليس نظاماً جافاً ، على نحو ما حاولت الدراسات النظرية الحديثة بتر معالمه ، وإنما هو عضو فعال في بناء الدولة العربية الاسلامية ، يتداعى مع سائر الأعضاء الأخرى للنظم الاسلامية من أجل السهر على سلامة المجتمع الاسلامى وحمايته .

واقترن بتعريب دواوين الخراج سك عملة جديدة من أجل دعم النظام المالى للدولة ، وضبط المعاملات المالية بين الولايات ، وتحقيق العدالة في جباية الضرائب من أهلها . إذ كان بعض تلك الولايات مثل الشام ومصر تتعامل بالدينار من الذهب ، وهو الوحدة الأساسية للنقد الذى ساد كل منهما منذ أيام تبعيتهما لدولة الروم قبل الاسلام . وتعاملت العراق وفارس بالدرهم من الفضة الذى ساد نشاطهما الاقتصادى منذ أيام الساسانيين قبل الاسلام . وعرف العرب هذين النوعين من العملات منذ العصر الجاهلى ، حيث كانت ترد عليهم الدنانير من الروم والدرهم من بلاد فارس . وكان سعر التبادل عندهم هو كل عشرة دراهم تساوى سبعة دنانير . « فأقر رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، وأقره أبو بكر وعمر وعثمان وعلى . فكان معاوية فأقر ذلك على حاله » .

وسرعان ما تبين صعوبة الاستمرار بهذا الازدواج النقدي ، نظراً لاتساع رقعة الدولة من ناحية ، وللفساد الذى دب إلى بعض هذه العملات من ناحية أخرى . إذ دأب الناس على أداء الخراج بالعملات ذات القيمة المنخفضة ، والاحتفاظ بالعملات العالية القيمة ، مما أضر بالخراج ، وأساء إلى العدالة في جبايته . وواجهت هذه الأوضاع السيئة الخليفة عبد الملك بن مروان عند مطالبة الناس بالكسور — وهو بقايا الأموال المتخلفة — ومبادرة دافعى الضرائب إلى تسديد تلك الكسور بالعملات المنخفضة القيمة . وشرح الماوردى هذه الظاهرة قائلاً « ثم فسد الناس : فصار أرباب الخراج يؤدون الطبرية التى هي أربعة دوانق ، وتمسكوا بالوفى

الذى وزنه وزن المثقال . فلما ولى زياد العراق طالب بأداء الوافى وأنزهم الكسور .
وجار فيه عمال بنى أمية . إلى أن ولى عبد الملك بن مروان فنظر بين الوزنين وقدر وزن
الدرهم على نصف وخمس المثقال ، وترك المثقال على حاله » .

وزاد فى اضطراب العملة الفارسية المستخدمة فى الولايات الشرقية بالعراق
وفارس وخراسان سوء وزن الفضة فيها ، وكثرة المغشوش منها أيضاً . وأشار إلى ذلك
الموردى فى قوله : « وقد كان الفرس عند فساد أمورهم فسدت نقودهم . فجاء
الاسلام ونقودهم من العين والورق غير خالصة ، إلا أنها كانت تقوم فى المعاملات
مقام الخالصة » . وأدت هذه الظاهرة بدورها إلى سوء جباية الخراج . وقلة مقاديره
الحقيقية لما ورد على ديوان الخراج من عملات زائفة أو غير جيدة الضرب . وصار
الموقف يتطلب سرعة إصدار نقد جديد يقضى على تلك المفاسد ويزيل آثارها
السيئة .

وكانت ولايات الدولة ، وبخاصة فى مصر والشام تعانى متاعب من نوع آخر
نتيجة احتكار الروم (البيزنطيين) للدينار ، وتحكمها فى سعره . وسرعان ما
انفجرت أزمة بين الدولة الأموية وإمبراطورية الروم عجلت بالسلطات الأموية نحو وضع
نقد جديد لولاياتهم ، وذلك على عهد الخليفة عبد الملك بن مروان نفسه ، ذلك أن
مصر كانت تصدر القراطيس ، وهى ورق الكتابة إذ ذاك لامبراطورية الروم منذ تبعيتها
لها قبل الفتح الاسلامى . وجزت عادة أقباط مصر على كتابة اسم السيد المسيح
وعبارة التثليث فى رؤوس الطوامير ، وهى قطع الورق الكبيرة . ولكن الخليفة عبد
الملك رأى أن هذه الصيغة لاتتنفق ومظهر الدولة الاسلامية الجديدة . فأمر أن يستبدل
بهذه الصيغة عبارة « قل هو الله أحد » .

ووصلت هذه القراطيس الجديدة إلى إمبراطورية الروم ، وأحدثت ضجة كبرى
فى البلاط ، إذ غضب الامبراطور جستنيان الثانى واستكبر قيام الدولة الاسلامية
بممارسة حق من حقوقها فى السيادة ، وكتب إلى الخليفة عبد الملك « إنكم
أحدثتم فى قراطيسكم كتاباً نكرهه ، فإن تركتموه ، وإلا أتاكم فى الدنانير من ذكر

نبيكم ما تكرهونه » . وأغضب هذا الخطاب الخليفة عبد الملك كثيراً ، وخشى اضطراب أحوال العملة بسبب تهديد إمبراطور الروم ، وما قد يحدثه ذلك من أثر سيء فى نفوس عامة المسلمين ، لأن دنانير الروم كانت العملة الرسمية للتجارة فى الأسواق الاسلامية الداخلية ، ومع الدول الخارجية أيضاً .

وظهر أثناء هذه الأزمة قوة البيت الأموى ، وما ساور تفكيرهم إذا ذاك من رغبة فى التخلص من هذه التبعية النقدية ، وإصدار عملة جديدة خاصة بالدولة الاسلامية . إذ أشار خالد بن يزيد على الخليفة عبد الملك بالتمسك بالقرطيس الجديدة ، دون أن يخشى تهديد البيزنطيين فقال : « يا أمير المؤمنين ، حرم دنانيرهم فلا يتعامل بها ، وأضرب للناس سككاً ، ولا تعف هؤلاء الكفرة مما كرهوه فى الطوامير » . وصادف هذا الاقتراح هوى فى نفس الخليفة ، ورأى أنه يصلح خطوة أساسية لدعم النظام المالى للدولة وخلق وحدة إقتصادية عن طريق عملة خاصة بها . وأقبل عبد الملك على سك دنانير إسلامية جديدة عليها آيات من القرآن الكريم ، عرفت باسم الدنانير الدمشقية ، كما أصدر أوامره للحجاج بن يوسف الثقفى فى العراق بضرب دراهم إسلامية بدلا من الدراهم الفارسية . وقد حدد الخليفة عياراً ثابتاً لهذين النوعين من النقود ، وذلك وفق الشرع . ولقيت هذه العملة الاسلامية الجديدة احترام الناس فى كل مكان لسلامة أوزانها ، وأقبلوا سريعاً على التعامل بها ، دون أن يحدث خلل فى النظام المالى للدولة . ودعم هذا التعامل النقدى الجديد أن الخليفة أصدر أوامره باعتبار دور الضرب التابعة للدولة هى الجهة المعتمدة لسك النقود ، وتحريم أى نقد يضرب خارجها ، وسحب النقود القديمة المتداولة من الأسواق .

واستفاد النظام المالى للدولة الأموية من هذا الاستقرار النقدى ، حيث كفلت النقود الجديدة العدالة لكل من الرعية والخراج الخاص بالدولة . وأجمع المؤرخون على أن الوزن الذى سكت عليه تلك النقود كان هو الوزن الشرعى الذى ساد عهد الرسول الكريم ، من العملات السليمة إذ ذاك وهى الدرهم الفارسى ودينار الروم .

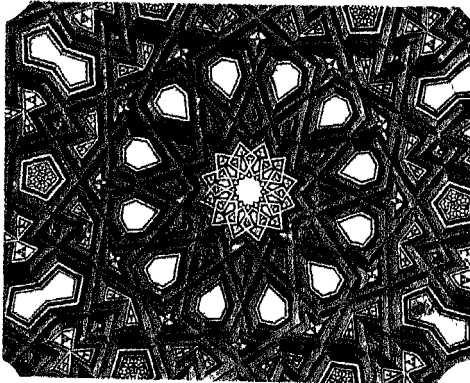
وروى ابن خلدون وصف المعاصرين لهذه العملة الجديدة قائلاً : « وقد طلعت عملة عبد الملك مطابقة لهذه الأوزان واستقر الاجماع أيضاً على أنها هي النقود الشرعية ، وأطبق الكل على العمل بها ، ووافق الفقهاء عليها — قاطبة — وعلى أنها هي التي تؤخذ بها الزكاة وتؤدى بها كل الحقوق التي أوجبها الشرع أو نديها ، وسار العمل بهذه الأوزان فى العصور الاسلامية .

وأجاد بعض المصريين اللغة العربية فى هذه المرحلة المبكرة من حركة تعريب الدواوين والعملة الاسلامية ، حتى أن القس بنيامين شرح الانجيل بالعربية للأصمغ ابن والى مصر . ثم إن المصريين الذين اعتنقوا الدين الاسلامى تعلموا اللغة العربية حتى يستطيعوا قراءة القرآن الكريم ، وفهم دروس الفقه .

واستطاع العرب الذين أقاموا بمصر نشر لغتهم كذلك بين المصريين لمعرفة اللغة القبطية والتخاطب بها مع جيرانهم من المصريين . ومن ذلك أن أحد قضاة مصر العرب ، وهو خير بن نعيم « كان يسمع كلام القبط ويخاطبهم بها ، وكذلك الشهود منهم ، ويحكم بشهادتهم » . وكان كثير من العرب يحضرون مجالس القبط ، ويفهمون الأحاديث التى تدور بينهم بالقبطية ، كما تحدثوا معهم أحيانا بلغتهم .

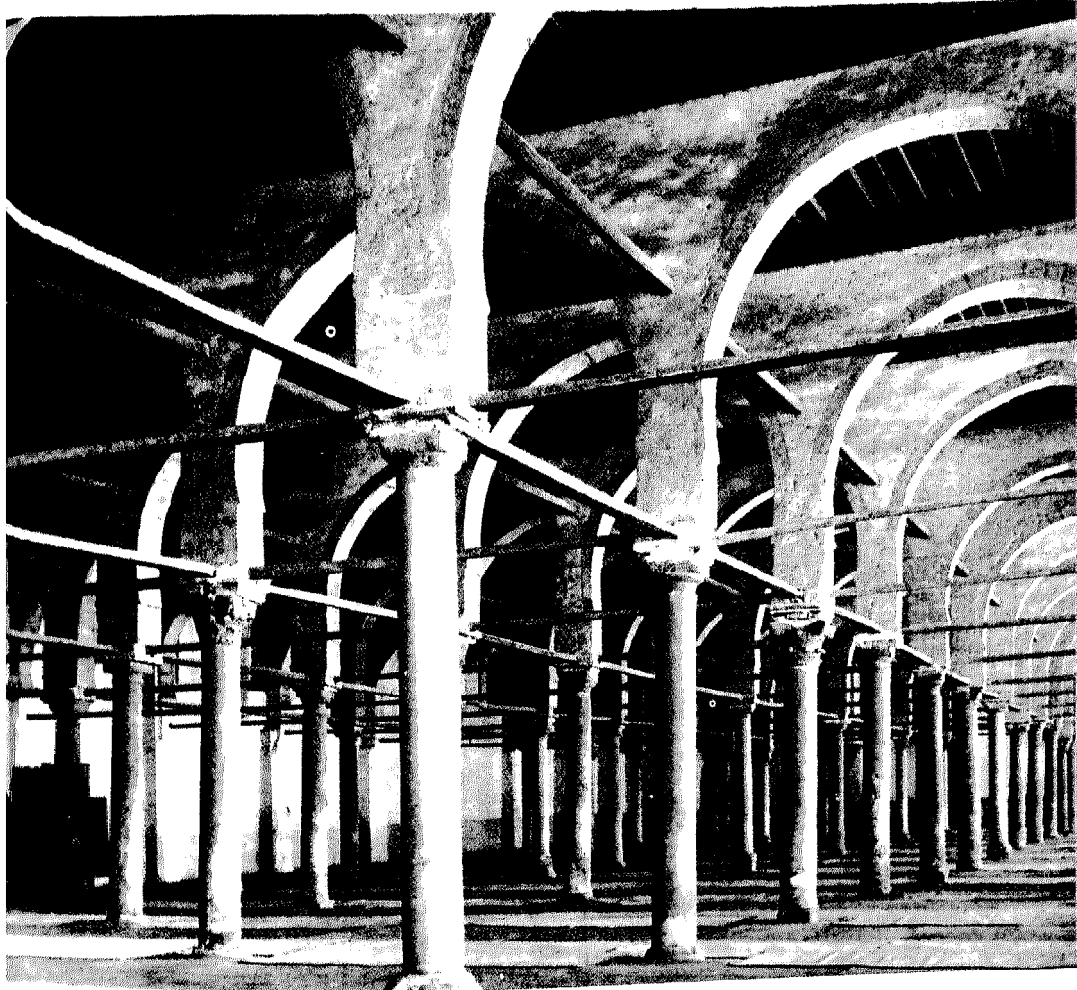
وصارت مصر منذ أواخر القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى ، تشارك مشاركة واضحة فى الحياة الأدبية العربية ، وظهر فيها نفر من أهل البلاد ، أجادوا اللغة العربية إجادة تامة . وصاروا يقفون فيها على قدم المساواة مع أعرق الشخصيات العربية . فيروى أن الامام الشافعى وهو الامام فى العربية وعلوم الدين ، التقى برجل من أهل مصر يعرف باسم « سرج الغول » وكان هذا الرجل حجة فى اللغة العربية ، وكان الامام الشافعى يأنس له كثيراً ، ويقول لتلميذه الربيع بين حين وآخر : « يا ربيع أدد لى سرج الغول » ، فيأتى به ، وينظره الشافعى ، ويعجب بغزارة علمه ، ولا يقول أحد شيئاً من الشعر إلا عرضه عليه ، وعندما ينصرف « سرج الغول » يقول الشافعى : « يا ربيع ، نحتاج أن نستأنف طلب العلم » .

ونبع في مصر في أواخر القرن الثاني ومطلع القرن الثالث الهجري علماء أفاضل ، بعضهم ممن كان أصلاً من المصريين الذين اعتنقوا الاسلام ، والبعض من سلالة القبائل العربية التي استوطنت في البلاد . ومن أمثال هؤلاء أحمد بن يحيى التجيبى ، والحافظ النحوى ، الذى كان من أعلم أهل زمانه بالشعر والأدب والتاريخ وعلوم الدين . وكانت هذه الظاهرة الخاصة بظهور أسر مصرية في ميدان الثقافة العربية من أهم الأحداث التي دفعت بالحضارة العربية خطوات واسعة إلى الأمام ، وأثبتت أن مصر تصعد سريعاً في مدارج الحياة العربية الجديدة ، وتضطلع بمسئولياتها في تنمية التراث العربى وتوسيع أهدافه ، والعمل على تثبيت أوتاده ودعائمه .



(ج) المدارس الدينية المصرية وتدوين التراث العربى

صاحب انتشار اللغة العربية فى مصر ، وساعد على أصالتها فى البلاد قيام حركة دينية واسعة النطاق ، عقب الفتح الاسلامى مباشرة . وتركزت هذه الحركة فى جامع عمرو بن العاص بالفسطاط ، حيث اتخذها الصحابه الذين شهدوا فتح مصر مقراً لهم ولتدريسهم . وترتب على ذلك ظهور مدرسة دينية بمصر ، نشأت ثم نمت



رواق القبلة بجامع عمرو بن العاص .

بالتدرج ، وصار لها أتباع عديدون ، أسهموا فى دعم الثقافة الدينية ، التى أمتلأت بها سائر أرجاء الدولة الاسلامية فى صدر حياتها ، وجعلوا من وطنهم فى مصر مركزاً هاماً من مراكز هذه الحركة الدينية الزاهرة . فتخصص نفر من علماء مصر فى دراسة القرآن الكريم ، وكذلك الحديث ، واستنباط الأحكام منهما ، حتى صارت الديار المصرية مقصد الطلاب من الأقطار المجاورة لها .

ويرجع السبب فى هذا النشاط المبكر لمصر فى ميدان الدراسات الدينية إلى أن الخلفاء اختاروا لها خيرة العلماء العرب ، وأوسعهم ثقافة وفهما لشئون الدين . فمثلاً نرى الخليفة عمر بن الخطاب يبعث إلى أهل مصر حيان بن أبى جيلة ليفقههم ، وليكون مرجعاً لهم فى شئون دينهم . وسار على هذا النهج من جاء بعده من الخلفاء على اختلاف أزمانهم ، حتى أن الخليفة عمر بن عبد العزيز أوفد إلى مصر نافعاً ، مولى بن عمر ، وهو فقيه أهل المدينة ، ليفقه أبناء مصر بشئون دينهم ، وليعلمهم السنن . وأقام نافع بمصر مدة طويلة ، وترك فيها كثيراً من التلاميذ الذين حملوا من بعده لواء الدراسات الدينية فى البلاد .

وخطت الدراسات الدينية فى مصر خطوات واسعة بظهور المذاهب الأربعة التى قوى شأنها فى العصر العباسى . وأقدم هذه المذاهب الأربعة هو مذهب الامام أبى حنيفة ، الذى ولد بالكوفة سنة ٥٨٠ هـ ، وتوفى ببغداد سنة ١٥٠ هـ ، ويعد أبو حنيفة امام أهل الرأى والقياس ، وثانى أئمة المذاهب الأربعة الامام مالك بن أنس ، الذى ولد بالمدينة المنورة سنة ٥٩٣ هـ أو سنة ٥٩٥ هـ ، وتوفى بها سنة ١٧٩ هـ . ويمتاز مذهب مالك بالاعتماد على الحديث ، ويقال لأتباعه أهل الحديث . وثالث أولئك الأئمة هو الامام الشافعى ، ولد بغزة سنة ١٦٠ هـ ، وتوفى بمصر سنة ٢٠٤ هـ . ويتصف مذهب الشافعى بأنه جمع بين مذهبه الرأى والحديث . ورابع هؤلاء الأئمة هو الامام أحمد بن حنبل الذى ولد ببغداد سنة ١٦٤ هـ .

وعلى الرغم من أن مذهب الامام أبى حنيفة هو أقدم المذاهب الأربعة ، فإن مذهب الامام مالك هو الذى دخل مصر أولاً ، وانتشر بها ، كما لقى بها قبولاً

عظيما ، مما يدل على قوة الوازع الدينى لدى أهل البلاد . وكثر فقهاء المالكية بمصر ، واشتهروا بسعة علمهم ، أمثال عبد الله بن وهب ، الذى صحب الامام مالك نفسه عشرين سنة ، وكان مالك إذا كتب إليه فى مسائل خاصة أو عامة ، بدأها بقوله : إلى عبد الله بن وهب المفتى ، ولم يكن يفعل ذلك مع غيره .

وظل المصريون يتبعون مذهب مالك حتى قدم الامام الشافعى إلى مصر ، ونشر مذهبه الجديد بها . وعندئذ تبع كثير من المصريين مذهب الشافعى ، ونبغ منهم علماء أفاضل ، من أشهرهم يوسف بن يحيى البويطى ، نسبة إلى بويط ، وهى قرية من قرى صعيد مصر . وخلقت مدرسة الشافعى جواً جديداً من العلم فى مصر ، إذ استطاعت أن تنافس المذاهب الأخرى ، وأن تناظرها . ومن ثم بدأت أذهان المصريين تدرك قيمة المناظرات العلمية ، إذ كان يأتى بالآية أو الحديث ويشرحه ، ثم يستنبط منه ما ينتهى إليه رأيه ، كما كان يختار الألفاظ أو الحديث ويشرحه ، ثم يستنبط منه ما ينتهى إليه رأيه ، كما كان يختار الألفاظ الجيدة التى تلائم المعنى . وبذلك ظهرت روح الكتابة عند المؤلفين المصريين ، ونقل عنهم جيرانهم هذا النمط من الكتابة العلمية .

وبذلك لم يكذب يقترب القرن الثانى الهجرى من نهايته حتى ظهر فى مصر علماء أفاضل صاروا طليعة الجيل العربى فى مصر ، وحملت مشاعل الثقافة الاسلامية إلى سائر أرجاء العالم العربى المجاور لبلادهم . ومن ثمار هذا الجيل الجديد فى مصر « ورش المقرئ » واسمه عثمان بن سعيد المصرى الذى انحدر من أصل قبضى . وأخذ هذا العالم المصرى القراءة عن نافع ، وهو الذى لقبه بورش لشدة بياضه ، ويقال لأن الورش شىء يصنع من اللبن ، وقيل ولقبه ورشان ، وهو طائر معروف . وقد انتهت إلى هذا العالم المصرى رئاسة القراءة فى مصر ، كما اشتهر بإجادته للغة العربية . وتوفى ورشان سنة ١٩٧هـ / ٨١٣م ، تاركا وراءه تلاميذ نجباء ، منهم يعقوب الأزرق ، الذى أتقن الأداء فى الاقراء ، على نحو ما تعلمه من أستاذه .

ولم يقتصر نشاط العلماء المصريين على وطنهم ، فى تلك المرحلة المبكرة من تاريخها فى ظل العروبة ، وإنما جعلوا من بلدهم مركزا اجتذب إليه الطلاب من الأقطار المجاورة ، وهى إفريقية (تونس الحالية) ، والمغرب ، والأندلس كذلك . فأثرت مصر على المغرب والأندلس فى المذاهب وفى العلوم الدينية أيضاً . فمن علماء إفريقية الذين أخذوا عن المصريين ، البهلولى بن راشد ، الذى توفى سنة ١٧٢هـ / ٧٩٩م . ومن علماء الأندلس الذين وفدوا إلى مصر إذ ذاك عيسى بن دينار ، الذى تلقى العلم على مشاهير فقهاءها . وحين عاد عيسى إلى الأندلس تولى رئاسة الفتيا بقرطبة ، ولم يتقدم عليه أحد لأنه تعلم على خيرة علماء مصر ، وتوفى عيسى فى طليطلة سنة ٢١٢هـ / ٨٢٧م . وهكذا انتشرت هذه المذاهب المبكرة فى مصر . ولكن الغالبية من أهالى تلك البلاد مالت الى فقه المالكية والشافعية .

طلّاع علماء مصر الاسلامية

وتعتبر أسرة المؤرخ المصرى ابن عبد الحكم نموذجا لهذا اللون الجديد من الطابع الدينى الذى ساد الديار المصرية . وتنتسب هذه الأسرة الى بلدة الحقل بالقرب من أيلة (العقبة) ، كما تستمد أصولها من قبيلة قريش . واختص أبناء هذه الأسرة خالفا عن سالف بالاهتمام بالدراسات الدينية وعلو كعبهم فيها . فأول شخص ذاع اسمه من أسرة ابن عبد الحكم ، وهو أبو عثمان عبد الحكم بن أعين بن الليث بن رافع ، كان على صلة وثيقة بالامام مالك وبحوثه . وتوفى هذا الجد الأكبر سنة ١٧١هـ / ٧٨٧م ، تاركا لابنائه من بعده سياسة واضحة المعالم للسير فى سبيل خدمة الاسلام وحضارته . فحمل لواء العلم بعد جد تلك الأسرة ، والد المؤرخ ابن عبد الحكم ، وهو عبد الله بن عبد الحكم بن أعين ، الذى ولد سنة ١٥٥هـ / ٧٧٢م .

وكان بيت عبد الله بن عبد الحكم مقصد كبار العلماء والفقهاء الوافدين الى مصر ، حيث عرف بالثراء والكرم كذلك . وبلغ من ثرائه أنه تلقى الامام الشافعى حين جاء الى مصر سنة ١٩٩هـ ، وأنزله فى داره ، وأعطاه من ماله الخاص ألف دينار . واستطاع عبد الله بنفوذه أيضا أن يجمع للشافعى الف دينار أخرى من بعض

المصريين ، ومن أحد مشاهير التجار اذ ذلك ، وهو ابن عسامه ألفا ثالثة . وترك هذا الكرم أطيّب الأثر فى نفس الامام الشافعى وحبب اليه البقاء فى مصر بعد أن كاد يغادرها فى أول الأمر .

وانعكست آثار هذا النشاط العلمى العظيم الذى ساد حياة عبد الله بن عبد الحكم فى مؤلفات ابنه المؤرخ ابن عبد الحكم . اذ تجلى فى تلك المؤلفات الخبرة الواسعة بأحوال مصر وما جاورها من بلاد ، وذلك عن طريق أوثق المصادر وأدقها . ثم ان صلة المؤرخ ابن عبد الحكم بالحياة الثقافية لم تنقطع بوفاة والده ، ذلك انه كان رابع أخوة ثلاث تابعوا جميعا رسالة والدهم فى النهوض بالدراسات الدينية فى الديار المصرية ، وجعل وطنهم كذلك كعبة يحج إليها طلاب تلك الدراسات ، والراغبين فى الاستزادة منها . ووجد المؤرخ ابن عبد الحكم بالتالى فى أخوته مصادر أخرى . غزيرة ، جعلت لمؤلفاته مكانة فريدة فى ميدان الدراسات العربية .

وجاء نشاط ابن عبد الحكم العلمى فى مرحلة هامة من مراحل التطور فى حياة مصر فى أواخر القرن الثانى ومطلع القرن الثالث الهجرى . وهى مرحلة تكون عصراً من أهم عصور اليقظة الفكرية ، ليس فى تاريخ الفكر والثقافة العربية فحسب ولكن تاريخ الفكر والثقافة فى العالم كذلك .

وكان من آيات هذا التطور الفكرى الهام انطلاق حركة الترجمة إلى العربية انطلاقاً واسع المدى ، حتى أنها قطعت أشواطاً هائلة فى طريق التقدم . فصار العرب سادة مناهل الفكر القديم . ويملكون فى دوائرهم الثقافية أشهر مؤلفات أرسطو الفلسفية وغيرها من كنوز العلماء اليونانيين القدامى ، وذلك فضلاً عن المؤلفات الفارسية والهندية التى تتناول البحوث العلمية .

ولم تمض سنوات قليلة على حركة الترجمة حتى هضم العلماء العرب ما أنفق القدامى القرون فى توضيحه ، وعمدوا إلى الملائمة بين ذلك التراث القديم وبين تراثهم الاسلامى الجديد . وظهرت معالم الامتزاج بين الثقافات العربية الأصلية وبين الثقافات القديمة فى اشتغال العرب بمعارف جديدة لم يكن لهم بها علم من قبل .

غير أن هذه النهضة الثقافية التي قام بها العلماء العرب تمشت مع انتشار الاسلام ، وصارت الصبغة الاسلامية هي الغالبة عليها . وكانت الدراسات التاريخية التي ازدهرت فى هذه المرحلة من عصر الثقافة العربية خير نموذج لهذه الروح الاسلامية الخالصة .

ويرجع السبب فى تلك الخاصية الفريدة التى اتصفت بها الدراسات التاريخية إلى أن القائمين بها لم يكونوا فى أول أمرهم من الرجال الذين عاشوا فى كنف الأمراء ، أو ممن عهدت إليهم الدولة بجمع الوثائق والأسانيد ، ثم عرضها بما يتفق ووجهة نظر السلطات الحاكمة ، وإنما عاش أولئك المؤرخون العرب عيشة بساطة تامة ، بعيدين عن زخرف الحياة وبريقها ، وقانعين بالقليل من أسباب العيش ، وفى نفس الوقت صرف هذا النفر من المؤرخين جهودهم فى تتبع أحداث ماضى بلادهم وشرح ما امتلأت به حياة أهلها من نزعات مذهبية ، وعقائد سياسية ، وصور اجتماعية ، واستهدفوا من ذلك تجنب مواطنيهم العثرات ، وأخطاء السلف ، وتوضيح النماذج العالية الجديرة بالدرس والأقتداء . وبذلك جاءت الدراسات التاريخية التى قام بها المؤرخون العرب صورة نزيهة للمجتمع الذى عاشوا فيه وتعبيراً صادقاً عن مشاعرهم وتجاربهم .

وساعد على نزاهة تلك الدراسات العربية الأولى فى ميدان التاريخ أن القائمين بها نشأوا فى مهاد الدين ، وشبوا وترعرعوا فى خدمة مطالبه كذلك . فاقتترنت الدراسات التاريخية العربية فى أول أمرها برواية الحديث وتفسير القرآن الكريم . ذلك أن المشتغلين بجمع القرآن وتفسيره ، واستقصاء الحديث كذلك ، احتاجوا إلى الأحاديث وتحروا فى ذلك منتهى الدقة والأمانة . فالقرآن الكريم حوى الشرائع والأحكام والأخبار التى تهدى الناس سواء السبيل ، فضلاً عن أن الأحاديث المأثورة تعين على توضيح ما يواجه الناس من مشاكل ويساعدهم على حلها .

واقترضت هذه الدراسات الدينية أن يكون النبى الكريم وسيرته أول موضوع تتناوله الدراسات التاريخية فى هذه المرحلة من عصر اليقظة الفكرية العربية ، فحياة الرسول

الكريم وجهاده أمر جوهرى يفيد أبناء المجتمع ، للسير على هدى سنته والاسترشاد بتعاليمها . وأصفت هذه الدراسات التاريخية الأولى على المشتغلين بها روحا خالصة من النزاهة والورع . ذلك أن تاريخ النبى الكريم كان داخلا فيما يروى من الحديث ، حيث دأب المحدث فى أول أمره على أن يجمع كل ما وصل إليه علمه من أحاديث النبى ، من غير ترتيب ، ولكن متوخياً الدقة التامة فى الحصول عليها ، والتأكد من نزاهة رواتها . ولما بدأ المشتغلون بالحديث يرتبونها فى أبواب خاصة من حيث المواضيع التى تتناولها ظهر منها باب مستقل يقتصر على سيرة الرسول الكريم . وهذا الأمر الأخير كان إيذاناً بمولد الدراسات التاريخية ، التى نهض بها طبقة المؤرخين العرب .

وظهرت باكورة الدراسات التاريخية الأولى فيما يعرف باسم « المغازى والسير » لأن المغازى ولو أنه يقصد بها الغزو ، إلا أنها لم تلبث أن صارت قاصرة على جهاد النبى ومرادفة لسيرته . ثم أخذت الأبواب الخاصة بسيرة النبى الكريم تنفصل شيئاً فشيئاً عن الأحاديث وصار يطلق على المتخصصين فى أخبار السيرة وغيرها من الحوادث الماضية اسم « الاخباريين » . واشتهر بالتأليف فى هذا الميدان الجديد من المغازى والسير أربعة هم : أبان بن الخليفة عثمان بن عفان ، وعروة بن الزبير ، وشرحبيل بن سعد ، ووهب بن منبه . وتخرج على أيدي هؤلاء الأساتذة الأربعة عدة أجيال من المؤرخين ، الذين وضعوا الحجر الأساسى للدراسات التاريخية فى البلاد التى فتحها العرب ، وحملوا إليها راية الاسلام .

وقد أسهمت مصر عقب الفتح العربى فى هذه الحركة الثقافية ، حيث تأسست بها مدرسة للتاريخ ، تخرج منها عدد عظيم من نجباء المؤرخين ، الذين يقف على رأس قائمتهم ابن عبد الحكم . إذ استطاع هذا المؤرخ المصرى الأول أن يجد فى تلك المدرسة من الدراسات التاريخية القيمة ، ويلقى فيها من الرواة الثقة ، ما أتاح له تسجيل صورة دقيقة عن وطنه فى أهم مرحلة من مراحلها الأولى فى ظل العروبة والاسلام ، وترك لمن جاء بعده من أجيال المؤرخين تراثاً ثميناً ، وطريقاً قويمًا ، هياً

لهم الاستمرار فى عملهم من أجل خدمة الثقافة العربية وتدعيم أوتادها .

واختصت مدرسة التاريخ فى مصر بلون هام من الدراسة ، كان له أكبر الأثر فى إنتاج ابن عبد الحكم العلمى ، إذ انتشر فى مصر عقب الفتح الاسلامى لون من القصص الدينى ، شجع على ظهور طبقة من الناس لجمع أخبارها ، وعرض مادتها عرضاً طيباً . وأطلق على هذا النفر من الناس الذين عنوا بجمع الأخبار الشائقة ، والتى تشير حب الاستطلاع اسم « القصاص » ، وأحياناً اسم الرواة والاخباريين . وجرت العادة على أن يجلس القاص فى المسجد وحوله الناس ، ويقص عليهم حكايات وأحاديث تدور حول شخصية النبى وأبطال الاسلام ، أو عن الأنبياء الوارد ذكرهم فى القرآن ، متبعاً فى ذلك أسلوب الترغيب والترهيب . وشاع هذا اللون من القصص التاريخى لأنه يتفق وميول الناس ، ولأن الأحداث السياسية على عهد الفتن بين على ومعاوية ، جعلت منه أداة فى يد الأحزاب المتنافسة .

وأدت هذه التطورات الهامة إلى أن يصبح القصص عملاً رسمياً ، وعهدت الدولة به إلى رجال رسميين وأعطتهم عليه أجراً ، وبدأ هذا التنظيم الجديد على عهد معاوية بن أبى سفيان الذى احتاج إلى رواة القصص لتشجيع أنصاره ضد على بن أبى طالب . وحفلت المدرسة المصرية بأعداد كبيرة من أساتذة هذا اللون من القصص التاريخى ، كما نبغ منهم بعض الأفراد العلماء . ومن أول هؤلاء العلماء وأشهرهم « سليم بن عتر التجيبى » ، وكان من التابعين . « وهو أول من قص سنة ٥٣٩هـ . وولاه معاوية القضاء سنة ٤١هـ ، فأقام قاضياً عشرين سنة . واشتهر هذا العالم بأنه أول من أحدث فى مصر سجلات للموارث ، وبأحكامه المأثورة أيضاً » . ولم يتخل سليم ابن عتر عن وظيفة القاص حتى بعد أن ترك القضاء . واستمر يعظ الناس ، متخذاً مقرأ له جامع عمرو بن العاص . وظل هذا العالم الجليل موضع تقدير الناس لما عرفوه عنه من كفاية علمية فى قصصه وأحكامه ، وكفاية إدارية أيضاً فيما وكل إليه من أعمال أخرى ، مثل تنظيم الخراج والقضاء .

واشتهر من مدرسة مصر أيضاً « عبد الرحمن بن حجيرة » ، الذى ولى القضاء لعبد العزيز بن مروان ، وجمع إليه القضاء وبيت المال . وحصل هذا العالم على راتب عظيم نظير المهام التى قام بها . ومن ذلك أنه نال فى السنة « من القضاء مائتى دينار . ومن القمص مائتى دينار ، وكان رزقه فى بيت المال مائتى دينار . فلا يحول عليه الحول وعنده شىء منها يفضل على أهله وإخوته » . وظل ابن حجيرة فى منصب القضاء اثنتى عشر سنة ، واشتهر بمعلوماته التاريخية ، ولا سيما فيما يتعلق بعصر الخلفاء الراشدين ، فكان يستشهد بأقوال للخليفة عمر بن الخطاب ويشرحها للمستمعين له .

واضطلعت القصة التاريخية منذ ذلك الوقت بدور هام فى تدعيم أركان الحياة الثقافية بمصر ، ونشر الوعى بين أهلها ، من أبناء الجيل العربى الجديد بها . ذلك أن القاص اتخذ من تاريخ مصر القديم ، ولا سيما ما ورد منه فى القرآن الكريم مادة له ، كما استمد من أخبار القبائل العربية قبل الاسلام ما يساعده على تحقيق الأغراض السياسية أو الاجتماعية التى تتطلبها السلطات الرسمية . ووجدت هذه القصص طريقها بعد ذلك إلى التدوين ، ونقل منها المؤرخ ابن عبد الحكم الشىء الكثير فى مؤلفاته ، خاصة فيما كتبه عن تاريخ مصر القديم ، والمرحلة السابقة للفتح الاسلامى لها .

وظلت هذه الحركة العلمية رائد الدراسات التاريخية فى مصر ، كما غذاها مجيء عدد من الاخباريين وأصحاب المغازى إليه ، ومن هؤلاء محمد بن اسحق ، صاحب السيرة ، وعبد الملك بن هشام زاويها . أما الأول فجاء إلى مصر سنة ١١٥هـ / ٧٣٢م ، أى قبل مولد المؤرخ ابن عبد الحكم بحوالى سبعين سنة تقريباً . وقد اتصل صاحب السيرة بعدد من أساتذة المدرسة التاريخية فى مصر ، ونقل عنهم كثيراً من المادة التاريخية التى ضمنها مؤلفه القيم عن المغازى . وعاد ابن اسحق إلى المدينة ، بعد أن تزود بقدر جليل من المادة التاريخية ، جعلته يعتبر حجة فى سيرة الرسول ، وموضع تقدير المعاصرين له من العلماء .

ولم يصل إلينا من سيرة ابن اسحق سوى مختصرها ، الذى قام به أحد المؤرخين من أبناء مدرسة مصر ، وهو عبد الملك بن هشام ، الذى أسهم فى نشاط تلك المدرسة حتى وفاته سنة ٥٢١٨هـ / ٨٣٣م ، أى أنه عاصر مؤرخ مصر الأول ابن عبد الحكم وهو فى العقد الرابع من عمره . وصادف دخول ابن هشام مصر وجود الامام الشافعى بها فى ضيافة أسرة ابن عبد الحكم ، وكان لهما مساجلات رائعة ، تركت أثراً عظيماً فى البلاد ، وفى مؤلفات ابن عبد الحكم نفسه . وظهر فى مختصر السيرة الذى قام به ابن هشام استفادته من مدرسة مصر التاريخية ، فروى عن علماء هذه المدرسة كثيراً ، ومن ذلك على سبيل المثال : حدثنا عبد الله بن وهب ، عن عبد الله بن لهيعة ، عن عمر مولى عفرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الله فى أهل الذمة ، أهل المدرة السوداء ، الشحم الجعاد ، فإن لهم نسباً وصهراً . قال عمر مولى عفرة : نسبهم أن أم اسماعيل منهم ، وصهرهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسرى فيهم . وقال ابن لهيعة : أم اسماعيل هاجر من « أم العرب » قرية كانت أمام الفرما من مصر ، وأم ابراهيم مارية سرية النبى صلى الله عليه وسلم التى أهداها له المقوقس من حفن من كورة أنصنا .

وجاء ظهور ابن عبد الحكم نقطة تحول هامة فى مدرسة التاريخ بمصر ، ذلك أن القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى لم يكد ينتهى حتى ظهرت بمصر مجموعة هائلة من المادة التاريخية ، اشتملت على عدد كبير من القصص الشائع والأساطير ، فضلا عن الروايات المختلفة الألوان ، بعضها مكتوب والبعض الآخر ، وهو الغالب شفى ، حيث تناقلته الأجيال تلو الأجيال . وبمطلع القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى تطلب الأمر تدوين تلك الروايات والأساطير تدويناً منظماً ، لأن الاعتماد على الذاكرة وحدها أمراً مستحيلاً ، لأن بعض الروايات المزيفة بدأت تأخذ طريقها إلى الوجود ، بسبب الفتن العديدة التى أمتلأت بها أرجاء البلاد العربية فى ذلك القرن ، ومحاولة الأحزاب المتنافسة دس الأحاديث أو الأقوال المأثورة التى تضمن لها تحقيق مآربها . ولذا كان لابد من تجريد الروايات الصادقة من برائن هذه الحشود الهائلة من الأخبار ، وعرضها بما يكفل للأجيال المتعاقبة الاستفادة منها .

وساعد كذلك على هذا التطور الهام فى حركة تدوين التاريخ فى القرن الثالث الهجرى رغبة السلطات الرسمية فى تدعيم النظام المالى فى الدولة ، لأن الخراج فى البلاد التى فتحها المسلمون اختلف من مكان إلى آخر حسب فتحها صلحا أو عنوة أو بعهد ، وتبعاً للأحداث السياسية والاجتماعية التى سادت تلك البلاد أثناء الفتح ، وصارت ذاكرة الرواة لا تستطيع أن تعى ملابسات الفتح ، فإن الأمر بات يتطلب التدوين ، حتى لا يثار خلاف حول جباية الخراج من البلاد المفتوحة .

ولذلك حان الوقت فى القرن الثالث الهجرى لكتابة التاريخ بطريقة منظمة ، مؤسسة على القصص والروايات والأخبار ، ووفق الأغراض التى استهدفها مؤرخو هذا القرن . وكان هدف ابن عبد الحكم تجريد الأخبار المتعلقة بمصر ، وإفرادها بالتأليف ، حتى يكون كتابه الحجة التى يرجع إليها المعاصرون ، ومن يأتى بعدهم من الباحثين فى تاريخ مصر ، ومعرفة الدور الذى قامت به تلك البلاد فى خدمة العروبة والاسلام . ولم تكن مهمة هذا المؤرخ المصرى سهلة ميسورة ، بسبب كثرة الأقوال والروايات فى مصر ، سواء عن طريق القصاص الذين امتلأت بهم المساجد ، أو الرواة الذين وفد إليهم الناس لسماع الأحاديث ، أو المخطوطات التى دأب نفر من الباحثين على تدوينها طول النصف الأخير من القرن الثانى ، ومطلع القرن الثالث الهجرى .

وكان المنهج الذى سار عليه ابن عبد الحكم فى تأليفه ، هو المنهج العام الذى اتبعه المعاصرون له من مؤرخى القرن الثالث الهجرى ، وهو المعروف بطريقة « الاسناد » ، التى جرى عليها رواة الحديث . فكانت كل حادثة تروى بألفاظ شاهد عيان أو معاصر ، ثم تصل إلى الرواية النهائى أو المؤلف عن طريق سلسلة من الرواة (أو الاسناد) . وأدى الاسناد إلى نظام الدقة التامة فى تدوين التاريخ ، ولاسيما من حيث الاصرار على تاريخ الحوادث وإرجاعها إلى الشهر ، بل وإلى اليوم . ثم إن نظرية الاسناد لم تكن عملا هينا ، وإنما سببت للقاتمين بها متاعب لا نهاية لها ، لأن الأبحاث التى قام بها المؤرخ لتوثيق كل راو تطلب جهدا عظيما ، وصارت صحة الأخبار المرورية تتوقف على اتصال سلسلة الاسناد ، والثقة فى أمانة كل رواية ، أكثر

من توقفها على الفحص النقدي للخبر نفسه .

وحرص ابن عبد الحكم على الدقة فى تحرى أسانيده ، ولا سيما أنه كان محدث ، غلبت عليه طريقة المحدثين من حيث القدرة على تتبع الرواة المشهود لهم بالأمانة . وإذا أحس هذا المؤرخ بأن هناك شك فى إحدى الروايات فإنه أعاد ذكرها ، مع بيان سلسلة الاسناد لكل مظهر من مظاهر تلك الرواية ، وذلك مبالغة منه فى الأمانة العلمية . ومع ذلك ظلت نظرية نقد الرواية التاريخية نفسها أمراً لا يعرفه ابن عبد الحكم ، كما لم يعرفه معاصروه من مؤرخى القرن الثالث الهجرى . وترتب على ترك الرواية نفسها دون نقد تسرب كثير من الأساطير والقصص المبالغ فيها إلى التاريخ الذى وضعه ابن عبد الحكم . ولكن ذلك لا يقلل من قيمة العمل الذى قام به ، وخاصة أن أمثال تلك الأساطير والقصص تتضاءل أمام الحقائق التاريخية القيمة ، التى كان يتعذر معرفتها عن تاريخ مصر ، لولا مجهودات ابن الحكم ، ودأبه المتواصل على جمع الأخبار وتنسيقها .

وهناك ناحية أخرى نجح فيها ابن عبد الحكم ، كما أجاد استخدامها كذلك كل مؤرخى القرن الثالث الهجرى ، وهى إعادة أو اصر المودة والألفة بين مادة التاريخ وميدان جمع الأحاديث النبوية وتبويبها . ذلك أن مؤرخى السيرة منذ فصلوا التاريخ عن الحديث ، وصاروا يعملون على جمع الحوادث والأخبار ، وهم موضع نقد رجال الدين الذين أطلقوا عليهم اسم الأخباريين ، للتفرقة بينهم وبين المحدثين . غير أن ابن عبد الحكم استطاع ، كما فعل معاصروه من المؤرخين ، أن يعيد تيار التاريخ وتيار الحديث إلى الالتقاء مرة ثانية . فابن عبد الحكم محدث بارع ، ومن بيت اشتهر كل أبنائه بالفقه والاجادة فى الحديث ، وصار حجة فى دينه ، وموضع ثقة الجميع . ولذا نجح هذا المؤرخ المصرى بفضل ما توافر له من خصال الدين والدنيا ، أن يرفع من شأن التاريخ وشأن المشتغلين به كذلك .

واستطاع بن عبد الحكم أيضاً بفضل إجادته للمنهج العام الذى اتبعه كل المعاصرين له من المشتغلين بالتاريخ أن يضمن لمؤلفه الاحترام ، وأن يصبح مرجعاً لا

يستغنى عنه أحد من الراغبين فى الدراسات العلمية المتعلقة بالمرحلة المبكرة من تاريخ انتشار العروبة والاسلام فى مصر . وفى نفس الوقت ضمن ابن عبد الحكم لاسمه أن يقف على رأس قائمة المعاصرين له من كبار المؤرخين أمثال الطبرى ، والبلاذرى ، وابن قتيبة ، ويجدد فى بناء النهضة التاريخية التى اختص بها القرن الثالث الهجرى .

ذلك أن مؤلفات المؤرخين فى القرن الثالث الهجرى ظلت — على الرغم من أهميتها العظمى — تفتقر إلى التنسيق أو التبويب الذى يعين القارئ على تتبع موضوع واحد تتبعاً منطقياً سليماً ، والخروج بنتائج واضحة محددة المعالم عن ذلك الموضوع الذى يرغب دراسته . ذلك أن حرص مؤرخى القرن الثالث الهجرى على تتبع كل ما يصل إليهم من مختلف الروايات عن شتى المواضيع جعلهم أصحاب ملكات عالية من حيث إدراك الجزئيات إدراكاً دقيقاً ، ولكن دون أن يقدروا على ربط الحوادث برباط جامع . وصار على الباحث فى هذه المؤلفات أن يتذرع بالصبر وهو يطلع على الروايات العديدة المتشابهة فى المعنى ، والمختلفة من حيث روايتها ، وأن يطوى الصفحات تلو الصفحات حتى يستطيع أن يتابع ربط الأحداث التى يحاول دراستها .

وانفرد المؤرخ ابن عبد الحكم ، من بين مؤرخى القرن الثالث الهجرى ، بمحاولته تجنيب الباحثين التخبط فى تيه الصفحات العديدة ، وما تحويه من كل واردة ، وقدم روايته فى موضوع خاص ، بلغة البحث العلمى فى الوقت الحاضر . فجمع الروايات المتعلقة بتاريخ مصر فى كتاب سماه « فتوح مصر » مستهدفاً بيان الدور الذى قام به العرب فى نشر دعوتهم فى تلك البلاد وما جاورها من الأقطار ، وليكون هذا البحث هادياً لمواطنيه لمعرفة الحقائق المتعلقة بوطنهم ، وسط التيارات العديدة والمتعارضة من أقوال القصاص وغيرهم من العلماء الذين انتشروا فى المساجد والمحافل .

ويعتبر ابن عبد الحكم بذلك من طليعة المجددين فى كتابة التاريخ من أبناء القرن الثالث الهجرى ، إذ جمع بين طريقة الاسناد الشائعة فى المنهج العام لدى مؤرخى هذا القرن ، ولكن خالفهم من حيث موضوع الدراسة ، وتبويب مادته العلمية كذلك . أما من حيث الموضوع فيعتبر كتاب ابن عبد الحكم تسجيلاً لنمو القومية العربية فى مصر وشمال إفريقيا ، وكيف كانت مصر محور نشاط الأصول الأولى لهذه القومية ، والينبوع الصافى الذى تولى تغذيتها بأسباب البقاء والازدهار ، والحارس الأمين كذلك على سلامتها ودعامة أوتادها .

ثم ان ابن عبد الحكم أضاف فناً جديداً فى التاريخ لم يسبقه إليه أى مؤرخ آخر من معاصريه ، وهو فن « الخبط » ، ويقصد به تاريخ الأمصار أو المدن وبيان ما لها من أثر فى بناء الحضارة العربية ونشر معالمها ومظاهرها على اختلاف ألوانها فيما جاورها من أرجاء . واعتمد ابن عبد الحكم فى معالجته لهذا الموضوع الجديد على مشاهداته للأمصار فى وطنه بمصر ، وأهمها الفسطاط التى غدت فى سرعة ملحوظة مركزاً هاماً من مراكز العمران العربى ، والنشاط العلمى والاقتصادى للحياة العربية الناشئة فى الديار المصرية ، وجاراتها من بلاد شمال إفريقيا كذلك .

وابتكر ابن عبد الحكم طريقة جديدة فى معالجة المادة التاريخية التى تناولها بالذكر فى مؤلفه ، وهو الأمر الذى كان له أكبر الأثر فى تدوين التاريخ القومى العربى ، وتوضيح جوانبه العديدة . إذ قسم موضوعه إلى سبعة أقسام ، وأدرج تحت كل قسم منها المادة الخاصة بتاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى أن وصل إلى سنة ٢٤٦هـ ، أى قبل وفاته بعشر سنين . وكان المنهج الذى اتبعه ابن عبد الحكم طوال الأقسام السبعة التى وضعها لكتابه هو ربط مواضيعها بالتاريخ العربى سواء قبل الاسلام أو بعده ، بحيث يلمس القارئ صورة واضحة عن مكانة مصر فى التاريخ القومى العربى ، وذلك على نحو ما جاء فى دراسته عن الصحابة فى مصر .

مدرسة الصحابة فى مصر

كان الشغل الشاغل لرجال الدين فى الأمة الاسلامية هو التحديد الجامع لما يواجهه الناس فى الحياة العامة من أمور على هدى هذين المصدرين : القرآن الكريم والسنة النبوية ، بما يكفل السعى إلى نجاة النفوس فى الدنيا والآخرة .

ونقل الصحابة بعد وفاة الرسول الكريم هذين المصدرين وأسلوب العمل بهما الى مصر وكذلك الى كل مكان ذهبوا اليه بعد اتساع الفتوح الاسلامية ، كما حمل هذه الرسالة من بعدهم التابعين وتابعيهم باحسان الى يوم الدين ، حتى وصلت الحدود الاسلامية من الصين شرقا الى جبال البرانس غربا .

وسجل تاريخ الصحابة فى مصر المؤرخ ابن عبد الحكيم فى كتابه « فتوح مصر » اذ خصص فى مؤلفه القيم فصلا مطولا عن الصحابة الذين وفدوا الى مصر ، وروى عنهم بعض الأحاديث المختارة ، وأسهم هذا المؤرخ بذلك فى الحركة العلمية التى اتجهت الى دراسة تاريخ الصحابة نظرا لارتباط حياتهم برواية الحديث ، وهو الموضوع الذى كان يلى القرآن الكريم من حيث أهميته للناس ، وتبصرتهم بشئون دينهم ودنياهم . فالصحابه كانوا يعاشرون النبى (ص) ، ويسمعون قوله ويشاهدون عمله ، ثم يتحدثون بما رأوا وما سمعوا . واشترط العلماء فى الصحابى عدة أوصاف منها ، أن يكون شخصا طالت صحبته للرسول الكريم ، أو حفظ روايته ، أو اشترك معه فى غزوة من الغزوات ، أو من رآه ولو لم يجالسه ، أو سمعه ولم يره بسبب العمى مثلا .

واختلف أولئك الصحابة فيما بينهم من حيث درجتهم العلمية ، حيث كان بعضهم أعلم من بعض . فيروى عن الرسول الكريم (ص) قوله : « ان مثل ما بعثنى به الله من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلا والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة منها أخرى انما هى قيعان لا

تمسك ماء ولا تنبت كلاً . » واشتهر من الصحابة ستة أو سبعة صاروا يكونون الطبقة الأولى فى العلم ، هم : عمر وعلى وابن مسعود ، وابن عمر ، وابن عباس وزيد بن ثابت وعائشة ، وجاء بعد هؤلاء الستة الأعلام حوالى عشرون من الطبقة الثانية ، ثم نحو مائة وعشرون من الطبقة الثالثة ، وهكذا .

وكانت التربية الدينية التى تلقاها ابن عبد الحكم سببا فى اهتمامه بتاريخ أولئك الصحابة ، وتسجيل نشاطهم وخدماتهم للدولة الاسلامية الناشئة . والمعروف عن أسرة ابن عبد الحكم انها كانت على المذهب المالكى ، الذى يعطى الأحاديث النبوية الكريمة الأهمية الكبرى فى التشريع ، واتخاذها الأساس الأول ، والمرجع الأخير لكل فقيه أو عالم فى شئون الدين . وتطلبت هذه الظاهرة بالتالى اهتمام أفراد الأسرة بالصحابة الذين رووا أحاديث الرسول (ص) ، ومعرفة قدر كل منهم من العلم والاجادة . ولا بد ان هذا الاهتمام اثار عند بنى عبد الحكم اتجاهات عديدة ، استمع اليها ابنهم المؤرخ وهو صغير السن ، وأدرك من متابعته للمناقشات التى دارت حول هذه الاتجاهات ان دراسة حياة الصحابة أمر واجب لفهم الأحاديث التى رووها عن الرسول الكريم .

وأول الاتجاهات التى لا بد أن ابن عبد الحكم قد استمع اليها من أفراد أسرته أن عدد الصحابة كان عظيما ، وانهم بلغوا عند وفاة الرسول الكيم ما يقرب من ١٤٠٠٠ صحابى ، كلهم سمع منه الأحاديث ورواها عنه . هذا فضلا عن أقوام أخرى شاهدت أفعالا للرسول لم يشاهدها غيرهم .

وثانى هذه الاتجاهات التى لا بد وأن ابن عبد لحكم قد استمع اليها أيضا ، هو تفاوت مقدرة أولئك الصحابة على رواية الحديث ، وان بعضهم قد اشتهر بالاكثار من الرواية ، على حين جنح البعض الآخر الى تحرى الدقة التامة فى كل ما يرويه ، وبالتالي الى التقليل من رواية الحديث .

وخرج ابن عبد الحكم من دراساته لهذه الاتجاهات العديدة برأى جديد ، هو الاقتصار على تدوين تاريخ الصحابة الذين وفدوا الى مصر وذكر مختارات من

أحاديثهم ، مع بيان المناسبات التي وردت فيها تلك الأحاديث . واستطاع هذا المؤرخ الجليل ان يعطى بذلك صورة واضحة المعالم عن نشاط مدرسة الصحابة فى مصر ، ويوضح مكاتها فى خدمة الحضارة العربية الاسلامية .

وقسم ابن عبد الحكم رجال هذه المدرسة أقساما عديدة ، ورتبها ترتيبا طيبا ، حسب الصحابة الذين شهدوا فتح مصر مثلا ، وأولئك الذين جاءوا إليها بعد الفتح ، ثم الصحابة الذين دخلوا مصر وهم فى طريقهم الى شمال أفريقيا . واستعرض ابن عبد الحكم تاريخ أولئك الصحابة ونشاطهم على النحو التالى .—

أولا :

أشار الى المنازل التى شيدها فى الفسطاط ، وأقاموا بها ، وكيف أن بعض أولئك الصحابة مال الى تجميل داره ، والانفاق عليها عن سعة . فأشار مثلا الى أن عبد الله بن سعد بن أبى سرح بعد أن فرغ من بناء داره قال للصحابى ، المقداد بن الأسود : كيف ترى بنيان هذا الدار ؟ . فقال المقداد : ان كان مال الله فقد أسرفت ، وان كان من مالك فقد أفسدت .

وجاءت ملاحظات ابن عبد الحكم فى هذا الموضوع ذات قيمة كبيرة فى تتبع أخبار الصحابة ، وخاصة أولئك الذين غادروا مصر . فقال مثلا واختط قيس بن سعد ابن عبادة فى قبلة المسجد الجامع .. كانت فضاء ، فبناها (أى بنى داره) ولما ولى البلد (الفسطاط) ، فولاه اياها على بن ابى طالب ، ثم عزله فكان الناس يقولون ، انها له حتى ذكر له ذلك ، فقال : وأى دار لى بمصر ؟ فذكرها له ، فقال انما تلك بنيتها من مال المسلمين لا حق لى فيها .

ثانيا :

وروى ابن عبد الحكم أحاديث الصحابة فى مصر . مبينا الأحداث التى ارتبطت بها ، أو المناسبات التى تتعلق بها . وغلبت على ابن عبد الحكم روح

التاريخ ، حيث أسهب في ذكر الوقائع التي أحاطت بهذه الأحاديث ومن ذلك هذا النص الذى دونه ابن عبد الحكم عن عمرو بن العاص ، وجاء فيه ما يلى : « وهو أول من أمر على أهل مصر فى الاسلام ، ولهم عنه أكثر من عشرين حديثا » ، منها : أن عمرو بن العاص قال لما انصرفنا من الخندق (غزوة الخندق) ، ولم يكن عمرو قد اعتنق الاسلام اذ ذاك (جمعت نفرا من قريش ، بينى وبينهم خاصة ، فقلت لهم : تعلموا والله أنى أرى أمر محمد يعلو .. فهل لكم فى رأى قد رأيته ؟ . قالوا : وما هو ؟ قلت : نلحق بالنجاشى (ملك الحبشة) فنكون عنده حتى ينقضى ما بيننا وبين محمد . قالوا : قد اصبت .

ثم خرجنا ، فبينما نحن قد دنونا منه (أى ملك الحبشة) ، اذ نظرت الى عمرو بن أمية قد بعثه رسول الله (ص) الى النجاشى . فقلت أيها الملك أنى قد رأيت بهابك رسول محمد ، وهو لنا عدو أعطينيه أضرب عنقه .. ، فقال (النجاشى) : تسألنى رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذى يأتى موسى ، والذى نفس النجاشى بيده ويحك يا عمرو ، فأطعنى واتبعه . والذى نفسى بيده ليظهرن هو ومن اتبعه على من سواهم ، وعلى من خالفهم .

فخرجت على اصحابى ، وقد حال رأبى عما كان عليه معهم .. فانطلقت تهوى بى راحلتى .. حتى جئنا رسول الله ، ثم تقدمت فبايعت . فقلت : يا رسول الله أبابك على أن يغفر لى ما تقدم من ذنبى ، ولم أذكر ما تأخر ، فقال الرسول (ص) : بايع يا عمرو ، فان الاسلام يجب ما كان قبله ، وان الهجرة تجب ما كان قبلها .

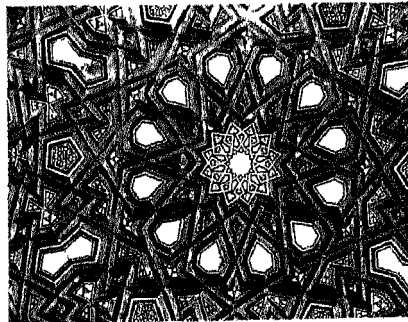
ثالثا :

أشار ابن عبد الحكم الى الأحاديث التى انفرد بها الصحابة فى مصر ، وكذلك تناول ذكر الصحابة الذين حاظ الغموض بتاريخهم من صحبتهم للرسول الكريم . وتعتبر هذه الدراسة التى قام بها ابن عبد الحكم فى ذلك الموضوع عملا فريدا ، أشبه

بالتحقيق التاريخى الذى نشاهده فى دراساتنا التاريخية المعاصرة . فقال ابن عبد الحكم فى ذلك مثلا : « معاوية بن حديج الكندى ، وهو كان رسول عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب بفتح الاسكندرية . وقد اختلف فى معاوية بن حديج ، فقال قوم : له صحبة ، واحتجوا فى ذلك بحديث حدثناه عن أبى عبد الله بن عبد الحكم .. وقال آخرون : ليست له صحبة ، واحتجوا بحديث حدثناه يوسف بن عادى » .

رابعا :

أشار ابن عبد الحكم الى عدد الأحاديث التى رواها كل صحابى فى مصر ، وخاصة تلك التى رواها أهل مصر أنفسهم . فقال نقلا عن الصحابى عن عبد الله بن الحرث الزبيدى وهو آخر صحابى توفى فى مصر (٥٨٦ / ٧٠٥ م) ، ولأهل مصر عنه ، عن النبى (ص) ما يقرب من عشرين حديثا ، منها : سمعت رسول الله (ص) يقول : أن الله أعد لعباده الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت . ولا يخطر على قلب بشر .. ومنها حديث عن عبد الله بن الحرث . قال : ما رأيت أحدا أكثر تبسما من رسول الله (ص) .



ارتباط مصر بأهل الجماعة

دخل الجيل العربى فى مصر مرحلة النضوج مبكرا منذ القرن الأول الهجرى ، اذ توافرت لمصر جميع المقومات اللازمة لهذا النضوج من صلاحية المناخ والمنعة من العوارض والنزلات حتى غدا الكيان المصرى قلعة شامخة من القلاع الكبرى الساهرة على مقدسات العروبة والاسلام .

وكانت أولى العلامات الطيبة فى هذه المرحلة هو محافظة مصر على الروابط القوية مع أهل الجماعة الاسلامية ، والسير على نهجها الذى يحث على الوحدة بين أبناء الدولة الاسلامية ، وبذ كل ما من شأنه اثاره الشقاق والنزاع . وحدد معالم هذا النهج القويم ، ووضع موضع التنفيذ العملى صحابة رسول الله الذين أجمعوا كلمتهم عقب وفاة النبى الكريم على مبايعة أبى بكر خليفة لرسول الله ، واجتياز المشكلة الخطيرة الكبرى التى واجهت الأمة الاسلامية الفتية ، وضربوا المثل العملى على أن اجماع الكلمة هو الصراط المستقيم ، والملاذ الآمن من شرور الفردية والانانية ، والعاصم للنفس من الشطط والهوى .

وكان التشريع الاسلامى هو الرباط الآخر المتين الذى وحد مصر مع أهل الجماعة ، وزودها بينبوع دافق من ينابيع الحضارة العربية الاسلامية . وعرفت تلك البلاد أيضا ، وهى فى مستهل مرحلة النضوج جميع مصادر التشريع الاسلامى ورجالها ، بحيث استطاعت ان تنتقى ما يتفق ومزاجها القومى ، ويحفظ لها كيانها الاسلامى والعربى . ذلك أن آراء أهل مصر لم تختلف عن آراء الجماعة الاسلامية التى صار يطلق عليها فى ذلك الوقت اسم أهل السنة لتمسكها الشديد بالقرآن الكريم وسنة نبىه عليه الصلاة والسلام لمواجهة التحديات العديدة من آراء الخوارج والشيعية بصفة خاصة .

وكانت الرحلات لأداء فريضة الحج وطلب العلم تخرج بانتظام من مصر الى أرجاء العالم الاسلامى ، وأتاحت لعلمائها المصريين الاتصال بأهم مدرستين ظهرتتا اذ

ذاك في التشريع الاسلامى ، وهى مدرسة العراق ومدرسة الحجاز . واستندت هاتان المدرستان على المصدرين الأساسيين للتشريع الاسلامى وهما القرآن الكريم ، والسنة أو أحاديث الرسول الكريم . فكان هناك احساس عند كل منهما بأنه لا غنى للحياة العامة فى الأمة الاسلامية من أن تؤسس على القرآن الكريم وحسبما تفسره وتشرحه أحاديث النبى عليه الصلاة والسلام . ثم تباينت اتجاهات هاتين المدرستين بعد ذلك فى مدى التزام كل منهما بهذين المصدرين الأساسيين .

وكان السبب فى ذلك أن القرآن الكريم وضع قواعد للعلاقات الأساسية فى المجتمع الاسلامى الجديد ، تناول بعضها بالتفصيل كالزواج والقربة والميراث والنشاط الاقتصادى والحرب ، والبعض الآخر بالاجمال . وتطلب ذلك الرجوع إلى أحاديث الرسول الكريم باعتباره الأسوة الحسنة والافتداء بما أثر عنه من قول أو فعل أو تقرير . فالقرآن الكريم لم يبين مثلا المقادير الواجبة فى الزكاة ولا شروطها ، انما بينها النبى (ص) بقوله أو أفعاله التى صارت تشريعا يجب أن يحتذى . وهذان الأصلان ، الكتاب والسنة ، هما مصدر التشريع ، وليس لأية سلطة حق مخالفتها ولا الخروج عليهما ، وهو الأمر الذى التزم به الجيل العربى فى مصر ، انطلاقا مع أهل الجماعة الذين ابتعدوا عن مساوىء الفرق الاسلامية وتطرفها .

وظل أهل مصر بذلك مع أهل الجماعة حماة التطور السياسى للدولة الاسلامية وتأييده بقوة العقيدة فى أن الله يهدى الجماعة ، وأنها لذلك مبرأة من الخطأ بقوة الاجماع ، عملا بقول الرسول الكريم فى حديثه الشريف « لا تجتمع أمتى على ضلالة » . وتصدى أبناء مصر وأهل الجماعة بذلك لخصومهم من الخوارج والشيعية الذين اتخذوا لأنفسهم آراء خاصة فى الخلافة ، واتهموا بها أهل الجماعة حسب تلك الآراء الخاصة بأنهم تنكبوا جادة الاسلام ، وتردوا فى الأثام لأنهم دانوا بالولاء لخلفاء لا حق لهم فى هذا المنصب . ومن أمثلة ذلك قولهم : إن أهل الجماعة وقعوا فى خطأ مبايعة ابى بكر وإقرارهم خلافة معاوية كذلك .

ويلاحظ أن تلك الاتهامات وما اقترن بها من آراء لم تستطع أن تصمد أمام قوة أهل الجماعة . ذلك أن نظرية الخوارج والشيعية اعتمدت في كثير من الأحيان على وضع احكام لقضايا لم تقع بعد ، فضلا عن بعض الاستنباطات الافتائية . أما أهل الجماعة فقد تمسكوا بجوهر عقيدتهم القائل بأن الأمة تسير في تطورها بخطوات يرسمها الله ، وأن استمرارها منوط بقوة الاجماع المبرأ من الخطأ . وهيات أهل الجماعة بذلك للمجتمع الاسلامي الجديد إطاراً اجتماعيا ودينيا صلبا ، له شعائره الجديرة بالاحترام . فهو مجتمع قلما تعكر صفوه المشكلات الكلامية ، ومتدينوه زهاد لا حكماء ، وأن مراعاة شعائر هذا المجتمع هي الاشارة الظاهرة الدالة على انتماء الفرد للأمة الاسلامية .

وصار أهل الجماعة بذلك هم مدرسة الوعي الاسلامي السليم القادر على أن يهدى العامة سواء السبيل ، واشباع فطرتهم وتحقق السعادة لهم في الدنيا والآخرة . وسلكت عقيدة أهل الجماعة طريقها إلى مصر على هذا النمط المتين منذ الفتح الاسلامي لتلك البلاد ، ووجدت إستجابة قوية من جميع أهلها . ذلك أن الجند العرب الذين حملوا راية الاسلام إلى مصر كانوا جميعا من أهل الجماعة ، والمتمسكين بالتعاليم الحقة لهذا الدين الحنيف . وكان لهذه الظاهرة أثرها البعيد المدى في مرحلة النضوج للتكوين الاسلامي والعربي لمصر ، إذ غدا لتلك البلاد — بفضل ارتباطها بأهل الجماعة — مقياس حساس ، كشف لها جميع الآفات التي تصيب مراحل النضوج وأتاح لها كافة أسباب الانطلاق السليم نحو استكمال مقوماتها الاسلامية والعربية مع الاحتفاظ بها نقية طاهرة الى اليوم .

الفصل الرابع

مصر رباط الاسلام

قال عمرو بن العاص: حدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

إذا افتتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا، فذلك خير أجناد الأرض. فقال له أبو بكر:

ولم يا رسول الله؟ قال: لأنهم وأزواجهم في رباط الی يوم القيامة

أولاً : دور مصر فى بسط السيادة الاسلامية على البحر المتوسط

طلّاع القوة البحرية لمصر الاسلامية :

فتح المسلمون باستيلائهم على مصر صفحة جديدة فى تاريخ البحر المتوسط ، دون سطورها الأولى كل من عبد الله بن سعد بن أبى سرح والى مصر ، ومعاوية بن أبى سفيان والى الشام وملاها بأخبار عظيمة المسلمين ونشاطهم الرائع فى ميدان العمليات البحرية . فقد تعاونوا سويا فى رسم سياسة المسلمين ازاء البحر المتوسط منذ زمن مبكر ، وحل المشكلة البحرية التى اعترضتهم منذ فتوحاتهم الأولى فى الحوض الشرقى من ذلك البحر ، إذ أطل المسلمون على مياه البحر المتوسط من شواطئ طويلة تمتد من طرسوس شمالا الى برقة جنوبا ، وواجهوا فى هذه المياه أعداء الداء ، ذأبوا على الاغارة على الشواطئ الاسلامية وقض مضاجعهم بها . وأدرك كل من معاوية وعبد الله بن سعد المقومات الضرورية اللازمة لبقاء المسلمين فى حوض هذا البحر ، والاحتفاظ بهيبتهم بين دوله . فالبحر المتوسط يعتبر منذ أقدم التاريخ المحور الذى دارت عليه أحداث النزاع بين قوى العالم الكبرى من أجل السيطرة والسلطان ، وكان بقاء الدولة الفائزة رهنا بسيطرتها على مياه هذا البحر وما به من مراكز استراتيجية هامة . فتطلع عبد الله بن سعد ومعاوية الى ابعاد مخالب البيزنطيين التى كانت تتحفز لتتشب مرة أخرى فى شواطئ مصر والشام ، وعمداً الى الاستيلاء على الجزر القريبة من مقر ولايتيهما ، والتى كانت قواعد للأساطيل البيزنطية ، تخرج منها لتمديد ضرباتها جيشها تشاء بأرض المسلمين .

وقد وضع هذان الواليان خطة سليمة لتحقيق أهدافهما البحرية ، ثم تطورت مع الزمن حتى تركا لخلفائهما سياسة مرسومة واضحة المعالم والأهداف . ولم تكن خطتهما من وحى الارتجال ، أو من محض الصدفة وتقدير المقادير ، وإنما كانت ثمرة تفكير صحيح وثيد بدأت طلائعه منذ أيام الخليفة عمر بن الخطاب . وتعتبر فترة ولاية معاوية على الشام وعبد الله بن سعد على مصر الحجر الأساسى فى صرح العمليات البحرية . وفاتحة المعجد البحرى الاسلامى عند الاطلاق . وتجلت الخطوط الرئيسية لهذا البرنامج البحرى حين أرسل معاوية الى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه فى غزو جزيرة قبرص ، مبينا له شدة خطورة هذا المعقل البيزنطى على سلامة مدن الشام ، اذ جاء فى خطابه : « يا أمير المؤمنين ان بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم ، وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص » ، وختم خطابه بعد هذا الوصف الدقيق المؤثر طالبا السماح له بغزو هذه الجزيرة .

ولم يكن الخليفة عمر بالشخص الذى يندفع فى آرائه ، ولا سيما فى مهام الأمور التى تتعلق بسلامة جند الاسلام والمسلمين . وكان عمر بن الخطاب على صواب فى استشارة قادة الدولة الاسلامية فى هذا الموضوع الجديد الذى أثاره معاوية . ووقع اختياره على استطلاع رأى عمرو بن العاص والى مصر ، لما لهذه الولاية من شواطىء على نفس البحر المتوسط مثل بلاد الشام ، ولأنها كذلك معرضة للاغارات البحرية التى شنها البيزنطيون على سواحل المسلمين . وجاء رد عمرو بن العاص وصفا رائعا لطبيعة البحر وركوب مياهه ، وما يلاقيه المرء فى ذلك من صعاب ، فكتب الى الخليفة : « انى رأيت خلقا كبيرا ، يركبه خلق صغير ، ان ركن خرق القلوب ، وان تحرك أزغ العقول ... هم فيه كدود على عود ، ان مال غرق وان نجى برق » .

ولذا لم يكن عجباً أن يؤثر عمر بن الخطاب التريث فى اجابة طلب معاوية ، ولا سيما أنه رأى ألا توجد حاجة ملحة تتطلب دخول المسلمين فى ميدان المغامرات البحرية ضناً منه بسلامة المسلمين ، اذ قال لمعاوية فى رده « تالله لمسلم أحب الى

مما حوت الروم » . ولكن معاوية لم يكن بالوالى الذى يغمض عينيه تماما عن أى خطر يلوح فى الأفق مهددا ولايته وأرض الاسلام . فكتب الى عمر بن الخطاب مرة أخرى يعرض عليه سوء حال سواحل الشام وما هى عليه من خراب وافتقارها الى وسائل الدفاع القوية ، اذ كانت الخطة التى اتبعت فى الفتوحات على عهد عمر هو أن المسلمين « كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر من يحتاج لها اليه من المسلمين ، فان حدث فى شىء منها حدث من قبل العدو ، سربوا اليها الأمداد » . فكان هذا الأسلوب المتبع يتطلب العناية بحالة المدن الساحلية لتصبح مهياة لاقامة الجند الاسلامى ، وتمكنه من الدفاع عنها . ولم يتردد الخليفة عمر فى أن يطلق يد معاوية لاصلاح حال السواحل بما يراه كفيلا لسلامتها من « مرمة حصونها ، وترتيب المقاتلة فيها ، واقامة الحرس على مناظرها واتخاذ المواقيد لها » . واستغل معاوية هذا التصريح واتخذ خطوة أساسية يبنى عليها فيما بعد مشاريعه البحرية . فآثر أن يحصن المدن الساحلية ويزودها بالقوات المحاربه ، بما يجعلها قواعد فى المستقبل تنقل منها الجنود بحرا الى أى مكان يشاء . ووضع لهذه المدن نظاما عرف بالرباط ، وهو ما يقصد به الأماكن التى تتجمع بها الجند والركبان استعدادا للقيام بحملة على أرض العدو . واعتنى معاوية بهذا النظام حتى أصبح جزءا مرتبطا أشد الارتباط بالجهداد أو الحرب المقدسة . اذا اجتذب الرباط اليه كل الأتقياء المتحمسين ، العاملين دائما على اعزاز الاسلام ونصرته .

ويبدو أن معاوية استعار هذا النظام من البيزنطيين ، وأدخل عليه عدة تغييرات جعلته صالحا لتنفيذ مشاريعه . اذ عرف البيزنطيون نظام الأديرة المسلحة وهى الأماكن التى انقطع فيها الرهبان للعبادة واجتمعوا فيها سويا لخدمة مطالبهم مبتعدين عن الحياة وزخرفها الباطل . ولكن لا توجد شواهد قاطعة على اشتراك أشباه أولئك الرهبان المقيمين فى الأديرة المسلحة فى العمليات الحربية التى قامت بها الدولة البيزنطية . على أن الرباط غدا دائما مجمع المتحمسين والغلاة المتدينين الذين وقفوا حياتهم لشد أزر أخوانهم من الجند النظامى

وتدرج معاوية فى تدعيم هذا النظام على نحو ما اتبعه فى كل أعماله التى اتسمت بالدقة والابتعاد عن الارتجال والاندفاع . فأعد الربط لتكون حصونا يتجمع فيها العند للدفاع عن المناطق المعرضة لاغارات الأساطيل البيزنطية ، ولتكون ملجأ يحتمى بها الأهالى فى المناطق التى يدهمها العدو . وقد خصص حاميات فى الرباط لانذار الأهالى فى المناطق الساحلية بأن يأخذوا حذرهم اذا ما لاح خطر السفن البيزنطية فى المياه الاقليمية . فكان الحصن فى الرباط يضم حجرات للعند ومسكن لهم ، ومخازن للأسلحة والمؤن ، وبرجا للمراقبة . ثم يلبث الرباط أن اتسع وازدادت أهميته حتى أصبح قاعدة للهجوم وشن الاغارات .

واكتفى معاوية بسياسة تقوية السواحل حتى ولى الخلافة عثمان بن عفان ، اذ خطا منذئذ خطوة ثانية فى متابعة سياسته البحرية وتشجيع الناس على النزوح الى المناطق الساحلية لينمى عندهم ملكة ركوب البحار . وساعد معاوية على تحقيق خطته أن الخليفة أمر بمنح كل راغب فى الاقامة بالمدن الساحلية اقطاعات من الأرض يستغلها ويتمتع بخيراتها . فترتب على ذلك ازدياد العمران بالسواحل وانثيال الناس عليها للتمتع بامتيازات الاقامة بها ، دون أن يأبهوا بمخاوف التعرض لاعتداءات السفن البيزنطية ، وذلك لأن معاوية أعد جيوشا دائمة فى المدن الساحلية للدفاع عنها الى جانب القوات التى تخرج للغزو والاغارات ، ودأب على أخذ أرض من يتخلف عن الغزو واعطائها للعند المقيم على حراسة السواحل أثناء الخروج للاغارة .

وتعتبر سياسة منح الاقطاعات بالسواحل الخطوة الأخيرة فى سلم السياسة البحرية الدفاعية التى رسمها معاوية قبل أن يستطيع ركوب البحر فى عهد عثمان بن عفان . اذا أتم بفضل هذه الامتيازات اعداد القواعد البحرية التى أخذ ينشئ فيها أساطيله : وكانت آية ازدهار المدن الساحلية نقل جماعات من أهالى بعلبك وحمص وانطاكية سنة ٥٤٢ / ٦٦٢م الى صور وعكا وغيرها من المدن بسواحل الأردن . كذلك أصلح معاوية حصون هاتين المدينتين ، ولا سيما عكا التى خرج منها بأولى حملاته البرية ضد قبرص . وبسط معاوية اهتمامه الى سائر المدن الساحلية ، فمنح

الجند أراض أيضا فى انطرسوس ومرقية وبلنياس ، واهتم اهتماما خاصا برباط عسقلان والجند الموكلين بحمايتها . وأخيرا جدد بعض الحصون فى المدن التى خربت معاقلها القديمة ، كما فعل فى مدينة جبله ، اذ بنى لها حصنا آخر غير حصنها القديم الذى كان من قبل مقر رهبان بيزنطيين ، أقاموا به للعبادة . ومن ثم آتت سياسة الاقطاعات ثمارها ، فعمرت الثغور البحرية لأن « الناس انتقلوا الى السواحل من كل ناحية » على حد قول المؤرخين المسلمين .

وجنى معاوية ثمار هذه السياسة التمهيدية السابقة حين استطاع أن يظفر من الخليفة عثمان بن عفان بتصريح يبيح له غزو قبرص . اذ سمح له الخليفة بالقيام بالغزو البحرى على شرط ألا يكره أحدا على ركوب البحر ، وأن يعبىء أساطيله من المتطوعة فقط . ولم يلق معاوية عناء فى اجتذاب الجند الذى أخذه معه فى حملاته البحرية ، اذ كانت المدن الساحلية عامرة بالمغامرين وغيرهم ممن ذاقوا ثمار الاقطاعات وامتيازاتها ، وتطلعوا الى خوض غمار الميدان البحرى تحت راية معاوية ، مخلدين أسمهم فى طليعة الحملات الاسلامية البحرية لتقليم أطراف البيزنطيين .

وظهر فى هذه الفترة المبكرة من نشاط معاوية البحرى مدى الارتباط والتعاون بين الشام ومصر فى ميدان العمليات البحرية . اذ كانت مصر فى تلك الفترة من ولاية معاوية على الشام تحت امرة عبد الله بن أبى سرح ، أخى الخليفة من الرضاع . واشترك معاوية وعبد الله فى الاغارات البحرية على جزر البيزنطيين فى البحر المتوسط ، وفى صد اغارات أساطيلهم . وكانت بمصر اذ ذاك دور صناعة السفن ، وتخرج منها الأساطيل الحربية الى قواعد الشام البحرية ، حيث جرى النظام البحرى على أن تتجمع السفن الاسلامية بموانئ الشام للهجوم على أراضى البيزنطيين القريبة منهم .

وحرص معاوية دائما على تحقيق التعاون البحرى بين مصر والشام لأنهما كانتا من قبل أهم ولايات الامبراطورية البيزنطية فى ميدان النشاط البحرى كذلك ، سواء أيام السلم أو الحرب . فكان التقسيم الادارى للدولة البيزنطية قبل ظهور الاسلام

يجمع بين الشام ومصر فى العمليات البحرية ، ويقضى بتعبئة أساطيلهما معا لاختضاع العناصر التى تشق عصا الطاعة على السلطات البيزنطية فى أى بلد من البلاد التابعة لها فى حوض البحر المتوسط . فضلا عن ذلك ربطت العوامل الطبيعية بين مصر والشام فى الشئون البحرية وجعلت كلا منهما لا تستغنى عن الأخرى . فمصر فقيرة فى أخشابها التى تصلح لبناء السفن ، على حين تكثر بالشام الأشجار التى تزود دور صناعة مصر بما تحتاجه من أجود الأخشاب وكانت مصر دائما تطمع فى الحصول على هذه الأخشاب ، ودفعها حرصها فى بعض العصور القديمة الى محاولة السيطرة على الشام . ولكن فى ظل الاسلام انتظمت العلاقات بينهما على أساس التعاون لما فيه نصرة أرض الاسلام ، ولا سيما أمام عدوهم المشترك من البيزنطيين .

واتسعت سياسة معاوية البحرية وأخذت مظهرا جديدا بعد سنة ٥٤٩ / ٦٦٩ م ، وفى هذه السنة شن البيزنطيون غارة على سواحل الشام ، وكانت من العنف والشدّة بحيث جعلت معاوية يفكر فى انشاء دور لصناعة السفن بالشام نفسها الى جانب دور الصناعة بمصر . وهدف من وراء ذلك الى ايجاد أساطيل دائمة بموانى الشام على استعداد لدفع أى هجوم بيزنطى مفاجىء ، وليخفف العبء عن أساطيل مصر . فأمر معاوية سنة ٥٤٩ / ٦٦٩ م أى فى نفس السنة التى حدثت فيها الاغارة البيزنطية على الشام بجمع الصناع والنجارين وارسالهم الى عكا ، التى وقع اختياره عليها لينشئ بها أول دار لصناعة السفن بالشام . وكانت عكا تستطيع الحصول على ما يلزمها من أخشاب لبنان ، التى اشتهرت بصفة خاصة بصلاحياتها للمجاديف .

وكان من حسن طالع دولة الاسلام أن يتعهد كل من عبد الله بن سعد ومعاوية شئونهما فى الميدان البحرى ، ويوقفا أساطيلهما على صد عدوان البيزنطيين ، اذ بينما استولى المسلمون نهائيا على دولة الفرس الساسانيين وضموها الى رقعة الدولة الاسلامية ، ظلت الآمال تداعب البيزنطيين فى معاودة الكرة على المسلمين واخراجهم من الشام ومصر . ولكن بفضل حملات مصر والشام البحرية أفاق البيزنطيون الى رشدهم ، وأدركوا أنهم أمام قوة منظمة ، تسير قدما وباضطراد من نصر

الى نصر ، وتعمل جاهدة وبنجاح على انتزاع السيادة منهم على البحر المتوسط .

دور الأسطول المصرى فى فتح قبرص :

استهل معاوية باكورة نشاطه البحرى مع مصر بمحاولة الاستيلاء على جزيرة قبرص التى كانت محور مكاتباته مع الخليفين عمر وعثمان ، يطلب منهما الأذن له بتقليب أظافر البيزنطيين فى هذا المعقل القريب من أرض الاسلام . وكانت استعدادات معاوية البحرية لغزو هذه الجزيرة تتناسب مع أهمية الحملة وضخامة أهدافها . اذا كانت هذه الجزيرة من أقدم المعاقل فى شرق البحر المتوسط . وحرصت القوى المتنافسة فيه على ابقائها فى دائرة نفوذها . فمنذ بزغت شمس الحضارات فى حوض البحر المتوسط الشرقى والصراع مستمر على سيادة جزيرة قبرص ، التى تعتبر حجر الزاوية فى قوة أية دولة تصل الى مركز الزعامة فى بلاد الشرق الأدنى . وتجلت هذه الظاهرة منذ أيام تحتمس الثالث امبراطور مصر الفرعونية حتى العصر الحاضر ، حيث حرصت الدول الكبرى التى عرفها حوض البحر المتوسط الشرقى على السيطرة على قبرص .

وتستمد هذه الجزيرة أهميتها من موقعها الجغرافى الذى يوحى للناظر أنها أشبه بمدفع يدوى (مسدس) فوهته مصوبة الى اقليم الشام . والى جانب ذلك تحتل ركنًا ممتازًا فى الزاوية الشمالية الشرقية من البحر المتوسط الشرقى ، يجعل لها سهولة التحكم فى مياه هذا الشطر الهام من البحر وما يطل عليه من البلاد . اذ يمكن للمرء أن يرى من قبرص بالعين المجردة آسيا الصغرى والشام ، ويبحر منها مباشرة ، وفى وقت قصير ، متجها الى بيروت أو بور سعيد أو الاسكندرية . غير أن أحداث قبرص اتصلت اتصالا مباشرا مع اقليم الشام وارتبط مصيرها بأحوال القوى التى ظهرت فى هذا الاقليم سواء فى مشاريعها الحربية أو التجارية . اذ يقترب طرف جزيرة قبرص الشرقى من خليج الاسكندرونة الذى يقع خلفه الممر الجبلى الهام الممتد من ساحل البحر المتوسط الى شمال العراق . وكان هذا الطريق من أهم المسالك التجارية التى

عبرتها القوافل المحملة بالمنتجات الشرقية الى أسواق البحر المتوسط .

وأدرك معاوية أهمية هذه الجزيرة ، وضرورة الاسراع بمهاجمتها بسبب اغارات البيزنطيين البحرية على مصر والشام ، واتخاذهم جزيرة قبرص محطة تموين فى الطريق ، وملجأ يعتصمون به حين تدفعهم الأحداث الى الانسحاب . ودلت أحداث الحملة التى أعدها معاوية لغزو قبرص سنة ٥٢٨ / ٦٤٩م على الأغراض الملححة التى حملت المسلمين على البدء بالاغارة على هذه الجزيرة ، كما أن معاوية حرص على اختيار كبار الشخصيات الاسلامية لمصاحبته فى هذه الحملة ليكسبها مظهر الجهاد الحق الرائع .

وحشد معاوية أساطيله وقواته فى ميناء عكا ، وكانت السفن جميعها من مصر ، على حين اشترك مع الجند الاسلامى كبار رجال الشام وغيرهم من مشاهير القادة المسلمين مثل عبادة بن الصامت . واتسمت هذه الحملة بخروج النساء معها حيث اصطحب معاوية زوجته فاخته ، وأخذ عبادة بن الصامت كذلك امرأته أم حرام بنت ملحان الانصارية . وكان الخليفة عثمان بن عفان هو الذى أمر معاوية بأن يأخذ زوجته معه ليضمن صدق عزمته فى الاغارة على هذه الجزيرة ، وليعلم مدى قربها من الشام على نحو ما ذكره فى مكاتباته ، اذ كتب الى معاوية قائلاً : « فان ركبت البحر ومعك امرأتك ، فاركبه مأذونا لك ، والا فلا » .

ولم يكن معاوية فى حاجة الى أن يقدم الدلائل على صدق مشاريعه البحرية فقد كانت حماسه لغزو قبرص تفوق فى شدتها أى دليل ، وأبحر من ميناء عكا على رأس أسطوله وأسطول مصر بعد انتهاء شتاء سنة ٥٢٨ / ٦٤٩م ونزل بالساحل مسجلاً أول عبور حققه جند الاسلام لمياه البحر المتوسط . وشاءت الأحداث أن تجعل هذه الغزوة رمزاً على صدق عزيمة المسلمين جميعاً رجالاً ونساءً ، فقد استشهدت أم حرام زوجة عبادة ابن الصامت على أرض قبرص ، اذ حين رست السفن الاسلامية على الشاطئ وأخذ الجند يزلون منها ، تقدمت أم حرام لتركب دابتها ، فنفرت الدابة وأوقعت أم حرام التى لقيت حتفها ، مخلفة ذكراها على أرض قبرص فى أول غزوة

بحرية اسلامية عرفها البحر المتوسط . ودفنت أم حرام فى أرض هذه الجزيرة ، وعرف قبرها منذئذ باسم « قبر المرأة الصالحة » .

وبعد أن أنزل المسلمون عدتهم وعتادهم الى الشاطئ أرسلوا الى أهالى قبرص يخبرونهم أنهم لم يأتوا طمعا فى جزيرتهم ، وإنما ليتفقوا معهم على ما فيه سلامة المسلمين وبلادهم . غير أن سكان قبرص أبوا الدخول فى مفاوضات مع المسلمين واعتصموا بأسوار مدنهم . فتقدم المسلمون نحو العاصمة قنسطنطينا Constantina التى كانت غاصة بالسكان ، وبها جميع ثروات المدينة وذخائرها . وبعد حصار قصير اقتحم المسلمون هذه المدينة واستولوا على كنوزها ، وأخذوا كثيرا من الأسرى . واضطر حاكم المدينة ، أو أركانها ، الى عقد صلح مع المسلمين ، دلت شروطه على العوامل الحقيقية الكامنة وراء الحملة الاسلامية ، وأهداف معاوية فى المبادرة بالهجوم على قبرص .

وصالح أهالى قبرص معاوية والمسلمين على أن يدفعوا لهم جزية سنوية قدرها ٧٢١١ ديناراً ، على نحو ما يؤدونه كل عام كذلك للدولة البيزنطية ، ووعدوا بالأل يساعدها البيزنطيين فى اغاراتهم على أرض الشام ، وألا يطلعوهم على أسرار المسلمين ، كما قبلوا أن يزودوا المسلمين بأنباء أية حملة يزمع البيزنطيون القيام بها ضد الدولة الاسلامية . وكذلك كان على أهالى قبرص التزام الحياد التام فى النزاع الاسلامى البيزنطى ، حيث لم يطلب منهم المسلمون تقديم أية مساعدة حربية لهم فى اغاراتهم على البيزنطيين ، « فكان المسلمون اذا ركبوا البحر لم يعرضوا لهم ، ولم ينصرهم أهل قبرص ، ولم ينتصروا عليهم » .

وعاد الأسطول المصرى الشامى مظفراً ، مدونا أول سطر فى سجل النشاط البحرى الاسلامى ، وحقق فوزاً باهراً فى ميدان جديد ، أعلا به من روح المسلمين المعنوية ، وأزال ما اتصف به العرب من تهيب لركوب المياه ، وأظهر أنهم فى سبيل عزة الاسلام وأرضه يذلون سائر العقبات . وكذلك برهن هذا الأسطول الاسلامى بانتصاره على أهالى قبرص أن السياسة الاسلامية قامت على أسس وطيدة لا بد أن

تؤتى أكلها ، حيث كان خضوع قبرص بداية طريق جديد سلكه المسلمون مظفرين . وبعد عودة معاوية الى الشام لم يركن الى الدعة ، مطمئنا الى الصلح الذى عقده مع أهالى قبرص ، وانما أخذ يراقبهم ليرى مدى تنفيذهم للالتزاماتهم ازاء المسلمين . وكان معاوية صادقا فى حذره وفى تتبعه لحركات سكان قبرص ، اذ حدث فى سنة ٥٣٢ / ٦٥٢م أن أخل أهالى قبرص بشروط الصلح ، وأمدوا البيزنطيين ببعض السفن فى اغارتهم على أراضى المسلمين . فصمم معاوية على الاستيلاء على قبرص وادخالها فى التبعية للدولة الاسلامية ، ليحرم البيزنطيين نهائيا من استغلال الجزيرة وأهلها . وجهاز حملة بحرية كبرى فى السنة التالية ، فى عام ٥٢٣ / ٦٥٤م ، وكانت مكونة من خمسمائة سفينة معظمها من مصر وعدد كبير من الجند . وتمكن بهذه الحملة الكبيرة من فتح الجزيرة عنوة ، رغم مقاومة أهلها ، وأخذ منهم كثيرا من الأسرى ، ونجح فى تلقين السلطات بها درسا قاسيا لاخلالهم بشروط الصلح .

وعول معاوية على تدعيم نفوذ المسلمين بالجزيرة فى هذه المرة ، اذ فضلا عن الزام أهلها بأداء المطالب المالية وغيرها من الالتزامات ، التى كانوا متعهدين بأدائها طبقا لشروط الصلح السابق ، بعث معاوية الى قبرص اثنى عشر ألف رجل من الجند النظامى ، وأجرت لهم الدولة الاسلامية الرواتب ، ليكونوا جيشا مقيما بالجزيرة يصد عنها عدوان البيزنطيين ، ويقضى على أية اغارة يحتمل أن تحل بهذه الجزيرة . وأتبع معاوية ذلك بنقل جماعة من أهل بعلبك الى قبرص ، وأغراهم على البقاء بها ومنحهم الرواتب ، وليشد من أذر الحامية الاسلامية ، ويقلل من تطلع السكان الأصليين بالجزيرة الى العودة الى مساعدة البيزنطيين . وشيد معاوية لهذه الجالية الاسلامية مدينة جديدة فى الجزيرة ، ومسجدا يؤدى فيه المسلمون شعائرهم ، وهذه الظاهرة الأخيرة تنهض دليلا على حرص معاوية على ابقاء جزيرة قبرص خاضعة للمسلمين ، اذ كان تأسيس المسلمين للمدن فى الجهات التى ينزلون بها ، فضلا عن بناء مسجد لهم ، من العلامات الدالة على عزمهم الراسخ على الاستقرار بالمكان

الذى نزحوا اليه .

ويعزى تشدد معاوية فى معاملة أهالى قبرص بعد هذه الحملة الثانية الى رغبته فى وضع حد نهائى لتقلب أهوائهم وتكرار مساعدتهم للبيزنطيين اذ كان موقف أهل قبرص من الدولة الاسلامية مثار جدل وتشعب فى الآراء بين قادة المسلمين حين نقضوا شروط الصلح السابق ، وغدوا موضع شك من حيث اخلاصهم ، حتى قال أحد المسلمين فى مناقشاته : « ما وفى لنا أهل قبرص قط » وأشار آخر بانزال أشد العقوبة بهم مستشهدا ببعض السوابق على عهد الرسول ، قائلا « انه من نقض عهدا فلا ذمة له » .

وآثر معاوية أن يوفق بين الآراء السابقة باحتلال قبرص وتجديد ما فى الصلح السابق من مميزات للدولة الاسلامية ، دون أن يشتط فى معاملة أهالى قبرص أنفسهم ، وليتجنب بذلك ما قد يثار فى نفوسهم من حقد نحو المسلمين . اذ أدرك أن أولى الأمر فى هذه الجزيرة هم المسئولون وحدهم عن مؤازرة البيزنطيين ، وتشجيع أهاليهم على مناوأة المسلمين . وكان قادة المسلمين يبررون الاستيلاء على الجزيرة بحجة انقاذ أهاليها من نير البيزنطيين قائلين : أهل قبرص أذلاء مقهورون ، يغلبهم الروم على أنفسهم ونسائهم ، فقد يحق علينا أن نمنعهم ونحميهم » .

الأسطول المصرى فى معركة ذات الصواري ٥٣٤ / ٦٥٥ م :

جاء الاستيلاء على جزيرة قبرص حافزا شجع المسلمين على توسيع خططهم البحرية ، والقيام بمشاريع حربية على نطاق كبير . وسارت هذه الأهداف الجديدة فى نطاق الفكرة العامة التى رسمها كل من والى مصر عبد الله بن سعد ومعاوية والى الشام ، وهى تأمين أرض الاسلام وإزالة أى شبح بيزنطى يحتمل أن يهدد هذا الأمن . وكانت أولى الخطط الاسلامية الجديدة هى محاولة الاستيلاء على القسطنطينية ، عاصمة الامبراطورية البيزنطية ، ورأس المقاومة لحركات الفتح والتوسع الاسلامى .

وكان الامبراطور البيزنطى قنسطانز أول من أدرك هذا التطور البحرى الاسلامى ، اذ ترامت اليه فى سنة ٦٥٥م أنباء استعدادات بحرية هائلة ، وأخرى برية يعدها معاوية بالاشتراك مع عبد الله بن سعد لضرب عاصمة البيزنطيين الضربة الأخيرة ، والاطاحة بعنادها فى مقاومة المسلمين . فجهد قنسطانز على أن يتلافى هذا الخطر المقبل على عاصمته قبل اقترابه منها ، وعول على الخروج قاصدا الشام ليذمر الأساطيل قبل ابحارها من قواعدها . وفى الفترة التى أسرع فيها قنسطانز باعداد سفنه الحربية ، نشط وكلاء الدولة البيزنطية بالشام لعرقلة الاستعدادات الاسلامية ما استطاعوا الى ذلك سبيلا . وكان معاوية قد حشد معداته الحربية فى مدينة طرابلس استعدادا لقيام الحملة البحرية ، على حين عبأ القوات البرية بدمشق للسير عبر آسيا الصغرى . ولكن شخصين مسيحيين من مدينة طرابلس من عملاء الروم هجما على سجن المدينة حيث به أسرى الروم وفتحوا أبوابه وأطلقا سراحهم . ثم تابعا عملهما بدفع الأسرى الى مهاجمة دار الحاكم الاسلامى بالمدينة وقتله هو وأتباعه ، ثم أحرقوا العدد والعتاد التى بذل معاوية فى جمعها كثيرا من الجهود والعناء ، وهربوا جميعا الى القسطنطينية .

وإذا كان وكلاء الدولة البيزنطية قد نجحوا فى تنفيذ خططهم داخل أرض الاسلام ، فان معاوية أعد من آلات الحرب ما فاق العتاد الذى دمر ، وأتم سائر استعداداته بسرعة . وتمخضت الحادثة السالفة عن الهاب الحماسة بين المسلمين وحفرتهم على الحذر من عدوهم العتيد . وسار معاوية على رأس قواته البرية سنة ٦٥٥م الى مدينة قيصرية فى قبادوقيا بآسيا الصغرى ، على حين وصلت سفن حربية من مصر الى سواحل الشام وانضمت الى أساطيلها الزاحفة صوب القسطنطينية . على أن الأسطول الاسلامى ألقى مرساه بالقرب من ساحل ليكيا (عند فوينكس Phoenix) حيث بلغه هناك نبأ اقتراب أسطول بيزنطى على رأسه الامبراطور نفسه بهدف صد تقدمه .

ودلت استعدادات الأسطول البيزنطى على أن قنسطانز صمم على وضع حد

لاتساع الفتوحات الاسلامية وكسر شوكتها نهائيا ، على حين دلت المجهودات التي بذلها كل من عبد الله بن سعد ومعاوية فى اعداد أساطيلهما على صدق عزيمة المسلمين فى الجهاد والزود عن أرض الاسلام ، واطهار التعاون الوثيق بين قوات مصر والشام البحرية فى هذه المرحلة المبكرة من دخولهما فى حظيرة الاسلام . فقد خرج على رأس أساطيل مصر واليهما نفسه عبد الله بن أبى سرح ، الذى خلد له التاريخ اشتراكه فى معركة من أعظم المعارك البحرية الفاصلة فى تاريخ البحر المتوسط ، وصد أكبر خطر بيزنطى كاد يدهم المسلمين وأرضهم . ذلك أن قسطنز « خرج فى جمع لم يجتمع للروم مثله منذ كان الاسلام » فكان أسطوله يتألف من خمسمائة سفينة مزودة بالآلات الحرب ، راع منظرها المسلمين ، ولا سيما الذين سبق لهم أن اشتبكوا مع البيزنطيين فى معارك بحرية ، ووصف أحد المشتركين فى الحملة البحرية الاسلامية شعوره حين تقابلت الأساطيل الاسلامية مع سفن البيزنطيين قائلا : « فالتقينا فى البحر ، فنظرنا الى مراكب ما رأينا مثلها قط » .

وكانت الرياح غير ملائمة حين التقى الجمعان فى البحر ، ففضى المسلمون والبيزنطيون ليلتهما انتظارا لما يسفر عنه الصباح ، وأخذوا يستعدان فيها ، ويعملان على تقوية روحهما المعنوية . فبات المسلمون ليلتهم يصلون ويدعون الله ، على حين فضى البيزنطيون ليلتهم يضربون بالنواقيس . وفى صبيحة اليوم التالى دارت المعركة ، واشترك فيها الامبراطور قسطنز نفسه ، اذ أخذ يصدر من سفينته تعليمات لقتال المسلمين ، ويتابع منها الأنباء بانتظام عن سير المعركة .

وبدأ المسلمون القتال باستخدام الأقواس والسهام . فادرك قسطنز تفوق جنده عليهم ، لأن المسلمين يجيدون هذا السلاح فى الحروب البرية فقط ، وأن ذخيرتهم سوف تنقذ سريعا . وتحقق ما رآه قسطنز ، اذ اضطر المسلمون الى استبدال الأقواس والرماح بالحجارة وقذف العدو بها . فأيقن قسطنز أيضا أن الفوز حليف أساطيله . ولكن لما رأى المسلمون نفاذ ذخيرتهم من الحجارة كذلك وأن العدو ما زال بعيدا عن متناولهم ، وأنه يراوغ ويماطل لأنهاك قواهم ، ربطوا سفنهم بعضها الى بعض وقذفوا

خطاطيف فى البحر ، جذبوا بها سفن البيزنطيين اليهم ، ثم اتخذوا من ظهور السفن جميعا ميادين للقتال . وحين وصلت أنباء هذه الخطة الجديدة الى الامبراطور قنسطانز أدرك فشل حملته ، وأن الهزيمة لاشك محيطة بجنده .

وتحقق استنتاج قنسطانز ، اذ وثب المسلمون على البيزنطيين بالسيف والخناجر وأعملوا فيهم التقتيل . واشتد الصراع وكثر القتلى ، حتى وصف شاهد عيان هذه الحالة قائلا : « رجعت الدماء الى الساحل تضربها الأمواج ، وطرحت الأمواج جثث الرجال ركاما » . وأبدى الفريقان المتحاربان من صنوف التفانى فى الواجب ومن ضروب الشجاعة ما سجلته المراجع الاسلامية والبيزنطية . فكان لشجاعة المسلمين أثر عظيم فى احراز النصر ، على حين اسمت البيزنطيون فى الدفاع عن أنفسهم ، وتجلى ذلك حين عمد الامبراطور قنسطانز الى نشر الفوضى فى صفوف المسلمين ، بعد أن صارت يدهم هى العليا فى المعركة ، وأن كفتهم أخذت ترجع على البيزنطيين . اذ قذف جنده خطافا علق بسفينة أمير البحر الاسلامى عبد الله بن أبى سرح ، وأخذوا يجذبون المركب الاسلامى اليهم . واستهدف البيزنطيون من ذلك الاطاحة بالرأس المدبرة لعمليات قتال المسلمين ، وكاد البيزنطيون يتجحون فى أسر مركب القيادة الاسلامية لولا شجاعة أحد الجند المسلمين ويدعى علقمة . اذ رمى هذا الجندى نفسه على السلاسل التى جذبت المركب الاسلامى ، وأخذ يعمل فيها القطع رغم ما تعرض له من ضربات العدو . وتكلم عمل علقمة بالنجاح ، اذ قطع السلسلة وانقذ السفينة الاسلامية من الوقوع فى الأسر . ونال هذا الجندى ثناء زوجة أمير البحر التى تسمى بثيثة ، اذ كانت على ظهر السفينة أثناء القتال ، واستطاع أن يظفر بزواجها فيما بعد ، حين توفى زوجها .

وأظهر البيزنطيون أيضا تفانيا فى الدفاع عن سفينة الامبراطور حين هاجمها المسلمون . اذ عمل المسلمون القتل فى جندها ، وكادوا يفوزون برأس الامبراطور نفسه ، لولا أنه تنكر باستبدال زيه مع ملابس ابن أحد ضاربي الطبول على السفينة ، وهرب من المعركة على ظهر مركب آخر اتجه به الى صقلية . وبفرار الامبراطور قضى

المسلمون على هذه الحملة البيزنطية ، وخرجوا ظافرين من معركة حامية الوطيس . ولا يعرف ما قام به معاوية فى آسيا الصغرى فى تلك الفترة التى دارت فيها المعركة البحرية ، ولكن يبدو أنه هدف الى قطع الاتصال بين جند البيزنطيين فى آسيا الصغرى وأساطيلهم البحرية ، اذ كانت الدولة البيزنطية تعتمد فى ذلك الوقت اعتمادا كليا فى تعبئة قواتها والحصول على النجدة من فيالق جيشها ورعاياها بأسيا الصغرى .

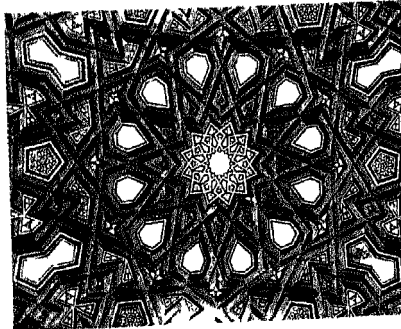
وتعتبر هذه الواقعة البحرية من المعارك الحاسمة القلائل التى غيرت مجرى تاريخ البحر المتوسط ، اذ تقف وقعة ذات الصوارى على قدم المساواة مع معركة أكتيوم (سنة ٣١ ق.م) ^(١) فى التاريخ البحرى القديم لهذا البحر ، ومعركة النيل (أو أبى قير البحرية سنة ١٧٩٨ م) ^(٢) فى العصر الحديث . فكما أن معركة أكتيوم جعلت البحر المتوسط بحيرة رومانية حتى آل الى الامبراطورية البيزنطية ، وكما أن معركة النيل رسمت الخريطة السياسية التى نراها فى عصرنا الحاضر للبحر المتوسط ، فان معركة ذات الصوارى قضت على اتصاف البحر المتوسط بأنه « بحر الروم » وجعلته حريا أن يدعى « بحر المسلمين » ^(٣) . فقد انطلقت فيه السفن الاسلامية فى حرية تذهب حيثما تريد ، رافعة علم الاسلام .

وتجلت أولى النتائج الهامة التى تربت على هذه المعركة الفاصلة عندما تخلى الامبراطور قنسطانز ومن جاء بعده من الأباطرة عن فكرة طرد المسلمين من البلاد التى استولوا عليها فى شرق البحر المتوسط ، واستعادة ما كان لهم من سالف النفوذ والسلطان هناك . اذ أدرك أولئك الأباطرة أن هذه الفكرة ضرب من الأحلام التى فات أوانها ، وأن قدم المسلمين رسخت نهائيا على شاطئ البحر المتوسط الشرقى ، فيجنحوا الى الاعتراف بالأمر الواقع ، وادخار جهودهم وقوتهم الى وقت قد يحتاجون فيه للدفاع عن دولتهم وحمايتها من التردى نهائيا فى أيدي المسلمين .

ويضيف الى أهمية التغيير الجديد الذى طرأ على سياسة الدولة البيزنطية تجاه المسلمين بعد معركة « ذات الصوارى » أن الدولة الاسلامية نفسها دخلت بعد هذا الانتصار مباشرة فى دور من القلق والنزاع بسبب مقتل الخليفة عثمان . ثم تطور الأمر

بعد ذلك الى نشوب حرب أهلية بين علي ومعاوية ، وانقسام العالم الاسلامى نتيجة هذا الصراع الى قسمين متناضلين . فكانت هذه الاضطرابات فرصة سانحة يستطيع البيزنطيون أن يوقعوا فيها أشد الأضرار بالمسلمين لو أنهم لم يتخلوا تماما عن فكرة استعادة أملاكهم فى البحر المتوسط من أيدي المسلمين . وقد كانت التخوم الاسلامية خلوا من الرباط المدافع عنها لأن معاوية سحب معظم قواته منها لتشد أزره فى حربه مع علي بن ابي طالب .

وهكذا لم تتعرض الدولة الاسلامية بعد هذا النصر المبين فى وقعة « ذات الصواري » لخطر البيزنطيين ، اذ رأت الدولة البيزنطية أن الأجدى بها هو تصفية علاقاتها مع العناصر الضاربة على حدودها الشمالية ، والأكتفاء بتأمين أراضيها فى الجبهة الجنوبية من آسيا الصغرى لدرء ما قد يقوم به المسلمون من نشاط حربى جديد . فاتجه الامبراطور قسطنز الى تأديب عناصر السلاف بالبلقان ، وكانت قد جددت نشاطها ضد البيزنطيين وأراضيهم أثناء انشغالهم بالحروب مع المسلمين . ثم ذهب الامبراطور بعد أن فرغ من هذه المشكلة السلافية الى صقيلة ليقوى جبهة دولته الغربية فى شمال أفريقيا ضد الزحف الاسلامى الذى بدأ من مصر .



ثانياً: جهود مصر فى تكوين الجناح الأيسر للاسلام:

كان اتجاه عمرو بن العاص لفتح مصر ضرورة اقتضتها العمليات الحربية وتأمين الفتوحات الاسلامية بالشام . اذ كانت مصر معقلا حصينا للبيزنطيين وقاعدة تهدد سلامة الجيوش الاسلامية بالشام . ولكن بعد أن تم لعمرو فتح مصر أدرك أن ذنب الأفعى البيزنطية مازال قائماً فى شمال أفريقيا ، وأنه لابد من القضاء عليه . فقد تلقت الحاميات البيزنطية بمصر مدداً وعونا من شمال افريقيا مكنها من مقاومة الزحف الاسلامى ، وجعلت عمرو بن العاص يعرف أن برقة وما والاها من بلاد تابعة للبيزنطيين ، ولهم فيها منعة وعزة . فضلاً عن ذلك كان أهل برقة وطرابلس ، بصفة خاصة على علاقات قوية مع مصر حتى أن بعض قبائلها اعتبر من سكان مصر الأقباط . وقامت بين مصر وهذه البلاد سبل الاتصال فى سهولة ويسر ، مما حفز عمرو على أن يتابع سيره اليها بعد فتح الاسكندرية للقضاء على ما قد يكون بها من تجمعات للبيزنطيين .

ولم يضيع عمرو بن العاص وقتاً حين وجد الظروف تحمله على غزو شمال افريقيا ، اذ بادر بارسال عقبة بن نافع الفهري فى سريه صغيرة إلى برقة ليستطلع أحوالها ريثما ينتهى من اتمام فتح مصر . ولما أطمأن إلى سلامة موقفه بمصر ، ووصلته أنباء مشجعة من عقبة عن حالة برقة ، زحف بنفسه على تلك البلاد وفتحها . وقد سارع البربر بالدخول فى طاعة المسلمين وصالحوهم على دفع جزية كبيرة . ودفع أهالى برقة الجزية عن طيب خاطر وبعثوا بها إلى مصر ، حتى أنه « لم يكن يدخل برقة ، منذئذ جابى خراج ، وانما كانوا يبعثون بالجزية اذا جاء وقتها » .

وسار عمرو بن العاص بعد ذلك إلى طرابلس ، واستولى عليها . غير أن طرابلس خرجت عن طاعة المسلمين بعد عودة عمرو بن العاص إلى مصر واحتلالها البيزنطيون مرة أخرى . أما برقة فقد ظلت على التبعية للمسلمين ، وبقي بها عقبة بن نافع ، حيث قضى وقته متنقلاً بين قبائلها الضاربة حولها وبالقرب من واحاتها . ولكن المسلمين لم يغيضوا الطرف عن شمال أفريقيا ، حيث رأى خليفة عمرو بن العاص على مصر ، وهو

عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، خطورة بقاء البيزنطيين فى تلك البلاد بالقرب من التخوم الاسلامية ، فبعث يستأذن الخليفة عثمان فى غزو شمال أفريقيا للقضاء على جرجير ومملكته .

أذن الخليفة لعبد الله بن أبي سرح بالزحف على أرض المغرب ، فخرج على رأس قوات كبيرة ووصل إلى سهل تونس حيث نال نصر باهرا على البيزنطيين هناك . وبادر رؤساء البربر إلى عقد اتفاق مع عبد الله بن أبي سراح يقضى بأن يدفعوا له قدرا معيناً من المال سنويا ، وأن يترك بلادهم . وقد أثر عبد الله بن أبي سرح انتهاز فرصة عرض البربر الصلح وصمم على الرجوع إلى مصر لقلعة عدد الجند فى جيشه ، وعدم استطاعتها مواصلة القتال .

ولم يستطع عبد الله بن أبي سرح الحصول على أمداد جديدة من الخليفة عثمان تمكنه من استئناف الزحف على شمال أفريقيا . فقد أخذت بذور السخط على الخليفة عثمان تنمو رويدا لتفضيله أبناء البيت الأموى فى ادارة الأقطار الاسلامية ، ثم شبت وترعرعت حتى غدت عاصفة هوجاء . فقتل الخليفة عثمان ، وشغل بنو أمية فى الدفاع عن أنفسهم تحت لواء معاوية والى الشام .

وانقضت فترة بلغت ثلاثة عشر عاما تقريبا بعد عودة عبد الله بن سرح من شمال أفريقيا وقفت فيها المجهودات الاسلامية للقضاء على البيزنطيين فى تلك البلاد . ولكن بعد أن استتب الأمر لمعاوية وأصبح خليفة للمسلمين وجه عنايته لمحاربة البيزنطيين بشمال أفريقيا مثلما بذل من جهود للاستيلاء على عاصمتهم القسطنطينية .

الحملات المصرية لفتح بلاد المغرب

١ - حملة معاوية بن حديج سنة ٥٤٥ / ٦٦٦ م :

أخذت موجة الفتوحات الاسلامية تنطلق مرة أخرى من مصر بعد استقرار الأمور لمعاوية بن أبي سفيان ، واتسمت فى هذه الحقبة بطابع النشاط والعمل المتواصل ، اذ عهد معاوية بمشاريعه الحربية إلى رجال مخلصين خبرهم وعجم عودهم . واختص الجبهة الافريقية بالشخصية الأولى من رجاله الممتازين وهو عمرو بن العاص فاتح مصر الأول ، وواضع الحجر الأساسى لفتوح شمال افريقيا .

وكان عمرو اذ ذاك قد تقدم به العمر ، ومازالت مشاكل الخلافة بالشرق لا تسمح بحشد جيوش كبيرة لفتح شمال أفريقيا ، فأثر أن يبعث سرايا حربية صغيرة إلى برقة وطرابلس تحت إمرة عقبة بن نافع الفهري ، دون الدخول فى مشاريع واسعة النطاق . وكانت الامبراطورية البيزنطية اذ ذاك قد أخذت تولى عنايتها بشمال أفريقيا ، وتعمل على تدعيم نفوذها .

وتجلى هذا التغيير فى السياسة البيزنطية بعد واقعة ذات الصوارى البحرية (٥٣٤ / ٦٥٥) ، اذ بينما شغلت الدولة الاسلامية بقتله مقتل عثمان وما تلاها من صراع بين على ومعاوية ، تحول الامبراطور البيزنطى قنسطانز الثانى إلى العناية بشئون شمال أفريقيا .

ودفع الامبراطور قنسطانز إلى الاهتمام بأحوال شمال أفريقيا ادراكه عجز دولته عن اخراج المسلمين من الشام ومصر بعد واقعة ذات الصوارى . ومن ثم أخذ يعمل على تنظيم دولته بما يجعلها تواجه الأمر الواقع ، وهو أن المسلمين غدوا قوة كبرى فى البحر المتوسط . وبدأ قنسطانز سياسته الجديدة بأن نقل عاصمته إلى جزيرة صقلية ، حيث يستطيع من هذا المقر الأمن البعيد عن متناول الاغارات الاسلامية اعادة تنظيم صفوفه . واستهدف فى الخطة الجديدة ربط ما تبقى لدولته من أملاك بايطاليا مع أفريقيا البيزنطية ، وتوجيهها إلى صد الزحف الاسلامى الذى أخذ يمتد إلى هذا الشطر من أملاك دولته .

وجاء هذا التطور البيزنطى فى الوقت الذى عزم فيه الخليفة معاوية على استئناف الجهاد ضد البيزنطيين بشمال أفريقيا . وكان عمرو بن العاص والى مصر قد توفى سنة ٥٤٣هـ / ٦٤٤م وكان يشرف على شئون أفريقيا إلى جانب ولاية مصر . فنصب الخليفة معاوية عقبة بن عامر الجهنى على مصر ، وعلى حين خصص لشئون شمال أفريقيا معاوية ابن حديج^(٤) حيث جعله على قيادة الجيوش التى أعدها لفتح تلك البلاد ، وتولى إمارة ما يفتحه منها .

وخرج معاوية بن حديج من مصر سنة ٥٤٥هـ / ٦٦٦م على رأس جيش كبير يضم عددا عظيماً من الصحابة والتابعين وسار على طول الساحل حتى وصل سهل تونس ، ونزل عند مكان يدعى قمونية ، التى يرجح أنها الموضع الذى شيدت عليه مدينة القيروان فيما بعد . وكان البيزنطيون قد علموا بزحف معاوية بن حديج على شمال أفريقيا ، فأعدوا جيشاً كبيراً بقيادة رجل يدعى نقفور ، نزل فى تلك البلاد ، ليصد زحف المسلمين . ولكن البيزنطيين أدركوا قوة المسلمين وعجلوا بالانسحاب بحرا بعد المناوشات الأولى .

وسار معاوية بعد ذلك شمالا قاصدا مدينة بنزرت ، واستولى عليها ، كما لقى من بعض أهالى البلاد القريبة منها عطفاً ومساعدات ، وهذه الظاهرة من الأمور الهامة التى ستنمو وترعرع فيما بعد ابان الحملات الاسلامية التالية الأخرى . اذ كان ترحيب الأهالى بالمسلمين مما ساعد الجيوش الاسلامية على القضاء على البيزنطيين رغم الكر والفر الذى تبادلته الطرفان على امتداد شمال أفريقيا .

ولم يعمل معاوية على تدعيم هذه الفتوحات الاسلامية قبل عودته إلى مضر ، اذ اكتفى بهذا القدر من الفتوحات وقفل راجعا فى أوائل سنة ٥٤٧هـ . وخرجت المدن التى فتحها عن طاعة المسلمين بعد عودته ، مما جعل حملته لا تتمنخض عن نتائج لها أهميتها فى فتح شمال أفريقيا . ولكن لم تلبث موجة الفتح الحقيقى أن بدأت بالحملة التى تلت أعمال معاوية بن حديج ، وكان بطل هذا الفتح رجلا عرف شمال أفريقيا وطالت خبرته وبأحوالها .

٢ - حملة عقبة بن نافع الأولى :

تعتبر حملة عقبة بن نافع الفهري حداً فاصلاً بين عهد الأغارات الإسلامية السريعة على شمال أفريقيا و عهد الفتح المنظم المستقر لهذه البلاد ، اذ قام بعدة أعمال في ذلك الميدان تعد الحجر الأول في بناء أفريقيا الإسلامية ، ويعزى نجاح عقبة في وضع الأسس الأولى لبناء دولة المسلمين بشمال أفريقيا إلى خبرته الواسعة بثئون هذا الاقليم . فقد عرف أحواله منذ ولاية عمرو بن العاصي الأولى ، كما دان بظهوره على مسرح التاريخ الإسلامي في هذا الميدان إلى تلك الفترة المبكرة من ولاية عمرو على مصر . فكان عقبة قرشياً من فهر يتصل بعمرو بصلة قري من ناحية أمة ، وعرف عمرو فيه المقدرة والشهامة ، ووثق به ثقة كبرى . فعهد اليه استطلاع أحوال برقة ، ثم عينه عليها سنة ٥٢٣ / ٦٤٣ م أثناء زحفه على طرابلس . وليث عقبة مقيماً ببرقة حتى حملة عبد الله بن أبي سرح سنة ٥٢٧ / ٦٤٦ م ، ثم عاد إلى مصر حين رجع عبد الله بن أبي سرح سنة ٥٢٨ / ٦٤٨ م . وقد تركت السنوات الست التي قضاها عقبة في برقة أثراً كبيراً في نفسه اذ صرف هذه الفترة في التنقل بين قبائل البربر وواحاتهم ، مما جعل همته تتعلق بالفتح والغزو ، وغدا شخصية لا تعرف شيئاً غير الجهاد في سبيل الله .

وأدرك عقبة من تجارية ببرقة أن فتح المغرب لا يتم إلا اذا أنشأ المسلمون لهم في قلب شمال أفريقيا مركزاً تعسكر فيه حامياتهم ، ويتخذوه قاعدة لمتابعة الغزو . وعمد إلى تحقيق هذا الهدف عندما كلفه معاوية سنة ٥٥٠ / ٦٧٠ م بالزحف على شمال أفريقيا . وما كاد عقبة يتلقى الأمداد والجيوش حتى اتجه إلى أرض المغرب ، واتبع الطريق الداخلى الذى لا توجد به مقاومة ضئيلة من البربر وسكان الواحات . ووصل إلى موضع قمونية الذى عسكر فيه معاوية بن حديج من قبل .

ووقع اختيار عقبة على موضع قرب قمونية ليقيم عليه قاعدة للمسلمين بشمال أفريقيا . اذ كان هذا الموضع بعيداً عن الساحل مما يجعله بمأمن من اغارات البيزنطيين المفاجئة من البحر ، كما أنه يقع بالقرب من أرض ترعى فيها الماشية فى

مأمن من هجمات البربر النصارى من أحلاف البيزنطيين . وأثبتت الأحداث صدق
فراصة عقبة فى انتقاء الموضع الذى شيد عليه معسكره ، اذ كان موقعه الحربى ممتازا ،
حيث يستطيع الحاكم المقيم به بعيدا ويأخذ حذرہ منه ، كما يتمكن من مطاردة البربر
المعادين له وتعقبهم فى أعالى الهضبة لأن الموقع يسيطر ويتحكم فى سائر الوديان
الهامة التى تخترق الهضبة .

وبدأ عقبة تخطيط المدينة التى عرفت باسم القيروان ^(٥) ، فشىد دار الامارة
والمسجد أولا ، وبنى الناس مساكنهم ومساجدهم حولهما . وقد غدت المدينة على
عهده أشبه بمخزن للسلاح ، ولكن أخذت فى هذه الفترة المبكرة تلعب دورا هاما فى
أحداث الفتح الاسلامى ببلاد المغرب ، اذ كان تأسيس القيروان الخطوة الأولى
العملية فى القضاء على نفوذ البيزنطيين بشمال أفريقيا ، حيث دعمت أقدام المسلمين
وسط ولاية افريقية مقر البيزنطيين ومعاقلمهم .

ولكن عقبة لم ينعم بثمار جهوده ، اذ تطلع والى مصر اذ ذاك ، مسلمة بن مخلد
(٥٤٧ / ٦٦٨ م) إلى ضم ولاية افريقية إلى دائرة نفوذه بمصر . ووافق الخليفة معاوية
على طلب مسلمة ، حيث كان من كبار أنصار معاوية أثناء فتنة عثمان بن عفان . ولما
ولى مسلمة شئون أفريقيا عزل عقبة ، وبعث قائدا جديدا يدعى دينار أبو المهاجر ليحل
مكان عقبة . وقد عاد عقبة إلى دمشق مغيظا حيث كان قد أخذ يعد العدة لاستئناف
الفتوح بعد فراغه من بناء القيروان .

٣ - حملة دينار أبو المهاجر (٥٥ - ٥٦٢ / ٦٧٤ - ٦٨١ م) :

عاصرت بداية حملة دينار أبى المهاجر ^(٦) ، انقلابا فى السياسة البيزنطية تجاه
البربر ، كان لها أبعد الآثار فى وضع الصعاب أمام فتح المسلمين لبلاد المغرب . اذ
استطاعت الدولة البيزنطية فى الفترة التى عزل فيها عقبة أن تستعيد نشاطها ، حيث
انتهى الحصار الأموى الثانى لعاصمتها . وكان الامبراطور البيزنطى اذ ذاك هو
قسطنطين الرابع ، الذى نجح فى تحسين علاقة دولته بالبربر .

وعندما وصل دينار أبو المهاجر إلى القيروان أحس بالتطور الذي أحدثته السياسة البيزنطية ولا سيما بين أفراد قبيلة أوربه . وكان يتولى أمرهم في الفترة التي وصل فيها دينار أبو المهاجر إلى القيروان شخص يدعى كسيلة . وأخذ هذا الزعيم بتحريض من البيزنطيين يجمع القبائل البربرية ويحشد لها لمواجهة زحف المسلمين الذي اقترب من موطنهم الأصلي .

وأسرع دينار أبو المهاجر وجيشه إلى المنطقة المحيطة بتلمسان حيث قبيلة أوربه ، محور المقاومة البربرية ، واصطدم بالبربر هناك ، ولكن القائد المسلم لم يقس في حربه مع كسيلة حيث استخدم السياسة في كسب هذا الزعيم البربري إلى جانبه ، ولذا عندما هزم كسيلة عامله دينار أبو المهاجر معاملة حسنة ، حتى قام نوع من المودة والصدقة بينهما . فأسلم كسيلة ، وانضم إلى جيش المسلمين وأخذ يعاونهم في حرب البيزنطيين .

ويعتبر دينار أبو المهاجر واضع الحجر الأساسى في سياسة فصم البربر عن البيزنطيين وتحطيم التحالف الذى قام بينهما . وأثر في كل أعماله اظهار عطفه واحترامه للسكان الأصليين ، وبين بجلاء أن هدف المسلمين هو تخليص بلاد البربر من نير البيزنطيين .

وعاد دينار أبو المهاجر إلى مقره الذى اتخذته بالقرب من القيروان بعد أن أمضى نحواً من عامين في جهاد البيزنطيين ، ونجح في تحقيق أهدافه بفصم عرى التحالف بين البربر والبيزنطيين . واستطاع في حملته أن يكسب اسلام زعيم كبير من رجال البربر وهو كسيلة . وطبعى أنه نهج على منوال كسيلة كثير من البربر ودانوا بالاسلام . ولكن تقلب السياسة في الدولة الاسلامية لم يمكن دينار أبو المهاجر من تحقيق أهدافه إلى نهايتها ، اذ عزل عن ولاية أفريقية وخلفه عقبة بن نافع مرة أخرى .

٤ — حملة عقبة بن نافع الثانية (٦٢ — ٦٣ هـ / ٦٨١ — ٦٨٣ م) :

كان عقبة يعمل جاهداً في دمشق منذ عزل عن ولاية أفريقية على العودة إلى هذا الميدان الذى قضى به سنوات كثيرة من زهرة عمره وتعلق قلبه به . وقد حانت

الفرصة له حين توفي مسلمة بن مخلد والى مصر على عهد الخليفة يزيد بن معاوية . اذ استجاب يزيد لرغبة عقبة وبعثه على رأس أمداد كبيرة إلى الجبهة الافريقية فى سنة ٥٦٢ / ٦٨١ م . ووصل عقبة إلى حضرته القيروان وجدد عمارتها ، حيث أصابها بعض الخراب لاهمال دينار أبى المهاجر لها . وقد دخل هذا القائد فى خدمة عقبة ، وسار معه فى فتوحاته بشمال أفريقيا . ولكن عقبة لم يحاول الاستفادة من خبرة ولاة مصر بالميدان الأفريقى . اذ غاب عن عقبة أن أحوال أفريقية قد تبدلت تبديلا جوهريا منذ حملته الأولى ولم يدرك كنه التحالف الذى نشأ بين البربر والبيزنطيين بعد سياسة قنسطنطين الرابع الدينية .

وقد سار عقبة على سياسته القديمة فى محاولة التوغل داخل بلاد البربر دون أن يستميلهم اليه ، وتجلت هذه السياسة القديمة فى علاقته مع كسيلة زعيم البربر ، الذى اعتنق الاسلام على عهد دينار أبى المهاجر . فقد أخذ عقبة هذا الرجل معه فى حملاته دون أن يظهر له العطف والتقدير على نحو ما فعل سلفه . ومن ثم تغير قلب كسيلة على عقبة ، ولعب دورا كبيرا فى القضاء على مجهوداته حين جاءته الفرصة المناسبة أثناء الحملة .

وكان عقبة قد زحف من القيروان على شمال أفريقيا حتى بلغ طنجة ، حيث قدم له حاكمها فروض الطاعة . ثم عاد عقبة بعد ذلك قاصدا القيروان التى خلف عليها من قبل زهير بن قيس البلوى ، واختار لعودته نفس الطريق الداخلى الذى سلكه من قبل متجنبا طريق الساحل . وكان طريق العودة مليئا بالأخطار والمخاوف ، حيث استطاع كسيلة أن يفر من جيش عقبة ، وأعد البربر للغدر به ، وأحس عقبة بما كان يدبر له ، فعجل بالسير حتى وصل مدينة طبة ، وهناك أمر معظم جيشه بالذهاب رأسا إلى القيروان ، اذ أحس فساد المياه فى الآبار التى مر عليها ، وبقي مع جزء يسير من قواته لحماية مؤخرته..

ورأى البربر والبيزنطيون فرصتهم قد سنحت للغدر بعقبة بعد أن سبقت معظم جيشه ، فانسحبوا أمامه متجهين إلى الجنوب الغربى فى اتجاه تهودة وأغروه على أن

يقتفى أثرهم ، متظاهرين بقله عددهم . وعند حصن بيزنطى بالقرب من تهودة تحصن كسيلة ومعه البيزنطيون . وعندما هجم عقبة على هذا التحالف بين كسيلة والبيزنطيين دارت معركة حامية الوطيس ، لم يلبس أن استشهد فيها ومعه كثير من كبار رجال جيشه ومن بينهم دينار أبى المهاجر ، ووقع كثير من المسلمين أسرى . وقد نجم عن هذه المعركة نتائج كان لها أبعاد الأثر على مجريات الفتوح الاسلامية فيما بعد . اذ افتدى بعض كبار الشخصيات من رجال البربر تفرا من الأسرى المسلمين ، مما يدل على أن الاسلام كان قد دخل قلوب بعض البربر وأمنوا به . وكان معظم أولئك البربر الذين مالوا إلى الاسلام من القبائل البدوية البعيدة عن الحضارة البيزنطية .

ولما بلغ زهير نبأ مأساة تهودة ، انسحب بمن معه من الجند الاسلامى إلى برقة سنة ٥٦٥هـ انتظار اللامدادات الجديدة .

٥ — حملة زهير بن قيس البلوى :

بعد معركة « تهودة » وارتداد المسلمين إلى برقة دخل كسيلة القيروان واحتلها ، وبدا كأنما عادت الأحوال بشمال أفريقيا إلى سابق عهدها قبل الفتح الاسلامى . ولكن كسيلة لم يدرك قوة جيرانه من البربر المسلمين ، وما هم عليه من منعة وعزة ، وأن البلاد التى يسيطر عليها ليست خالصة الولاء له . ومن ثم أثر الاحتفاظ بحسن الجوار مع البربر ولاسيما المقيمين منهم فى القيروان ، كما لم يتعرض بأى أذى للمسلمين فى القيروان برغم أن وجودهم كان يحمل فى طياته أخطارا كبيرة على سلامته وسلامة دولته . وظل كسيلة متجنباً الأسباب التى قد تثير عليه غضب البربر المسلمين ، حيث كان لهم أنصار عديدون متفرقون فى أنحاء البلاد .

وكان زهير بن قيس البلوى يعمل جاهدا منذ عاد إلى برقة سنة ٥٦٥هـ / ٦٨٤م على استنهاض السلطات فى مصر وكذلك الخليفة عبد الملك بن مروان لاعداد جيوش يسترد بها شمال أفريقيا . واستطاع الخليفة رغم انشغاله بثورة عبد الله بن الزبير أن يعد فى سنة ٥٦٩هـ / ٦٨٨م جيشاً عظيماً فى مصر ، ثم وضعه تحت قيادة زهير بن

قيس البلوى وبعثه لاسترداد شمال أفريقيا . ويعتبر اقدم الخليفة عبد الملك على اتخاذ هذه الخطوة ، وهو لا يزال فى غمرة مشاكله الداخلية ، دليلا على أن الخلافة نظرت إلى شمال أفريقيا على أنه قطر اسلامى تهتم به الدولة الاسلامية اهتمامها بأمور مصر والعراق والحجاز .

وما أن ترامت أنباء الزحف الاسلامى الجديد من مصر على شمال افريقيا حتى استولى الفزح والخوف على كسيلة ، وكان مقيما اذ ذاك بالقيروان . ورأى أن المقام بهذه المدينة لاجدوى منه ، اذ بها جماعات من المسلمين ، ويخشى أن تثور عليه فى الوقت الذى يحاصر فيه زهير المدينة . فوقع اختياره على قرية تدعى ممس ، لقربها من الهضبة وجبال أوراس . .

وزحف المسلمون على ممس بحماسة رائعة لاعلاء كلمة الاسلام والأخذ بثأر عقبة . ودارت رحى معركة عنيفة أبلى فيها المسلمون بلاءا حسنا ، حتى كتب لهم النصر وقتل كسيلة على أرض المعركة ، دون أن يتمكن من الهرب حيث تخلى عنه البيزنطيون .

وبعد أن فرغ زهير من مهمة اخضاع البرة المواليين للبيزنطيين ، أخذ يعد العدة للرجوع إلى برقة . وكانت غالبية الجيوش الاسلامية حتى ذلك الوقت تعود إلى مصر بعد أن تنتهى من مهمتها فى شمال أفريقيا . ووقع زهير فى خطأ أشبه بما تردى فيه عقبة . اذ سمح لجنده بأن يعجلوا بالعودة إلى مصر على حين سار هو فى المؤخرة ، وعندما اقترب من برقة علم أن البيزنطيين قد نزلوا بساحلها ، ولم يتوقع زهير أن يجد البيزنطيين مستعدين فى قوة عظيمة ، اذ اعتقد أن سفنا ضئيلة من أسطولهم قد رست بشواطئ برقة ، ولا ضير من مهاجمتها والاستيلاء عليها .

وذهب زهير إلى الساحل على رأس نفر يسير من قواته ليستطلع الأخبار ، فوجد البيزنطيين فى سفن كبيرة كثيرة العدد ، ومعهم عدد كبير من أسرى المسلمين . ولم يكدهؤلاء الأسرى يرون زهير حتى استغاثوا مستنجدين به ، فأخذت الحمية زهير ومن معه وأسرعوا بمهاجمة السفن البيزنطية لتخليص المسلمين الأسرى . ولكن

البيزنطيين كانوا قد أعدوا معسكرا على الساحل بعيدا عن أعين المسلمين ، وما كاد زهير يطأ أرض الساحل حتى فاجأه جند هذا المعسكر البيزنطى ، ودارت رحى معركة عنيفة أحاط فيها البيزنطيون بزهير وأتباعه . ولكن زهير أبدى من ضروب الشجاعة والبسالة ما جعل استشهاده فى ساحة القتال لا يقل روعة عن استشهاد عقبة فى وقعة « تهودة » .

٦ — حملة حسان بن النعمان :

بدأت السلطات فى مصر تستعد لاستئناف العمليات الحربية فى شمال افريقيا عقب استشهاد زهير بن قيس .

واضطلع بالعبء الجديد من النضال ضد البيزنطيين حسان بن النعمان ، أحد كبار قادة الدولة الأموية . وفى سنة ٥٧٦ هـ / ٦٩٥ م ، أعدله الخليفة عبد الملك بن مروان جيشاً كبيراً برغم ما كان يحيط به من صعاب ، حيث رأى ضرورة تخليص شمال افريقيا من نير البيزنطيين .

سار حسان من مصر مسرعاً إلى شمال افريقيا ، واجتاز برقة وطرابلس دون أن يلقى مقاومة . وقد انضم اليه فى طرابلس كثير من البربر ، اتخذهم أدلاء فى زحفة على سائر أنحاء البلاد . وكذلك دخل فى جيشه كثير من البربر البدو من أهالى الجنوب الذين سبق لهم اعتناق الاسلام .

وبلغ حسان النعمان عندما دخل القيروان أن احدى قبائل البربر المقيمة بجبل أوراس لم تأنس لاستقرار المسلمين فى منطقة تقع بالقرب من مواطنهم ، وكانت هذه القبيلة تدعى جراوة .

ولم تكن قبيلة جراوة على علم بأهداف المسلمين ورسالتهم فى شمال أفريقيا ، مما جعلهم يتخوفون من اقترابهم من مواطنهم بجبل أوراس . وكان يتزعم هذه القبيلة اذ ذاك امرأة تدعى بالكاهنة ، وذات نفوذ واسع وكلمة مسموعة بين سائر أفراد قبيلتها ، ويأتمر الجميع بأمرها . وكانت تدعى العلم بالغيب ، مما جعل المسلمين يطلقون عليها

لقب الكاهنة عندما تسامعوا بأخبارها .

وكانت خطة حسان دائماً هي المبادرة بالهجوم قبل أن يتم عدوه استعداداته . وطبق هذه الخطة مع الكاهنة وقبيلتها جراوة ، حيث عجل المسير إليها . ولكن هذه السياسة لم تثمر مع قبيلة جراوة ، إذ كانت الكاهنة قد عملت بمسير حسان إليها ، وأسرعت بجمع عدد كبير من أتباعها ، ومن ثم واجه حسان مقاومة عنيفة واضطر إلى التقهقر إلى طرابلس .

وظل حسان مقيماً بطرابلس حتى جاءته الأمداد من مصر سنة ٥٨١ ، فاستأنف الزحف على شمال أفريقيا . ووجد أن أحوال الكاهنة قد تغيرت عما كانت عليه من قبل ، إذ انفض عنها جانب كبير من أهلها حيث ملوا طول القتال . وعند قابس لقيه أهلها بالطاعة وقدموا له الأموال لمساعدته . ثم التقى بعد قابس بجيوش الكاهنة ، وأوقع بها هزيمة فادحة ، ثم تبعها إلى جبال الأوراس حيث لقيت حتفها ، وخضع البربر من قبيلة جراوة لسيادة المسلمين .

وكان للكاهنة ولدان عاملهما حسان معاملة حسنة ، وعمد إلى تأليف قلبهما ليستفيد منهما في صراعه المقبل ضد البيزنطيين . فعين الأبن الأكبر على رأس الجماعات البربرية المنضوية تحت لوائه وقربه إليه ، وبذلك قضى حسان على آخر خطر مفاجئ قد يأتي من ناحية البربر ، ثم سارع البربر إلى الدخول في الدين الاسلامي أفواجا لما رأوه من حسن معاملة المسلمين لهم ، وأنهم يساوون بينهم جميعا في المعاملات لا فرق بين مسلم عربي ومسلم من البربر .

ويعتبر حسان أيضا أول قائد تم على يديه استقرار المسلمين النهائي بشمال أفريقيا ، إذ انصرف بعد اتمام الفتح إلى البلاد وتشجيعها على أن تأخذ بنصيب في جهاد البيزنطيين واخراجهم مما تبقى لهم من أملاك في جزر البحر المتوسط . فاتجه حسان إلى انشاء « دار صناعة » تبنى بها السفن والأساطيل ليغير بها على سواحل البيزنطيين ، ويشغلهم بالدفاع عن أنفسهم بدلا من اغارتهم على ولاية افريقية . واستعان حسان بالمصريين في تأسيس هذه القاعدة البحرية الجديدة . فأرسل يطلب

من الخليفة عبد الملك أن يبعث اليه جماعة من المصريين ممن لهم خبرة ببناء السفن . وكلف الخليفة أخاه عبد العزيز بن مروان والى مصر أن يرسل إلى تونس ألف قبطى بأهله وولده ، وأن يعدهم أحسن اعداد بما يكفل لهم الراحة طيلة السفر والوصول فى أمان .

ووصل المصريون إلى تونس وحسان بن النعمان مقيما بها ، وأنشأ بمساعدتهم دار صناعة للسفن ، وعهد إلى البربر قطع الأخشاب من سفوح الجبال ونقلها إلى تونس حيث تولى الصناع المصريون بناء السفن . ونشطت حركة الصناعة فى هذا الميناء الجديد ، وخرجت منه أساطيل المغرب تحمل راية الاسلام فى غرب البحر المتوسط .

حملة موسى بن نصير :

دخلت الحملات الاسلامية من مصر لفتح شمال افريقيا مراحلها الأخيرة حين عزل والى مصر عبد العزيز بن مروان القائد حسان بن النعمان سنة ٥٨٩ / ٧٠٧م وبعث إلى المغرب أحسن قاداته الحربيين وهو موسى بن نصير .

وقد واجه موسى فتنا من البربر استطاع أن يخمدها فى سهولة ويسر . اذ كانت بقايا البيزنطيين ووكلائهم وأحلافهم بشمال افريقيا ينتهزون الفرص لإثارة الشغب ضد المسلمين الفاتحين . وجاء عزل حسان بن النعمان تكئة اعتمدوا عليها فى تأليب البربر على السلطات الاسلامية بالقيروان . ولكن موسى بن نصير أثبت أنه لا يقل شكيمة وبأسا عما سبقه من قادة المسلمين ، فبادر بإقصاء المحرضين على الفتنة من البيزنطيين عن البلاد ، وضرب على أيدي الذين انضموا تحت لوائهم بقسوة وشدة . وهكذا كان أصبح البيزنطيين دائما وراء كل حركات البربر فى هذه المرحلة الختامية من استقرار الفتح الاسلامى بأرض المغرب .

وحالف التوفيق قادة المسلمين فى نشر رسالة الاسلام بشمال افريقيا ، لأنهم منذ أيام حسان وجهوا ضرباتهم للبيزنطيين وحدهم ، وأبعدوهم عن كل بقعة يتخذونها شوكة تهدد أرض الاسلام . وجعل موسى بن نصير هذه السياسة نصب عينيه بعد أن

رأى وكلاء البيزنطيين يتابعون سياسة الدس ضد المسلمين ، وأن الأساطيل البيزنطية أخذت تغير من بعض قواعدها البحرية على أرض المسلمين بشمال افريقيا . فأعد أساطيلا اسلامية غزا بها جزر مينورقة ومينورقة سنة ٥٨٩ / ٧٠٨ م ، وضمها إلى سلطان المسلمين ، وأخذت الحياة تزدهر في الجزر بعد أن استقر بها المسلمون . وأصبحت ولاية موسى بن نصير تمتد من حدود مصر الغربية إلى شواطئ المحيط الأطلسي ولها هيبتها في حوض البحر المتوسط الغربي . وساد السكون والهدوء هذه الولاية في ظل الاسلام ، إذ استطاع موسى بن نصير بعدله وحبه للانصاف أن يجذب اليه كبار رجال البربر ، كما عين الفقهاء لتعليم الناس أحكام الدين ، وتفهمهم قواعده على أسس صحيحة . وظهرت بشائر هذا العهد الجديد سريعاً ، إذ حقق الاسلام معجزة كبرى شهدت له بأنه دين الفطرة ، فقد صبغ البربر بالصبغة الاسلامية ، وجعل لسانهم جميعاً اللسان العربي .

وهكذا حققت الحملات المصرية لفتح بلاد المغرب عملاً مجيداً ، هو انتزاع الصفة البيزنطية القديمة المتصلة بالبحر المتوسط واحلال الطابع الاسلامي محلها ، إذ كان البيزنطيون يعتزون دائماً بأن البحر المتوسط هو بحرهم ، حيث ورثوا عن أمهم الدولة الرومانية الكبرى اللقب الذي أغدقوه على هذا البحر وهو « بحر الروم » . على أن انتصار الجيوش الاسلامية في شمال أفريقيا كتب للمسلمين السيادة على الحوض الغربي للبحر المتوسط ، إلى جانب السيادة التي اكتسبها على الحوض الشرقي من هذا البحر في وقعة ذات الصواري التي انتصر فيها الأسطول المصري على البيزنطيين ، وأصبح البحر المتوسط حرياً أن يدعى « بحر المسلمين » نتيجة المجهودات الحربية التي انطلقت من القاعدة الاسلامية في مصر .

ثالثا : مصر بين الصليبيين والمغول

أهمية مصر الاسلامية :

يتضح من دراسة موقف الدولة الفاطمية ازاء العباسيين أن قيام الدولة السلجوقية الكبرى فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى أعاد إلى المسلمين بعض الهيبة التى بددتها مظاهر الضعف فى الخلافة العباسية . وبفضل السلاجقة العظام غدت دار الاسلام — وهو ما جرى عليه المصطلح عند الفقهاء فى تسمية الدولة الاسلامية — قبلة أنظار العالم مرة أخرى . فالناظر إلى خريطة العالم الاسلامى على عهد السلطان السلجوقى ملكشاه (٤٦٦ — ٥٤٨٥ / ١٠٧٢ — ١٠٩٢ م) يرى ارتباط أواسط آسيا حتى تركستان بالجزء الشرقى من البحر الأبيض المتوسط ، وانفراد هذه الرقعة الجغرافية بعودة الروح الاسلامية الأولى سواء من ناحية التوسع الحربى ، أو من ناحية النشاط العلمى .

وجاورت هذه الدولة السلجوقية السنية غربا دولة الخلافة الفاطمية الشيعية ، التى سيطرت على جهات من العالم الاسلامى لا تقل أهمية عن ممتلكات السلاجقة . فامتد سلطان الفاطميين على مصر وجنوب الشام حيث يلتقى أعظم بحرين فى العالم القديم ، وهما البحر المتوسط والبحر الأحمر . وعلى الرغم من العداء الذى استحكمت بين قوتى السلاجقة والفاطميين لاختلافهما من حيث المذهب الدينى لم تستطع أحدهما أن تقضى على الأخرى مع كثرة الحروب بينهما ، ولذا بدت كل منهما ذات مكانة هامة فى العالم الاسلامى ، فضلا عن قيام الدولة الأموية بالأندلس وهى دولة عظيمة الهيبة والمدنية فى الجزء الجنوبى الغربى من أوربا . وهكذا بدا العالم الاسلامى فى نظر العالم الأوربى المسيحى على الأقل ، يقبض بيديه على أوربا من الشرق والغرب .

أما أهم دول أوربا التى عارضت القوى الاسلامية وقتذا ، فأولاها الامبراطورية الغربية الألمانية ، التى اشتملت على ألمانية الحالية واطاليا واجزاء من بلجيكا

وهولنده والنمسا والمجر ، وهى التى صار اسمها الرسمى الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وامبراطورها وقتذاك هنرى الرابع (١٠٥٦ — ١١٠٦ م) . وقامت فى فرنسا مملكة قوية تولى عرشها ملوك من أسرة هيو كابية ، التى اشتهر منها وقتذاك الملك فيليب الأول (١٠٦٠ — ١١٠٨ م) .

وفى انجلترا أسس النورمانيون مملكة قوية تولى عرشها الملك وليم الثانى (١٠٨٧ — ١١٠٠) . وفى أسبانيا المسيحية قامت ممالك نافار وأرجونه وقشتالة ، وهى الممالك التى نهضت لحرب المسلمين بالأندلس أجيالا عديدة .

وفى أقصى الشرق الأوربى قامت الدولة البيزنطية ، التى هزم السلاجقة امبراطورها رومانوس ديوجينيس فى وقعة منكرت سنة ١٠٧١ م . وتولى عرش الدولة البيزنطية بعد هذه الوقعة الفاصلة الأمبراطور ميخائيل السابع (١٠٧١ — ١٠٧٨ م) وهى الذى استصرخ البابا جريجورى السابع لصد الزحف السلجوقى ، وعبأ الشعور فى غرب أوروبا للحروب الصليبية .

وزاد فى هبة مصر وسط هذه القوى العالمية سيطرتها على الميزان التجارى بين الشرق والغرب ، بفضل موقعها الجغرافى ، وبفضل سيادتها أيضاً على الأماكن المقدسة المسيحية بفلسطين . وكانت هذه الأماكن المقدسة فى حوزة المسلمين منذ فتحوا فلسطين ، على عهد الخليفة عمر بن الخطاب . وأشرفت الخلافة الاسلامية على الأماكن المسيحية بها مثل بيت المقدس وبيت لحم والناصره والخليل . وأثارت هذه السيادة الاسلامية غضب الحجاج الأوربيين ، منذ كثرت أعداد الوافدين منهم على بيت المقدس . على أن الحج فتح باب علاقات سياسية بين الدولة الاسلامية وبعض الدول المسيحية الكبرى فى أوروبا مثل دولة الفرنجة الكارولنجية ، اذ حرصت هذه الدولة على دعم صلاتها بالأماكن المقدسة ، لتستمد منها مركز الزعامة فى العالم المسيحى ، فبعث شرلمان امبراطور الفرنجة (٨٠٠ م) ومنافس الامبراطورية البيزنطية ، سفارة إلى الخليفة العباسى هارون الرشيد لتسهيل زيارة الحجاج الفرنجة لبيت المقدس . وأرسل هارون الرشيد سفارة اسلامية إلى شرلمان ، وبعث معها فيما يقال

مفاتيح كنيسة بيت المقدس ، مفضلا اياه على قسطنطين السادس اميراطور البيزنطيين . وأصبح شرلمان فى نظر المعاصرين حامى المسيحيين الذاهبين إلى الأماكن المقدسة .

ولقيت الأماكن المقدسة وحجاجها الوافدين إليها من المسيحيين عناية كبيرة من السلطات الاسلامية الممثلة للخلافة العباسية . ولما استولى الفاطميون الشيعون على اقليم الشام سنة ٥٣٨٦هـ / ٩٩٦م حفظوا سياسة الخلافة العباسية فى العناية بأماكن الحج المسيحية . وظل الحجاج المسيحيون يلقون معاملة حسنة ، وأظلم السلاجقة كذلك بالعناية بعد امتداد الدولة السلجوقية على بلاد الشام سنة ٥٤٦٤هـ / ١٠٧١م واستيلائها على بيت المقدس . ولكن تفكك الدولة السلجوقية وكثرة حروبها الداخلية وقلة الأمن فيها بسبب هذه الحروب حرم الحجاج المسيحيين من الاطمئنان على أنفسهم وأموالهم ، فعادوا إلى بلادهم ووصفوا المتاعب التى يلقونها فى كثير من المبالغة ، ونادوا بتخليص الأراضى المقدسة من المسلمين . وغدت الروايات المختلفة عاملا من العوامل التى أثارت الناس فى أوروبا نحو الحروب الصليبية .

الحروب الصليبية

منذ صار بيت المقدس فى أيدي السلاجقة ، أحست أوروبا المسيحية بأن الأماكن المقدسة انتقلت إلى دولة اسلامية عسكرية صارمة ، وفى أثناء تفكك الدول السلجوقية وحروبها وسوء معاملة الحجاج بعد ذلك أخذت بعض السلطات الأوربية ، ومنها البابا جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٦م) تروج أخبار هذه المعاملة السيئة . ووصلت بعض هذه الأخبار من ناحية الامبراطور البيزنطى ميخائيل السابع سنة ١٠٧٣م ، اذ استغاث بالبابا لصد تيار السلاجقة الذى تدفق على آسيا الصغرى بعد انتصارهم فى وقعة منكرت .

ونبتهت صيحات الحجاج المسيحيين الشعور فى غرب أوروبا لمحاربة المسلمين . وجدد الامبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين سنة ١٠٩٥م الاستغاثة مرة أخرى بالبابا اربان الثانى ، بعد أن وضع له أن الامبراطورية لا تستطيع أن تعيش بدون أقاليم آسيا الصغرى التى باتت فى أيدي السلاجقة ، فمن تلك الأقاليم الآسيوية جندت الامبراطورية خيرة جنودها ، فضلا عن أن سواحلها زودت الأسطول البيزنطى بعدد كبير من السفن والبحارة . ونجح اربان الثانى فيما عجز جريجورى السابع عن تحقيقه، إذ اختمرت فى رأسه، وهو فى مدينة كليرمونت بفرنسا سنة ١٠٩٥م لتسوية بعض المسائل الخاصة بالملكية الفرنسية — أن يدعو لاعداد حملة ترمى إلى طرد السلاجقة من آسيا الصغرى وتخليص الأراضى المقدسة من أيدي المسلمين . واستطاعت البابوية بذلك أن تصبح القوة الأولى والعامل الفعال الذى حول استغاثة الامبراطور البيزنطى من مجرد حماية الدولة البيزنطية، إلى حرب مقدسة .

ولبى الأمراء الأوربيون دعوة البابوية ، وهم الطبقة الحربية العسكرية ، وأصحاب الأقطاعات الكثيرة من الأراض ، وذوى النفوذ السياسى الكبير . ويرجع نفوذ الأمراء إلى ما هو معروف فى غرب أوروبا بالنظام الاقطاعى الذى جعل المجتمع الأوربى ثلاث طبقات ، طبقة رجال الدين ، وطبقة المحاربين ، وطبقة الفلاحين . فرجال الدين هم المشرفون على الكنيسة والعبادة والمحافظة على الدين ، والمحاربون وظيفتهم الحرب وما تستلزمه من اقتناء الجيوش والانفاق عليها واعدادها للقتال ، والفلاحون هم الذين يعملون فى أرض أصحاب الاقطاع من الأمراء وأتباعهم من الفرسان .

وأطلق اسم الفرسان على طبقة المحاربين عموما لاعتمادهم فى ذلك العصر على الخيل فى القتال . ولبس الفارس الزرود الثقيلة والخوذات وغيرها من الملابس المصنوعة من الحديد .

ولما كانت الحروب الاقليمية قد انتشرت بين السادة الاقطاعيين وملوكهم فى غرب أوروبا ، فان الكنيسة رأت فى الدعوة إلى الحروب الصليبية وسيلة لصرف هذه الطبقة وأتباعها من الفرسان عن الشحناء إلى خدمة الدين . ورأى أصحاب الأطماع

الواسعة من السادة الاقطاعيين وفرسانهم فى نداء الكنيسة فرصة للذهاب إلى الشرق ووسيلة لتأسيس إمارات أو اقطاعات لهم هناك ، والتخلص بذلك من المتاعب الاقتصادية التى نتجت عن المزاخمة الاقطاعية فى مختلف الممالك الأوربية . وذهب مع أولئك السادة وفرسانهم إلى الحروب الصليبية كثير من الناس فرارا من اليأس والفقر ، أو حبا فى خدمة المسيحية .

تكوين الامارات اللاتينية فى الشرق العربى

اتخذ الصليبيون الذين اجتمعوا من مختلف البلاد الأوربية لتخليص الأراضي المقدسة بالشام ، من مدينة القسطنطينية ملتقى جيوشهم قبل العبور إلى آسيا الصغرى والشام . وقبل وصول هذه الجيوش الصليبية اجتمع بالقسطنطينية سنة ١٠٩٦م أعدادا شتى من الرجال والنساء فى غير نظام أو خبرة بالقتال ، وعبرت إلى الشاطئ الأسيوى بزعامة رجل اسمه بطرس الناسك . فباد معظم أولئك الناس ما عدا بطرس نفسه ، على أيدي السلاجقة المسلمين . ثم وصلت الجيوش الصليبية إلى القسطنطينية سنة ١٠٩٧م بقيادة زعمائها : جودفرى دى بوبون دوق لورين ، وأخوه بلدوين ، وروبرت كونت فلاندرز ، وريموند التولوزى وبوهمند النورمانى ، فأخذ الامبراطور ألكسيوس كومنين على أمرائها قسماً تعهدوا فيه بأن يسلموا اليه البلاد البيزنطية التى يستردونها من السلاجقة فى آسيا الصغرى . وبذا سهل لهم عبور البوسفور فى مايو سنة ١٠٩٧م ، بعد أن أمدهم بالمؤنة والعتاد والمعلومات الجغرافية اللازمة . وعجل الامبراطور باقضاء جيوش الصليبيين عن القسطنطينية بسبب عبثهم بالمدينة فضلا عن عبثهم بالبلاد البيزنطية فى البلقان قبل وصولهم إلى القسطنطينية .

وبدأ الزحف الصليبي على آسيا الصغرى والشام فى وقت ليست فيه قوة اسلامية تستطيع الوقوف فى وجه الجيوش الصليبية . فالدولة السلجوقية الكبرى باتت بعد وفاة سلطانها ملكشاه سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م دويلات متناثرة لا رابطة بينها سوى الحروب المستمرة ، ففى دولة السلاجقة الروم — أى آسيا الصغرى — حكم السلطان قلع أرسلان الصغير السن ، وهو أول من لقى ضربات الصليبيين سنة ١٠٩٧م . وفى

الشام والعراق لم يوجد حاكم ذو نفوذ واسع بل استبد بمختلف المدن الشامية والعراقية مجموعة من الأتابكة الممتازين وهم الموظفون الذين قاموا على تربية أبناء السلاطين وعينو إلى جانبهم في ولاياتهم ، فلما تفككت الدولة السلجوقية الكبرى صار أولئك الأتابكة أصحاب الدويلات في مدن الشام والعراق .

أما الخلافة العباسية في بغداد فلم يكن لها حول ولا قوة ، وضاعت هباء صرخات المسلمين لاستنهاض الخليفة العباسي المستظهر بالله « ٤٨٧هـ — ١٠٩٤م » كذلك لم يكن في استطاعة الخلافة الفاطمية وهي صاحبة بيت المقدس وغيرها من المدن بجنوب الشام ، أن تقوم بعمل كبير ضد الصليبيين . إذ عاش الخليفة الفاطمي بالقاهرة مسلوب السلطان ، بسبب الحزبية العسكرية وتنازع المصالح والأطماع بين الوزراء الفاطميين ، ومن الواضح أن هذه العوامل الكثيرة سهلت على الصليبيين هزيمة المسلمين ، كما سهلت عليهم تأسيس إمارات صليبية .

إمارة الرها :

وعندما أخذت الجيوش الصليبية تسير من آسيا الصغرى إلى الشام ، تفرعت عنها فرقة بقيادة بلدوين وأغارت على مدينة الرها . وفي أوائل سنة ١٠٩٨م احتل بلدوين هذه المدينة الهامة ، وأسس بها أول إمارة لاتينية — أي صليبية — في الشرق . وتولى بلدوين شئون هذه الامارة التي ظل بها مدة ، على حين استمرت الجيوش الصليبية في زحفها الرئيسي على الشام .

إمارة أنطاكية :

ثم حاصر الصليبيون مدينة أنطاكية في شمال الشام . واستطاع بوهيموند النورمانى في يونيو سنة ١٠٩٨م أن يقتحم هذه المدينة العظيمة بسبب خيانة أحد حراس أبراجها من الجند الأرمن ، إذ دلى الحبال ليلا من أعلى الأسوار وسهل للصليبيين دخولها بعد حصارها الطويل . وتولى بوهيموند النورمانى تأسيس الامارة اللاتينية الصليبية الثانية في هذه المدينة ، وسارت القوات الصليبية الرئيسية جنوبا إلى بيت المقدس « أورشليم » بقيادة جودفرى دى بويون .

الاستيلاء على بيت المقدس :

ومن أنطاكية سار جودفرى لتحقيق الهدف الأول للصليبيين ، وهو الاستيلاء على بيت المقدس ، فوجد مدينة الرملة الواقعة فى طريقه خالية من الجند الفاطميين ، فاستمر فى زحفه حتى بلغ أبواب بيت المقدس (أورشليم) « فى يونيو سنة ١٠٩٩م . وسارت جموع الصليبيين حفاة الأقدام حول أسوار المدينة ، امعانا فى اظهار التقوى ، ونفخوا فى الأبواق لايقاع الرعب فى الحامية الفاطمية المصرية المرابطة بها . وفى اليوم الخامس عشر من يوليو دخل الصليبيون مدينة بيت المقدس ، بعد أن وعدوا أهلها بالأمان وحفظ الأرواح ، ولكنهم نكثوا بوعدهم وأنزلوا بسكانها مذبة كبرى ، دون رعاية لعهد الأمان .

ولم يرض رجال الدين من الصليبيين أن تقوم فى بيت المقدس مملكة ، وهى البلد الذى قام فيه المسيح داعيا إلى الابتعاد عن زخرف الحياة . فاستقر الرأى على أن يكون جودفرى رئيساً وحاميا لبيت المقدس سنة ١٠٩٩م لا ملكا فى الدولة الصليبية هناك .

مملكة بيت المقدس :

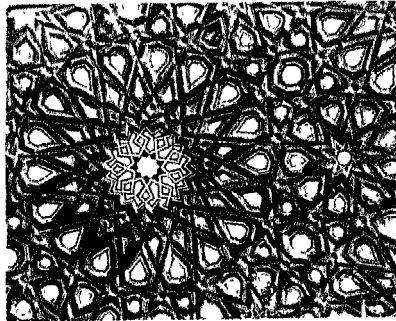
ولما مات جودفرى جاء أخوه بلدوين أمير الرها ، ونودى به ملكا على بيت المقدس يوم عيد الميلاد ، فى سنة ١١٠٠م ، بعد أن تغير موقف رجال الدين من نظام الحكم فى المملكة الصليبية ، لذا فالملك بلدوين الأول هو المؤسس الحقيقى لمملكة بيت المقدس ، وبدأ بلدوين عهده باخضاع المدن الساحلية ليضمن مواصلاته مع أوروبا ، ويمنع سفن الأسطول الفاطمى من استخدام هذه الموانى .

ووسع بلدوين مملكته جنوبا للحصول على ميناء على البحر الأحمر ابتغاء الاستيلاء على جزء من التجارة مع الهند ، فبنى إلى الجنوب من البحر الميت سنة ١١١٥م حصن الشوبك ، ليتحكم أولا فى طريق القوافل من دمشق إلى مصر والحجاز ثم حاول بلدوين غزو مصر أكثر من مرة ، أولا عن طريق الطور ، وثانيا عن طريق العريش

ومات سنة ١١١٨م أثناء محاولته الثانية داخل الأراضي المصرية قرب مكان لايزال يحمل اسمه محرفا حتى العصر الحاضر، وهو سبخة البردويل على البحر الأبيض المتوسط شرقي بور سعيد الحالية. وبلغت مملكة بيت المقدس زمن بلدوين أقصى اتساعها الجغرافي، فامتدت من العقبة على البحر الأحمر إلى بيروت على البحر الأبيض المتوسط.

إمارة طرابلس :

وبينما تتحول إمارة بيت المقدس إلى مملكة، عليها بلدوين حاكما، تأسست دولة لاتينية رابعة في طرابلس الشام، بالاضافة إلى الرها وأنطاكية وبيت المقدس. وتطلع إلى ذلك المشروع الكونت ريموند التولوزي، وبدأ هذا القائد حصار طرابلس سنة ١١٠١م وعزلها عن المنطقة الاسلامية المحيطة بأن بنى حصنا على تل مجاور لها، وطال الحصار على هذه المدينة. وفي أثناء هذا الحصار الطويل استعان ريموند باسطول مكون من سفن جنوه واستولى على ثغر جبيل سنة ١١٠٤م جنوبي طرابلس. غير أن ريموند مات سنة ١١٠٥م، قبل أن يحقق غرضه، ولم تسقط طرابلس الا سنة ١١٠٩م في يد ابنه. وصارت امارات طرابلس والرها وأنطاكية تابعة اسميا لمملكة بيت المقدس.



جهاد مصر ضد الصليبيين الدور الأول من الجهاد الاسلامى

حركة الافاقه الاسلاميه :

تطورت الحركة الاسلامية لطرد الصليبيين إلى جهاد نهضت به دول الأتابكة فى شمال العراق والشام . وظهر من أمراء هذه الدول أتابك قوى ، هو عماد الدين زنكى أمير الموصل (٥١١ — ٥٤١م / ١١١٧ — ١١٤٦م) . واستطاع زنكى بمواهبه أن يتولى أولاً ادارة مدينة واسط ومدينة البصرة ، ثم استولى على امارة الموصل ، وبلغ بذلك رتبة الأتابكية .

ثم بسط زنكى سلطانه على حلب كذلك ، مؤسساً دولة كبيرة تهدد ممتلكات الصليبيين فى شمال العراق والشام . واستهل زنكى أعماله ضد الصليبيين بحصار مدينة الرها ، وهى المعقل الأول للصليبيين فى شمال العراق والخطر الذى هدد بغداد عاصمة الخلافة العباسية . وبعد حصار دام أربعة أسابيع استولى زنكى على الرها سنة ٥٣٩م / ١١٤٤م ، وسمى هذا الفوز « نصر الأنصار » ، اذ ترتب على سقوط إمارة الرها فى يده ازالة الوند الصليبي الذى شق البلاد الاسلامية نصفين . ووضع زنكى حامية فى الرها لتأمين فتوحاته فى هذه المنطقة الهامة ، وبدأ زحفه على معاقل الصليبيين الأخرى المجاورة ، وأعانه فى معظم حروبه أخوان من أصل كردى فى خدمته ، وهما نجم الدين أيوب ، وأسد الدين شيركوه . على أن زنكى مات قتيلاً سنة ٥٤١م / ١١٤٦م على يد أحد مماليكه ، بتحريض من بعض أعدائه المسلمين وهو يحاصر قلعة جعير . وترك لابنه نور الدين محمود اتمام الدور الأول من الجهاد ضد الصليبيين وخلف له سياسة مرسومة واضحة المعالم .

وجعل نور الدين عاصمته مدينة حلب ، وبلغت الدولة فى أيامه أعظم مجدها واتساعها ، اذ استطاع على أثر تولية الحكم أن يتخلص فى سرعة من الفتن الداخلية التى تلت مقتل والده . واصطدم نور الدين بمحاولة الصليبيين استرداد الرها ، فقد أدى

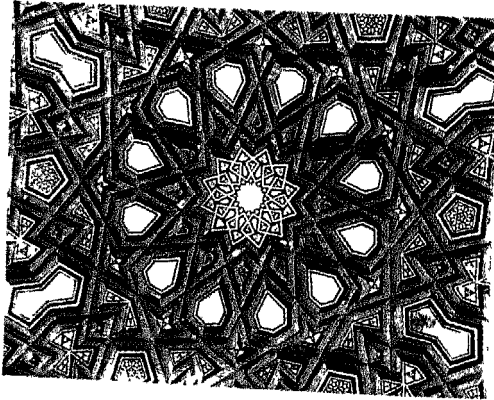
استيلاء المسلمين على هذا المعقل الهام إلى قيام الحملة الصليبية المعروفة بالثانية (١١٤٧ - ١١٤٩م) من أوروبا بقيادة كنراد الثالث ملك ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا . غير أن اختلاف المصالح الشخصية حول هذه الحملة إلى حصار دمشق بدلا من استعادة الرها . وقام الأتابك طغتكين أمير دمشق هذا الحصار الصليبي سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م وظل الصليبيون أمامها عاجزين عن اقتحامها برغم اشتراك فرسان الهيئتين المسيحيتين اللتين تأسستا لمساعدة الصليبيين فى الشرق ، وهما الداوية والاسبتارية . وأرسل نور الدين زنكى مددا لنجدة طغتكين ، فاضطر الصليبيون إلى رفع الحصار وعاد لويس وكنراد إلى أوروبا ، بعد فشل الصليبيين فى تحقيق شئ من أغراضهم فى دمشق والرها .

ورأى نور الدين بعد فشل هذه الحملة الصليبية ضرورة الاستيلاء على دمشق تحقيقا لتوحيد الجبهة الاسلامية التى بدأها أبوه ، ولاسيما بعد أن امتدت ممتلكات الصليبيين إلى مدينة عسقلان . وفى سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م استولى نور الدين على مدينة دمشق دون قتال ، حين وقفت المدينة مستعدة للدخول فى طاعته . فقد كان القائد العام لجيوشها هو نجم الدين أيوب ، أبو صلاح الدين ، من رجال الأتابك زنكى ، ولأن قائد جيش نور الدين هو شيركوه أخو نجم الدين أيوب .

وأدى هذا التغيير فى الموقف الحربى إلى أن اتجهت إلى مصر أنظار كل من نور الدين فى حلب والصليبيين فى بيت المقدس .

اذ رأى نور الدين أن استيلاء الصليبيين على عسقلان فتح الطريق أمامهم إلى مصر ، على حين وضع للصليبيين أن استيلاء نور الدين على دمشق أتاح له تطويق مملكة بيت المقدس من الشمال ، وأنه سوف يتحول إلى مصر لتطويق المملكة الصليبية من الناحية الجنوبية كذلك . وجاءت أحوال الخلافة الفاطمية نفسها عاملا ساعد نور الدين على الفوز بمصر والاستيلاء عليها ، اذ استنجد الوزير الفاطمى شاور بنور الدين ليساعده على منافسة فى الوزارة الفاطمية وهو ضرغام ، الذى استنجد بدوره بالصليبيين . وانتهى التسابق بين جيوش نور الدين ومملكة بيت المقدس إلى فوز

القوات النورية بالبقاء فى مصر، وغدت مصر محور الارتكاز، الذى يوشك أن تدور عليه أحداث المراحل المستقبلية من جهاد المسلمين ضد الصليبيين، ولاسيما بعد أن زالت الخلافة الفاطمية من مسرح التاريخ.



صلاح الدين الايوبي الدور الثاني من الجهاد الاسلامي

توحيد الجبهة الاسلامية :

ترتب على زوال الخلافة الفاطمية أن عادت مصر إلى المذهب السني والتبعية الرسمية للخلافة العباسية في بغداد ، وكل ذلك نتيجة جهود شيركوه وصلاح الدين باسم السلطان نور الدين .

غير أن نور الدين لم يلبث أن تشكك في مطامع صلاح الدين ونواياه وصمم على القيام بنفسه على رأس حملة لخلعه من مصر . ثم توفى نور الدين قبل أن تتحرك هذه الحملة ، فترك سياسة توحيد القوى الاسلامية التي بدأها لصلاح الدين . واستطاع صلاح الدين أن ينهض بهذه السياسة على أتم وجهه ، فأعلن استقلاله بمصر سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م ، غداة وفاة نور الدين . واعترفت له الخلافة العباسية بذلك ، ثم اتخذ مصر قاعدة لضم صفوف المسلمين .

وبدأ صلاح الدين خطواته لتوحيد القوى الاسلامية بازالة الشخصيات التي اعترضت سبيله في الشام . وساعدته الاختلافات التي تلت وفاة نور الدين على تحقيق مهمته ، إذ استعان به الدمشقيون أملا في أن تصبح دمشق عاصمة الدولة النورية بدلا من حلب . وجاء صلاح الدين إلى دمشق ، ودخلها باسم الطفل اسماعيل ابن نور الدين المقيم وقتذاك في حلب . غير أن الأمير غازي الزنكي صاحب الموصل ، وهو من سلالة عماد الدين زنكي نفس على صلاح الدين أن يصبح حامى البيت الزنكي في دمشق ، فحاربه صلاح الدين وانتصر عليه سنة ٥٧١هـ / ١١٧٥م ، وغدا صلاح الدين بعد ذلك سيد مصر والشام ، والشخصية الكبرى في العالم الاسلامي والشرق الأدنى . فضرب النقود باسمه في مصر والاسكندرية وحماة ، بعد أن كانت العملة تضرب من قبل باسم نور الدين . وبذا اعتبر صلاح الدين نفسه السلطان الأوحده ، ولاسيما بعد أن أخضع الموصل لسلطانه ، وجعل من أمراء العراق حكاما تابعين له .

وحقق صلاح الدين بذلك حلم نور الدين فى تطويق الفرنجة ، وجعلهم بين شقى الرحى ، بين الشام ومصر ، وأصبح الجو ممهداً أمام صلاح الدين لمجاهدة الصليبيين .
وقعة حطين :

اشتبك صلاح الدين مع الصليبيين قبل سنة ٥٥٨١ / ١١٨٥م فى معارك صغيرة ، بسبب حركات صليبية مناوئة له ، وأهمها حركات أرناط ، أمير حص الكرك التابع لمملكة بيت المقدس . وذلك أن هذا الأمير الصليبي تحكم بحصنه فى طرق القوافل بين مصر والشام ، ولم يهتم بالمهادنات التى عقدها صلاح الدين مع مملكة بيت المقدس . وعزم أرناط على الاستيلاء على مكة والمدينة والآثار النبوية بهما ، فأعد سنة ١١٨٢م سفناً حمل أخشابها وقلاعها إلى خليج العقبة ، حيث جهز منها أسطولاً ، نقل جنود الصليبيين فى البحر الأحمر إلى شاطئ الحجاز . وكان صلاح الدين غائباً فى العراق وقتذاك ، فأسرع نائبه فى مصر ، وهو أخوه العادل ولحق بالصليبيين عند مرفأ الحوراء شمالي ينبع ، واستطاع العادل القضاء على الصليبيين قبل تحقيق أهدافهم ، وحمل كثيراً منهم أسرى إلى مصر .

ثم عاد أرناط إلى خرق الهدنة بين الصليبيين والمسلمين برغم فشله السابق ، وتصدى فى ربيع سنة ٥٥٨٢ / ١١٨٦م لاحدى القوافل الاسلامية المارة بحصنه ، واستولى على جميع متاعها ، وأسر كل أفرادها . فأعد صلاح الدين حملة على مملكة بيت المقدس ، التى لم تستطع أن توقف اعتداءات أرناط التابع لسلطانها .

بعد حطين :

وكانت وقعة حطين وقعة فاصلة ، حتى وصفها بعض المعاصرين من مؤرخى الحروب الصليبية الأوربية بأنها بداية النهاية فى تاريخ الحروب الصليبية . ولم يكن فى هذا القول شئ من المبالغة ، اذ حشد الصليبيون زهرة ما عندهم فى حطين ، ولم يبق لديهم قوات لمواجهة الخطة الخاطفة التى رسمها صلاح الدين لنفسه بعد حطين ، اذ سلمت له مدينة المقدس فى أكتوبر سنة ١١٨٧ ، بعد حصار دام أسبوعاً واحداً ، ثم

استمر صلاح الدين فى هجومه على مدن الصليبيين فى الشام وفلسطين ، فبلغ مدينة اللاذقية شمالا ، وحصن الكرك جنوباً ، ولم تأت سنة ١١٨٩م حتى سقطت معظم المدن الصليبية التى هددت المسلمين ، وبدا كأن الصليبيين سيخرجون جميعاً من الشام ، لأنه لم يبق فى حيازتهم سوى أنطاكية وطرابلس وصور ، وبعض المدن الساحلية الصغيرة وأهمها صور .

دولة صلاح الدين . وتحلل المفاوضات اقترح قدمه ملك انجلترا ، خلاصته أن يتزوج العادل أخو صلاح الدين من الأميرة جوانا أخت ريتشارد ، مقابل أن يكون لملك انجلترا بيت المقدس والثغور البحرية المجاورة له . غير أن هذا الاقتراح لم يلق قبولا ، وانتهت المفاوضات بعقد صلح الرملة فى ديسمبر سنة ١١٩٢م وقد اتفق فيه الطرفان على أن تبقى البلاد الداخلية للمسلمين وأن تبقى المدن الساحلية للصليبيين ، على أن يسمح لفئات صغيرة من الصليبيين بزيارة بيت المقدس من قاعدتهم الكبرى فى عكا . وتوفى صلاح الدين بدمشق بعد ذلك بقليل سنة ٥٨٩هـ / ١١٩٣م وهو فى الخامسة والخمسين من عمره ، وقبره على مقربة من الجامع الأموى بالعاصمة السورية .

الصليبيون ومصر بعد صلاح الدين :

توفى صلاح الدين دون أن يضع نظاماً خاصاً لولاية العهد ، ونجم عن ذلك قيام النزاع بين أولاده وأحفاده وأخوته وأقاربه . ثم استطاع العادل أخو صلاح الدين أن يضم اليه الشطر الأكبر من الدولة الأيوبية بسبب استمالته للجيش ، وغدا سلطانا بمفرده على مصر ومعظم أجزاء الشام سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م . واحتفظ العادل مدة حكمه بالعلاقات الودية مع الصليبيين ، وعمد إلى ترويج التجارة مع الامارات اللاتينية بالشام ، والمدن الايطالية ذوات التجارة الواسعة فى الشرق ، مثل البندقية وجنوة وبيزا .

وأدى هذا الانقلاب فى السياسة العامة إلى تعديل الخطط التى وضعها صلاح

الدين ، اذ فضل السلطان العادل وخلفاؤه من بعده ، مسالمة الصليبيين بأى ثمن ، حفظاً لمصر من الهجمات الصليبية . على أن هذه السياسة أدت إلى عكس المطلوب اذ أدرك الصليبيون منذ أيام انتصارات صلاح الدين أن سر هذه الانتصارات يرجع إلى امداد الجيوش الأيوبية بالسلاح والمال من مصر ، ولذا ينبغي أن يكون الهدف الحقيقى لمجهوداتهم مصر لا الشام .

وشجعت المدن البحرية الايطالية على تنفيذ هذه السياسة الصليبية الجديدة ، ودفعتها أطماعها التجارية إلى فتح مصر لتستطيع السفن الايطالية أن تصل إلى البحر الأحمر ومركز التجارة الشرقية مباشرة . وصادف هذا الانقلاب فى خطط الصليبيين دعوة البابا أنوسنت الثالث سنة ١٢١٦م لاعداد حملة صليبية ، هى المعروفة بالخامسة فى التقسيمات الصليبية .

ودخلت هذه الحملة فرع النيل الشرقى وحاصرت دمياط سنة ١٢١٥م / ١٢١٨م . وأسرع السلطان العادل من شمال الشام إلى مصر لدفع هذه الحملة ، ولكنه توفى فى الطريق بالقرب من دمشق . وأعقب وفاة العادل انقسام الدولة الأيوبية مرة أخرى ، وتولى مصر ابنه محمد الملقب بالملك الكامل ، ووقع عليه عبء الدفاع عن البلاد المصرية ، وتنفيذ السياسة التى اتبعها أبوه العادل . واستطاع الصليبيون الاستيلاء على دمياط فى هذه الحملة . ومع هذا أظهر الملك الكامل روح المسالمة التى اتبعها أبوه العادل ، اذ اقترح عليهم تسليم بيت المقدس ، وارجاع المملكة الصليبية إلى معظم مساحتها الأولى قبل فتوح صلاح الدين ، ماعدا بضعة بلاد صغيرة مقابل الجلاء عن دمياط والشواطئ المصرية . ورفض الصليبيون هذا العرض السخى لاعتقادهم سهولة الاستيلاء على البلاد المصرية . ثم أخذ الصليبيون فى التوغل فى الدلتا ، والفيضان بالغ أقصاه ، ولم يدركوا صعوبة السير فى الأراضى المصرية فى تلك الحال ، لجهلهم أحوال النيل وكثرة الترعرع ، ثم ان المسلمين فتحوا الجسور والسدود وأغرقوا لأراضى . ولم يلبث الصليبيون أن وجدوا المياه تعزلهم عن قاعدتهم الحربية بدمياط ، فلم يستطيعوا التقهقر ، ولقوا هزيمة فادحة على أيدي المسلمين . عند ذلك

رضى الصليبيون بالجلء التام عن الأراضى المصرية سنة ٥٦١٨ هـ / ١٢٢١م بلا قيد ولا شرط .

وسخر ملوك أوروبا لما حدث بسبب تفضيل الصليبيين مدينة دمياط على مدينة بيت المقدس ، ولاسيما فردريك الثانى امبراطور الدولة الألمانية ، ورأى هذا الامبراطور تحقيق الفكرة التى ثارت برأس ريتشارد ملك انجلترا وصلاح الدين من قبل ، وهى فكرة التسوية السلمية بين الصليبيين والمسلمين ، ودارت بينه وبين السلطان الكامل من أجل ذلك مباحثات ، وجاء فردريك إلى الشام على رأس حملة قليلة العدد والعدة سنة ٥٦٢٧ هـ / ١٢٢٩م ، وعقد مع نواب السلطان معاهدة بدت فى زمنها من أعجب المعاهدات التى عقدت بين المسلمين والمسيحيين عامة فى العصور الوسطى . ذلك أن شروط المعاهدة نصت على تسليم السلطان الكامل بيت المقدس للامبراطور فردريك باعتباره ملك الدولة الصليبية ، وأن يسلم له كذلك بيت لحم والناصرية وطريق الحج من بيت المقدس إلى يافا وعكا ، على أن يبقى للمسلمين منطقة المسجد الأقصى ، فضلا عن بعض المدن . وتعهد الامبراطور فى مقابل ذلك بأن يكون حليفا للسلطان على جميع أعدائه ، وأن يعمل على منع الأمداد الصليبية عن الامارات اللاتينية بانطاكية وطرابلس وغيرها ، وأن يخبر السلطان الكامل بكل ما يصل إلى علمه من حركات صليبية فى أوروبا .

وأغضبت هذه المعاهدات المسلمين والمسيحيين جميعاً ، فقال المسلمون انها جاءت بالهوان والاستسلام ، على حين قال المسيحيون أن الامبراطور فردريك نزل إلى حد المفاوضات مع المسلمين بدلا من محاربتهم لتخليص الأراضى المقدسة من أيديهم .

حملة لويس التاسع ملك فرنسا على مصر :

ثم حدث أثناء سلطنة الصالح أيوب بن الملك الكامل أن استولت طائفة من الخوارجية المسلمين على بيت المقدس من الصليبيين سنة ٥٦٤٢ هـ / ١٢٤٤م ، فانهدم

بذلك الشرط الأول من شروط المعاهدة الكاملة الفردريكية . وفزعت أوروبا وثار أشهر ملوكها وقتذاك لويس التاسع ملك فرنسا ، المعروف فى التاريخ الفرنسى بالقديس لويس . وأعد هذا الملك حملة صليبية معظمها من الفرنسيين ، وأبحر بها سنة ١٢٤٨م إلى قبرص لقضاء فصل الشتاء هناك . ثم اتجهت الحملة من قبرص إلى مصر مما يبرهن على أن الفكرة الصليبية فى القرن الثالث عشر الميلادى تأكدت من وجوب الاستيلاء على هذه البلاد ، لأنها غدت منبع المقاومة لجميع المشروعات الصليبية .

ونزلت الحملة الصليبية قريبا من دمياط ، ثم استولت عليها دون مقاومة فى يونيو سنة ١٢٤٩م . وأسرع السلطان الصالح أيوب من دمشق إلى مصر حين بلغه نبأ استيلاء الصليبيين على دمياط ، ولكنه توفى دون أن يقوم بعمل دفاعى لصد الصليبيين . وبسبب هذه الوفاة المفاجئة واستيلاء الصليبيين على دمياط ، كتمت شجر الدر نبأ وفاة زوجها السلطان الصالح أيوب ، حتى يحضر الوارث الشرعى للبلاد وهو توران شاه . وتمت على يد السلطان الجديد هزيمة الصليبيين ، لأن القديس لويس وقع فى نفس الغلطة التى وقعت فيها الحملة الصليبية الخامسة على دمياط ، وذلك بتأجيل الزحف حتى أشهر الفيضان وامتلاء القنوات والترع بمياه النيل . ولذا تعثرت جيوش الحملة فى طريقها حتى تجمع الجيش الأيوبي ، ومعظمة من المماليك البحرية عند المنصورة الحالية . وهناك نزلت الهزيمة بالصليبيين كما نزلت بهم مرة أخرى عند فارسكور ، وهم يحاولون العودة إلى قاعدتهم الحربية بدمياط .

ووقع القديس لويس أسيرا فى أيدي القوات المصرية ، ولم يطلق سراحه الا سنة ١٢٥٠م / ٥٦٤٨هـ بعد أن دفع فداء كبير قامت زوجته بجمع نصفه بسرعة ، وتعهده هو بتأدية النصف الثانى بعد مدة قصيرة من اطلاق سراحه .

المماليك والصليبيون الدور الأخير من أدوار الكفاح ضد الصليبيين

يرجع الفضل في انتصار المنصورة وجلاء الصليبيين عن دمياط إلى البسالة الحربية التي أبدتها الجند المملوكى فى القتال . وذاق المماليك طعم السلطة والحكم فى المدة الواقعة بين وفاة الصالح أيوب وحضور ابنه السلطان توران شاه . ثم أحس هذا السلطان الجديد بأن أولئك المماليك وعلى رأسهم شجر الدر زوجة أبيه التى تولت شئون الدولة سوف يستأثرون بالحكم ويخلعونه من السلطة . فأخذ يآتمر بهم ، كما أخذوا هم يآتمرون به . وأغرقت شجر الدر أخيرا أمراء المماليك بالتخلص من توران شاه بقتله سنة ١٢٥٠م ، وانتهى بذلك حكم الأيوبيين وقامت السلطنة المملوكية .

وتحولت السلطنة المملوكية إلى حرب الصليبيين زمن السلطان الظاهر بيبرس الذى امتدت سلطنته من سنة ٦٥٨ — ٥٦٦هـ / ١٢٦٠ — ١٢٧٧م وتجلت مواهب بيبرس الحربية من قبل فى انتصارات المنصورة وعين جالوت ، وقام ضد الصليبيين بجهود مكملة لأعمال السلطان صلاح الدين . وتحرك بيبرس أولا لحرب امارة أنطاكية الصليبية ، بعد أن جاءته الأخبار بأن هذه الامارة تعمل على محالفة المغول الذين غدوا أصحاب دولة فى فارس والعراق ، عاصمتها بغداد .

ثم بدا للسلطان بيبرس أن يقوم بدور صلاح الدين ، وأن يصيغ جميع أعماله ضد الصليبيين بصيغة الجهاد . وعمل بيبرس منذ أوائل عهده على محالفة بعض الدول الأوروبية لابعادها عن المعترك الصليبي ، كما عمل على ايقاع الفرقة بين القوى الصليبية بالشام ، فضلا عن محالفة الدولة المغولية المعروفة باسم القبيلة الذهبية ، وهى الدولة التى اعتنقت الاسلام حديثا ، وجعلت من عاصمتها سراى بركة على نهر الفلجا مركزا لبسط سلطانها على أجزاء كبيرة من روسيا الحالية .

ولذا استولى بيبرس على حصن الكرك سنة ٥٦٢هـ / ١٢٦٣م وعلى قيصرية ، وأرسوف وصفد التابعين للفرسان الداوية فى سنة ١٢٦٥م . ثم سقطت يافا فى يده سنة

١٢٦٧م . واستطاع بيبرس أخيراً أن يستولى سنة ٥٦٦٧هـ / ١٢٦٨م على أنطاكية ، وساق كثيراً من الأسرى الصليبيين إلى مصر . واختتم بيبرس هذه الأعمال الحربية الكبيرة بالاستيلاء سنة ١٢٧١م على حصن الأكراد التابع للاستتارية ، ومهد للاستيلاء على بلدتي أنطرسوس والمرقب ، أملاً في الاستيلاء نهائياً على طرابلس وهي المدينة الكبيرة التي بقيت في أيدي الصليبيين . وفي أثناء هذه الأعمال الحربية الكثيرة استطاع بيبرس أن يصد الجيوش المغولية الزاحفة من ايلخانية فارس والعراق عن أطراف الدولة المملوكية عند نهر الفرات . ويرجع السر في هذه الانتصارات إلى قيام بيبرس بتنظيم الجيوش المملوكية والادارة المصرية .

وقام السلطان قلاوون (٦٧٨ — ٥٦٨٩هـ / ١٢٧٩ — ١٢٩٠م) بعد بيبرس بمواصلة الحرب ضد الصليبيين . وسار على طريقة سلفه من مخالفة بعض الدول الأوروبية ، وإيقاع الفرقة بين الصليبيين . وأثبت قلاوون في ساحة الحرب أنه جدير بلقب « السلطان المنصور » ، الذي اقترن باسمه دائماً . فاستولى على حصن المرقب التابع للاستتارية سنة ٥٦٨٤هـ / ١٢٨٥م ، ثم سار نحو مدينة طرابلس ودمرها سنة ١٢٨٩م وقد شهد المؤرخ أبو الفداء هذه الواقعة ، وسجل تفصيلاتها في كتابته الذي عنوانه « المختصر في تاريخ البشر » .

ولم يبق من بلاد الصليبيين الهامة بالشام بعد ذلك غير عكا . وبدأ السلطان قلاوون يستعد للاستيلاء عليها لولا وفاته ، وبذا ترك لابنه السلطان خليل (١٢٩٠ — ١٢٩٣م) جميع ما أعد لذلك من قوة وجند . وحاصر خليل عكا حصاراً استمر أكثر من شهر ، وهدم معاقلها بمجانيقه ، ثم استولى عليها سنة ٥٦٩٠هـ / ١٢٩١م ، وهرب كثير من الصليبيين إلى جزيرة قبرص ، التي أصبحت عندئذ ملجأً لبقايا الصليبيين بالشرق .

وأدى سقوط عكا إلى تسليم المدن الصليبية الباقية في الشام ، ومنها صور وبيروت . وبذا أنسد الستار على أهم فصول الصراع بين الصليبيين والمسلمين بالشرق ، ما عدا جزيرة قبرص ، التي غدت مركز المملكة الصليبية وملوكها من أسرة

لوزجنان ، وجزيرة رودوس التي تركزت فيها بقية الفرسان الاسبتارية ، ومملكة أرمينيا الصغرى في قليقيا بأقصى الطرف الشرقي من ساحل آسيا الصغرى الجنوبي .



الامارات اللاتينية بعد انتصارات صلاح الدين .

موقف مصر من إغارات المغول .

ظهور المغول :

عاش المغول فى الهضبة الآسيوية الشاسعة ، التى تمتد من أطراف الصين إلى أواسط آسيا ، وتشمل جغرافيتها عددا من خطوط الطول والعرض ، ولذا تختلف فيها البيئة وأنواع المناخ والتضاريس ، وتغلب عليها الصفة السهبوية ذات المراعى المتغيرة ، ومن ثم احترف المغول الرعى ، والانتقال فى سرعة هائلة على ظهور الخيل ، حتى تبدو حركاتهم وراء الرزق زحفا حريبا سريعا . ولم ترغب قبائل المغول فى الاستقرار أو بناء المدن الكبيرة وغير ذلك من مظاهر الحضارة المستقرة ، بل أخذت هذه الجموع تضرب فى الأرض بين أطراف الصين ومنشوريا إلى بحيرة بيكال القريبة من تركستان الآلامية .

ثم استطاع أحد زعماء المغول المسمى جنكيزخان — ومعناه حاكم الحام — أن يجعل من الكتل المغولية وقبائلها وحدة واحدة رهيبة ، لها عاصمة فى مدينة قره قوروم . ووضع جنكيز خان دستورا عاما لهذه الدولة اسمه (اليساق) وفى الاجتماع المغولى السنوى العام ، وهو المعروف فى اللغة المغولية بلفظ (قوريتلاى) أعلن جنكيز خان هذا الدستور :

الذى نص فيه على ضرورة الخضوع التام لارادته ، والأنصواء تحت رايته ، والذهاب معه فى جميع حروبه ، والعقوبة الشديدة لكل مخالفة فردية أو قبلية . واستطاع جنكيز خان أن ينظم بذلك أداة حربية ضخمة أساسها الطاعة العمياء ، والاحترام لقرارات الخان الأعظم .

وأخذ جنكيز خان بعد تتويجه امبراطورا على المغول سنة ١٢٠٦م يعمل على فتح الأقاليم المجاورة له من امبراطورية الصين . وحكم الصين وقتذاك ملوك أسرة (كين) وعاصمتها مدينة بكين . وفى سنة ١٢١١م استهل جنكيز خان حروبه بالاستيلاء على معظم أجزاء الامبراطورية الصينية المتداعية سنة ١٢١٥م . وتابع جنكيز خان المدمرة الخربه حتى بلغت جيوشه نهر هوانجھو . واكتفى جنكيز خان بهذا

القدر من الفتوحات فى الصين ، وعاد إلى عاصمته قره قورم ، بعد أن خلف فى الصين نائباً عنه .

هجوم المغول على الدولة الاسلامية :

تحول جنكيز خان بعد ذلك إلى اخضاع القبائل المغولية التى فرت من قبضته ابان عملية الاخضاع التى قام بها سابقا لتوحيد دولة المغول ، وتعقب هذه القبائل إلى الدولة الخوارزمية فى تركستان ، وإلى الأطراف الشرقية من ايران . وحكم الدولة الخوارزمية وقتذاك السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه . واتبع جنكيز خان وسائل وحشية مغولية فى حروبه فى بلاد الدولة الخوارزمية فى اقليم ما وراء النهر ، ولقيت بخارى وغيرها من المراكز الاسلامية أشنع ألوان الدمار . اذ اتخذ المغول من مساجدها اسطبلات لخيولهم ، وفر علاء الدين خوارزم شاه إلى احدى جزائر بحر قزوين وتوفى سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م ، حزنا على ما حل ببلاد المسلمين من كوارث فادحة . وروى المؤرخ ابن الأثير حادثة دالة على مبلغ ما نزل بالناس من الرعب والانهيار أمام الجيوش المغولية ، وهى أن المغولى يدخل القرية من القرى وبها جمع كثير من الناس ، فلا يزال يقتلهم واحدا بعد واحد ، لا يتجاسر أحد أن يمد يده إلى ذلك الفارس ، وان انسانا منهم أخذ رجلا ، ولم يكن مع التترى ما يقتله به ، « فقال له ضع رأسك على الأرض ولا تبرح فوضع رأسه على الأرض ومضى التترى فأحضر سيفا وقتله به » . ومات جنكيز خان سنة ١٢٣٧م ، وهو فى سن الرابعة والستين .

وزحف المغول نحو ايران بعد اجتياحهم خوارزم ، فتوغل هولاء فى ايران ، حيث قضى أولا على قلاع طائفة الاسماعلية ومدنهم ، مثل قلعة ألموت . ولم يكن بايران سوى مقاومة أولئك الاسماعلية ، وبذا تفرغ هولاء للزحف على بغداد .

وأرسل هولاء سنة ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م إلى الخليفة العباسى المستعصم يدعوه إلى التسليم قبل فوات الأوان ، كما أرسل إلى وزيره ابن العلقمى ليجعل منه طابورا خامسا . وأعقب هولاء تهديده بحصار بغداد ، واعتمد على ما أحدثه ابن العلقمى من

اهمال الاستعداد اللازم ، ونشر الفرع واشاعة القول بأن المغول قوم لاينهزمون ، وأن المصلحة فى الخضوع لهم . وظلت مجانيق المغول تقذف قلاع بغداد وحصونها مدة أربعين يوماً ، حتى أحدثت فجوة فى أسوارها . وعندئذ أذعن الخليفة ، وخرج لمقابلة هولوكو ، ومعه أقاربه ، وسلمه مدينة بغداد .

وأضمر هولوكو الغدر للخليفة وعاصمته ، فأمرهم باخراج الجند الخليقى خارج بغداد بحجة احصاء عددهم ، ثم أنزل بهم القتل جميعا . وفى صباح اليوم التالى أباح هولوكو بغداد لجنوده . فانتشر المغول فى أحيائها يقتلون الرجال ، ويأسرون الأبطال ، ويستحيون النساء . وظلت هذه الوحشية أربعة أيام بلياليها ، حتى امتلأت خيام المغول بالأسلاب والأنهاب والمغانم من الذهب والفضة والنساء فضلا عن رؤوس القتلى التى عمد الجند إلى اللهب بها على شواطئ دجلة . وأخيرا أمر هولوكو بقتل الخليفة المستعصم ، وزالت الخلافة العباسية بذلك ، لكن إلى حين . وأصبح العراق الاسلامى تابعا للمغول سنة ١٢٥٨م (٥٦٦هـ) .

جهود مصر فى صد المغول — وقعة عين جالوت :

عزم هولوكو بعد ذلك على السير نحو الشام . فزحف شمالا ، وأعمل السيف فى سكان الموصل وحران والرها ، والقصة التى رواها الأثير عن مبلغ الفرع والرعب الذى استولى على الناس ، خاصة بهولوكو وجنوده قرب الموصل . ثم أرسل هولوكو إلى ملوك الأيوبيين بالشام يتوعدهم ويهددهم بالفناء التام ، اذا هم لم يمهدوا لزحفه بالاسراع إلى طاعته . وانتشر الذعر بالبلاد الشامية والمصرية كذلك . وجاء هولوكو فاستولى على حلب ثم دمشق وغيرهما من البلاد الشامية الواقعة بينهما . وبعث إلى السلطان قطز سفارة ، تحمل الوعيد والتهديد ، وتطلب الطاعة المطلقة . وأجاب قطز الخوارزمى الأصيل ، اجابة غير منتظرة ، اذ قتل السفراء المغول ، انتقاما يائسا لما أحدثه جنكيز خان بالدولة الخوارزمية . غير أن هولوكو لم يستطع أن يظل بالشام لاتمام ما عزم عليه . اذ توفى أخوه الخاقان مانجو خان ، وتطلب ذلك رحيله من الشام للاشتراك فى اقامة الخاقان الجديد . وتولى أبغا قيادة الجيوش المغولية المحتلة بلاد الشام . أما السلطان

المملوكى قطز فلم يهمل استعداداته الحربية ، بل أرسل طلائعه من القاهرة بقيادة الأمير بيبرس البندقدارى ، على أن يزحف هو بالجيش الرئيسى . واستطاع بيبرس أن يصد طلائع مغولية قرب غزه ، مما يدل على أن الخطر المغولى أضحى قريبا جدا من مصر . ثم لحق قطز بالطلائع المملوكية ، وأخذ فى مفاوضة الصليبيين ليسمحوا له باختراق أراضيهم الساحلية ، حتى يستطيع بذلك أن يباغت المغول من ناحية غير منتظرة . ونجحت المفاوضات برغم تفضيل بعض الصليبيين محالفة المغول على سلطنة المماليك . وبذا استطاع قطز أن يصل إلى مدينة بيسان فى سهولة وسرعة ، وأن يأخذ المغول عند عين جالوت على حين غرة سنة ١٢٦٠م / ٥٦٥٨هـ .

وانتصر قطز انتصارا كبيرا على أبغا بعد أن كادت الكثرة المغولية تغلب جند المماليك . وفى أثناء هذه الواقعة الدامية سقط أبغا قتيلا ، وتقهقر المغول إلى دمشق وحلب ، فتعقبتهم الفرق المملوكية حتى أخرجتهم من الأراضى الشامية .

وانتصار المماليك على المغول فى عين جالوت وقعة فاصلة فى التاريخ كله ، سواء من ناحية تاريخ مصر فى العصور الوسطى أو تاريخ العصور الوسطى الأوربية ، اذ جاء الانتصار بعد أن عجزت الدولة الخوارزمية والدولة العباسية عن مقاومة المغول أو مدافعتهما ، وبعد أن انهارت القوى المسيحية أمام الزحف المغولى على أجزاء من روسيا وبولندا والمجر الحالية . ثم أن وقعة عين جالوت أول صدمة فى الشرق لجيوش المغول وخاناتهم الذين ظن المعاصرون أنهم قوم لا يغلبون . فجاءت هذه الصدمة بمنزلة المعجزة الدالة على أن فى الامكان انزال الهزيمة بالمغول ، ومما جعل وقعة عين جالوت من الوقائع الحاسمة فى التاريخ الأوربى أن خطر المغول لم يكن مجرد خطر على الشرق فحسب وانما هدد المغول أوروبا ، واستولت جيوشهم على « كييف » وغيرها من البلاد الأوربية . ومما لا شك فيه أن المغول لو تقدموا فى أوروبا ، واستقروا فيها بمدنيتهم السهبوية القلقة لكان تأثيرهم سيئا بوجه عام . ولذا حلت وقعة عين جالوت العقدة التى سادت الناس جميعا عن خطورة المغول ، وفتحت عيونهم فى كل مكان عن امكان هزيمة الجيوش المغولية مهما كانت أعدادها .

الفصل الخامس

مصر منارة الاسلام

« مصر حاضرة الدنيا ، وبستان العالم ... وايوان الاسلام ،
وكرسى الملك ... من لم يرها لم يعرف عزة الاسلام » .
(المؤرخ ابن خلدون)

أولاً : المنظور الاسلامى فى مصر
إلى المتغيرات فى العالمين
الاسلامى والأوروبى
فى العصر الحديث

واجهت مصر الاسلامية فى السنوات الأخيرة من نهاية دولة المماليك سنة ١٩٢٣ / ١٥١٧م ، مطالع العصر الحديث الذى كانت معالمة قد سادت فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر للميلادى بلاد أوروبا ، وقلبت ميزان القوى بما يحقق مصالح العالم الأوروبى على العالم الاسلامى . وبدأت مصر مع مطالع العصر الحديث صفحة مشرقة أضافت بها إلى صفحاتها الرائعة فى الدفاع عن دار الاسلام بما يؤكد أن مصر — وإلى اليوم — ستظل دائماً وأبداً « درع العروبة ورياط الاسلام » ، لما تبذله من توضيحات ، وما تلقاه من عناء وما تقدمه من توضيحات ، شأن الرواد الذين لا يهابون المخاطر تأميناً للركب الذى يتولون قيادته وتوجيه مسيرته .

واتسعت رسالة مصر الاسلامية وعظمت بمطالع العصر الحديث ، بحيث لم تعد مصر « رباط الاسلام » فحسب ، بل وكذلك « منارة الاسلام » ، التى تهدى فى صدق وحسن ارشاد من يريد أن يهتدى بنورها إلى سواء السبيل . اذ وقفت منارة مصر تؤدى لدار الاسلام ، وسط المتغيرات العالمية ، نفس ما تؤديه المنارات على شواطئ البحار ، حيث تقف شامخة ترسل ضياءها وهداهاها على حين تتكسر عند أقدامها الأمواج المتلاطمة ، وتتبدد من حولها العواصف وسحبها المظلمة .

وجاء المنظور الذى قدمته منارة مصر شاملا للمتغيرات فى العالمين الاسلامى والأوروبى على حد سواء . ذلك أن مصر حفلت فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى بطائفة من مشاهير المؤرخين وعلماء الاجتماع والسياسة الذين أدرکوا ما وقع من متغيرات فى العالمين الاسلامى والأوروبى ، وجهدوا فى تشخيصها وتقديم أمثل السبل لنجاة العالم الاسلامى من مساوئها ونتائجها . وتجمعت الرؤية التى قدمتها منارة مصر فى ذلك الوقت فى منظور شامل كامل ، وهى أن النجاة رهن بتدعيم الصلة القديمة بين العروبة والاسلام ، على نحو ما سبق أن قامت به مصر فى مواجهة الصليبيين والمغول ، وحثمية التعاون فى الوقت نفسه بين العرب والمسلمين لدفع التيار الجارف الذى انطلق من العالم الأوروبى ، وبلغت طلائعه شواطئ كلا من العالمين العربى والاسلامى على حد سواء .

وجاء ميزان القوى فى صالح العالم الأوروبى فى مطالع العصر الحديث ، لأن بلاده كانت قد استطاعت منذ القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى ، وطوال القرنين التاليين أن تتخلص فى سرعة من جهالة العصور الوسطى ، وأن تمتشق ثلاثة أسلحة جديدة هى ؛ الحرية والعلم والفكر ، وأخذت تهاجم بها من جديد العالم الاسلامى فى مطالع العصر الحديث .

وفرضت المتغيرات الأوربية فى مطالع العصر الحديث على أن يأخذ اللقاء بين العالم الاسلامى والغرب الأوروبى طابع الحصار الاقتصادى من جانب القوى الأوربية الصاعدة على مصادر الثروة لبلاد الشرق الاسلامى ، التى استندت إلى السيادة الاسلامية على التجارة الشرقية الواردة من الصين والهند . وحمل هذا التيار الأوروبى الجديد طبقة البرجوازية من سكان المدن الذين استطاعوا أن يتحرروا من النظام الاقطاعى الجامد الذى سيطر على المجتمع الأوروبى ، وغدت تتركز فى ايديهم مصادر التجارة والمال ، فضلا عن اضطلاعهما بكافة الانقلابات الفكرية والعلمية فى أوروبا ، مثل حركة النهضة والاصلاح الدينى والكشوف الجغرافية ، التى كانت فى حقيقتها وليدة دفع القوى المسيحية للمسلمين من الأندلس ومطاردتهم فى شمال أفريقيا .

وكانت البرتغال هي أولى القوى المسيحية التي عمدت إلى الأفاذة من المتغيرات الأوروبية فى مطالع العصر الحديث وتوظيفها فى الحصار الاقتصادى الذى جرت أحداثه فى اللقاء بين الشرق الاسلامى والغرب الأوروبى . فقد أدركت هذه الدولة بعد خروج المسلمين من الأندلس بأن التوسع الطبيعى لها فى مطاردة المسلمين ، ليس فى تعقبهم إلى ديارهم بالشرق الاسلامى ، حيث كانوا يحملون له اذذاك الرهبة والخوف من قوته ، وهو الأمر الذى رسخ فى نفوس أهل أوروبا منذ الحروب الصليبية ، وانما رأّت البرتغال أنه لا بد من التوسع تجاه البحر ، والطواف حول افريقية تجنباً للطرق المارة بالشرق الاسلامى ، ومحاولة الوصول عن هذا التحول البحرى إلى الهند والصين ، حيث مصادر الثراء للشرق الاسلامى وسيادته التجارية . واستطاع البرتغاليون بفضل ما آل إليهم من تراث العرب وعلومهم أن يبدأوا الطواف حول افريقية ، وكان فاسكودى جاما يتابع نشاط بنى جلدته فى هذا الطواف حول افريقية والوصول إلى المحيط الهندى ، والتخلص من سيادة العرب للطرق التجارية التقليدية . واستطاع البرتغاليون الطواف حول « رأس العواصف » التى صارت تعرف باسم « رأس الرجاء الصالح » . واستطاع فاسكودى جاما الافاذة من نشاط اسلافه وعبر رأس الرجاء الصالح ، ووصل إلى ثغر ماليندى فى مملكة كامبيا (كينيا الآن) ، حيث أرشده ملكها إلى ملاح يدعى ابن ماجد ساعده على الابحار مباشرة إلى ميناء كلكتا بالهند .

وحالما وصلت السفن البرتغالية إلى ميناء (كاليكوت) بالهند أرسل فاسكودى جاما ابن ماجد ليمهد له الطريق هناك . وكان ابن ماجد صديقاً لأحد رجال الجمارك الهنود المسلمين ، ويدعى أبو سعيد . وقضى ابن ماجد ليلته عند هذا الصديق ، وقدم للبرتغاليين كل ما رموا اليه من مطالب دون أن يدرى أنه أمام عدو خطير ومن نوع جديد ، بدأ يتهدد التجارة العربية وطرقها التقليدية .

ولم تكذ تنقض سنة واحدة على عودة دى جاما من الهند حتى جاءت حملة أخرى برتغالية إلى تلك البلاد . والمهم أن تلك الحملة بدأت تستولى على المراكز

الكبرى على ساحل افريقية الشرقى تمهيدا للسيطرة تماما على التجارة العربية . وقد عاد فاسكو دى جاما نفسه فى تلك السنوات الأولى من القرن السادس عشر إلى الهند ومعه قوة أكبر وخطط أعمق لضرب التجار العرب فى تلك الجهات . فجاء على رأس أسطول مكون من ست مراكب ، بعد أن مهدت له الحملات السابقة الاستيلاء على أجزاء من سواحل الهند عند كالكوت . وأعمل دى جاما القتل والنهب والحرق فى مراكب التجار العرب ، واستولى على ما فيها من توابل وبضائع ، وكشف بذلك عن نوايا البرتغال العدوانية ضد العرب ، وهى النوايا ، التى صارت تمثل طلائع الزحف الأوروبى على العرب ، ومصادر ثرائهم ثم العمل أخيرا على التهام بلادهم نفسها .

غير أن البرتغاليين وجدوا أن التجار ظلوا يفضلون الطرق التجارية المارة بالبلاد العربية لقصرها وسلامتها وأنها أكثر فائدة لهم من الطواف حول رأس الرجاء الصالح . وبعبارة أخرى فإن اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح لم يكن هو السبب فى تحويل التجارة الشرقية من الطرق المارة بالبلاد العربية ، وإنما السبب فى ذلك هى السياسة العدوانية الحاقدة التى بدأت قوى أوروبا الاستعمارية تنتهجها ، منذ دخول البرتغاليين مياه المحيط الهندى .

وعمد البرتغاليون إلى خنق المداخل البحرية المؤدية إلى الطرق العربية التجارية . واضطلع بهذه السياسة الجديدة القائد البرتغالى « البوكيرك » ، الذى صار بدوره يمثل طليعة الاستعمار الأوروبى القائم على الغدر والوحشية ، فعمد أولا إلى الاستيلاء على جزيرة سوقطرة التى تتحكم فى باب المنذب لاغلاق طريق البحر الأحمر التجارى . ثم سار بعد ذلك نحو الخليج العربى ، حيث أنزل الفزع فى نفوس سكان الجهات المطلة عليه . فأعمل البوكيرك القتل والحريق فى سلطنة مسقط ، كما أمر بتشويه الأسرى الذين سقطوا فى يده ، بأن جذع أنوفهم ، وقطع آذانهم ، وأخيراً استولى هذا البرتغالى على هرمز ذات المكانة الاستراتيجية فى الخليج العربى وأن يقفل بذلك هذا الشريان التجارى أمام السفن الغربية ، وغيرها من السفن التجارية ،

التي رأت أن طريق رأس الرجاء الصالح لا يمكن أن ينتزع عصا الزعامة الطبيعية من الطريق البحري المار بالبلاد العربية ، وخاصة مصر .

واستنجد العرب في بحار الشرق الأقصى والهند ، ومعهم مسلمو تلك البلاد أيضاً باخوانهم في مصر لتدارك هذه الطلائع الأوروبية الخطرة ، وسد الطريق أمام زحفها الاستعماري . وكانت السلطة في مصر إذ ذاك في يد دولة المماليك ، وسلطانها هو قنصوه الغوري . وأعدت تلك السلطات اسطولا بحريا في السويس سنة ١٥١٢ / ١٥٠٦ م ، وانتهت من بنائه سنة ١٥١٤ / ١٥٠٨ م ، ثم بعثت به إلى مياه الهند لشد أزر القوى الوطنية هناك في الدفاع عن بلادهم وحررتهم ضد البرتغاليين . وكان يتزعم المقاومة الهندية للبرتغال حاكم مدينة كاليكوت . واستطاع الأسطول المصري أن ينال انتصارا في أول الأمر ، ولكنه هزم أخيراً أمام تدفق السفن البرتغالية ، وذلك في مياه ديو سنة ١٥١٥ / ١٥٠٩ م ، وذلك قبل الهجوم العثماني على مصر سنة ١٥٢٢ / ١٥١٦ م بحوالي سبع سنوات تقريباً .

ودقت مصر ناقوس الخطر بما حدث في معركة ديو البحرية ، وأوضحت أن العالم الاسلامي في حاجة إلى بعث جديد ، وتضامن أشبه بما حدث على عهد صلاح الدين الأيوبي ، لأن وصول البرتغال إلى مياه الهند ما هو إلا طلائع لزحف أوربي رهيب على العالم الاسلام . غير أن المتغيرات التي وقعت في العالم الاسلامي قد بلغت ذروة خطورتها بعد سبع سنوات فقط من معركة ديو البحرية ، على نحو ما تمثل في انفجار صراع داخلي خطير على السيادة العليا للعالم الاسلامي بين قواه الكبرى إذ ذاك ، وهي دولة المماليك في مصر ، ودولة الأتراك العثمانيين الصاعدة في آسيا الصغرى وشرق أوروبا ، ودولة الصفويين الشيعة في إيران .

وتمثلت السيادة العليا للعالم الاسلامي في النظام الذي اشتهر باسم « الخلافة » . وقد أخذ مقر هذه الخلافة يتنقل حتى مطلع العصر الحديث في عواصم البلاد العربية من العالم الاسلامي ، وهي المدينة المنورة على عهد الرسول الكريم والخلفاء الراشدين ، ثم منها إلى دمشق زمن الأمويين فبغداد زمن

العباسيين ، وأخيرا استقر مقر الخلافة فى القاهرة ، حيث دولة المماليك التى أحييت تلك الخلافة بعد أن أطاح بها الغزو المغولى من بغداد سنة ١٢٥٦هـ / ١٢٥٨م .

وكفل قيام « الخلافة » بالقاهرة لدولة المماليك المكانة العليا فى العالم الاسلامى عامة ، والشرق الاسلامى بخاصة فى مطالع العصور الحديثة ، حيث قامت الدولة العثمانية وكذلك الدولة الصفوية . ولكن بينما تمتد الفتوح العثمانية فى أوروبا من اقليم إلى آخر من البلقان إلى أوروبا الوسطى إلى شمال نهر دانوب ، حتى وقفت أمام أبواب فيينا ، اذ اتجهت أبصار العثمانيين فجأة نحو البلاد الاسلامية المتاخمة لهم فى آسيا الصغرى ، وأخذوا يحلمون بالسيادة العليا فى العالم الاسلامى ، وانتشرت فى الدولة العثمانية حماسة دينية سنوية المذهب توجهت أولا لحرب الصفويين الشيعة فى إيران .

وكان الصفويون فى إيران قد بلغوا بدورهم فى ذلك الوقت درجة كبيرة من القوة المذهبية الشيعية ، حيث جمع الشاه اسماعيل إلى جانب رئاسته السياسية للدولة منصب المرشد الأكبر للدعاة للمذهب الشيعى الاثنى عشرى ، وغدا يجمع بين الزعامة الروحية والدينية فى آن واحد ، وهو الأمر الذى اتاح له أن يستخدم القوة إلى جانب الدعوة فى نشر المذهب الاثنى عشرى ، حيث جعله المذهب الرسمى للدولة والسبيل لتحقيق أطماعه التوسعية فى السيادة العليا للعالم الاسلامى .

واشتد العداء فى ذلك الوقت بين الشاه اسماعيل الصفوى والدولة العثمانية ، بعد وفاة السلطان محمد الثانى ، فاتح القسطنطينية ذلك أن الشاه انتهز النزاع الذى نشب حول السلطنة بين أبناء البيت العثمانى ، وحرص الشيعة بآسيا الصغرى على الثورة على العثمانيين السنيين ، وأغرى أمراء الأطراف المجاورين لدولته بالخروج على السلطنة العثمانية . واحتضن الشاه اسماعيل أبناء البيت العثمانى الذين اضطروا إلى الفرار من آسيا الصغرى عندما اعتلى السلطان سليم الأول عرش الدولة العثمانية (١٥١٢م) . ولذا بدأ السلطان سليم حكمه باخماد ثورة الشيعة فى آسيا الصغرى ، وأنزل باتباع هذا المذهب من رعاياه الاضطهاد . فهجم الشاه اسماعيل

على آسيا الصغرى للدفاع عن الشيعة ، وأصبح العداء سافرا بين الدولتين العثمانية والصفوية . عندئذ أعد السلطان سليم جيشا كبيرا سنة ١٥١٤م (١٥٢٠هـ) للقضاء على الشيعة ودولتهم في ايران وقاد هذا الجيش بنفسه ، فاستولى على ديار بكر وكرديستان ، ثم توغل شرقا في ايران حتى التقى بجيش الشاه اسماعيل أخيرا عند تشالديران بالقرب من تبريز في ٢٣ أغسطس من تلك السنة ، ودارت رحى معركة انتهت بهزيمة الشاه اسماعيل . وعاد السلطان سليم إلى بلاده ، بعد أن أدخل ديار بكر وكرديستان في أملاك دولته .



موقف مصر من الصراع بين الصفويين والعثمانيين ونتائجه فى العصر الحديث

ترتب على الصراع بين الصفويين والعثمانيين نتائج مصيرية فى أحوال مصر وكذلك الشرق الاسلامى فى العصر الحديث ، كما ظل تأثيرها قائماً حتى مطلع القرن الحالى وهو القرن العشرين . ذلك ان تلك النتائج كان لها جانبان أحدهما سياسى والآخر اجتماعى ، وتلازمت أحداثها ومعالمها فى مسيرة مصر والشرق الاسلامى ومعيشة أهله . وتمثل تلك النتائج فيما يلى :

أولاً : النتائج السياسية :

اشتملت النتائج السياسية للصراع بين الصفويين والعثمانيين فى مصر والشرق الاسلامى فى العصر الحديث على جانبين اساسيين أحدهما مادى والآخر نفسى وهما : أ) الجانب المادى وتجلى فى التوسع العثمانى فى الشرق الاسلامى والسيطرة على أرجائه ، ذلك أن استيلاء السلطان سليم الأول على أجزاء من ايران أدى إلى امتداد أملاك الدولة العثمانية إلى منطقة الأطراف التابعة للدولة المملوكية المصرية وهى المنطقة الممتدة من جبال طوروس فى الشمال الغربى من الشام إلى مدينة ملطية بآسيا الصغرى . وخضعت هذه المنطقة للأمير علاء الدولة دلغازر المشمول بحماية السلطنة المملوكية . ولذا وقف من الجيش العثمانى المتوجه لحرب الصفويين موقف الحياد المسلح . فاتهمه السلطان سليم الأول بالعداء للعثمانيين وقتله واستولى على بلاده سنة ١٥٢١هـ / ١٥١٥م . وبذلك أضحى العثمانيون على مقربة من الأراضى المملوكية من ناحية الشام فضلاً عن استيلائهم على بلاد الأطراف التى تدين بشئ من التبعية لسلاطين المماليك .

وأحس السلطان الغورى فى القاهرة بالخطر المهدد لدولة المماليك بعد هذه الاعتداءات . فعمد إلى عقد حلف مع الشاه اسماعيل الصفوى فى ايران لوقف التقدم العثمانى . وازداد البغض بين الغورى وسليم الأول ، عندما فر أحد أولاد الأمير أحمد

أخى السلطان سليم إلى حلب ، فرارا من بطش عمه ، ومن ثم أخذ العداء يستحکم بين السلطانين ، وأخذ كل منهما يتربص بالآخر الدوائر . فقتضوه الغورى يحقد على سليم لاستخفافه بحماية المماليك على امارة دلغاضر وضمها إلى أملاكه دون مجاملة ، وسليم الأول يسعى الظن بالمماليك لتحالفهم مع الشاه اسماعيل ، وايوائهم أميرا عثمانيا يهدد العرش العثماني .

وفى أوائل سنة ١٥٢٢ / ١٥١٦م جاءت الأخبار إلى القاهرة باستعداد العثمانيين فى القسطنطينية (استانبول) للحرب . وأدرك الغورى أن الدولة المملوكية هى المقصودة بهذا الاستعداد وأعد جيوشه وخرج بها إلى حلب بالشام فى يوليو سنة ١٥١٦م . ثم بعث رسولا إلى سليم الأول يؤكد رغبته فى الصلح وعدم الحرب ، فرفض سليم الحديث فى الصلح وقال للرسول : « قل لأستاذك فليلقنا عند مرج دابق » أى داخل الأراضى الشامية المملوكية ، وهى عبارة تدل — أن صحت — على عزم السلطان سليم على تسوية حساب قديم مع السلطنة المملوكية التى هزمت جيوش العثمانيين داخل الأراضى العثمانية زمن السلطان قايتباى .

وسار الغورى من حلب شمالا إلى عينتاب ، وشهد قوات العثمانيين تقترب من الأراضى المملوكية ، والتقى الجيشان فى معركة حامية عند مرج دابق (٢٤ أغسطس سنة ١٥١٦م) . وعند أول اصطدام بين الفريقين فر الأمير خاير بك المملوكى نائب حلب ، وكان يتولى الجناح الأيسر فى جيش الغورى ، وانضم إلى العثمانيين ، واستحق بذلك لقب الخائن . ثم تلا ذلك سقوط السلطان الغورى عن ظهر جواده ، وموته لساعته . وأسفرت وقعة مرج دابق أخيراً عن فوز ساحق للعثمانيين بفضل أسلحتهم من المدافع والبنادق ، وتبين للماليك أن تمسكهم بالشجاعة والمهارة فى الرمى بالقوس والنشاب والمزارق لا يجدى شيئاً أمام أسلحة الترك الحديثة ، ففرت الجنود المملوكية من الميدان ، ودخل سليم الأول مدينة حلب . وفى شهر أكتوبر من نفس السنة زحف سليم على دمشق واستولى عليها ، وبدأ خضوع اقليم الشام لسيطرة العثمانيين .

وهزت أخبار انتصارات سليم الأول القاهرة، حيث قام طومانباى نائباً عن السلطان قنصوة الغورى . ورأى طومانباى أن يسرع بالزحف لمقاتلة العثمانيين بجنوب الشام قبل أن يصلوا إلى الأطراف المصرية، فأرسل على رأسها الأمير جان بردى الغزالى فى ديسمبر سنة ١٥١٦م للوقوف فى وجه العثمانيين شمال غزة، وهو أحد الأمراء الذين فروا من مرج دابق . وخان هذا الأمير، على نحو ما فعل خاير بك، فعرض جنده للهزيمة دون أن يقاتل قتالا جديا، وبذا وصلت جنود العثمانيين إلى غزة فى طريقها إلى مصر .

وفى ٢٢ يناير سنة ١٥١٧م (٩٢٣هـ) نشبت المعركة بين طومانباى والسلطان سليم، وحمى القتال وثار الغبار وعميت الأبصار . غير أن المعركة انتهت باندحار المماليك، وفر طومانباى بعد أن بقى فى ميدان القتال حتى النهاية . ولم يكن ثمة مناص من هزيمة المماليك عند الريدانية بسبب الخيانة، وافشاء الخطة المملوكية إلى العثمانيين . وانتهى الأمر بالقبض على طومانباى واعدامه فى ٢٣ أبريل سنة ١٥١٧م (٩٢٣هـ) .

وغدت مصر بعد الشام ولاية عثمانية، وانتقل بذلك اشرف سلاطين المماليك على الحرمين الشريفين فى مكة والمدينة إلى السلطان العثمانى، وأصبح الخطاب فى المساجد يدعون للسلطان سليم باعتباره « ملك البرين، وخاقان البحرين، وقاهر الجيشين، وملك العراقيين، وخادم الحرمين » وللمؤرخ المعاصر ابن إياس الذى شهد هذه الحوادث عبارة تبين مدى الانقلاب الذى أصاب مصر، وأنها صارت تابعة، بعد أن كان سلطانها على قوله: « أعظم السلاطين فى سائر البلاد قاطبة، لأنه خادم الحرمين الشريفين وحامى ملك مصر الذى افتخر به فرعون » .

وفى الوقت الذى عاد فيه السلطان سليم إلى بلاده بعد اتمام فتح مصر وادخال بلاد المغرب فى نفوذه، عمد الشاه اسماعيل الصفوى إلى الهجوم على العراق متحديا بذلك امتداد سلطان العثمانيين إلى الأطراف العراقية من ناحية الشام . فاستولى اسماعيل على بغداد، وزار مشهد الحسين فى كربلاء .

على أن العثمانيين خشوا نفوذ الإيرانيين الشيعيين فى العراق ، وأغضبهم الاضطهاد الذى نزل بأهال السنة من سكان بغداد . ومن ثم أخذ السلطان سليمان العثمانى (١٥٢٠ / ١٩٢٧ م) يعد العدة للقضاء على نفوذ الصفويين الشيعة ، ويزيل خطرهم نهائيا من العراق ويؤمن أطراف دولته هناك .

وجمع السلطان سليمان قواته فى شمال ايران وأعدّها للزحف على العراق . ولقى السلطان سليمان متاعب جمّة فى زحفة بسبب شتاء نوفمبر القارس ، ونال التعب والانهاك من جنده . وبعد مشاق استطاع السلطان سليمان أن يدخل سهول العراق ، ومعه فرق المدفعية العثمانية ذات الشهرة الفائقة فى القرن السادس عشر الميلادى . ودخل سليمان بغداد دون أن يلقى عليها حصار أو يلقى مقاومة . فشجع كبار رجال المدينة على الاجتماع به وزار أماكن الشيعة المقدسة فى حى الكاظمية ، ومسجد الشيخ عبد القادر الجيلانى ، وأعاد بناء مسجد الامام أبى حنيفة ، ثم عاد السلطان سليمان إلى القسطنطينية بعد أن ترك فى بغداد حكومة عثمانية ، وغدا العراق ولاية عثمانية خاضعة للسلطة المركزية فى القسطنطينية .

ب) الجانب النفسى للنتائج السياسية : وتجلّى فى الصدمة التى نزلت بمصر والشرق الاسلامى من الغزو العثمانى لبلادها ، فقد كان الشرق الاسلامى يتابع انتصارات العثمانيين فى الميدان الأوروبى بالفرح والسرور ، وهرعت الوفود العربية بالتهنئة إلى سلاطين العثمانيين باعتبارهم قوة جديدة قادرة على أن تعيد قصة الجهاد الاسلامى الأول ، ونشر الاسلام فى أوروبا . غير أن الأتراك العثمانيين لم يكونوا عند حسن ظن البلاد العربية ، وأضاعوا الحلم الجميل الذى راود تلك البلاد عن نشر الإسلام . ذلك أن العثمانيين أعطوا ظهورهم لأوروبا فى فترة من أهم فترات العالم ، وأحداث هذه القارة وعمدوا إلى بسط سلطانهم على مصر والشرق الاسلامى ، الذى كان يثن اذ ذاك من المجهودات الهائلة التى بذلها فى سبيل دفع الصليبيين ، وهزيمة المغول كذلك . وكان هذا الانتقال والتبدل فى سياسة العثمانيين مفاجأة كبرى للعالم العربى الذى لم يكن يتوقع هذا الغدر من القوة الاسلامية

الكبرى الناشئة ، والتي علق عليها الكثير من الآمال .

وزاد فى هول المفاجأة فى مصر الأسباب التى تذرع بها العثمانيون لتبرير هجومهم على العالم العربى . اذ رأى العثمانيون فى أهل فارس وفى امبراطورهم ، الشاه اسماعيل الصفوى ، أعداء ألداء لهم ، بسبب تمسكهم بالمذهب الشيعى المخالف لمذهب العثمانيين السنى ، وعمدوا إلى الهجوم على العراق بحجة تخليصه من المذهب الشيعى ، والاطاحة بنفوذ الصفويين من هناك . وكان العراق قد أخذ يستعيد سالف رخائه منذ تخلص من بقايا الحكم التركى القديم ، ويعمل جاهدا على تنظيم سبل العيش لمواطنيه الذين أنهكتهم الفتن الماضية .

وكانت السلطنة المملوكية ، صاحبة السيادة على مصر والشام وقتذاك تعطف على الشاه اسماعيل الصفوى ، بسبب الاعتداء الغادر عليه من جانب العثمانيين ، ولا ترى فيما قام به العثمانيون شيئا سوى الاساءة إلى العالم الاسلامى عامة ، والعربى خاصة . ومن ثم ينهض الحلف الذى قام بين مصر السنية وفارس الشيعية دليلا على أن تذرع الاتراك العثمانيين بالدفاع عن المذهب السنى حجة واهية ، لاتستهدف غير أطماع سياسية ، ولا داعى لها من جانب قوة اسلامية ، سبق أن تلقت كل اعزاز وترحيب من البلاد العربية .

وحدث بعد استيلاء العثمانيين على مصر أول انقلاب خطير فى تاريخ العروبة والاسلام عندما نقل السلطان سليم بعد فتح مصر ، الخليفة العباسى المقيم فى القاهرة ، إلى القسطنطينية ، ثم حمله على أن يتنازل عن الخلافة . فقد أصبحت عاصمة العالم الاسلامى تقع لأول مرة فى قطر غير عربى وضاع ذلك التراث الخالد الذى حافظت عليه العروبة منذ خرجت من موطنها الأصيل فى بلاد العرب مع الجيوش الاسلامية . اذ كانت الحركات السياسية الكبرى التى اضطرم بها جوف العالم الاسلامى ، وما نجم عنها من قيام دولة مكان أخرى فى السلطان لا تخرج العاصمة من بلاد العروبة ، وظلت تنتقل فقط بين مدنها الكبرى ، من المدينة المنورة إلى دمشق إلى بغداد ، ثم إلى القاهرة .

وترتب أيضا على سقوط دولة المماليك فى مصر أن اقترن اسم السلطان العثمانى بلقب « خادم الحرمين » ، وهو اللقب الذى حملة من قبل سلاطين المماليك فى مصر . واعتز سلاطين الدولة العثمانية بهذا اللقب الجديد ، واعتبروه متمما للخلافة وأركانها . ومن ثم تطلع العثمانيون إلى الاستيلاء على الحجاز لأنه موطن الأماكن المقدسة فى مكة والمدينة . وانتهزوا تطور الأحوال الداخلية فى مكة وسطوا سلطانهم على الحجاز ، وجعلوا من شريف مكة تابعا لهم . وتابع العثمانيون توسعهم فى شبه جزيرة العرب ، وأخضعوا اليمن سنة ١٥٣٨م (١٩٤٥هـ) . حيث أصبحت ولاية عثمانية .

وهكذا ارتبط تاريخ مصر والشرق الإسلامى بالدولة العثمانية منذ القرن السادس عشر الميلادى ، وهو الارتباط الذى ظل أربعة قرون طويلة ومتصلة ، حتى . مطالع القرن الحالى ، وهى مرحلة زمنية لم تعرف لها مصر مثيلا من قبل سواء فى تاريخها القديم أو المتوسط .

ثانيا : النتائج الاجتماعية :

ووضع البذور الخطيرة للتحوّل الاجتماعى فى مصر والشرق الإسلامى نظم الحكم التى سار عليها العثمانيون فى إدارة هذا العالم العربى الشاسع الأطراف . ومما زاد فى خطورة هذه النظم أن نموها استغرق قرنين من الزمان ، حتى أصبحت السنوات التى شهدها القرن السادس عشر والسابع عشر للميلاد هى سنوات التحوّل فى المصير العربى فى العصر الحديث ، وذلك على نحو تجلى فى الأحوال الاجتماعية .

وأول ما اتسم به نظام الحكم العثمانى لمصر والشرق الإسلامى أنه كان حكما عسكريا اقطاعيا . فنظر العثمانيون إلى الجيش وفرقه التى أقامت فى البلاد على أنه أداة للحرب وللحكم معا . ففى بعض البلاد كان رجال الجيش العثمانى يمنحون أرضا بما عليها لزراعتها أو الاستقرار فيها . وكانت تسمى هذه الاقطاعات « زعامة » أو « تيمار » ، ويقوم أصحابها بدورهم بتوزيع مالديهم من أراضي زراعية على اتباعهم فى

نظير خدمة يقدمونها عند الحرب للسلطان . ورحب السلاطين العثمانيون بهذا النظام لانه ضمن لهم أولاً زراعة الأرض ، وثانياً الحصول فى أعقاب الحرب على القوات اللازمة دون تكاليف تذكر . فكان هذا النظام يغنى الدولة عن دفع مرتبات الجند ، لأن صاحب الاقطاع كان يأتى إلى الحرب ومعه سلاحه وجواده ، وعليه أن يؤدى الخدمة العسكرية لمدة محدودة (٤٠ يوماً) ، واذا ما انتهت هذه المدة حق له العودة إلى أرضه، وذلك على الرغم من استمرار الحرب ، ثم أن الاقطاعى كان يميل عادة إلى الكسل فى أيام السلم ، فيهمل شأن التدريب ، وهو الأمر الذى يدعوه بالتالى إلى عدم الترحيب بالقتال ، حيث تغلب عليه نزعة الفلاحة ، وعدم الرغبة فى ترك أرضه .

وفى مناطق أخرى مثل مصر اعتمد العثمانيون على الحاميات (الأوجاقات) ، وهى تتكون من عسكريين محترفين تدفع لهم الدولة رواتب ، وكان عليهم الدفاع عن البلاد ، وجمع الضرائب ، والأشترار فى ادارة البلاد اشتراكا فعلا . وقد ارتبط بهذه الظاهرة الاقطاعية نظام الالتزام ، الذى أدى إلى أواخر العواقب فى حياة البلاد ونظم سكانها اجتماعيا وسياسياً .

والأمر الثانى الذى اتسم به نظام الحكم العثمانى فى البلاد العربية هو اتصافه بالرجعية . فالادارة العثمانية كانت تستهدف أولاً وقبل كل شئ الابقاء على الحالة كما كانت عليه فى البلاد قبل الفتح ، والابقاء على مجموعة القوانين العثمانية التى وضعت أيضاً دون الاعتراف بسنة التطور . ولذا لم تكن السلطات العثمانية ترحب كثيراً بأى تجديد فى نظم الحكم والادارة ، وهو الأمر الذى انعكست أضراره على جميع مرافق البلاد . فأصحاب الافكار الجديدة من ممثلى الدولة لم يكونوا موضع رضا السلطنة ، وظلوا موضع ريبتها وسخطها واضطهادها كذلك .

والأمر الثالث الذى لعب دورا هاما فى النظم العثمانية فى البلاد هو أن سياسة الدولة جرت على نظم هى أبعد ما تكون عن النظريات السياسية التى سادت التفكير العالمى فى ذلك الوقت ، وبخاصة ما اتصل منها بحقوق الانسان والعقد الاجتماعى . فالعثمانيون لم يغيروا شيئاً من التقسيم الذى كان شائعاً فى البلاد العربية . وكان

المجتمع ينقسم إلى طبقات جامدة هي : رجال السيف ، ورجال القلم ، والتجار ، وأصحاب الحرف .

وزاد هذه التقسيمات الجامدة خطورة فلسفة الحكم عند العثمانيين . فقد كانت الفكرة الأساسية في هذه الفلسفة هي عدم الثقة ، والشك في ممثلي السلطة . وكان نظام الحكم العثماني يجرى أساسا على قاعدة قيام والي أو باشا في بعض البلاد نيابة عن السلطان في ممارسة السلطة العليا في الولاية . ومن ثم جمع والي أو الباشا في يده السلطتين العسكرية والمدنية — فهو المسئول عن أحوال الولاية وتطبيق القانون فيها ، وجمع الضرائب . ولكن لم تلبث فلسفة الحكم العثماني القائم على أساس عدم الثقة في ممثل السلطان أن أخذت تحدث أعمالها . وتركزت فكرة عدم الثقة في ممثل السلطان في العمل على الحد من سلطته ، وهو الأمر الذي أدى إلى كثير من الفوضى الإدارية . وتجلى هذا التحديد حين صار منصب والي أو الباشا لمدة عام واحد ، حتى لا يكون لديه فرصة كافية لوضع الخطط والمشروعات لتحقيق أطماع خاصة ، أو مصالح خاصة .

وظهر للعيان أخيراً ضعف سلطان الباشا حين نال رجال الاوجاقات ، أي الحاميات العثمانية الحق في مراقبة والي والانصراف إلى ادارة وحداتهم مباشرة دون الرجوع إلى الباشا . فأصبح لكل أوجاق قائد هو « الأغا » ثم نائب قائد وهو « الكنخيا » ، ولكل أوجاق « دفتر دار » للشئون المالية . وكان أصحاب هذه الرتب كلها يعينون من العاصمة مباشرة دون أن يكون للباشا أي حق في الاشراف عليهم . وزاد نفوذ هذه الطبقة وغيرها حين سمحت لهم الدولة العثمانية بالاشتراك في الديوان ، الذي كان بدورة يحد من سلطان الباشا .

وتجلت معالم هذه الحقبة من تاريخ مصر في استعادة البكوات المماليك لنفوذهم المطلق في البلاد في القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي حيث صار رئيسهم يدعى « شيخ البلد » ، وهو منصب يؤهل صاحبه للانفراد بالحكم من دون والي العثماني نفسه . ومن الشخصيات التي تولت منصب شيخ البلد ، وعلا

سلطانها « على بيك الكبير » الذى صنار شيخ البلد سنة ١١٧٧هـ / ١٧٦٣م ، ثم أعلن استقلاله بمصر وانفرد بها إلى سنة ١١٨٧هـ / ١٧٧٣م ، حين خانه أحد مماليكه ، وهو محمد أبو الذهب ، نتيجة الاغراء العثمانى له . ولم يطل العهد بمحمد أبو الذهب ، حيث توفى (١١٨٩هـ / ١٧٧٥م) تاركا السلطة فى البلاد يقتسمها مرة أخرى اثنان من مماليك على بيك الكبير ، وهما ابراهيم بيك ومراد بيك ، حيث امتدت مشيختهما للبلد إلى مجئ الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٢١٣هـ / ١٧٩٨م .



جامع محمد أبو الذهب فى مواجهة الجامع الأزهر ومثلثى قايتباى والغورى .

التنافس الاستعماري في مصر :

كانت مصر قبل الحملة الفرنسية مسرحاً للمنافسات الانجليزية الفرنسية ، ذلك أن كشف طريق رأس الرجاء الصالح ، واستئثار البرتغاليين ومن جاء بعدهم من القوى الاستعمارية بالطواف حوله ، لم يقض مطلقاً على تحويل التجارة المارة بالشرق العربي . اذ بقي التجار العرب طوال القرن السادس عشر الميلادي ينقلون الحرير ومنتجات الشرق الاقصى من اليمن إلى القاهرة والاسكندرية ، كما ظل جانب من هذه التجارة يسلك طريق الخليج العربي ويمر من الصحراء السورية إلى شرق البحر المتوسط . وظلت مدن الشرق العربي تسهم بدور غير قليل في حركة التبادل التجاري العالمي ، على الرغم من منافسة طريق رأس الرجاء لها ، كما حافظت على شئع من ثرائها . ولم تلبث أحداث الصراع بين انجلترا وفرنسا أن بعثت ماء الحياة في هذا الطريق التجاري المار ببلاد الشرق العربي وهيأت له قصب السبق مرة أخرى على طريق رأس الرجاء . وكانت فرنسا أسبق من انجلترا في محاولة بسط نفوذها الاستعماري في بلاد العربية المطلة على البحر المتوسط . ذلك أن انصراف منافستها وهي انجلترا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي إلى شئون مستعمراتها في الهند أتاح للسلطات الفرنسية التدخل في سهولة في شئون الشرق العربي ، عن طريق التقرب من الدولة العثمانية صاحبة السيادة اذ ذاك على شئون تلك الجهات . فعمدت فرنسا إلى احياء جميع الامتيازات التي سبق أن منحها السلطان سليمان القانوني العثماني لفرنسوا الأول الفرنسي سنة ١٥٣٥م ، وهي التسهيلات والاعفاءات التي أكسبت فرنسا مركزاً ممتازاً في أملاك الدولة العثمانية ، وصارت أساساً للامتيازات الاجنبية التي رزئت بها البلاد العربية فيما بعد .

وفي سنة ١٧٤٠م ١١٥٣هـ جدد السلطان العثماني امتيازاته لفرنسا ، التي استخدمت نفوذها لخدمة الدولة العثمانية ، ومساعدتها ضد أعدائها . وكادت فرنسا تحتكر التجارة مع مصر ، وصار لها خمسون تاجراً بالقاهرة فضلاً عن مؤسسات تجارية أخرى في الاسكندرية ورشيد . ولم يكن لانجلترا في مقابل هذا العدد الفرنسي غير

تاجرين فقط بالقاهرة والاسكندرية . ومن ثم لم تستطع التجارة البريطانية مزاحمة النشاط التجارى الفرنسى فى مصر . ومما يدل على ذلك أن الاصواف الانجليزية التى اشتهرت بجدودتها لم تتمكن من منافسة الاصواف الفرنسية التى كانت أحف وزنا ، وأكثر ملائمة لجو بلاد الشرق العربى ، فضلا عن أنها تقل بمقدار ١٠ ٪ عن ثمن الاصواف الانجليزية . وصار المعروف ان الاتراك فى استنبول لم يجدوا الاقمشة التى تلائم رغباتهم وبالسعر الذى يرضونه ، ولا البن الذى يستسيغونه إلا من التجار الفرنسيين .

ولكن انجلترا لم تلبث أن أفادت إلى أهمية الطريق التجارى المار بمصر . وبلاد الشرق العربى ، وخاصة بعد أن تدعمت أقدامها فى الهند ، وشاءها ازدياد نفوذ فرنسا من دونها فى تلك الجهات . ثم شجع انجلترا على النظر بعين الجد إلى طريق مصر التجارى انسحاب قواتها من أمريكا بمقتضى معاهدة فرساي سنة ١٧٨٣م ، وصار الموقف يحتم عليها أن تبحث عن طريق سهل وقريب للمواصلات بين لندن والهند . واتصلت شركة الهند البريطانية بعلى بك الكبير الذى استقل اذ ذاك بحكم مصر ، وقامت بارسال حملات تجارية من الهند إلى السويس . وكانت تنقل البضائع برا من السويس إلى البحر المتوسط حيث تحملها السفن إلى انجلترا . وترتب على استخدام هذا الطريق اختصار مدة السفر من كلكتا بالهند إلى لندن إلى ما يقرب من شهرين ، بعد أن كانت السفن تستغرق خمسة أشهر فى السفر حول طريق رأس الرجاء .

وأعقب هذه الخطوة البريطانية ازدياد التنافس بين الانجليز والفرنسيين لاكتساب مودة المماليك حكام مصر من قبل الدولة العثمانية . اذ لم يطل العهد بعلى بك الكبير ، حيث ثار عليه محمد أبو الذهب ، وتخلص منه . وعقد الاخير معاهدة مع انجلترا سنة ١٧٧٥م . ولكن خلفاء محمد أبى الذهب ، وهما مراد بك وابراهيم بك لم يحترما هذه الاتفاقية ، وذلك على حين تقدمت فرنسا لمنافسة انجلترا فى مصر ، ونجحت فى عقد معاهدة مع مراد بك سنة ١٧٨٥م . وظل التنافس بين انجلترا وفرنسا فى مصر سجالا حتى قامت الثورة الفرنسية ، وتولى نابليون بونابرت قيادة جيوش بلاده

ضد أعدائها فى أوروبا .

واستطاع نابليون سنة ١٧٩٧م أن يزحف على النمسا ويخرجها من التحالف الأوروبى الموجه ضد فرنسا ، ولم يعد أمامه إلا تنفيذ خطة حكومته ضد انجلترا . ورأت الحكومة الفرنسية أن الهجوم المباشر على انجلترا عن طريق البحر أمر صعب ، ووجدت أن أحسن بديل لذلك هو ارسال حملة لغزو مصر ، بقصد القضاء على امبراطورية انجلترا فى الهند . وكشف تاليران الفرنسى فى خطابه إلى نابليون عن ذلك الهدف قائلا : « ان مصر باعتبارها طريقا تجاريا سوف تعطى لنا سيادة تجارة الهند ، اذ نستطيع القيام بخمس رحلات مقابل ثلاث حول رأس الرجاء .

وكانت فرنسا تفكر فى عزو مصر منذ مطلع القرن الثامن عشر الميلادى ، ولكن لم تقدم على تنفيذه بسبب علاقاتها الطيبة مع الدولة العثمانية صاحبة السيادة على مصر ، ولكن هذه السيادة صارت اسمية فقط عندما خلا الجولفرنسا بعد نجاح حملة بوناپرت ضد النمسا ، وتطلعت الحكومة الفرنسية لغزو مصر . وانتهى الأمر باعداد حملة فرنسية تولى قيادتها نابليون بوناپرت . ونزلت بالاسكندرية فى يوليو سنة ١٧٩٨م/١٢١٣هـ ، وتظاهرت بأن هدفها هو القضاء على حكم المماليك الذين استبدوا بالامر فى مصر ، واعادة نفوذ السلطنة العثمانية فى البلاد . ولكن انجلترا علمت بأنباء هذه الحملة ، وبعثت سفنها البحرية بقيادة نلسن لتعقبها ، وتمكن أخيراً من تحطيم الاسطول الفرنسى فى مياه أبى قير ، وصار نابليون وجنوده محصورين فى مصر . ولما سمع نابليون بتجمع جيش عثمانى فى سوريا للزحف على مصر بادر بالتوجه إلى سوريا وقضى على هذا الجيش ، ولكن دون أن يتمكن من الاستيلاء على عكا ، التى دافع عنها واليها أحمد الجزار ، بمساعد « الاسطول البريطانى » واضطر نابليون إلى العودة إلى مصر بعد شهرين من بقائه فى الشام ، بسبب تفشى ألوباء فى جيشه .

وفى تلك الأثناء ساءت الاحوال فى فرنسا بسبب تجمع أعدائها ، مما اضطر نابليون إلى العودة خفية إلى فرنسا فى أغسطس سنة ١٧٩٩م ، تاركا الجيش الفرنسى لقيادة كليبر . ومن ثم بقى الفرنسيون فى مصر دون أن ينجحوا فى تحقيق مآربهم ضد

دور القيادات المصرية فى التصدى للحكيم العثمانى والتدخل الأوروبى دور الأزهر

وقف أبناء مصر يدرسون معالم التطورات التى أحاطت بهم ويلتمسون أقوم السبل لاستعادة عزتهم القومية . وسرعان ما أدركوا أن الواجب يحتم عليهم الاعتماد على أنفسهم والافادة من القوى العديدة الكامنة فى بلادهم . ومن ثم كانت يقظة أبناء مصر فى هذه الحقبة من كفاحهم الرائع من أجل مواجهة القوى الاستعمارية تستند إلى ماضى بلدهم التليد وحضارته العريقة ، وليس السبب فيها مجئ الحملة الفرنسية إلى مصر . فلم تكن الحملة الفرنسية على مصر فى مطلع القرن التاسع عشر هى التى صنعت اليقظة المصرية فى ذلك الوقت — كما يقول بعض المؤرخين — فان الحملة الفرنسية حين جاءت إلى مصر وجدت الأزهر يموج بتيارات جديدة تتعدى جدرانها إلى الحياة فى مصر كلها ، كما وجدت أن الشعب المصرى يرفض الاستعمار العثمانى المقنع باسم الخلافة .. والذى كان يفرض عليه دون ما مبرر حقيقى تصادما بين الايمان الدينى الأصيل فى هذا الشعب وبين ارادة الحياة التى ترفض الاستبداد . ولقد وجدت هذه الحملة مقاومة عنيفة لسيطرة المماليك وتمردا مستمرا على محاولاتهم لفرض الظلم على الشعب المصرى . وبرغم أن هذه المقاومة العنيفة والتبمر المستمر كلفا شعب مصر غالبا فى ثروته الوطنية وفى حيويته ، فان الشعب المصرى كان صامدا ثابت الايمان ، ولقد كانت هذه اليقظة الشعبية القوة الدافعة وراء محمد على .

والباحث فى صفحات التاريخ المصرى فى هذه الحقبة من العصر الحديث يلمس روعة التعبير ودقة التشخيص لحالة مصر فى هذه المرحلة من كفاحها ضد الاستعمار . اذ تقاسم البلاد قبيل مجئ الحملة الفرنسية إلى مصر فئة ظالمة تتألف من الحكام المماليك . وممثل السلطان العثمانى فى البلاد وهو والى ضعيف لا هم له إلا جمع المال لنفسه أولا قبل حكومته المركزية فى القسطنطينية ، على حين استأثر

بالحكم الفعلى ونهب الثروات جماعة المماليك ، حيث تزعمها ابراهيم بك ومراد بك . ولكن المصريين لم يستكينوا لكل من ممثلى السلطات العثمانية أو اضطهادات ومظالم المماليك . وكانت عجلة القيادة المصرية اذ ذاك فى ايدى أمينة ، قوامها علماء الأزهر الشريف وطلبة العلم فيه . اذ دأب المصريون على الالتجاء إلى ساحة الأزهر كلما ألمت بهم الخطوب ، واشتد بهم الكرب ، حتى صار الأزهر رمز العزة المصرية والكرامة القومية . وأثبت رجال الأزهر أنهم عند حسن ظن مواطنيهم ، وعلى كفاءة عالية فى معالجة الأزمات .

وكانت قوة الروح الدينية عند علماء الأزهر وثقافتهم الدينية الحققة كذلك هى الأسس التى استندوا اليها فى زعامتهم للحركة الفكرية والسياسية فى البلاد اذ ذاك . ثم زاد فى مراكزهم قوة عزوف اولئك العلماء عن المناصب السياسية أو الحكم ، وجعلوا من أنفسهم رقباء أمناء على الاداة الحكومية والعمل على تقويمها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . وينهض دليلا على ادراكهم لمساوى الحكام الاتراك فى استغلال الدين من أجل تثبيت الطغيان تلك المحاوراة التى دارت بين أحد الولاة الاتراك وأحد علماء الأزهر . اذ قال الوالى التركى مخاطبا علماء الأزهر من قادة احدى الثورات الشعبية قائلا : « كيف تثورون على من ولاه السلطان عليكم ، وقد قال الله تعالى : وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم : فأجابه أحد علماء الأزهر اجابة تبين علم رجال هذا المعهد الدينى الجليل بحقوقهم الدينية ، فقال له : « ألا فأعلم أن أولى الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل ، وهذا الحاكم الذى أرسلكم ما هو إلا رجل ظالم خارج على قانون البلاد وشريعته . فلقد كان لأهل مصر دائما الحق فى أن يعزلوا الوالى اذا أساء ولم يرض الناس عنه . على أننى لا أكتفى بذكر ما جرت عليه عادة البلاد منذ الازمنة القديمة ، بل أذكر لك أن السلطان أو الخليفة نفسه اذا سار فى الناس سيرة الجور والظلم كان لهم عزله وخلعه .

وجرت العادة على أنه اذا اعتدى أحد الحكام من الاتراك أو المماليك على الناس ، تأخذ جموع الناس فى التوجه إلى الجامع الأزهر ، ثم يصعد نفر منهم إلى

مآذنه، وينادون بالظلم الذى نزل بهم . وعندئذ تعطل الدروس فى المسجد ، ويقبل العلماء على الاجتماع بالاهاالى ودراسة مشاكلهم ، ثم يتصلون بأولى الأمر لرفع المظالم . وروى الجبرتى فى كتابه « عجائب الآثار » نماذج عديدة عن قيادة علماء الأزهر للشورات الشعبية ، وقدرتهم على التعبير عن اليقظة المصرية قبيل مجئ الحملة الفرنسية إلى مصر . ومن ذلك أن أحد كبار المماليك أعتدى فى سنة ١٢٠١هـ / ١٧٨٦م على دار أحد الأشخاص فى حى الحسينية ونهب أمواله . وعندئذ خرج أهالى هذا الحى إلى الأزهر ، وشكو أمرهم إلى أحد علمائه وهو الشيخ أحمد الدرديرى ، فغضب لما نالهم من أذى ، وأعلن تضامنه معهم . ثم صعدت جماعة من الأهالى إلى المآذن ودقوا الطبول ، حتى انتشر الخبر فى الاسواق . وبعد ذلك أعلن الشيخ الدرديرى للثائرين ، « موعدنا غدا ، لنجمع الناس من اطراف المدينة ، وبولاق ، ومصر القديمة ، وأسير معكم إلى بيوت هؤلاء الافراد ، وسينصرنا الله عليهم ، أو نموت شهداء .

ولكن ابراهيم بك شيخ البلد المملوكى ، لم يكذب يسمع بذلك الخبر حتى أرسل إلى الشيخ الدرديرى يريجه ارسال قائمة بما نهب من حى الحسينية وردة إلى الأهالى تفاديا لثورة الشعبية العارمة .

وتابع الأزهر رسالته فى حمل لواء المقاومة الشعبية المصرية ضد الفرنسيين بعد أن سيطروا بقيادة نابليون على البلاد سنة ١٧٩٨م . فبعد ثلاثة أشهر فقط من نزول بونايرت فى مصر قامت ثورة شعبية عظيمة اندلعت نيرانها فى الأحياء الوطنية وهى الحسينية والجمالية . على أن المركز العام لهذه الثورة كان فى « الجامع الأزهر » ، اذ جعله الثوار معقلهم الحصين وسندوا كل الطرق المؤدية اليه بالمتاريس . واتجه المتظاهرون أولا إلى بيت القاضى ليعلنوا سخطهم على الضرائب والمظالم التى نزلت

٠٤٤

ويادرت القوات الفرنسية بالتصدي للمتظاهرين وأطلقوا عليهم الرصاص . ولكن الأهالى لم يخشوا رصاص المستعمر ، واشتبكوا مع الفرنسيين فى معركة حامية ، وقع فيها الجنرال « ديبوى » وهو قومندان القاهرة قتيلا . وظلت الثورة عدة أيام ، قتل فيها

ياور نابليون ، وهو « الكولونيل سلكوسكى » ، وكاد الأمر يفلت من يد جيش الاحتلال . غير أن نابليون نصب مدافعه ليلا على قمة المقطم ، وأمر بضرب الثوار فى الأزهر بالقنابل . ثم اقتحم الأزهر ، وأعمل الانتقام الوحشى فى أهل القاهرة ، الذين ضربوا أروع الأمثلة على مقاومتهم الباسلة ، دون أن ترهبهم كثرة التضحيات . وهذه هى الحركة الشعبية الكبرى التى واجهت الفرنسيين ، والمعروفة بثورة القاهرة الأولى .

ولم تهدأ مقاومة المصريين بعد حركتهم السالفة الذكر ، إذ لم يكد يمضى على ثورتهم الأولى ثمانية عشر شهرا ، حتى هبوا بثورة أخرى بدأت فى بولاق سنة ١٢١٥هـ / ١٨٠٠م ، بعد فرار نابليون إلى بلاده ، وترك كليبر خليفة له فى مصر . وكانت ثورة القاهرة الثانية أشد خطورة على الفرنسيين من ثورتهم الأولى ولم تهدأ إلا أمام وحشية الفرنسيين فى اخمادها . ولكن الشعب لم يلبث أن انتقم مما ناله باغتيال كليبر نفسه . ونفذ هذا العمل الفدائى السورى « سليمان الحلبي » ، وهو ممن تعلم فى الأزهر ، فشرف هذا الانتقام يتوج رأس سليمان الحلبي ، وهو شرف يجب أن ينسب لمصر وللأزهر .. فسليمان الحلبي .. يمكن أن يقال عليه أنه « مصرى العاطفة ، أزهرى الثقافة » .

وأعقب هذا العمل الفدائى ازدياد سخط السلطات الفرنسية فى مصر على الأزهر ورجاله ، من الطلبة والاساتذة . وانتهى الأمر باغلاق الأزهر بعد أسبوع من اغتيال كليبر ، وعودة طلبته إلى قراهم يحملون لمواطنيهم صورة بشعة من صور الاحتلال ، ويبشون فى نفوسهم روح المقاومة والبطولة . ولم يفتح الأزهر أبوابه إلا بعد خروج الفرنسيين من مصر ، وعادت الحياة إلى هذا المركز الهام فى العالم العربى والاسلامى ، وتابع حمل لواء الجهاد ضد الطغاه والمستعمرين .

وظل علماء الأزهر يحافظون على حقوق الشعب ، ويتولون قيادته ابان الصراع الحزبى والفساد العثمانى الذى انتشر فى البلاد بعد خروج الحملة الفرنسية من البلاد . إذ كان الجند الذين اعتمد عليهم الوالى التركى ، وهو أحمد خورشيد باشا ، يعيشون فى الأرض فسادا ، وبيتزون أموال الناس بغير وجه حق . ولما يئس الأهالى من

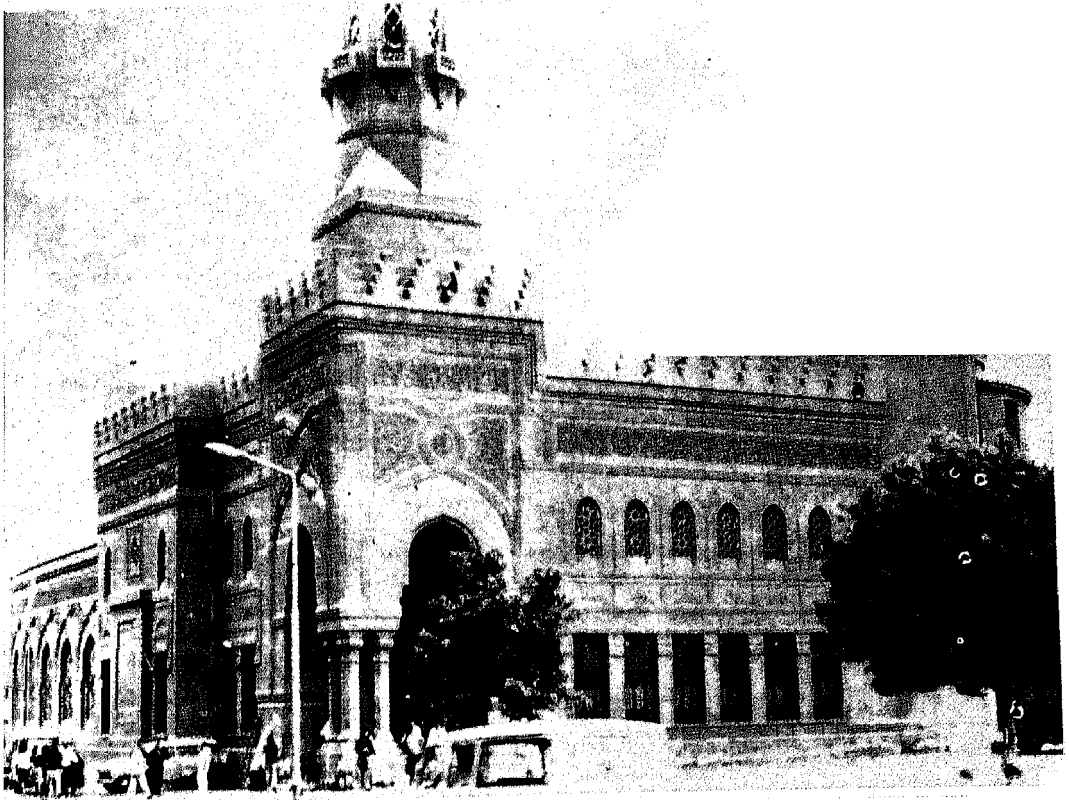
عدالة الوالى لجأوا إلى علماء الأزهر حيث تولى تنظيم المقاومة الشعبية السيد عمر مكرم .

وبدأت هذه الحركة الشعبية باضراب العلماء عن إلقاء الدروس ، ثم ظهور شخصية محمد على الذى استطاع أن يجذب العلماء اليه ، ويكسبهم إلى جانبه . وبهما يكن فى هذا العمل من أمر ، فإن الشئ الجدير بالاهتمام هنا هو أن الشعب المصرى ، أعلن عن قوته ضد الدولة العثمانية حين قرر بنفسه عزل الوالى العثمانى وتولية محمد على دون انتظار موافقة السلطان على نحو ما جرى عليه العرف والتقاليد ، وكان ذلك سنة ١٢١٩هـ / ١٨٠٥م .

وإذا كان محمد على قد استفاد من قوة الرأى العام المصرى الذى ظهر بعد جلاء الفرنسيين عن مصر ، فإن قائد هذه الثورة الشعبية ، وهو السيد عمر مكرم ، لم يلبث أن أدرك فى سرعة أساليب محمد على الملتوية ، وصار يوجه الشعب نحو هذا الخطر الداخلى الجديد الذى تجمع فى شخص ذلك الحاكم . اذ كشف محمد على عن قلقه من قوة الشعب عندما انتصر المصريون فى رشيد على حملة فريزر الانجليزية سنة ١٢٢٢هـ / ١٨٠٧م . اذ حين علم محمد على بهذا النصر أدرك أن قوة الشعب خطر يتهدده ، وخاصة بعد أن رأى الناس يكاتبون السيد عمر مكرم فى كل شئونهم . ولذا انتهز فرصة احتجاج السيد عمر مكرم على بعض أعماله ونفاه إلى دمياط .

وفشلت المحاولات التى بذلها محمد على لاسترضاء السيد عمر مكرم ، الذى أثبت لهذا الحاكم المستبد أن أبناء الشعب المصرى سرعان ما يكشفون كل مخادع محتال ، وأنهم يقفون له بالمرصاد . اذ أجاب السيد عمر مكرم على جميع محاولات محمد على لكسبه إلى جانبه ، بأنه لا بد من تقرير حق الشعب فى الاشراف والرقابة على أداة الحكم . وحين عاد السيد عمر مكرم إلى القاهرة ، ظل الناس يجدون فيه العالم المعبر عن آرائهم ، كما أنه برهن على أنه عند حسن ظنهم دائماً . فعندما ضج الناس بمظالم محمد على المالية ، ولجأوا إلى السيد عمر مكرم ، بادر سريعا إلى الاحتجاج على محمد على . وعندئذ قرر هذا الحاكم المستبد نفيه مرة أخرى إلى

طنطا سنة ١٨٢٢ . ولم يمتد العمر طويلا بهذا القائد الشعبي العظيم . اذ توفي بعد
انتقاله إلى طنطا بقليل .



جامع عمر مكرم بميدان التحرير .

اليقظة الفكرية والسياسية فى مصر

فى العصر الحديث

طلّاع اليقظة الفكرية والسياسية

بدأت طلّاع اليقظة فى مصر فى العصر الحديث فى صورة صراع فكرى دار بين أجيال العصور الوسطى وأجيال العصر الحديث . وقد سجل هذه اليقظة ومعالمها أحد كبار مؤرخى مصر وهو عبد الرحمن الجبرتى ، فى كتابه « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » . وقد عاش الجبرتى مرحلة من أهم مراحل هذا الصراع الفكرى ، ليس فى تاريخ مصر والبلاد العربية فحسب ، بل وفى تاريخ العالم أيضاً . فلم يكن ذلك الصراع محلياً محدوداً فى الوطن العربى ، ولكن واسع النطاق وثيق الارتباط بالصراع الفكرى الذى انطلق من أوروبا إلى سائر أرجاء العالم . وكانت أوروبا قد طوت مرحلة طويلة من الصراع الفكرى بدأتها منذ القرن الخامس عشر والسادس عشر للميلاد طوال عصر النهضة ، وانتهت من تحطيم جمود الفكر الوسيط ، ورفعت رايات النصر على عهد الجبرتى فى القرن الثامن عشر الميلادى بنجاح الثورة الفرنسية فى إزالة آخر معالم الطغيان السياسى للعصر الوسيط .

وشاهد الجبرتى تساقط بعض الشرر الوهاج من هذا الصراع الفكرى الأوربى على أرض مصر ، وذلك فى الوقت الذى كانت ترتكض فى أحشائها طلّاع صراع فكرى رهيب بين أجيال العصور الوسطى والعصر الحديث ، من أجل تحطيم قيود الجمود والركود والانطلاق نحو آفاق الحرية وظلالها الوارفة . وامتد العمر بالجبرتى (١١٦٧هـ / ١٧٥٤م — ١٢٤٢ / ١٨٢٥م) ليشهد ميلاد هذا الصراع الفكرى وأن يصاحب تطوره عبر أجيال ثلاثة : الأول الذى عاصر الطبقة الأخيرة من المماليك فى مصر . والثانى الذى واجه الحملة الفرنسية على مصر . والثالث والأخير الذى عاش عصر محمد على فى مصر . فقد انقسم أبناء كل جيل من تلك الأجيال الثلاثة وسط هذا الصراع الفكرى إلى قسمين ، تعصب أحدهما لرواسب العصور الوسطى وطلاسم

سحرها ، على حين اندفع الآخر فى الدعوة إلى التجديد والخروج من طلاسـم السحر إلى نور العلم والفهم السليم .

ووضع الجبرتى خلفية تاريخية شاملة لصورة هذا الصراع الفكرى بمراحله الثلاث ، جاهدا أن يربط بها بين أبعاد تلك الصورة ويوضح معالمها . فحدد فى الاطار الخارجى الغرض من التاريخ وموقف معاصريه منه . فقال أن الغرض من التاريخ هو : « الوقوف على الأحوال الماضية من حيث هى ، وكيف كانت . وفائدته العبرة بتلك الأحوال والتنصح بها ، وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن ، ليتحرز العاقل عن مثل أحوال الهالكين من الأمم المذكورة السالفين ، ويستجلب خيار أفعالهم ، ويتجنب سوء أفعالهم ، ويزهد الفانى ، ويجتهد فى طلب الباقي » . ثم شرح الجبرتى موقف الأجيال المعاصرة له من التاريخ قائلا :

« ولم تزل الأمم الماضية من حين أوجد الله هذا النوع الانسانى تعنى بتدوينه سلفا عن سلف وخلفا عن خلف ، إلى أن نبذه أهل عصرنا وأغفلوه ، وتركوه وأهملوه ، وعدوه من شغل البطالين » .

واعتبر الجبرتى هذا الأهمال للتاريخ عند معاصريه سبب الصراع الفكرى بينهم . إذ ابتعدت الأجيال نتيجة هذا الأهمال عن نهج الحضارة الواضح ، واتخذت لنفسها طريقا كان ينحدر بهم ، ويظنون لجهلهم وغفلتهم أنهم هم الصاعدون السابقون . ثم شرح الجبرتى فى سخرية لاذعة طلائع الصراع الفكرى بينه وبين تلك الأجيال الجامدة قائلا : « ولعمري أنهم لمعدورون ، وبالأهم مشتغلون ، ولا يرضون لأقلامهم المتعبة فى مثل هذه المنقبة . فان الزمن انعكست أحواله ، وتقلصت ظلاله ، وانخرمت قواعده فى الحساب ، فلا تضبط وقائعه فى دفاتر ولا كتاب ، واشغال الوقت فى غير فائدة ضياع ، وما مضى وفات ليس له استرجاع ، إلا أن يكون مثل الحقيقير (يعنى الجبرتى بذلك كناية عن نفسه سخرية من أولئك الجاهلين بالتاريخ) منزويا فى زوايا الخمول والاهمال ، منجمعا عما شغلوا به من الأشغال ، فليشغل نفسه فى أوقات خلوته ، ويسلى وحدته بعد سيئات الدهر وحسناته :

لو بال هذا الدهر فى قارورة بان . الذى يشكوه للمتطبب

ونزل الجبرتى ساحة الصراع الفكرى . فقال : « ولم أقصد بجمعه خدمة ذى جاه كبير ، أو طاعة وزير أو أمير ، ولم أداهن فيه دولة بنفاق ، أو مدح أو ذم مبين للأخلاق ، لميل نفسانى أو غرض جسمانى » . وظل الجبرتى ملتزماً بأمانة المؤرخ وقول الحق ولو على نفسه . فاعتزازه بكتابه وما بذله فيه من جهد لم يحل بينه وبين القول عن نفسه « هذا مع اعترافى بقصور الباع وفتور الطابع فى قوانين المعانى العربية ، ودواوين المثانى الأدبية » .

وأخذ الجبرتى يصور فى ضوء هذه الخلفية التاريخية مراحل الصراع الفكرى بين أجيال العصور الوسطى والعصر الحديث . وكان قديراً على تصوير هذا الصراع لأن تربيته وحياته العامة وأخيراً ميوله الخاصة جعلته على خبرة دقيقة بجميع الأطراف على اختلاف مناحيهم الفكرية . فنقل الجبرتى عن والده الاهتمام بالعلوم التطبيقية إلى جانب العلوم النظرية ، والوقوف على أهمية هذين الفرعين ، وما يتطلبه كل منهما من أسباب التقدم . وازدادت آفاق الجبرتى خبرة بالفكر القديم والجديد على عهده ، وكذلك بأحوال دعاة كل منهما عن طريق علاقته بوالده وعلاقاته أيضاً مع كبار رجال مصر من المماليك والعلماء على اختلاف مشاربهم فضلاً عن قوة الصلة مع عامة الناس . وخبر الجبرتى فنونا شتى من نتاج الفكر الوسيط والحديث ومارس بعض أعمالها التطبيقية ، من رياضة التصوف وحسابات النجوم . وصار تصويره للصراع الفكرى الذى دار بين هذه الاتجاهات المتضاربة تصوير خبير ، عليم ببواطن الأمور . وزاد فى روعة الصورة التى رسمها الجبرتى أن العمر امتد به ليتتبع أدوار هذا الصراع على مراحلها الثلاث التالية :

- ١ - الصراع الفكرى على عهد الطبقة الأخيرة من حكم المماليك فى مصر .
- ٢ - الصراع الفكرى على عهد الحملة الفرنسية فى مصر .
- ٣ - الصراع الفكرى على عهد حكم محمد على فى مصر .

المرحلة الأولى من الصراع الفكرى :

أوضحت الصورة التى رسمها الجبرتى للصراع الفكرى الذى نشب فى هذه المرحلة بين أجيال العصور الوسطى والعصر الحديث أنه كان صراعاً رهيباً . إذ كان الفكر الوسيط قويا ، ومازال له سحره وجلاله وأنتصاره الذى ينافحون عنه ، أما عن علم أو غير علم . فضلا عن ذلك كان أعوان الفكر الوسيط أكثر نفرا وأعز جاها وسلطانا وأشد تعصبا فى محاربة الأفكار الجديد . وبلغت خطورة أجيال العصور الوسطى حدا جعلت معه المرء العادى يفقد حريته فى التفكير مع الاضطرار للخضوع كرها لما ينادى به دعاة الفكر القديم .

ودار الصراع الذى صوره الجبرتى فى هذه المرحلة الأولى حول قضيتين كبيرتين تفرعت عن كل منهما مظاهر خطيرة أصابت حياة المجتمع على اختلاف طبقاته : أحدهما الانحراف الفكرى فى حركة التصوف ، والأخرى قضية التخلف بين قادة الفكر .

الانحراف الفكرى فى حركة التصوف :

استهل الجبرتى هذه القضية مبينا أن العدو للددود للتفكير العقلى هو الجمود الدينى الذى حمل لواءه على عهده فى القرن الثانى عشر الهجرى / الثامن عشر الميلادى بقايا المتصوفة من سلالة أهل العصور الوسطى . إذ تظاهروا بالعبادة ، واتخذوها ذريعة للتخاذل عن العيش الجاد ، وللتغريز بالعامية . فكثرت الأدعياء ، وتظاهروا بالتقشف ، ولبسوا مسوح التصوف ، وذلك على نحو شكلى . وصار كل ضعيف فى العلم يلجأ إلى التصوف كما يلجأ فاقده المجد إلى الكبر ، وقليل المال إلى الزينة واللباس . ثم اندس هذا الفريق المنحرف بين الناس ، وروجوا للتأويل فى القرآن ، واستخدموا مصطلحات يعجز الرجل العادى سليم الفكر عن فهمها ، وقالوا انها أسرار لا يرقى إليها إلا الخاصة ، ولا تحل للعقل فى ادراكها .

وحرص الجبرتى باعتباره ممن مارس بنفسه رياضة التصوف أن يفرق فى الصورة التى رسمها بين أولئك المنحرفين وبين تفة المتصوفة ، وذلك على نحو ما شاهده

بنفسه من أفعال كل من الفريقين . وجاءت التراجم التي اتخذها الجبرتي نماذج بشرية لمعالِم هذه القضية الخطيرة رائعة التصوير ، دقيقة التفاصيل والأسرار . فأسهب في وصف مواكب أولئك المنحرفين من دعاة التصوف وقدرتهم على اجتذاب الناس من شتى الطبقات رجالاً ونساءً وأطفالاً . وكان بعضهم يسير عريانا في الطرقات ، يتبعهم الأطفال والعموم ، ويحاولون الاقتداء بحركات أولئك الأدياء ، من حيث انتزاع الملابس ، و« التحنجل » في المشى ، وكل من فعل ذلك قال الناس أن بركة الشيخ مسته فجذبتة ، هذا إلى جانب الهذيان وكثرة اللفظ ، والتكلم بفاحش القول .

وتمثل الصورة التي سجلها الجبرتي عن « الشيخ صادومة » خطورة هذه الطبقة المتأخرة من دعاة التصوف ، ومفاسدهم في نفس الوقت . فقال : ان شيخاً يسمى الشيخ أحمد صادومة ، وكان رجلاً مسناً ذا شبيبة وهيبة ، وأصله من سمند ، وله شهرة عظيمة وباع طويل في الروحانيات وتحريك الجمادات والسيئات . والمعروف أن علم السيئات ظهر عند غلاة المتصوفة ، ويعنى اتجاههم إلى كشف حجاب الحس وظهور الخوارق على أيديهم ، والتطرف في عالم العناصر ، وذلك باحالة الأجسام النوعية من صورة إلى أخرى عن طريق القوة النفسية لا الصناعة العملية . وغدا علم السيمياء ضرباً من السحر ، ويقترن بالطلاسم . واضاف الجبرتي أن الشيخ صادومة صار بذلك قادراً على مخاطبة الجن مشافهة ، ويظهر لهم بالعيان .

وأمعن الجبرتي في تصوير هذا النموذج البشري « صادومة » ، مبيناً قدرته على اجتذاب نفر من كبار الفقهاء ، وأن ذلك كان يستند إلى سوء المشرب والقصد عند كل منهما . فقال ان الشيخ حسن الكفراوى الذى تولى منصب افتاء الشافعية كان من اتباع صادومة « وله به التثام وعشرة ومحلة أكيدة واعتقاد عظيم ، ويخبر عنه أنه من الأولياء وأرباب الأحوال والمكاشفات ، بل يقول أنه هو الفرد الجامع . ونوه بشأنه عند الأمراء وخصوصاً محمد بك أبو الذهب ، فراج حال كل منهما بالأخر » .

وبدأ الصراع ضد هؤلاء المنحرفين من المتصوفة شديداً ، وأسهم فيه ثلاث فئات من المجتمع ، تحدث الجبرتي عنها باعتبارها حملة الفكر الحديث فى هذه

المرحلة الأولى من مراحل ذلك الصراع . وأوضح الجبرتي ان هذه الفئات الثلاث ضمت أصحاب العقول المتفتحة من أمراء المماليك والعلماء ، ومن عامة الناس أيضاً . ثم شرح أسلوب كل فئة في أداء دورها في هذا الصراع الفكرى حسب قدرتها وطبيعة عملها . فذكر الجبرتي أن الشيخ صادومة وقع في عدااء مع أحد المماليك من أصحاب الفكر السليم ، وهو الأمير يوسف الكبير ، الذى كان « يتغير من أدانى شئ .. وازدادا عتوا وعسفا وانحرافا ، خصوصاً مع طائفة الفقهاء والمتعممين لأمر نقمها عليهم » .

وتابع الأمير يوسف بك الكبير حملته ضد أولئك المنحرفين من المتصوفة على حين تولى نفر من العلماء من أصحاب الفكر الجديد فى هذه المرحلة الكبيرة تحذير الناس من تلك المفاسد . وعدد الجبرتي نفرا من هؤلاء العلماء وأشار إلى أحدهم وهو البدرى الحجازى ، قائلا : « وكان عالما فصيحاً مفوها ، متكلماً منتقداً على عصره وأبناء مصره » . ونقل عنه الجبرتي النماذج التالية من الشعر :

احذروا أولى التسبيح والسبحة	والصوف والعكاز والشملة
بملء الأفواه ينادون يا	أهل الوفا يا صاحب النوبة
يا سيدى أحمد يا أوليا	الكون عينونا على الحملة
لكنهم فى الفسق أرقى الورى	كما ترى من غير ما مرية

ونقل الجبرتي عن نفس هذا العالم المجدد قوله :

ليتنا لم نعش إلى أن رأينا	كل ذى جنة لدى الناس قطبا
علما هم به يلوذون بل قد	تخذوه من دون ذى العرش ربا
فالحذار الحذار من فعل أهل ال	جهل لو عالما يدرس كتبنا

وأوضح الجبرتي أن عامة الناس أسهموا فى الصراع الفكرى ضد المنحرفين من المتصوفة إلى جانب رجال السلطة والعلماء . وجاءت الصورة التى رسمها برهاننا ناصعا على قابلية العامة للإصلاح فى هذه المرحلة الأولى من الصراع الفكرى ، وأن هذه

القاعدة العريضة للمجتمع على استعداد لأن تسير وراء المصلح الصادق مهما كان بلده . وتناول ذلك بالتفصيل فى ترجمته لسيرة أحد رجال الدين المشتغلين بالوعظ من الأتراك العثمانيين ، الذين كثر ترددهم على مصر فى هذه المرحلة الأولى من الصراع الفكرى وذلك على عهد الطبقة الأخيرة من المماليك فى تلك البلاد . فقال الجبرتى أن هذا الواعظ حين حضر إلى مصر « انتقل من الوعظ ، وذكر ما يفعله أهل مصر بضرائح الأولياء .. وذكر أيضاً قول الشعرانى فى طبقاته أن بعض الأولياء اطلع على اللوح المحفوظ وأنه لايجوز ذلك » .

وكثر أنصار هذا الواعظ من العامة ، وأيدوه فى حماسة بالغة وصفها الجبرتى بقوله : « فلما سمع حزيه ذلك القول خرجوا بعد صلاة التراويح ، وهم يقولون أين الأولياء » . وترامت هذه الأخبار إلى نفر من العلماء الذين أصدروا فتوى تحرم قول هذا الواعظ . وهنا اشتد الصراع الفكرى بين أنصار العقلية الجامدة التى مثلها هذا الفريق من العلماء ، وبين الواعظ وأتباعه . وبلغ الأمر أن تحدى الواعظ أولئك العلماء وطلب عقد مناظرة بينه وبينهم . اذ قال الواعظ لأتباعه حين بلغه فتوى هؤلاء العلماء : « أيها الناس ان علماء بلدكم أفتوا بخلاف ما ذكرت لكم ، وانى أريد أنكلم معهم وأباحثهم ... فهل منكم من يساعدنى على ذلك وينصر الحق ؟ فقال له الجماعة نحن معك ولا نفارقك » . وقامت ثورة على هؤلاء العلماء ومن وقف يؤيدهم من رجال السلطان ، وصارت نموذجاً مبكراً من الثورات الثقافية فى تلك المرحلة الأولى من مراحل الصراع الفكرى بين أجيال العصور الوسطى والعصر الحديث . وتركت أعمق الآثار فى نفوس الجماهير برغم فشلها والقضاء على داعيتها والمناصرين له . اذ فتحت هذه الثورة أعين دعاة الفكر الحديث إلى خطورة التعاون بين أهل الجمود الفكرى من العلماء وبين رجال السلطة ، وهو الأمر الذى سيؤجج نار الصراع فى المراحل التالية .

واختتم الجبرتى دراسة هذه القضية الكبرى للانحراف الفكرى عند المتصوفة بذكر حادثة لطيفة توضح أن هذا العهد أخذ فى الانهيار أمام وعى أهل الفكر ، ولاسيما من بعض رجال السلطان . فقال الجبرتى ان الدولة العثمانية صاحبة السيادة على مصر

اذ ذاك كانت فى حرب ضد روسيا ، وأخذت ترسل الجيوش إلى موسكو (بلاد
موسقو) . وعندما اشتدت حركة الجهاد كتب أحد المتصوفة ممن زار دار السلطنة فى
استانبول اذ ذاك ، وهو المعروف بابن الترجمان ، عرضحالا إلى السلطان مصطفى ،
صورته : أن من قرأ استغائة أبى مدين الغوث فى صف الجهاد حصلت النصره له .
وقدمه إلى السلطان ، فاستحسن أن يكون صاحب هذا العرض هو الذى يتوجه بنفسه
ويقراً هذه الاستغائة تبركا . ففاجأه الأمر من حيث لا يحتسب ، وأخذ فى الحال ،
وكتب مع المجاهدين وتوجه رغما عن أنفه ، ووصل إلى معسكر المسلمين ، وصار
يقراً . فقدر الله الهزيمة على المسلمين لسوء تدبير أمر العسكر ، فأسر مع من أسر ،
وذهب إلى بلاد موسقو وبقي أسيراً مدة ، ولم يغثه أحد بخلاصه منهم لاشتغال الناس
بما هو أهم ، حتى توفى ، تاركاً وراءه نموذجاً عملياً على ما حل بالمتصوفة من ضربات
قاصمة فى هذه المرحلة الأولى من الصراع الفكرى .

التخلف بين قادة الفكر :

وعرض الجبرتى أيضاً فى هذه المرحلة الأولى من الصراع الفكرى للقضية
الثانية الكبرى ، وهى التخلف بين قادة الفكر . اذ دار الصراع حول هذه القضية فى
ضراوة لا تقل عن قضية الانحراف الفكرى عند المتصوفة . واشتركت القضية الثانية
مع القضية الأولى فى انغماس العلماء من الطرفين سواء من أجيال العصور الوسطى أو
العصر الحديث فى هذا الصراع ، مع فارق هام ، وهو أن الصراع وصل إلى حد الاشتباك
بالأيدي فى بعض الأحوال ، بعد أن عجز القلم واللسان . وأوضح الجبرتى أن التخلف
بين قادة الفكر تجلى عند مجموعتين رئيسيتين ، احدهما جماعة العلماء التى
تمسكت بالعلوم التقليدية ، وكرهت كل فكر جديد وحارته ، والثانية جماعة العلماء
الرسميين ، وهم الذين تولوا مناصب كبيرة فى البلاد واستغلوا علمهم لمناصرة
أصحاب السلطان ، وذلك عن طريق محاربة كل جديد يهدد هذا السلطان ، وما يتبعه
من زوال المعيشة الرغدة التى انغمس فيها هؤلاء العلماء .

وعرض الجبرتي لمعالم هذا الصراع الفكري أيضاً جريا على منهجه في اختيار النماذج البشرية التوضيحية لكل من أجيال العصور الوسطى والعصر الحديث . فأوضح أن علماء العصور الوسطى من رجال هذه المرحلة كانوا من أصحاب العلم المتحجر الذي عرفوه في كتب المتأخرين ، والذي مازال يطبع بتأثيرهم عقول الملايين بطابع الجمود وضيق الأفق . أما النماذج التي عرضها عن دعاة العصر الحديث فكانت هي التي تدعو إلى تحصيل العلم الذي يجدد حيوية الأمم وأبنائها ، ويحرر العقل من الأوهام والأباطيل ، وذلك مع عرض المصادر الأولى لتراث الآباء والأجداد عرضا سليما يجعل منه قاعدة للانطلاق لا للقيود والأغلال .

وكان أهم شئ ذكره الجبرتي عن الفريق الأول من العلماء التقليديين هو أنهم قصروا جهودهم على الدراسات الدينية من حديث وتفسير وجدل في العقائد دون اجتهاد ، وأنهم نسوا أن الاجتهاد كان السبب في ازدهار الحياة الفكرية أيام مجد المسلمين . فكان كل همهم متابعة الحواشي ، وحواشي الحواشي دون تبصرة أو فهم ، والترديد الأعم للكلمات . وربما أباح هذا النفر لنفسه الأخذ قليلا بعلم الحساب ، ولكن بقصد الاستعانة به في علم الميراث . أما العلوم الأخرى التي ظهرت أهميتها نتيجة الصراع الفكري في أوروبا من الجبر والهندسة وعلم الطبيعة والكيمياء ، فقد بدت لهم غير جديرة بأن تسمى علوماً .

وأرجع الجبرتي فساد أخلاق العامة في سائر البلاد إلى جهل هؤلاء العلماء الذين يتصدرون للفتوى والوعظ ، والذين لا يعرفون كيف يرشدون الناس أو يميزون لهم بين الحق والباطل ، والحلال والحرام . ثم عرض نماذج لما ارتكبه من مفاصد وما نالوه من عقاب أيضاً . فقال أن أحد هؤلاء العلماء الذين دأبوا على الفتوح بغير علم ، طلق امرأة من زوجها الذي كان غائبا . ولما عاد الزوج قدم شكوى ضد هذا الشيخ إلى الأمير يوسف بك الكبير الذي اشتهر بحرية الفكر ، ومحاربة أصحاب البدع من العلماء . وأرسل الأمير عماله إلى الشيخ ، وأحضره وحبسه مع أرباب الجرائم . ولكن ثار نفر من زملاء هذا الشيخ وذهبوا إلى الأمير ، ومعهم جماعة من العماء الذين أطلق

عليهم الجبرتي اسم « المعممين » لحرصهم على لبس العمائم ذات المنظر الضخم .
 ودارت مناقشة بين هؤلاء المعممين والأمير ، جاءت أروع صورة سجلها
 الجبرتي للصراع بين العصور الوسطى والعصر الحديث . واستهل أحد المعممين
 المناقشة قائلاً للأمير : « ما هذه الأفعال وهذا التجازي ؟ فقال له : أفعالكم يا مشايخ
 أقبح . فقال له : هذا قول في مذهب المالكية معمول به . فقال : من يقول ان المرأة
 تطلق زوجها اذا غاب عنها وعندها ما تنفقه وما تصرفه ووكيله يعطيها ما تطلبه . ثم قال لو
 رأيت الشيخ الذي فسخ النكاح ! فقال الشيخ الجداوي : أنا الذي فسخت النكاح على
 قاعدة مذهبي . فقام الأمير على أقدامه وصرخ قائلاً : والله أكسر رأسك . وعندئذ
 اشتدت ثورة دعاة الرجعية من المشايخ وسب أحدهم الأمير مذكرا اياه بأصله الأول أيام
 أن جاء رقيقا بين جماعة الرقيق ، ثم اشتراه سيده قبل أن يصبح من كبار المماليك
 قائلاً له : لعنك الله ولعن اليسرجي (أى تاجر الرقيق) الذي جاء بك ومن باعك ومن
 اشتراك ومن جعلك أميراً . ولم ينته هذا الصراع إلا بعد وساطة انتهت بحل وسط قوامه
 اطلاق سراح الشيخ المقبوض عليه .

وأثارت هذه القضية الثانية ثائرة نفر آخر من العلماء من أنصار التجديد ، وتناولوا
 فى سخرية أولئك « المعممين » . ونقل الجبرتي فى ذلك قصيدة للشاعر حسن
 البدرى الحجازى والتى هاجم فيها « المعممين » قائلاً :

عمائنا كبروا وكمنا	قد وسعوه لكى يسودوا
وتحت أباطهم روايا	تسعين كراسا أو تزيد
بها يميلون حيث مالوا	لأجل مال لهم تصيد
تزويرهم شاع فى البرايا	سيان الأحرار والعبيد
البعض منهم يقول أنى	فى العلم بين الورى فريد
وهو لعمرى ما ربح علم	شم ولا بحثه يجبد

واستعرض الجبرتي نماذج أخرى لجهاد العلماء المجددين ، وذكر منهم والده الشيخ

حسن الجبرتي ، فأوضح أنه إلى جانب اهتمامه بالعلوم الدينية اتجه إلى الأخذ بالعلوم التطبيقية . فكانت عنده « الآلات الفلكية من الكرات النحاس ، وآلات الارتفاع والميالات والأرصاد والاسطرلابات والأرباع والعدد الهندسية ، وأدوات غالب الصناع » . وذاعت شهرة حسن الجبرتي حتى أن طلابا من الأفرنج حضروا إليه سنة ١١٥٩هـ / ١٧٤٦م ليتعلموا على يديه صنعة الهندسة ، ثم « ذهبوا إلى بلادهم ونشروا بها هذا العلم » ، وأقاموا على أسسه طواحين الهواء وآلات جر الأثقال واستنباط المياه . وأعلن الجبرتي أيضاً عن طلائع تلك الدعوة للفكر الحديث عند جماعة من العلماء الأدباء منهم الادكاوي ، الذي توفي سنة ١١٨٤هـ / ١٧٧٠م .

اذ نقل عن هذا الشاعر :

كن للمعاصر خير ناصر	كم للواخر من مفاخر
لا تحقرن جديدهم	كم فى جديدهم جواهر
ودع التعصب لسأوا	ثل ، يا فتى ، أو للآخر
من كان منهم مبدعا	فاعقد عليه من الخناصر

وصاحب التخلف بين قادة الفكر ظهور العلماء الرسميين الذين عقدوا أواصر المودة مع رجال السلطة ، وذلك ابتغاء عرض الحياة الدنيا وزخرفها . ورسم الجبرتي صورة لأحد هؤلاء العلماء تبين أنه كان يشتغل قليلا بالمذاكرة ومجالسة العلماء . ولكن كان شغله الشاغل تحصيل المال « وتنظيم المعاش والرفاهية واقتناء كل مرغوب للنفس .. وتعاطف فى نفسه ، وتعالى على أبناء جنسه .. وصار يلبس قاوونا بعمامة خضراء ، تشبها بأكابر الأمراء ، وبعدا عن التشبيه بالمتعممين والفقهاء » . وزاد من تعاطف هذا العالم أن زملاءه اذ اقتربوا منه على قدر ذراعين ضموا ثيابهم تأدبا ، ثم حبوا ومدوا أيديهم لتقبيل يده أو طرف ثوبه . أما صغار العلماء فلم يطمعوا فى تقبيل يد هذا الشيخ أو ثيابه ، واذا انصرفوا عنه غسل يديه بالماء والصابون بعد ملامستها أيديهم ، وكان يقتصر فى رد التحية عليهم بقوله « خير ، خير » .

وهاجم دعاة الفكر الجديد هذه الظواهر من التعالي والغرور لدى العلماء الرسميين، والتنديد بهم في كل مكان، حتى صار الصراع بين الفريقين على أشده . ونقل الجبرتي في ذلك قول الشيخ حسن البدرى يهاجم العلماء الرسميين .

عن علماء عصرك لا تسألن
فان أحوالهم ظاهرة
نفك من جانبهم منتف
في هذه الدنيا والآخرة
قوم اذا لاح لهم مطمع
تسارعوا كالأكلب العاقرة
فجانبا - خذ عنهم تسترح
اذ قربهم صفقتك الخاسرة
ونفسك الزم فعسى أن تكن
مع فرقة أوجهها ناضرة

واستطاع الجبرتي بذلك أن يترك صورة عن تلك المرحلة الأولى من الصراع، مبينا أن أجيال العصور الوسطى وان بدت طاغية فان أوتادها قد اهتزت، وأن أجيال العصر الحديث وأن بدأ صوتها خافتا قد انطلقت وتحجرت، وأن الزمن معهم وفق سنن التطور التي لا تتبدل .

المرحلة الثانية من الصراع الفكري :

رسمت الصورة التي عرضها الجبرتي للمرحلة الثانية من الصراع الالتقاء بين الفكر الذي تمخضت عنه المرحلة الأولى وبين نتاج الفكر الأوربي، الذي بلغ ذروته عند قيام الثورة الفرنسية . وجاء الاحتكاك بين هذين اللوين من التفكير عقب نزول حملة نابليون بونابرت إلى مصر سنة ١٢١٣هـ / ١٧٩٨م، وهي السنة التي قال عنها الجبرتي : « وهي أولى سنن الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة .. واختلاف الزمن، وانعكاس المطبوع، وانقلاب الموضوع » . وكان هذا الانقلاب الذي أشار اليه الجبرتي هو الزاد الجديد الذي ناله أبناء عصره أثناء صراعهم مع الفرنسيين في المرحلة الثانية من مراحل الصراع الفكري .

ودار الصراع في هذه المرحلة الثانية حول قضيتين أساسيتين، أحدهما، مدى الارتباط بين العقيدة والعمل، والثانية، كيفية التجاوب مع الحضارة الأوروبية . وتابع

الجبرتي في معالجة هذه المرحلة الثانية أسلوبا جديدا جمع إلى طريقة التراجم باعتبارها نماذج بشرية للأجيال المتصارعة الاهتمام بسرد الحوادث التي توضح جوانب الصراع . مع الجرأة في اعطاء قلمه وريشته منتهى الحرية في تكوين الظلال والألوان . وجاءت القضية الأولى الخاصة بمدى الارتباط بين العقيدة والعمل وليدة الهزة الفكرية التي أصابت الأجيال على اختلاف مشاربها حين فاجأتهم حملة بونايرت وما اشتملت عليه من فرق لا تضم محاربين فحسب بل ومن العلماء ، ويعملان معا في انسجام تام . وكانت الهزة عنيفة صاحبها أسئلة عديدة عن كيفية الوصول إلى أمثل السبل لمواجهة الغزو العسكري الفكري المزدوج . إذ لم يكن غزوا يتطلب قوة بشرية فحسب بل يقتضى اعداد عمل يرتكز على وعى سليم ، خشية الضلال والتخبط في المتاهات . وسرعان ما تلفف دعاة الفكر الجديد الكرة في الصراع في هذه المرحلة الثانية ، ورأوا أن تمسكهم بالعقيدة الاسلامية لا يحول بين مواجهة الأوضاع التي انقلبت بمجئ الحملة الفرنسية ، فقالوا ان هناك تأثيرا بين العقيدة والعمل ، لأن العقيدة تدفع إلى العمل وذلك على حين يقوم العمل بتثبيت العقيدة ، ويطبع النفس عليها ويرسخ أوتادها .

واعتمد الجبرتي في عرض هذه المرحلة من الصراع على الوثائق ونقلها بأمانة لتكون هاديا ومرشداً ، وليتجنب الريب التي قد يستغلها دعاة الأجيال المتداعية ضد الفكر الحديث . فأورد صورة المنشور الأول الذي أعلنه نابليون بونايرت على أهل مصر عقب استيلائه على الاسكندرية . إذ تضمن هذا المنشور فكرة جديدة عن مفهوم العقيدة وكيف أن هذا المفهوم الجديد يجب أن يختلف عما درج عليه العرف القديم ، والذي أساء استخدامه الطبقة الأخيرة من المماليك في مصر ، وجرى هذا المفهوم في التبرير التالي الذي ساقه نابليون عن مجئ حملته الفرنسية إلى مصر :

« أيها المصريون قد قيل لكم اننى ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد ازالة دينكم ، فذلك كذب صريح ، فلا تصدقوه ، وقولوا للمفترين اننى ما قصدت اليكم إلا لأخلص حقاكم من يد الظالمين . واننى أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى ، وأحترم

نبيه، والقرآن العظيم . وقولوا أيضاً لهم ان جميع الناس متساوون عند الله ، وان الشيء الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط . وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب . فلماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يملكوا مصر وحدهم ، ويختصوا بكل شيء أحسن فيها .

« ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعدا لا ييأس أحد من أهالى مصر من الدخول فى المناصب السامية ، ومن اكتساب المراتب العالية . فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور . وبذلك يصلح حال الأمة كلها » .

وبدأت هذه الأفكار الجديدة تدخل مع الحذر فى قبولها والافادة منها أيضاً فى صراع مرير طوال عهد الحملة الفرنسية على مصر مع رواسب الماضى . وتجلى ذلك حين هرب جميع كبار العلماء والمشايخ عقب استيلاء الفرنسيين على البلاد وهزيمة المماليك . وعندما ذهب وفد من صغار العلماء لمقابلة بونايرت والتفاهم معه على الأوضاع ، بعد فرار المماليك دارت المناقشة التالية التى رواها الجبرتى ، قال : فالتقى بونايرت بالعلماء وضحك لهم وقال : أنتم المشايخ الكبار ؟ فأعلموه أن المشايخ الكبار خافوا وهربوا . فقال : لأى شيء يهربون ؟ اكتبوا لهم بالحضور ، ونعمل لكم ديواناً لأجل راحتكم وراحة الرعية واجراء الشريعة ، فكتبوا منه عدة مكاتبات بالحضور والأمان .

وظل العلماء برغم مودتهم واشتراكهم فى الديوان الجديد الذى شكله بونايرت حريصين على عدم الأخذ بأى شيء قد يثير الريبة فى نفوسهم سواء من حيث دينهم أو علاقتهم بمواطنيهم من أهل البلاد ، وروى الجبرتى هذا اللون من الصراع الفكرى قائلاً : « طلب صارى عسكر بونايرته — المشايخ . فلما استقروا عنده — نهض بونايرته من المجلس ، ورجع ويده طليسانات ملونة بثلاثة ألوان ، كل طليسان ثلاثة عروض ، أبيض وأحمر وكحلى ، فوضع منها واحداً على كتف الشيخ الشرقاوى فرمى به إلى الأرض ، واستعفى وتغير وانتقع لونه واحتد طبعه ، فقال الترجمان : يا مشايخ أنتم صرتم أجباباً لصارى عسكر ، وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزیه وعلامته ، فأن تميزتم بذلك عظمتكم العساكر والناس ، وصار لكم منزلة فى قلوبهم . فقالوا له : لكن قدرنا

يضيع عند الله وعند أخواننا المسلمين . فاغتاظ لذلك ، وتكلم بلسانه ، وبلغ عنه بعض المترجمين أنه قال عن الشيخ الشرقاوى : أنه لا يصلح للرياسة ونحو ذلك . فلاطفه بقية الجماعة واستشفوه من ذلك . فقال ان لم يكن ذلك فلازم من وضعكم الجوكار فى صدوركم وهى العلامة التى يقال لها الوردة . فقالوا : أمهلونا حتى نتروى فى ذلك » .

وانتقل هذا الصراع الفكرى إلى عامة الناس حين فرض الفرنسيون عليهم ضرورة استخدام الشارات ، ولا سيما المعروفة باسم الوردة . فقال الجبرتى « فأنف الناس من وضعها ، وبعضهم رأى ذلك لا يخل بالدين ، اذ هو مكروه » . وكشف الجبرتى بذلك عن قيام لون جديد من التفكير القومى جاء وليد الاحتكاك بمفاهيم الفرنسيين عن السلطان . وبدأت العقيدة تأخذ طابعاً جديداً قوامه الحرص على المظهر الوطنى والدينى فى نفس الوقت . وتبلورت هذه المفاهيم الجديدة فى الثورات التى قام بها المصريون ضد الفرنسيين واحتلالهم للبلاد . وسجل الجبرتى نفسه أحاسيسه ازاء هذا الصراع الفكرى الجديد ، وذلك حين وضع كتابا بعد خروج الفرنسيين عن مصر سماه « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين » . اذ جاء هذا الكتاب نموذجاً لأصالة العقيدة الاسلامية ، وقدرتها على اكتشاف أباطيل الفرنسيين وزيف أراجيفهم . اذ نعت الجبرتى الفرنسيين بالنفاق والخداع والخروج على جميع الأديان . وهذا رأى هو الذى تبلور أخيراً فى العودة إلى التنسيق بين العقيدة والعمل ، وانطلاق أجيال العصر الحديث فى ظلّه من أجل الاطاحة بجمود أهل العصور الوسطى وأغلالهم .

وكان الجدل الذى دار بين المفهوم الجديد للعقيدة سبباً فى اثاره قضية أخرى وهى كيفية التجاوب مع الحضارة الأوروبية . فبينما وقفت العقيدة الحارس الأمين لتطور الفكر فانها أوضحت أن ارتباطها بالعمل لا يحول بين الأخذ بمظاهر الحضارة الأوروبية ، وذلك فى النواحي التى تزيل جمود الماضى وأغلاله وتؤدى بالمجتمع إلى التقدم العلمى واسترداد أمجاده . ذلك أن الحملة الفرنسية على مصر جعلت قادة الفكر يفيقون إلى أن الحضارة الغربية أصبحت هى حضارة العالم ، وأن كل حضارة سواها لاتستطيع البقاء الا اذا أخذت بالأسباب التى أدت إلى إزدهار حضارة الغرب ،

من حيث الاعتماد على العلم والحرية السياسية .

وتناول الجبرتي بنفسه توضيح أهمية هذا التفكير العلمي وضرورة الأخذ به بالرغم من اعجابه بأهل وطنه وهم يقومون بالثورات على الفرنسيين في مصر . اذ كان يأسف لما يحدث من تدمير للأجهزة العلمية والفلكية في بعض الثورات ، قائلاً : ان تلك الأجهزة لا تقدر بقيمة الا « عند من يعرف صنعتها » . وجاء أروع تسجيل لاعجاب الجبرتي بأهمية التقدم العلمي وضرورته في الوصف المطول الذي أورده عن زيارته للمعامل الخاصة بالأبحاث ، والتي أقامها الفرنسيون بالقاهرة . وروى الجبرتي هذا اللقاء الحضاري بين أجيال العصور الوسطى والعصر الحديث دون أن يخجل من السخرية مما له من رهبة وهو يشاهد الفرق الشاسع بين الفكر العلمي في وطنه اذ ذاك وبين ما وصل اليه الفرنسيون . فقال :

« وأغرب ما رأيته في ذلك المكان (وهو معمل لأبحاث الكيمياء » أن بعض المتقدمين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة ، فصب منها شيئاً في كأس ، ثم صب عليها شيئاً من زجاجة أخرى ، فغلا الماء وصعد منه دخان ملون حتى انقطع وجف ماء الكأس ، وصار حجراً أصفر ، فقلبه على البرجات حجراً يابسا فأخذناه بأيدينا ونظرناه .. وأخذ مرة شيئاً قليلاً جداً من غبار أبيض ووضعه على السندال ، وضربه بالمطرقة بلطف — فخرج له صوت هائل كصوت الفربانة فزعجنا منه — فضحكوا منا .. وغير ذلك أمور كثيرة وبراكين حكيمة تتولد من اجتماع العناصر وملاقة الطبايع ، ومثل الفلكة المستديرة التي يديرون بها الزجاجة ، فيتولد من حركتها شرر يطير بملافة أدنى شئ كثيف ، ويظهر له صوت طقطقة ، واذا مسك علاقتها شخص ولو خيطاً لطيفاً متصلاً بها ، ولمس آخر الزجاجة الدائرة ، أو قرب منها بيده الأخرى ارتج بدنه وارتعد جسمه ، وطقطقت عظام أكتافه وسواعده في الحال برجة سريعة ، ومن لمس هذا اللامس أو شيئاً من ثيابه متصلاً به حصل له ذلك ، ولو كانوا ألفاً أو أكثر ، ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا . »

وعاد الجبرتي بعد استعراض هذه التطورات الجديدة الخاصة بمشاهداته في معامل الأبحاث الفرنسية إلى التراجع مرة أخرى يستكمل بها مراحل الصراع الفكري بين أجيال الصور الوسطى والعصر الحديث على عهد الجملة الفرنسية . وأوضح أن التجارب الحضارية صار سريعاً بين أجيال الفكر الحديث وبين الأقبال على العلم الغربي . وضرب لذلك أمثلة عند تناوله لسيرة الشيخ حسن العطار . وكان شاباً وعالمياً في مقتبل العمر عندما جاء الفرنسيون إلى مصر . وهرب إلى الصعيد في ذلك الوقت شأنه شأن غيره من العلماء الذين ابتعدوا عن الفرنسيين . ولكن عاد مرة أخرى بعد دعوة الفرنسيين للعلماء ، واتصل بطائفة من رجال الحملة الفرنسية ونقل عنهم بعض علومهم ، وذلك في الوقت الذي تولى فيه تعليمهم اللغة العربية . وصار الشيخ حسن العطار من دعاة التجديد والعمل على أن تأخذ مصر بالحضارة الأوروبية لاستعادة تقدمها وأمجادها .

المرحلة الثالثة من الصراع الفكري :

استكملت الصورة التي رسمها الجبرتي للصراع الفكري بين أجيال العصور الوسطى والعصر الحديث جميع معالمها وروعتها حين وصلت إلى المرحلة الثالثة من مراحل هذا الصراع . ويرجع السبب في ذلك إلى أن الجبرتي لم يقتصر على سرد التراجم والأحداث فحسب على نحو ما فعل في المرحلتين الأولى والثانية ، ولكن أسهم مباشرة في المرحلة الثالثة بقلمه وجاهد دون أن يأبه بما يلقاه أصحاب الفكر الحر والقول الصريح من اضطهاد وعناد .

وجرى الصراع الفكري في هذه المرحلة الثالثة حول دعتين متباينتين ، ما زالت تدور حولهما إلى الوقت الحاضر معالم التكوين السياسي والحضاري للعالمين الإسلامي والعربي . واتجه التفكير في الدعوة الأولى إلى الإصلاح الروحي ، والانطلاق في أمان نحو آفاق العصر الحديث وذلك على نحو ما عاصر الجبرتي أحداثه في الحركة الوهابية ونشاطها وتطورها . واتجهت الثانية إلى الإصلاح المادي على أنه الطريق الذي لا بديل عنه لملاحقة ركب الحضارة العالمية ، وذلك على نحو ما سجله

الجبرتي عن جهود محمد على في بناء دولته بمصر . وزاد في حيوية تصوير الجبرتي لهاتين القضيتين المعاصرتين له ، ان احداث كل منهما تشابكت مع الأخرى ، والتفت أيضاً وجها لوجه في صراع التجأ فيه الفكر لا إلى القلم فحسب بل إلى دوى السلاح وبطشة كذلك .

وأجاد الجبرتي عرض الصراع الذى خاضته الدعوة الوهابية حيث اتفقت أفكارها مع مذهبه السلفى وفكره الحر فى نفس الوقت . وسجل الأفكار الجديدة التى جاءت بها هذه الدعوة عند دراسته لأحداثها التاريخية ، وذلك بصورة شيقة بعيدة عن الجفاف الذى يصاحب الدراسات الفلسفية حول العقائد . فأوضح الجبرتي أن الوهابيين اتخذوا من فكرة التوحيد فى العقيدة وفكرة التوحيد فى التشريع سلاحاً لهم وهم يخوضون معركتهم ضد الجمود . اذ كانت فكرة التوحيد فى العقيدة تدعو إلى إبطال البدع التى دخلت على الاسلام من أعمال المتصوفة وزيارة الأضرحة والطبل والزمر فى الموالد والحج ، وتقرر فى نفس الوقت العودة إلى طهر الحياة الاسلامية الأولى وتعاليمها السليمة . أما فكرة التوحيد فى التشريع فتعنى ما أصاب الناس من تخلف بسبب قفل باب الاجتهاد فى الأيام الأخيرة للعصور الوسطى ، وما صحب ذلك من جمود وتقليد وجرى وراء الجمل والفتاوى فى كتب السابقين ، وترى فى نفس الوقت ان لا سبيل للخلاص من هذه الجهالة القاتلة دون العودة إلى الاجتهاد فى فهم العقائد ، لأن الله سبحانه وتعالى هو مشرع العقائد ، وليس فى كلام أحد حجة فى الدين إلا فى كلام الله سبحانه وتعالى وكلام سيد المرسلين . وتفرعت عن هاتين المسألتين عند الوهابيين مسائل عديدة اتجهت إلى هدم البدع التى أدخلها الناس على الاسلام مثل زيارة القبور والتوسل بالأضرحة والاحتفال بالمحمل عند الحج .

وأثار انتشار الدعوة الوهابية على نحو ما صوره الجبرتي فزعا عند كل من : أصحاب السلطان والعلماء الرسميين ، وشنوا على هذه الدعوة ثورة فكرية مضادة . وتمثل الرواية التى ذكرها الجبرتي فى حوادث شهر ذى الحجة سنة ١٢٢٣هـ / ١٨٠٨م فى شئ من التفصيل نموذجاً للصراع الفكرى الذى دار حول الحركة الوهابية وكيف

أعطى قلمه الحرية فى التعليق على تلك الأحداث بما يوضح فكره السديد . فقال انه حدث اذ ذاك انقطاع الحج الشامى المصرى لأن الناس تعللوا بأن الوهابيين منعوهم من الحج . ويعلق الجبرتى على ذلك قائلاً : « والحال ليس كذلك ، فانه لم يمنع أحد يأتى إلى الحج على الطريق المشروعة ، وانما يمنع من يأتى بخلاف ذلك من البدع التى لا يجيزها الشرع ، مثل المحمل والطبل والزمر وحمل الأسلحة . وقد وصل طائفة من حجاج المغاربة وحجوا ورجعوا فى هذا العام ، وما قبله ، ولم يتعرض لهم أحد بشئ » .

واستطرد الجبرتى بعد ذلك فى توضيح الأسباب التى دعت إلى اشتداد الخصومة مع الوهابيين . فذكر أن أصحاب المنافع من البدع والأباطيل ذهبوا إلى استنبول حيث مقر السلطان العثمانى ، واشتكوا اليه ما قام به الوهابيون من مفاسد واضرار ضد المحمل والشعائر الاسلامية ، وأنهم نقلوا ما كان بالحجرة الشريفة « من الذخائر والجواهر » . وعلق الجبرتى على هذا الادعاء تعليقاً مسهباً ومستنداً أيضاً إلى علمه الواسع فى الدين وحقيقة جوهره وتاريخه . فقال : أن هذه الذخائر والجواهر أرسلها ووضعها خساف العقول من الأغنياء والملوك والسلاطين الأعاجم وغيرهم ، أما حرصاً على الدنيا وكراهة أن يأخذها من يأتى بعدهم ، أو لنوائب الزمان فتكون مدخرة ومحفوظة لوقت الاحتياج اليها ، فيستعان بها على الجهاد ودفع الأعداء . فلما تقادمت عليها ازمة وتوالت عليها السنين والأعوام الكثيرة وهى فى الزيادة ارتصدت معنى لا حقيقة ، وارتسم فى الأذهان حرمة تناولها وأنها صارت مالا للنبي (ص) فلا يجوز لأحد أخذها وزاد الجبرتى تعليقه صراحة قائلاً : « والنبي (ص) منزه عن ذلك ، ولم يدخر شيئاً من عرض الدنيا فى حياته ، وقد أعطاه الله الشرف الأعلى ، وهو الدعوة إلى الله تعالى والنبوة والكتاب ، واختار أن يكون نبياً عبداً ، ولم يختار أن يكون نبياً ملكاً » .

واختتم الجبرتى تصويره لبتطور الحركة الوهابية مبيناً أن أعداءها من أصحاب المصالح على اختلاف أهوائهم من السلطان العثمانى والعلماء الرسميين وبسطاء العامة تكتلوا ولجأوا إلى القوة والبطش . وكان محمد على هو الأداة التى استغلها هذا الفريق للقضاء على الحركة الوهابية . ولكن الجبرتى أكد أصالة الحركة الوهابية وقوة

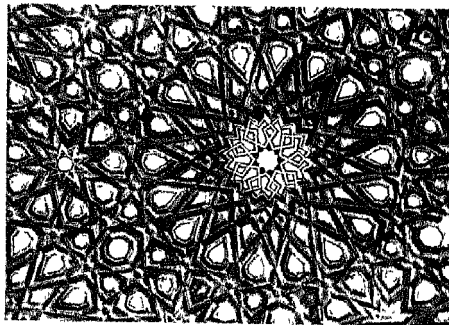
دعاتها برغم أسر بعضهم واقامتهم فى مصر . فقد زار بنفسه اثنين من قادة الوهابيين فى مصر ، وقال : « وقد اجتمعت بهما مرتين فوجدت منهما انسا وطلاقة لسان ، واضلاعا وتضلعا ومعرفة بالأخبار والنوادر ، ولهما من التواضع والتهديب والأخلاق وحسن الأداب فى الخطابة والتفقه فى الدين واستحضار الفروع الفقهية واختلاف المذاهب فيها ما يفوق الوصف » .

واتخذ الجبرتى من اختتام تصويره للحركة الوهابية على يد محمد على نافذة انتقل منها إلى معالجة الدعوة الثانية التى نادى بها هذا الحاكم ، وما سلكه من سبل فى الاصلاح المادى . ووقف الجبرتى موقفا صريحا فى وصفه للنهج الذى سار عليه محمد على ، وأن الهدف الذى ساد الصراع بينهما هو الوصول إلى البناء المثالى وذلك دون الاطاحة بالقديم اطاحة عمياء ، أو الجرى وراء الجديد دون وعى وإدراك . فاشاد الجبرتى بما قام به محمد على من اصلاح مادى ، شمل جميع المرافق وخاصة ميادين التعليم والأخذ بمناهجه الحديثة . ولكن ساءه أن محمد على لجأ فى سبيل تحقيق أهدافه إلى أساليب أبعدهته عن الفضائل الخالدة . فهاجم الجبرتى وسط تسجيله لاصلاحات محمد على الأخطاء والمظالم التى صاحبت تلك الاصلاحات .

ووصف الجبرتى فى جرأة أساليب محمد على بأنها ملتوية ، وأن مظهرها غير مخبرها ، سواء فى الميدان السياسى أو الاقتصادى ، فتناول أساليب محمد على فى الوصول إلى ولاية مصر عن طريق علاقته مع السيد عمر مكرم قائلا : « ومحمد على يداهن السيد عمر سرا ويتملق اليه ويأتيه ويراسله ، ويأتى اليه فى أواخر الليل ، وفى أوساطه مترددا عليه فى غالب أوقاته ، حتى تم له الأمر بعد المعاهدة والمعاقدة والأيمان الكاذبة ... إلى أن عقد السيد عمر مجلساً عند محمد على وأحضر المشايخ والأعيان — وأشار إلى اختيار محمد على — الذى أظهر التمتع وقال أنا لا أصلح لذلك ، ولست من الوزراء ولا من الأمراء ولا من أكابر الدولة . فقالوا قد اخترناك لذلك برأى الجميع والكافة والعبرة رضا أهل البلاد » .

واختتم الجبرتي وصفه لاصلاحات محمد على المادية برأى آخر شديد الصراحة قائلاً عن هذا الحاكم « وكان له مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذه الأزمان . فلو وفقه الله بشئ من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاوله لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه » .

وأصاب الجبرتي نتيجة اشتراكه الفعلي في هذه المرحلة الثالثة من مراحل الصراع الفكرى ما يصيب أصحاب الفكر الحر من اضطهاد ومأسى . اذ حين علم محمد على بما سجله عليه الجبرتي من آراء وانتقادات تأمر سنة ١٢٣٧هـ / ١٨٢٢م على قتل ابن هذا المؤرخ . وأصابته هذه الفاجعة الجبرتي ، وانطوى على نفسه حتى توفى سنة ١٢٤١هـ / ١٨٢٥م تاركا في الصورة التي رسمها للصراع الفكرى بين أجيال العصور الوسطى والعصر الحديث زادا غزيراً خالدا ما زالت تستمد منه حركات التحرر في كل من الوطن العربى والعالم الاسلامى حتى اليوم ما يجنبها المعائر والخطوب ويدفع بها وبأوطانها إلى ركب التقدم العلمى والتوجيه الفكرى السليم للبشرية في كل مكان .



معالم العمارة الاسلامية :

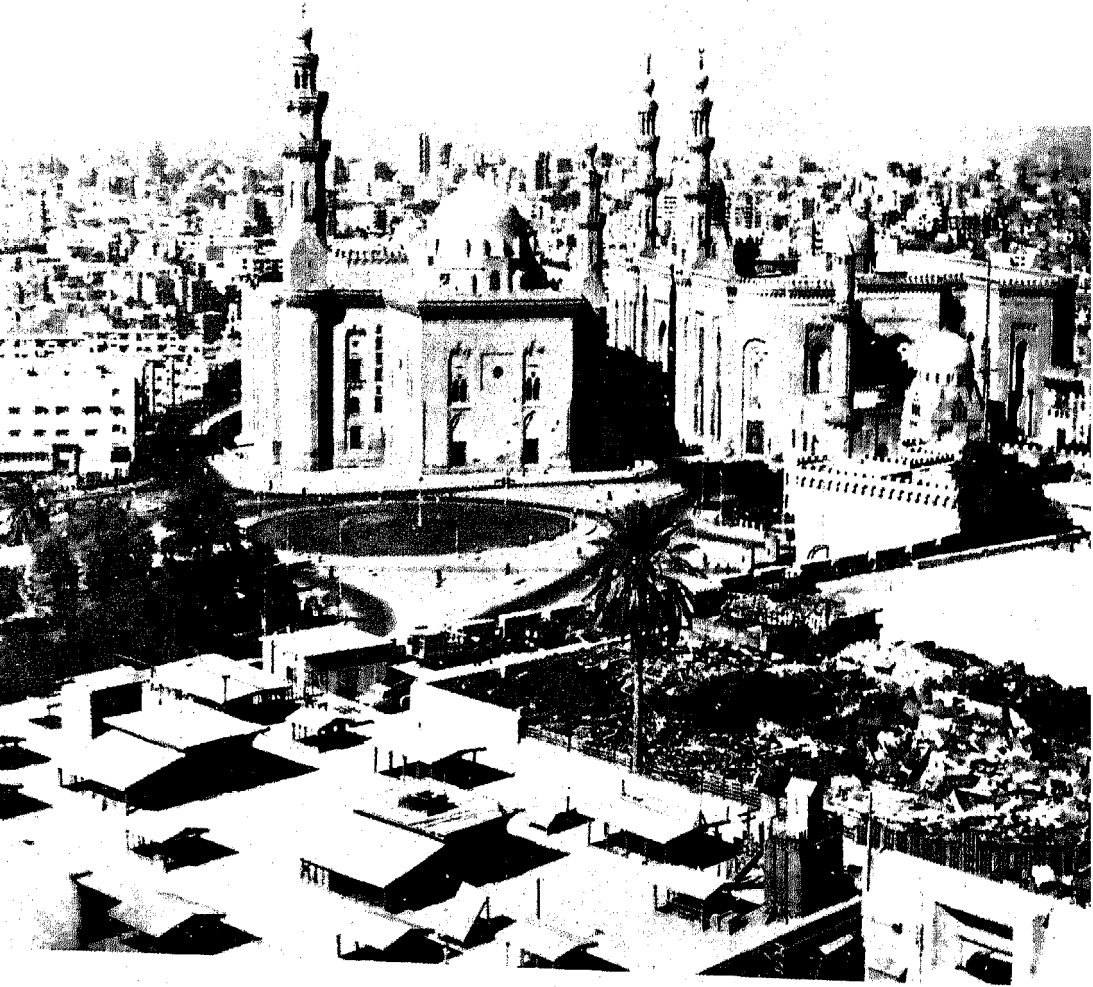
صاحب مسيرة مصر الاسلامية فى العصر العثمانى من سنة ١٨٠٥م / ١٢٢٠هـ إلى ١٥١٧م — إلى ١٨٠٥م عند قيام محمد على فى حكم مصر طفرة واسعة فى ميدان العمارة الاسلامية ، اتخذت طرزا عديده ، تشمل فيما يلى :

المساجد :

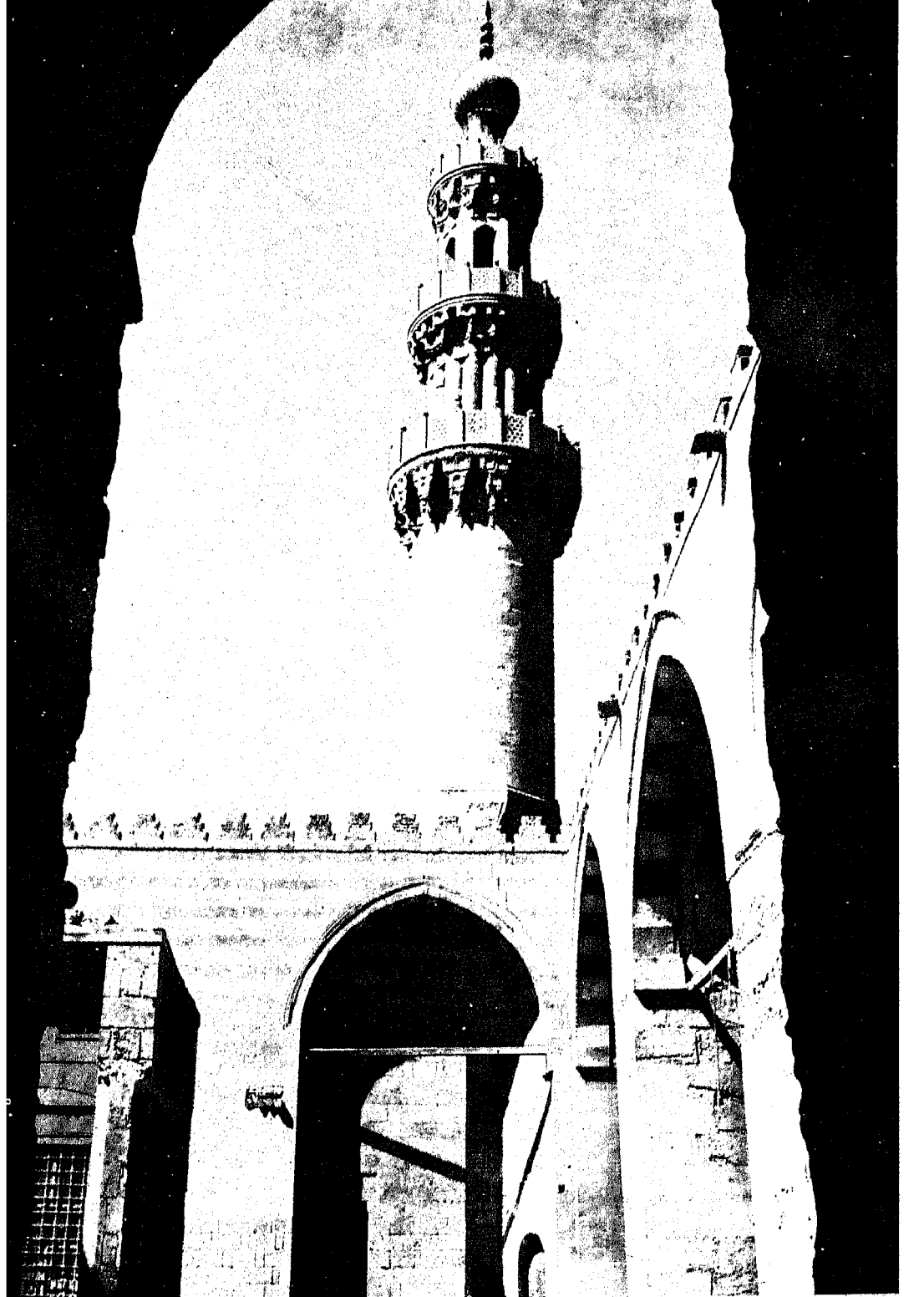
بدأ الاهتمام ببناء المساجد مع الفتح العثمانى لمصر مباشرة ، وذلك نتيجة الحماس الدينى لسلطين العثمانيين وولاتهم فى مصر . وأهم المساجد التى قامت بالقاهرة .

- مسجد المحمودية بميدان صلاح الدين (١٥٦٧ / ١٩٧٥ م) ، أنشأه محمود باشا والى مصر فى عهد السلطان سليمان .
- مسجد سنان باشا ببولاق (١٥٤٣ / ١٩٥٠ م) أنشأه سنان باشا ، أحد القادة الاتراك العثمانيين الكبار .
- مسجد الملكة صفية (١٦١٠ / ١٠١٩ م) أنشأتها الملكة صفية ، زوجة السلطان العثمانى مراد الثالث ، وهو يقع بالقرب من شارع القلعة .
- مسجد البردينى بشارع الداودية (١٠٢٥ — ١٠٣٨ ، ١٦١٦ — ١٦٢٩ م) .
- زاوية عبد الرحمن كتخدا بالمغربلين (١١٤٢ / ١٧٢٩ م) .

وصاحب هذه الحركة من انشاء المساجد نشاط آخر لترميم واصلاح المساجد القائمة بالقاهرة ومنها مسجد عمرو بن العاص وضريح الامام الشافعى وسيدنا الحسين والسيدة نفيسة ، وخير نموذج لهذا اللون من أعمال التجديد المعمارى ما قام به الامير عبد الرحمن كتخدا ، حيث وسع بعض أروقة الأزهر ، وأنشأ رواقا للعميان . وكان من أعظم الأعمال التى تمت ايضا فى ميدان تجديد المساجد القائمة اصلاح مسجد آق سنقر المعروف . بالمسجد الأزرق ، حيث تولى ذلك العمل إبراهيم أغا سنة ١٠٤٨هـ / ١٦٣٩م



مدرسة السلطان حسن والمدرسة المحمودية وجامع قاني باى الرماح وجامع الرفاعى .



التكايا :

وهى نوع جديد من المساجد ظهر مع العصر العثمانى بسبب انتشار نظام الدراويش ، وصارت التكية الاسم التركى لما كان يعرف باسم « الخانقاه » التى أول من أسسها صلاح الدين الأيوبى فى مصر ، ثم ازداد انتشارها فى عصر المماليك . وكانت التكية عبارة عن مسجد محاط بغرف للدراويش .

الأسبلة :

وهى لون من العمارة ازدادت تقدما فى مصر فى العصر العثمانى ، والسبيل كلمة تعنى « الطريق المستقيم ، ثم غدت مصطلحا للمبنى الذى يزود المارة بماء الشرب . وجرت العادة على أن يلحق السبيل بالمسجد ، وتستخدم الغرفة التى تعلوه « كتابا » أى مدرسة لتعليم أطفال الفقراء والأيتام . وفى العصر العثمانى صار السبيل مبنى قائماً بنفسه . حيث يوجد فى الجزء السفلى من البناء حنفيات الشرب التى تزود المارة بالمياه ، وفى الجزء العلوى من المبنى الكتاب لتحفيظ القرآن الكريم ، ومن أروع نماذج تلك الأسبلة « سبيل مراد باشا » الذى يقع فى مواجهة جامع قلاوون ، وسبيل عبد الرحمن كتحدا بالنحاسين (١١٥٧هـ / ١٧٤٤م) ، حيث يقع عند تقاطع شارع المعز لدين الله مع شارع التمبكية .

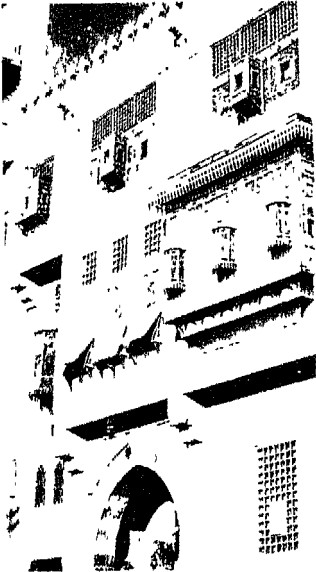
الوكالات :

وظهرت « الوكالات » ، وهى الأسواق التجارية فى القرنين الحادى عشر الهجرى / السابع عشر الميلادى ، والثانى عشر الهجرى / الثامن عشر الميلادى ، وكانت الوكالة فى الأصل هى « الخان » ، وهى كلمة فارسية تعنى منزل يعرض فيه التجار بضائعهم ، كما تضم غرفاً لمبيت أولئك التجار ، اذ كان يتوسط الوكاله فناء مستطيل الشكل ، بأسفله توجد الحوانيت التى تطل على الفناء ، ولها فتحات كبيرة ذات عقود ، ويعلوها طابق أو أكثر به غرف لسكن التجار ودهاليز أيضاً لعرض البضائع ، وتطل رأساً على الفناء .

واشتهر من تلك الوكالات ؛ وكالة حسن باشا الوزير (١٥٨٣م / ١٩٩١هـ) بشارع سوق العصر ببولاق ، ووكالة سليمان باشا (١٥٤١م / ١٩٤٨هـ) بعطفة السليمانية ببولاق ، ووكالة عباس آغا (١٦٤٩م / ١٠٥٨هـ) بشارع التمبكشية ، ووكالة نفيسة البيضاء (١٧٩٦م / ١٢١١هـ) ، كما ظل انتشار الوكالات حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى ، على نحو ما ظهر فى وكالة الحرمين (١٨٣٩م / ١٢٥٥هـ) بشاع خان جعفر .

الدور والقصور :

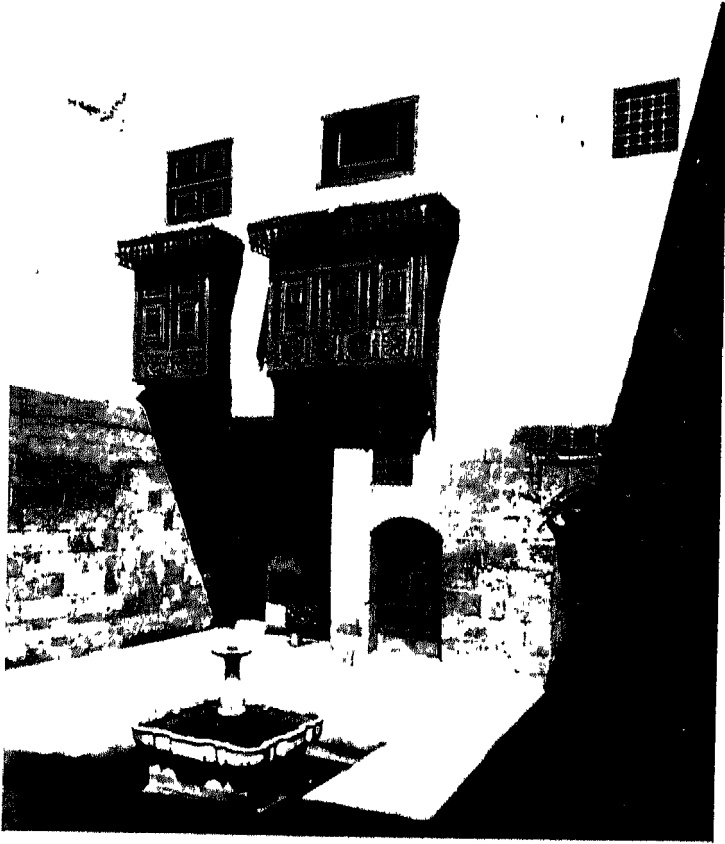
وتميزت هذه الفترة من حياة مصر فى العصر العثمانى ببناء الكثير من الدور والقصور التى بالغ فى عمارتها الأمراء الحاكمون وجماعات التجار والأثرياء من أهالى القاهرة حيث ازدانت بها أماكن العاصمة المتميزة ، وهى اذ ذاك بركة الأزبكية وبركة الفيل ، حيث قامت حولها البيوت والقصور الفاخرة ، وغيرهما مما كان يطل على بركة الفيل . ومن أمثلة تلك العمائر التى حفل بها القرن الهجرى الحادى عشر / السابع عشر الميلادى : منزل محمد بن الحاج بجوار مسجد ابن طولون ، ومنزل جمال الدين



واجهة منزل محمد بن الحاج سالم الجرار
— منزل الكريدليه (متحف جاير أندرسون) .



الذهبي ١٠٤٧هـ / ١٦٣٧م وهو من كبار تجار مصر ، ومنزل رضوان بك (١٠٦٤هـ / ١٦٥٤م) ويقع مقابل مسجد محمود الكردي إلى الجنوب من باب زويلة ، ومن بيوت القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي ، منزل المفتي أو الشيخ المهدي (١١١٨هـ / ١٧٠٦م) ويقع بشارع الخليج المصري (بور سعيد حالياً) ، وقصر المسافر خانة (دار الضيافة) ، وهي دار محمود محرم شيدها سنة ١١٩٣هـ / ١٧٧٩م ، ومنزل إبراهيم الأنصاري بالقرب من المدرسة السنية ، ومنزل إبراهيم كتحدا السناري (١٢٠٩هـ / ١٧٩٤م) ويقع بحارة منج بالسيدة زينب ، ومنزل الشيخ عبد الوهاب



منزل السناري بالسيدة زينب .

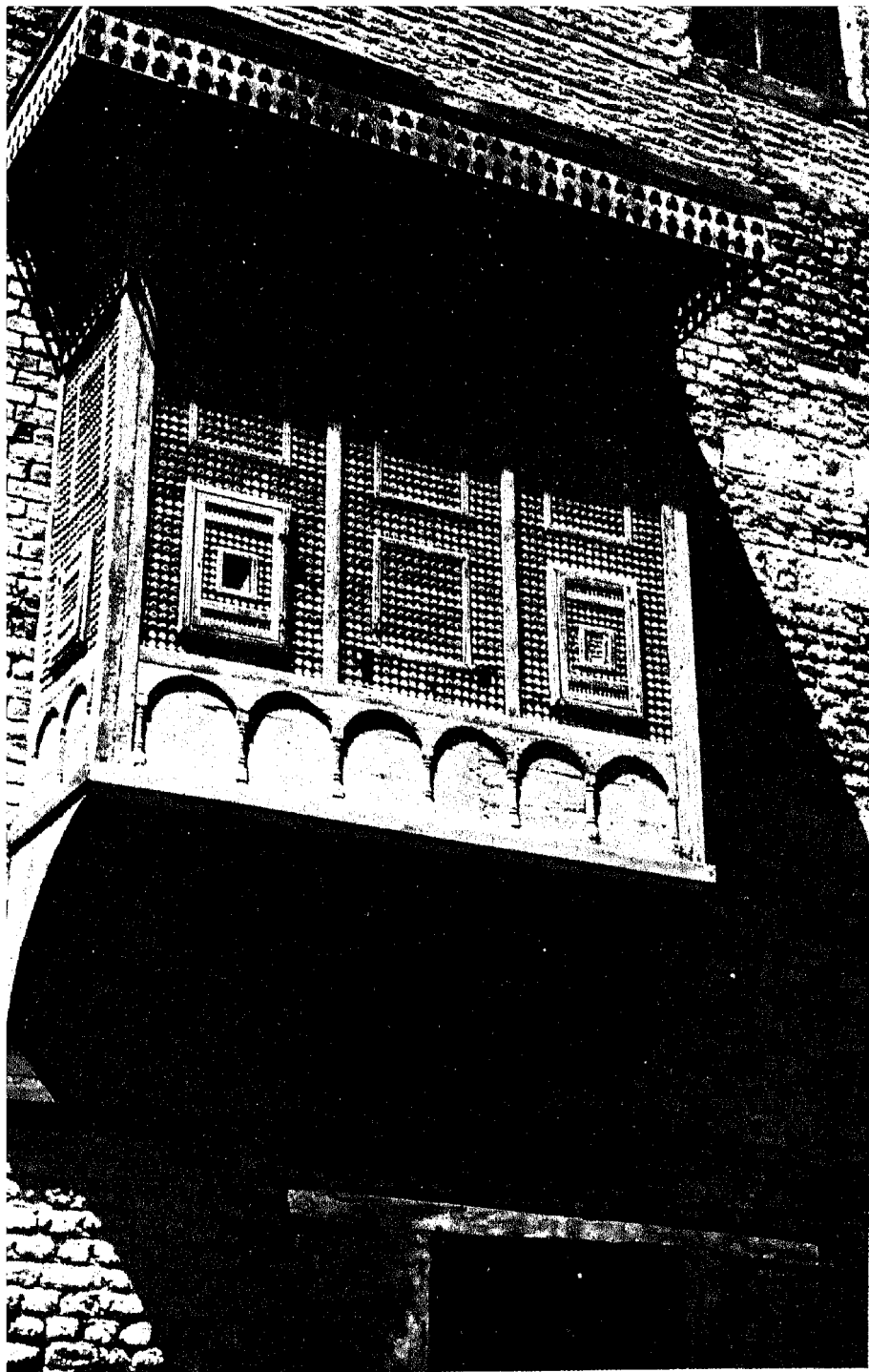
الطبلاوى المعروف ببيت السيحيمى (١٦٤٨ / ١٠٥٨ م) ويقع بشارع الدرب الأصغر بقسم الجمالية .

وتحكى بعض دور القاهرة فى القرن الثانى عشر الهجرى / الثامن عشر الميلادى تفاصيل الأحداث الهامة التى شهدتها مصر اذ ذاك ، ومنها مجئ الحملة الفرنسية إلى مصر ، وقدرة تصاريق المقادير لنفر من أصحاب تلك الدور . ومن ذلك ما حدث للقصر الذى بناه أحد أمراء المماليك الكبار بالبلاد ، وهو محمد بك الألفى ، فقد شيد قصره بخط الساكت ، بحيث تشرف واجهته على النيل ، وكان يتألف من ثلاث مربعات كبيرة من المباني الجميلة تفصل الواحدة منها عن الأخرى الحدائق الغناء . وما كاد ينتهى من بناء هذا القصر حتى نزل بونابرت على رأس الحملة الفرنسية إلى مصر ، واتخذ قصر محمد بك الألفى مقرا له ، كأنما كان هذا الأمير المملوكى يعد هذا القصر لما كانت تخبئه المقادير عن مجئ بونابرت إلى مصر ، وامتلاكه لهذا القصر الوافر الثراء .

واستولى الفرنسيون على كثير من بيوت أمراء المماليك الأخرى ، ومنها قصر حسن كاشف جركس بالناصرية ، كما وزع نابليون القصور الأخرى على كبار قادة الحملة الفرنسية وعلمائها ، حيث سكن الجنرال « ديوى » قصر إبراهيم بيك فى بركة الفيل ، على حين شغل دار إبراهيم كتخدا السنارى بالسيدة زينب بعض مصورى الحملة الفرنسية وعلمائها ، ومنهم ريجو الرسام المشهور ومالوس لانكرية وتيراج وجوالو ، حيث أتموا البحوث والرسوم التى اشتمل عليها كتاب وصف مصر لعلماء الحملة الفرنسية .

وصارت عمارة الدور فى القاهرة بنهاية العصر العثمانى مرآة صادقة لانتحاء مرحلة طويلة من مراحل مصر الاسلامية ونشاطها فى العصر الحديث من أجل مقاومة الطغيان على شتى معالمه فى الداخل والخارج .

ويمثل الجدول التالى للآثار الباقية بالقاهرة من العصر العثمانى مسيرة مصر وأحوالها وهى على مشارف نهضتها المعاصرة (١) :



مشربية من الخشب الخرط (من معالم دور القاهرة ومنازلها) .

آثار العصر العثماني
٩٢٣ - ١٢١٩ هـ / ١٥١٧ - ١٨٥٦ م

التاريخ		اسم الأثر	رقم الأثر
الميلادي	الهجري		
١٥١٩ /	٩٢٦ /	باب وتكية وقبة الكلشنى	٣٣٢
٢٤	٣١		
١٥٢٣	٩٢٩	زاوية حسن الرومى بالمحجر	٢٥٨
١٥٢٨	٩٣٥	مسجد سليمان باشا (سارية الجبل) بالقلعة	١٤٢
١٥٣٥	٩٤٢	سبيل وكتاب خسرو باشا بالنحاسين	٥٢
١٥٣٨	٩٤٥	قبة جاهين الخلوتى بسفح المقطم	٢١٢
١٥٤٠	٩٤٧	منزل أمينة بنت سالم	٥٥٩
١٥٤١	٩٤٨	وكالة سليمان باشا	٥٣٩
١٥٤٣	٩٥٠	تكية السليمانية بالسروجية	٢٢٥
١٥٤٨	٩٥٥	مسجد داود باشا	٤٧٢
١٥٦٨	٩٧٥	المحمودية بالمنشية	١٣٥
١٥٦٨	٩٧٥	قبة عبد الوهاب الشعرانى بشارع الشعرانى	٥٩
١٥٧١	٩٧٥ /	مسجد سنان باشا ببولاق	٣٤٩
	٩٧٩		
١٥٧٥	٩٨٣	«نور الدين (مسيح باشا) بعرب اليسار	١٦٠
١٥٧٨	٩٨٦	جامع مراد باشا بالموسكى	١٨١
		سبيل يوسف الكردى بدرب الحماميز	٢١٣
		القرن العاشر / القرن السادس عشر	
١٦ ق	١٠ ق	منزل وقف الحاج عبد الرحمن الفاشى	٣٥٥
١٦١٠	١٠١٩	مسجد الملكة صفية بالدواضية	٢٠٠

التاريخ		اسم الأثر	رقم الأثر
الميلادي	الهجري		
-1616	-1025	«البرديني»	201
1629	38		
1618	1028	سبيل وكتاب القرلار بالسيوفية	265
1625	1035	مسجد يوسف أغا الحيني بشارع درب الجماميز	196
1630	1040	سبيل مصطفى سنان بسوق السلاح	246
1630	1040	« وكتاب وقف قيطاس	16
1631	1041	مسجد عابدين بك (الفتح)	587
1631	1041	منزل وسبيل الكريدلية ببئر الوطاويط	321
1632	1042	سبيل وكتاب خليل المقاطعجي بالدرب الأحمر	71
1632	1042	سبيل وكتاب سليمان جاويش بباب الشعرية	167
1637	1047	سبيل وكتاب ووكالة جمال الدين الذهبي	411
1637	1047	منزل جمال الدين الذهبي بحارة خوشقدم	72
1639	1049	سبيل ابراهيم أغا مستحفظان بشارع التبانة	238
1648	1058	منزل السحيمي بالدرب الأصفر	339
1650	1060	زاوية رضوان بك	365
1650	1060	مقعد رضوان بيك بالخيامية	208
1652	1062	منازل وقف ابراهيم أغا	595
1652	1062	منزل وقف ابراهيم أغا	619
1652	1062	منزل وقف ابراهيم أغا مستحفظان	613
1655	1066	مسجد سيدى عقبة	535
1657	1068	سبيل اسماعيل مغلوى بالقرب من مسجد الحسين	57
-1659	-1070	منزل وقف السادات	463
1754	1168		

التاريخ		اسم الأثر	رقم الأثر
الميلادى	الهجرى		
١٦٦٠	١٠٧١	مسجد عابدى بك	٥٢٤
-١٦٦٢	-١٠٧٣	رباط الآثار بأثر النبى	٣٢٠
١٨٠٩	١٢٢٤		
١٦٦٤	١٠٧٤	منزل وقف الست وسيلة	٤٤٥
١٦٦٩	١٠٨٠	مسجد آق سنقر الفرقانى بحارة السيدة فاطمة النبوية	١٩٣
١٦٧٣	١٠٨٤	سبيل وكتاب أوده باشى بحارة البيضة	١٧
١٦٧٣	١٠٨٤	سبيل وكتاب وقف أوده باشى	٥٩١
١٦٧٣	١٠٨٤	واجهة منزل ووكالة اوده باشى بالجمالية	١٩
١٦٧٧	١٠٨٨	سبيل وكتاب على آغا دار السعادة بالسيوفية	٢٦٨
١٦٨٠	١٠٩١	مسجد ذو الفقار بك	٤١٥
١٦٨٣	١٠٩٤	سبيل مصطفى جوريجى مستحفظان	٥٥٣
ق ١٧	ق ١١	منازل وقف رضوان بك	٤٠٦
ق ١٧	ق ١١	منازل وقف رضوان بك	٤٠٧
ق ١٧	ق ١١	وكالة بازرة	٣٩٨
١٦٩٤	١١٠٦	سبيل ابراهيم شوريجى	٣٦٣
١٦٩٤	١١٠٦	سبيل وكتاب حسن آغا كوكليان بسويقة العزى	٢٤٣
١٦٩٤	١١٠٦	وكالة وسبيل عباس آغا	٣٩٦
١٦٩٧	١١٠٩	مسجد أحمد كتنخدا العزب بالقلعة	١٤٥
١٦٩٨	١١١٠	مسجد مصطفى جوريجى ميرزا ببولاق	٣٤٣
١٦٩٩	١١١١	سبيل وكتاب أحمد سليم	٤٦١
١٧٠١	١١١٣	سبيل وكتاب حسن كاتب عزبان	٤٠٥
١٧٠١	١١١٣	مسجد الحاج محمد باشا	٣٧٧
١٧١٠	١١٢٢	سبيل وكتاب على بكر الدمياطى بدرج سعادة	١٩٧

التاريخ		اسم الأثر	رقم الأثر
الميلادى	الهجرى		
١٧١٣	١١٢٥	منزل زينب خاتون بحارة الدوادار	٧٧
١٧١٣	١١٢٥	وقف مصطفى جعفر السلحدار	٤٧١
١٧١٤	١١٢٦	سبيل ابراهيم المانسترلى	٥٠٨
١٧١٥	١١٢٧	سبيل موصلى	٢٣٢
١٧١٦	١١٢٩	وكتاب محمد مصطفى المحاسبجى بالداودية	٣٢٩
١٧١٨	١١٣١	بشير أغا	٣٠٩
١٧١٨	١١٣١	محمد كتخدأ بشارع التبانة	١٥٠
١٧١٩	١١٣٢	الأمير عبد الله	٤٥٢
١٧١٥	١١٣٨	منزل وقف الشعرانى بالخرنفش	٦٣
١٧٣١	١١٤٤	عبد الرحمن الهراوى	٤٤٦
١٧٣٢	١١٤٥	مسجد الكردي	٦١٠
١٧٣٤	١١٤٧	عثمان كتخدأ بشارع عابدين	٢٦٤
١٧٣٥	١١٤٨	جامع الفكهانى بالعقادين	١٠٩
١٧٤١	١١٥٤	سبيل وكتاب الست صالحه بدرج الجماميز	٣١٣
١٧٤٤	١١٥٧	سبيل وكتاب الشيخ مظهر (ومسجده) بالخرديجية	٤٠
١٧٤٤	١١٥٧	سبيل وكتاب عبد الرحمن كتخدأ فى بين القصرين	٢١
١٧٤٦	١١٥٩	سبيل ابراهيم خلوصى بعطفة الليمون بالسروجية	٢٢٦
١٧٤٩	١١٦٢	تربة رضوان بك	٢٨٣
١٧٥٠	١١٦٤	تكية وسبيل السلطان محمود بالحبانة	٣٠٨
١٧٥٢	١١٦٦	المدرسة الكاملية	٤٢٨
		سبيل ابراهيم بك الكبير	٣٣١
١٧٥٣	١١٦٧	بالداودية	

التاريخ		اسم الأثر	رقم الأثر
الميلادي	الهجري		
١٧٥٤	١١٦٨	باب العزب	٥٥٥
١٧٥٤	١١٦٨	سبيل وكتاب ومدفن رضوان أغا الرزاز	٣٨٧
١٧٥٤	١١٦٨	مسجد عبد الرحمن كتبخدا	٤٤٨
١٧٥٩	١١٧٣	سبيل وكتاب السلطان مصطفى بالسيدة زينب	٣١٤
١٧٥٩	١١٧٣	مسجد الخلوتي	٤١٤
١٧٦١	١١٧٤	مسجد وسبيل الأمير خليل	٣٧٦
١٧٦٢	١١٧٥	مسجد السيدة عائشة النبوية	٣٧٨
١٧٦٣	١١٧٧	الأمير يوسف جوريجي (جامع الهياتم بالحنفي)	٢٥٩
١٧٦٦	١١٨٠	تربة عثمان بك القاز دوغلي بالركبية	٢٧١
١٧٧٠	١١٨٤	مسجد أحمد العزبان ؟	٦٠٠
١٧٧٢	١١٨٦	سبيل يوسف بك بشارع السيوفيه	٢٦٢
١٧٧٣	١١٨٧	تربتا على بك الكبير واسماعيل بك الكبير	٣٨٥
١٧٧٤	١١٨٨	جامع محمد بك أبو الذهب أمام الأزهر	٩٨
١٧٧٤	١١٨٨	سبيل وحوض محمد بك أبو الذهب بشارع التبليطة	٦٢
١٧٧٦	١١٩٠	منزل على كتبخدا (الربعمائة)	٥٤٠
١٧٧٨	١١٩٢	قاعة ومقعد أحمد كتبخدا الرزاز بسويقة العزى	٢٣٥
١٧٧٩	١١٩٣-	المسافر خانة بقصر الشوق بالجمالية درب المسمط	٢٠
٨٨	١٢٠٣		
١٧٨٠	١١٩٤	حمام الملاطيلي	٥٩٢
١٧٨٤	١١٩٩	مسجد السادات الوفاية	٦٠٨
١٨ ق	١٢ ق	حمام السكرية	٥٩٦
١٨ ق	١٢ ق	حمام الطملي	٥٦٤
١٨ ق	١٢ ق	سبيل وحوض عبد الرحمن كتبخدا بالحطابة	٢٦٠

التاريخ		اسم الأثر	رقم الأثر
الميلادى	الهجرى		
ق ١٨	ق ١٢	وكالة الصناديقية	٤٢٣
ق ١٨	ق ١٢	وكالة بدوية بنت شاهين	٦١٥
أخرق ١٨	أخرق ١٢	منزل على لبيب	٤٩٧
ق ١٨	ق ١٢	وقف العروسى والعريان بسوق الزلط	١٦٥
١٨٩٢	١٢٠٧	جامع محمود محرم برحبة باب العبد بالجمالية	٣٠
١٧٩٤	١٢٠٩	منزل ابراهيم كتخد السنارى بحارة مونج بالسيدة زينب	٢٨٣
١٨٠٢	١٢١٧	« حسين كتخد شنن	٥٦٨
١٨٠٥	١٢٢٠	مسجد زين العابدين	٥٩٩
١٨٠٨	١٢٢٣	سراى محمد على بشبرا	٦٠٢
١٨٠٨	١٢٢٣	مجرى مياه (محمد على باشا)	١٠٠
١٨٠٩	١٢٢٤	مسجد حسن باشا طاهر ببركة الفيل	٢١٠
١٨١٠	١٢٢٥	قلعة محمد على	٤٥٥
١٨١٢	١٢٢٧	دار الضرب	٦٠٦
١٨١٤	١٢٢٩	قصر الجوهرة والعدل	٥٠٥
١٨١٤	١٢٢٩	مسجد جوهرة الكمينى	٦١١
١٨١٧	١٢٣٣	مدفن أحمد باشا طاهر	٥٦٥
١٨٢٠	١٢٣٦	سبيل محمد على بالعقادين	٤٠١
١٨٢٧	١٢٤٣	قصر الحرم	٦١٢
١٨٢٨	١٢٤٤	دار المحفوظات	٦٠٥
١٨٢٧	١٢٤٤	سبيل محمد على بالنحاسين	٤٠٢
١٨٣٧	١٢٥٣	وكالة السلحدار	٦٠٤
١٨٣٩	١٢٥٥	مسجد وسبيل وكتاب سليمان أغا السلحدار	٣٨٢

التاريخ		اسم الأثر	رقم الأثر
الميلادى	الهجرى		
١٨٤٥-	١٢٦١-	جامع الجوهري	٤٦٢
٤٨	٦٥		
١٨٤٨	١٢٦٥	مسجد محمد على الكبير	٥٠٣
١٨٥٦	١٢٧٢	سبيل وكتاب وقف الحرمين	٤٣٣
١٩ ق	١٣ ق	حمام العدوى	٥٦٧

هذا الجدول ، نقلا عن : عبد الرحمن زكى ، القاهرة - تاريخها وأثارها (١٨٢٥ - ١٩٦٩) ص ٢٤٤

مقدمات ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ :

الثورة العربية — ثورة سنة ١٩١٩

القضية الفلسطينية

تمهيد :

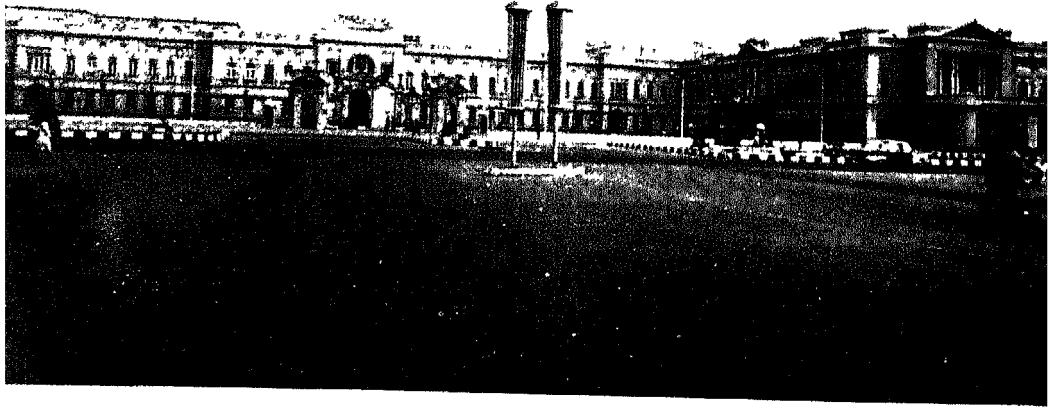
تبدأ مقدمات ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ مع اليقظة الفكرية التي صورها المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي والتي كشف هو نفسه عن جانب هام من اتجاهاتها وهو التصدى لاستبداد محمد علي في حكم مصر . ذلك أن الشعب المصرى أخذ يقاوم هذا الاستبداد على نحو ما تصدى له عمر مكرم ، ثم وقفت القيادات المصرية بعد ذلك بالمرصاد لمساوىئ أسرة محد علي التي بلغت أقصاها مع التجاء اثنين من أبنائها ، وهم سعيد واسماعيل (١٨٥٤ — ١٨٧٩م) إلى الاستدانة من الخارج ، وكان سعيد قد استدان ما يقرب من اثنتى عشر مليوناً من الجنيهات على حين بلغت ديون اسماعيل سنة ١٨٧٣م ما يبلغ ثلاثة وعشرين مليوناً .

وفتحت تلك الديون باب التدخل الأجنبى فى مصر على عهد الخديو توفيق سنة ١٨٧٩م . وتصدى لهذا التدخل مجموعة من القادة السياسيين الكبار على رأسهم جمال الدين الافغانى والامام محمد عبده وكذلك عبد الله النديم . فقد وصلوا بجهداهم معالم اليقظة التي تناولها المؤرخ الجبرتي ضد طغيان اسرة محمد علي ، وأخذوا يحثون أبناء البلاد على التصدى لهذا التدخل الأجنبى فى بلادهم ، المتستر وراء المطالبة بسداد الديون . ومن ذلك قول جمال الدين الأفغانى مخاطباً الفلاح المصرى : عجبت لك أيها الفلاح ، تشق الأرض بفأسك باحثاً عن رزقك ، لماذا لا تشق بهذا الفأس صدور ظالميك .

واستمع إلى هذا النداء كثير من قيادات مصر اذ ذاك ، منهم محمد عبده الذى تابع مشعل الثورة التى أزكى نارها جمال الدين الأفغانى . وقد انفجرت الثورة بعد نفى الخديو توفيق لجمال الدين الأفغانى من مصر وما أعقب ذلك من ازدياد تدخل

الأجانب فى شئون البلاد ، حتى وجد السخط الذى انتشر بين الفلاحين وأبنائهم من ضباط الجيش سييلا إلى الانفجار فى وقت واحد منذ سنة ١٢٩٧هـ / ١٨٧٩م . اذ قام الطلبة المصريون بالمدرسة الحربية بمظاهرة فى ١٨ نوفمبر ١٨٧٩ ، يؤزرهم علماء البلاد ومشايخها وطوائف الشعب ، وطالبوا بإصلاح المفاسد وسد ذرائع التدخل الأجنبى فى البلاد .

وأدى مماثلة الخديو توفيق فى تحقيق مطالب تلك المظاهرة السلمية إلى تجدد مقاومة الشعب المصرى ، الذى وجد أماله تتحقق مرة أخرى فى رجال الجيش وعلى رأسهم اذ ذاك أحمد عرابى ، الذى سار فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ ١٢٩٩هـ فى مظاهرة عسكرية إلى ميدان عابدين ليقدم إلى الخديو مطالب الأمة المصرية . ولما وصل عرابى إلى عابدين . دارت المناقشة التاريخية التالية بينه وبين الخديو على النحو التالى : قال الخديو لعرابى : لم جمعت حولى هؤلاء العسكر؟ قال عرابى نطلب سقوط الوزارة جالبة الغمة ، وفتح مجلس شورى للأمة ، ووضع حدود للحاكم والرعية ، وسن قانون معاش الجهادية .



قصر عابدين

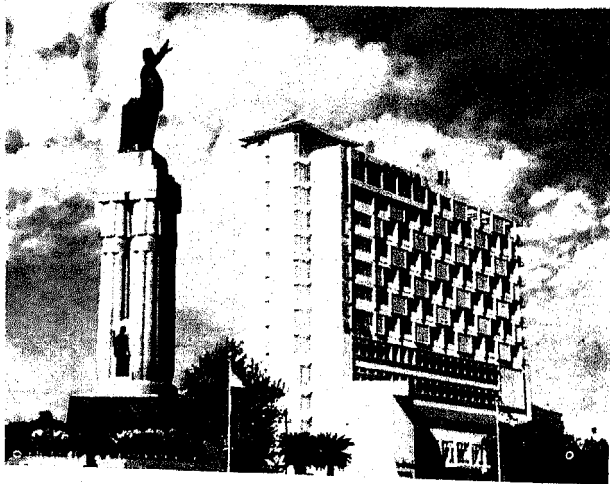
قال الخديو: هذا الطلب ليس من وظيفتك ، فلم تظاهرت بشيعتك ؟ -
قال عرابى : « لست أطلبه وأنا عسكري الصفه ، بل وأنا نائب عن هذه الأمة الواقفة .
وتتابعت الأحداث بعد ذلك سريعاً بما أدى إلى تدخل انجلترا لمساعدة
الخديو ، وخاصة بعد افتعالها حادثة الاسكندرية ، فى ١١ يونيو سنة ١٨٨٢ ، وإثارة فتنه
بين مصرى ومالطى ، ثم ضربت الاسكندرية ، واحتلت البلاد تحت ستار مساعدة
الخديو سنة ١٨٨٢ م .

وبدأت مصر صفحة من جهادها المتواصل ضد التدخل الأجنبى والاحتلال
البريطانى حتى بدأت الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤ ١٣٣٣هـ ، حيث بادرت
انجلترا إلى احكام قبضتها على البلاد اذ ذاك بإنهاء السيادة العثمانية الشكلية على
مصر ، وفرضت الحماية البريطانية بدلا منها بشكل سافر على مصر .
ثورة ١٩١٩ :

تمادت انجلترا على امتداد سنوات الحرب العظمى الأولى من سنة ١٩١٤ —
١٩١٨ فى سياسة الضغط على مصر ، والعمل فى نفس الوقت على عزلها عن البلاد
العربية بتوطين اليهود فى فلسطين ، جرياً وراء اسلوب الاستعمار الاستيطانى . ولم
تستسلم مصر لهذه المؤامرات ، وبادرت وهى تعمل على تحرير أرضها بالعمل فى
الوقت نفسه على التصدى للمخطط الاستعمارى ضد الأرض العربية فى فلسطين .
وصارت السنوات الممتدة من نهاية الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٩ إلى
قيام ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ من أهم الفترات التى تجمعت بها مقدمات ثورة يوليو ،
ومواصلة مصر لجهادها فى الداخل وفى الخارج على حد سواء ، باعتبارها دائماً وأبداً ،
ليست رباط الاسلام فحسب بل ومنازة الاسلام كذلك .

وانفجرت ثورة الشعب المصرى فى سنة ١٩١٩ ١٣٣٨هـ ، بعد أن وضعت
الحرب أوزارها ، وهى الثورة التى قادها زعيم البلاد سعد زغلول ، حيث تألف فى ذلك
الوقت الوفد المصرى باعتباره هيئة شعبية تتكلم باسم مصر . وعجزت انجلترا برغم

نفي سعد زغلول إلى جزيرة ملطه في ٩ مارس ١٩١٩ عن اخماد الثورة التي اشتدت نيرانها ، واضطرت إلى اعادته وصحبه إلى مصر . ولكن تابع الوفد جهاده ضد بريطانيا ، حتى فشلت محاولات التفاوض معها واضطرت وزارة عدلى باشا التي كانت تتولى تلك المفاوضات اذ ذاك إلى الاستقالة في ديسمبر ١٩٢٠ ، وهو الأمر الذى دفع انجلترا إلى ان تنفى سعد زغلول مرة أخرى ومعه كبار أنصاره إلى جزيرة « سيسل » التابعة لبريطانيا فى المحيط الهندى . وتوالت الأحداث سريعاً مرة أخرى بما دفع انجلترا إلى اعادة سعد زغلول إلى البلاد ، حيث تابع الوفد جهاده ضد أساليب انجلترا حتى توفى هذا الزعيم الكبير فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ .



تمثال سعد زغلول (بالجزيرة) .

وحمل لواء الجهاد فى مصر بعد سعد زغلول الزعيم مصطفى النحاس . ولكن الأحداث تطورت سريعاً فى البلاد ، وخاصة بعد وفاة الملك فؤاد فى ابريل سنة ١٩٣٦ ، وتولى ابنه الملك فاروق العرش . اذا اشتدت المتاعب الداخلية ، مع سوء الادارة حيث ظهر أخطر نماذجها وأشدها ايلاما للنفوس ، فى مجريات الحملة المصرية لانتقاد فلسطين من برائن الاستعمار والصهيونية ؛ وذلك فى مايو سنة ١٩٤٨ ، وهو الأمر الذى أثار ما يعرف إلى اليوم باسم « القضية الفلسطينية »

القضية الفلسطينية :

بدأت معالم القضية الفلسطينية وأحداثها تتكون مع مقدمات ثورة ١٩١٩ ، وغدت بالتالى عنصراً رئيسياً من عناصر مقدمات ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ . وبدأت معالم تلك القضية تظهر عياناً حين أصدرت بريطانيا قبل قيام ثورة ١٩١٩ بعامين التصريح المشهور الذى أطلق عليه « وعد بلفور » فى نوفمبر ١٩١٧ ، وهو وعد يقضى بإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين ، مع مراعاة حقوق السكان الأصليين بالبلاد وهم العرب فى الشؤون المدنية والدينية .

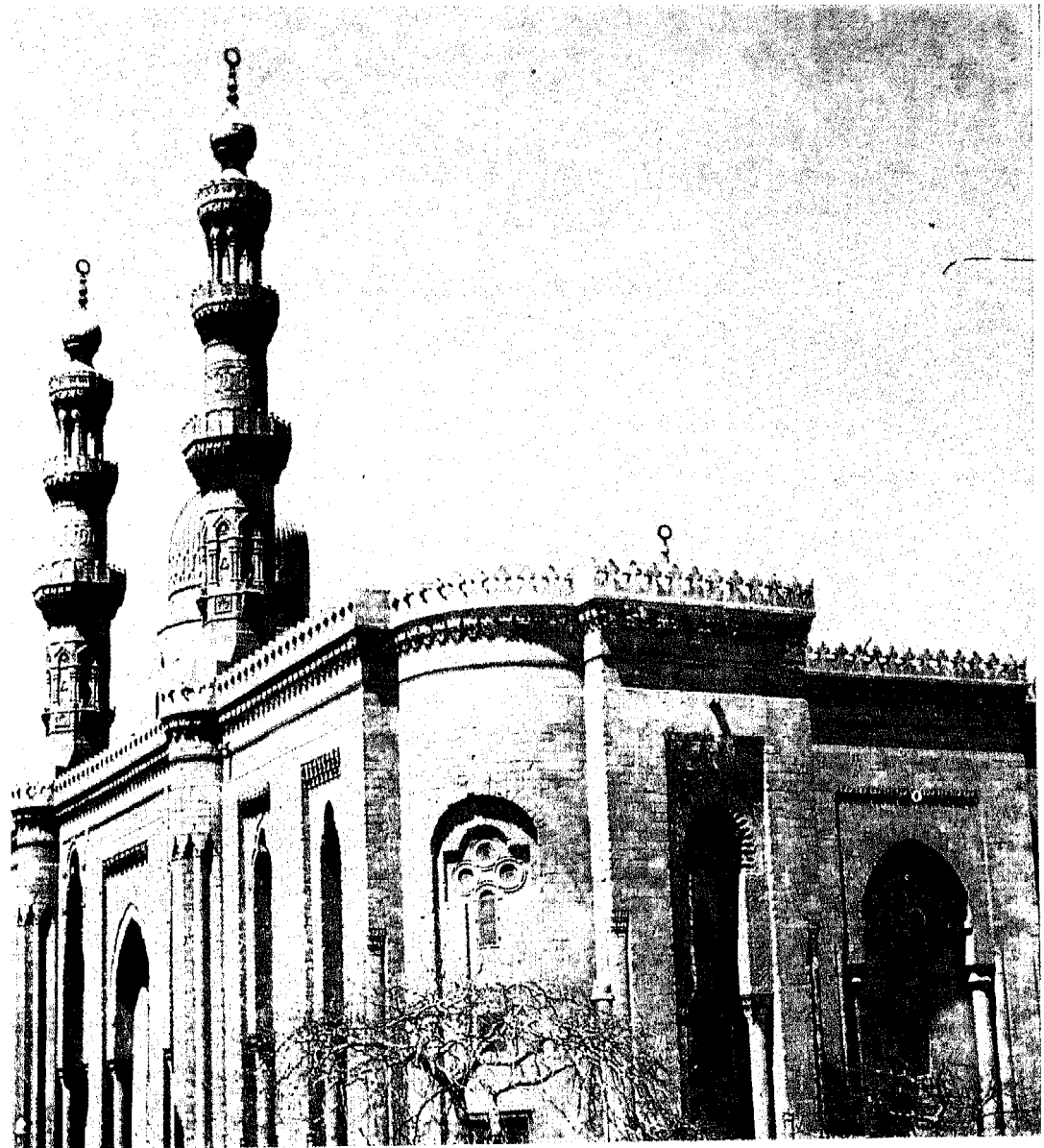
وساعد انجلترا على تنفيذ هذا الوعد المشعوم أنها صارت بعد انتهاء الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٨ صاحبة الانتداب على فلسطين ، إلى جانب طغيانها فى مواجهة ثورة الشعب المصرى سنة ١٩١٩ . وعمدت انجلترا إلى انتهاز تلك الثورة وانشغال المصريين بها والعمل سريعاً على وضع وعدها لليهود موضع التنفيذ العملى . ولجأت انجلترا فى ذلك إلى اسلوب الاستعمار الاستيطانى وخططه التى تقوم على تشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، وشراء اليهود لأراضى العرب بتلك البلاد .

وكانت انجلترا تستغل انتدابها على فلسطين لتحقيق الهجرة اليهودية التى نادى بها زعماء الصهيونية منذ احتلال انجلترا لمصر سنة ١٨٨٢ . فقد زار نفر من زعماء الصهيونية فلسطين ، ثم وضعوا المؤلفات التى زيفوا فيها الحقائق بما يجعلهم أصحاب حق مزعوم فى فلسطين . وكان من أخطر تلك المؤلفات التى وضعها أحد دعاة

الصهيونية وهو موسى هيس الذى دون تاريخ اليهود مع الأمبراطورية الرومانية وملاً كتاباته بالدعوة إلى إقامة اليهود فى فلسطين . ثم رسم معالم شراء الارض لليهود فى فلسطين وبناء مستوطنات لهم بها الداعية الصهيونى هرتسل ، الذى نادى سنة ١٨٩٦ أى بعد الاحتلال البريطانى لمصر بأربعة عشر عاماً بأن يقوم اليهود بهجرة واسعة إلى فلسطين ، ثم عزز دعوته فى المؤتمر الصهيونى الذى انعقد فى مدينة بال بسويسرا سنة ١٨٩٧ بالعمل على اكتساب الحكومات المختلفة ، ومنها بريطانيا إلى جانب تحقيق الاستعمار الاستيطانى لليهود فى فلسطين ، واستقرارهم فى أراضيها كمزارعين وصناع وتجار .

وغدت انجلترا مركز تمويل وتشجيع للهجرة اليهودية إلى فلسطين كما اتبعت طوال انتدابها على فلسطين سياسة تشريد أهلها ليحل محلهم اليهود حتى بلغ عدد المستعمرات اليهودية فى فلسطين سنة ١٩٢٠ حوالى ٢٢٠ مستعمرة . وبدأت بعد ذلك الخطوات النهائية ليحقق الاستعمار البريطانى أهدافه من قيام الهجرة اليهودية فى فلسطين . ذلك أن عرب فلسطين بادروا بالثورة ضد هذه السياسة الاستعمارية دفاعاً عن بلادهم وقوميتهم العربية . ففى سنة ١٩٤٧ قررت هيئة الأمم تقسيم فلسطين بين العرب واليهود ، على حين قررت انجلترا انهاء انتدابها على فلسطين فى مايو ١٩٤٨ ، بعد أن مهدت لذلك بمذبحة دير ياسين التى وقعت فى الشهر السابق مباشرة لانهاء انتدابها ، وذلك فى أبريل سنة ١٩٤٨ ، وصار الجو ممهداً أمام بريطانيا لدفع اليهود فى فلسطين إلى اعلان دولتهم اسرائيل .

وظهرت خطورة هذا السوط الاستعمارى الجديد ، حين ترتب على قيام اسرائيل تشريد ما يقرب من مليون عربى من فلسطين صاروا لاجئين فى البلاد العربية المجاورة فضلاً عن وجود ٣٠٠٠٠٠ عربى داخل فلسطين المحتلة .



مسجد الرفاعي

ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وقيادتها لحركة التحرر العربي والصحوة الاسلامية المعاصرة

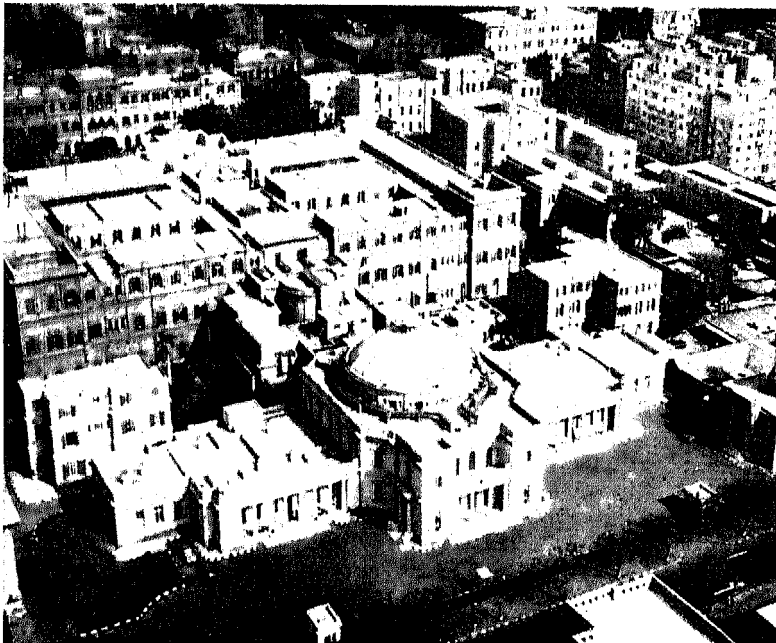
جاءت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ وقيادتها لمسيرة حركة التحرر العربي ، وكذلك للصحوة الاسلامية المعاصرة موجة عظمى من موجات العطاء الحضارى المتجدد الذى دأبت مصر على تقديمه منذ أشرقت أرضها بنور الاسلام وإلى اليوم . وقد أصلت هذه الثورة جذورها حين أنجبت مصر فى هذه المرحلة من مقدمات ثورة ٢٣ يوليو القائد جمال عبد الناصر الذى نال من الاعداد وشاهد من الأحداث ما جعله خبيراً بأحوال وطنه مصر ، وكذلك أمته العربية .

وجاء الارتباط بين جمال عبد الناصر وبين أحداث وطنه مصر وأمته العربية منذ ولادته . فقد ولد فى الخامس عشر من شهر يناير سنة ١٩١٨ ، أى قبل عام واحد من ثورة ١٩١٩ ، وبعد عام واحد من وعد بلفور الذى سدد باعطاء فلسطين وطناً لليهود خنجراً خطيراً إلى قلب الأمة العربية . وبذلك شب جمال عبد الناصر وهو يسمع صرخات المصريين وهى تنادى فى ثورة ١٩١٩ باستقلال مصر وحريتها ، وتردد فى نفس الوقت النداء بالحفاظ على عروبة فلسطين ضد التسلسل الصهيونى وما صاحبه من استعمار استيطانى .

وعبر جمال عبد الناصر عن هذه المرحلة من مقدمات ثورة ٢٣ يولية قائلاً : وأنا أذكر فيما يتعلق بنفس أن طلائع الوعي العربى بدأت تتسلل إلى تفكيرى وأنا طالب فى المدرسة الثانوية ، أخرج مع زملائى فى اضراب عام ، فى الثانى من شهر ديسمبر من كل سنة احتجاجاً على وعد بلفور الذى منحته بريطانيا لليهود ومنحهم وطناً قومياً فى فلسطين اغتصبته ظلماً من أصحابه الشرعيين ... وحين كنت أسائل نفسى فى ذلك الوقت كلما أخرج فى حماسة ، ولماذا أغضب لهذه الأرض التى لم أرها ؟ لم أجد فى نفسى سوى أصدقاء العاطفة .

وتشاء الأقدار أن يخبر جمال عبد الناصر أحداث مقدمات ثورة ٢٣ يوليو بنفسه بعد يومين من تخرجه من الكلية الحربية في ١٢ مايو سنة ١٩٤٨ ، اذ بعد يومين من تخرجه أعلنت إنجلترا انتهاء انتدابها من فلسطين يوم ١٥ مايو ١٩٤٨ ، وقيامه بالاشتراك في الجيش المصري الذي اتجه لتحرير فلسطين مع باقي الجيوش العربية . وخرج من تلك التجربة بدراسات ودروس أوقفته على المتاعب الحقيقية لوطنه مصر وأمه العربية ، ومن ثم كوّن جماعة الضباط الأحرار بالجيش المصري ، واستطاع بتوفيق الله أن يعلن في ٢٣ يوليو ثورة مصر سنة ١٩٥٢ ، وما تلاها من تنازل الملك فاروق عن عرش مصر في ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ ، ثم اعلان الجمهورية في ١٨ يونيو سنة ١٩٥٣ .

وأخذت ثورة ٢٣ يوليو تسير في خطين متوازيين ، أحدهما اصلاح أحوال الوطن في مصر ، سياسيا واجتماعيا واقتصادياً وعمراًياً أيضاً ، وذلك على نحو ما شهدته البلاد من حياة ديمقراطية حافلة تحت قبة البرلمان ، ومن نهضة علمية تركزت في

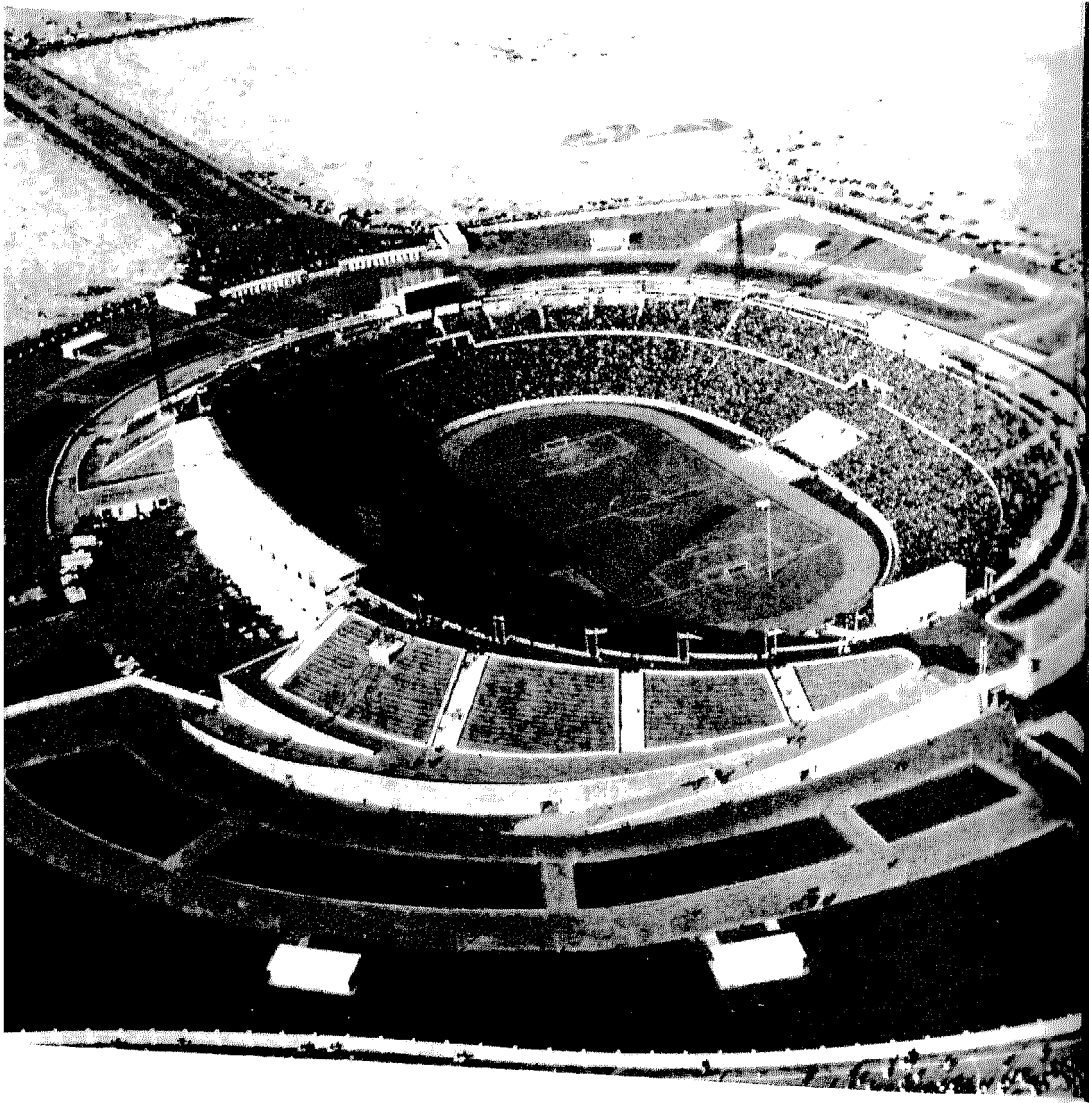


الجامعات وعلى رأسها جامعة القاهرة ، وحسن رعاية للشباب وتوفير المؤسسات الرياضية له ؛ هذا مع السير فى الخط الآخر فى نفس الوقت وهو حماية الأمة العربية

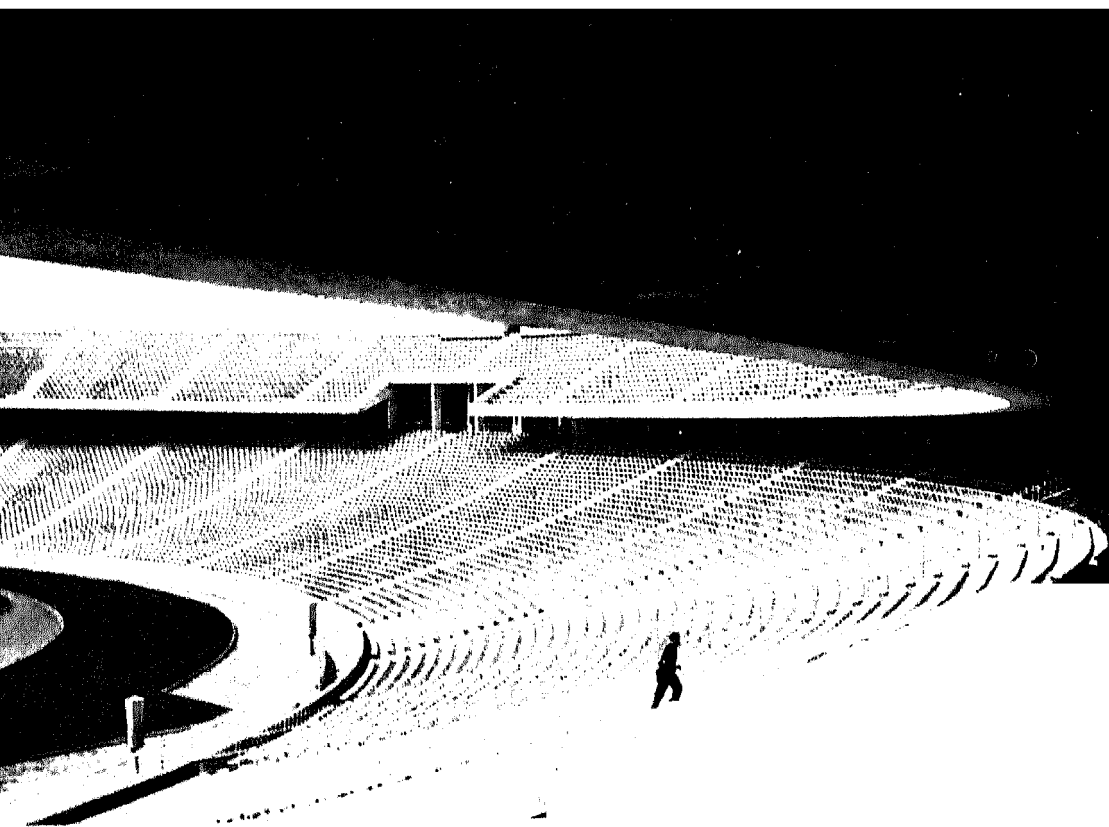


جامعة القاهرة .





مؤسسات الشباب الرياضية



من أخطار الاستعمار الاستيطاني في فلسطين ، الذي أخذ يستشري بعد قيام اسرائيل . وتلافت بذلك ثورة ٢٣ يوليو الخطأ الذي وقع فيه قيادات ثورة ١٩١٩ التي لم تستطع أن تمد بصرها عبر سيناء ، وعجزت عن تحديد الشخصية المصرية ولم تستطع أن تستشف من خلال التاريخ أنه ليس هناك تصادم على الاطلاق بين الوطنية المصرية وبين القومية العربية . لقد فشلت هذه القيادات في أن تتعلم من التاريخ ، وفشلت أيضاً في أن تتعلم من عدوها الذي تحاربه والذي كان يعامل الأمة العربية كلها على اختلاف شعوبها طبقاً لمخطط واحد . ومن هذا فان قيادات الثورة لم تنتبه إلى خطورة وعد بلفور الذي أنشأ اسرائيل لتكون فاصلاً يمزق امتداد الأرض العربية وقاعدة لتهديدها . وبهذا الفشل فان النضال العربي في ساعة من أخطر ساعات الأزمة حرم من طاقة الثورة المصرية ، وتمكنت القوى الاستعمارية من أن تتعامل مع أمه عربية ممزقة الأوصال مفتتة الجهد .

وانطلقت ثورة ٢٣ يوليو في نضالها ، متجنبه معائر ثورة سنة ١٩١٩ ، وسارت في حماية حقوق مصر والأمة العربية جنباً إلى جنب ، دون أن تأبه بتهديد الاستعمار وحليفته اسرائيل . وتجلى ذلك حين أعلنت مصر تأميم قناة السويس ، وهو مطلب وطنى مصرى ، يوم ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ ، اذ بادر الاستعمار بتدبير العدوان الثلاثى من انجلترا وفرنسا واسرائيل على مصر فى يوم ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ ، وهو العدوان الذى هب الشعب المصرى للتصدى له ليس دفاعاً عن نفسه فحسب ، بل دفاعاً أيضاً عن أمته العربية . هذا إلى أن الأمة العربية بادرت بمساندة مصر ، وأوقفت ضخ البترول ، مما حقق النصر لمصر والأمة العربية بانسحاب القوى المعتدية الثلاث فى نوفمبر سنة ١٩٥٦ .

وتأكد تحالف الاستعمار مع اسرائيل مرة أخرى ضد ثورة ٢٣ يوليو ، لمساندتها للأمة العربية فى نضالها من أجل حريتها ، وذلك يوم ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ حين قامت اسرائيل بهجوم غادر على أرض الكنانة ، كاشفة عن أطماعها فى الامتداد من النيل إلى الفرات . وتوفى جمال عبد الناصر فى ٢٨ سبتمبر ١٩٦٩ تاركا لمصر والأمة

العربية رصييداً هائلا من الثقة بالنفس لا تزعزعة أمثال تلك الأعمال العدوانية من جانب الاستعمار واسرائيل .

حرب اكتوبر (رمضان) ١٩٧٣

خلف جمال عبد الناصر الرئيس محمد أنور السادات بعزم مصرى أصيل ليؤكد عطاء مصر الحضارى للأمة العربية وللعالم أجمع مرة أخرى . اذ وضع خطة ، فى صمت وحسن اعداد مع أهل العلم والحرب ، وكذلك مع الأخوة فى بلاد الشام (سوريا) ليقضى على أسطورة القوة الخارقة لاسرائيل ، وتفوقها الكاذب . وفى السادس من اكتوبر (رمضان) سنة ١٩٧٣ اقتحم أسود مصر من أبناء جيشها البواسل قناة السويس وبددوا فى ساعات قليلة ما أنفقت اسرائيل فيه السنوات الطويلة من اقامة خط برليف وساتر ترابى ، واستحكامات لا حد لها ولا مكنياتها للحيلولة بين أى هجوم مصرى عليها . وارتفع صوت الجنود المصريين مكبرين « الله أكبر » ، مرددين صيحة النصر التى أطلقتها الجيوش الاسلامية والمصرية على امتداد معاركها الحاسمة فى التاريخ . وفى نفس الوقت كانت قوات الجيش السورى تكتسح أمامها القوات الاسرائيلية ، مما عزز النصر المصرى ، الذى جعل من نصر أكتوبر تعزيزاً لرسالة مصر ، فى التضامن العربى ، وبناء قوة تحمى العروبة وأهلها من خطر الاستعمار الاستيطانى ، الجاثم باليهود فى فلسطين . وغدت حرب اكتوبر علامة مضيئة على مسيرة مصر الاسلامية ورسالتها التى جعلت منها منارة تشع بالاسلام دائماً وأبداً والنور والهدى ، مع الأمن والطمأنينة والسلام .

الأبعاد المعاصرة لثورة ٢٣ يوليو :

وحدد مسيرة مصر الاسلامية ، فى ضوء رسالتها « منارة الاسلام فى العصر الحديث » ، الخطاب الذى ألقاه الرئيس محمد حسنى مبارك ، رئيس جمهورية مصر العربية يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٩١ ، وهو العيد التاسع والثلاثين لثورة « يوليو ١٩٥٢ » ، موضحاً الأفق الواسعة التالية التى امتدت إليها « منارة مصر الاسلامية » .

أولاً : قامت الثورة لكى تعيد لأرض الكنانة وجهها الوطنى الأصيل الذى يرفض الخضوع للاستعمار والاستبداد ويأبى الرضوخ للاستعمار أياً كان مصدره .

ثانياً : كانت الثورة التى قادها جمال عبد الناصر فى يوليو عام ١٩٥٢ امتداداً لمسيرة نضالية حافلة خاضها الشعب فى المراحل المختلفة للحركة الوطنية فى العصر الحديث ، اضطلع فيها الرعيل الأول من المجاهدين المصريين بدور كبير ، برزت فيه أسماء عمر مكرم وأحمد عرابى ومصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول ومصطفى النحاس وآلاف غيرهم من المناضلين الشرفاء الذين وضعوا المصالح العليا للوطن فوق كل اعتبار ورافقوهم على درب الكفاح .

ثالثاً : لم تكن الثورة مغامرة محلية ضيقة الأهداف والغايات وانما كانت فى جوهرها تجربة انسانية عميقة انطلقت من رؤيه واعية للأوضاع الاقليمية والدولية القائمة ولنضال الشعوب المختلفة فى مشارق الأرض ومغاربها فى سبيل حياة أفضل . فكان طبيعياً أن تنظر شعوب العالم الثالث فى مختلف القارات إلى هذه الثورة باعتبارها الثورة الأم الرائدة التى لا سبيل إلى اغفالها أو تجاهل انعكاساتها فى كل شبر من بقاع هذه الأرض .

رابعاً : وبهذه الرؤية الواضحة والقدرة الفذة على الامتداد إلى ما وراء الحدود السياسية والجغرافية أسهمت الثورة المصرية فى تحرير بعض الأقطار العربية والدول الافريقية والآسيوية من براثن الاستعمار وقدمت لشعوب هذه البلدان نموذجاً مشرفاً للحركة الوطنية القادرة على التجاوب مع آمال الجماهير ، فى نفس الوقت تتفاعل فيه مع

حقائق العصر وتأخذ بعين الاعتبار الأوضاع الدولية التي تؤثر على مسيرة العمل
الوطني .

خامساً : ولعل من المناسب فى هذا المقام أن نتوقف معا وبصفة خاصة أمام انجازات
هائلة ذات مغزى تاريخى عميق حققها الشعب المصرى بالتحاحم مع قواته المسلحة
على طريق التحرر الوطنى فى المراحل المختلفة التى مرت بها البلاد منذ قامت الثورة
وحتى اليوم :

١ — تحقيق الجلاء التام للقوات الأجنبية عن الأراضى المصرية فى يوليو
عام ١٩٥٥ ...

٢ — رفض الأحلاف الأجنبية ... وتخليص المنطقه العربية كلها من المحاولات
الرامية إلى عودة النفوذ الاستعمارى إليها فى قالب جديد وتحت مسميات
مستحدثة .

٣ — تحقيق نصر أكتوبر المبين تحت قيادة الرئيس الراحل محمد أنور السادات . ذلك
النصر الذى حطم خرافات التفوق الاسرائيلى وأعاد للأمم العربية كرامتها ، وفتح
الطريق أمام تسوية عادلة شاملة لمشكلة الشرق الأوسط والنزاع العربى
الاسرائيلى .

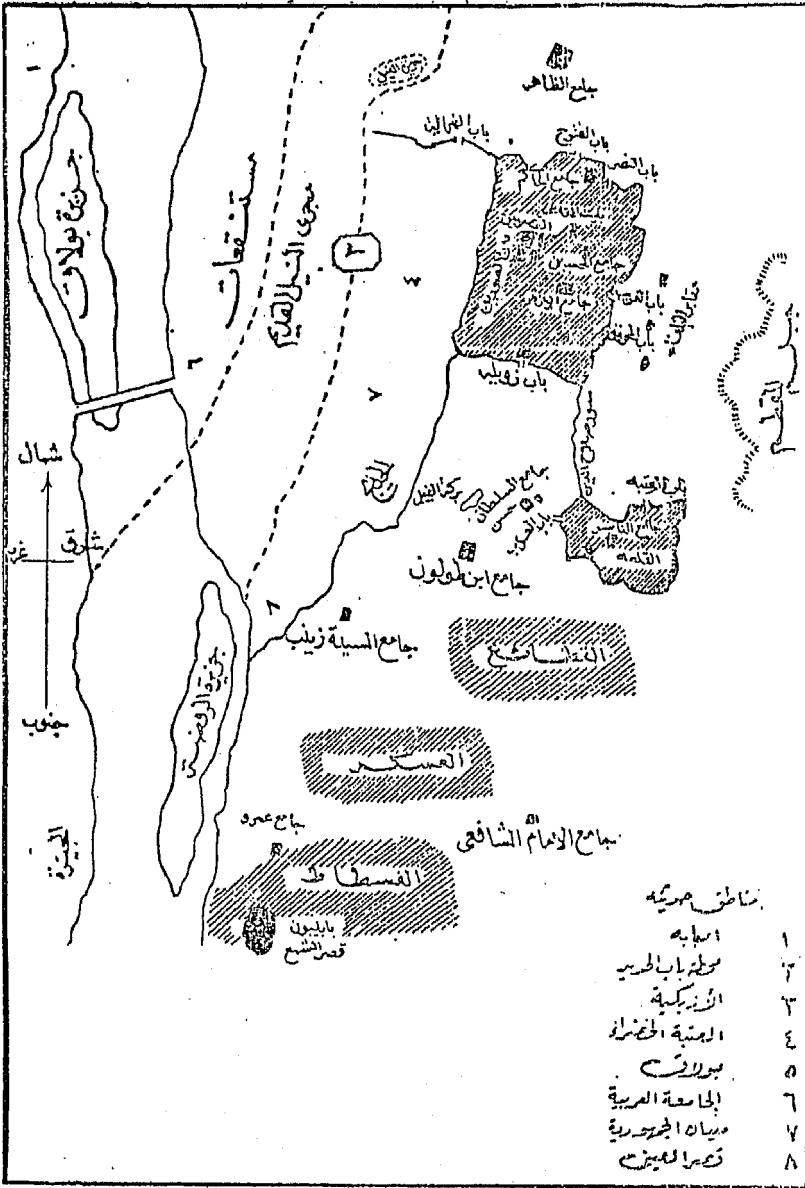
٤ — تحقيق الانسحاب الاسرائيلى الكامل من سيناء فى أبريل ١٩٨٢ وتخليص
البلاد نهائياً من كافة آثار الاحتلال الأجنبى وتصفية كل تهديد لسلامة التراب
الوطنى والسيادة القومية .

٥ — الاسهام فى ردع العدوان الذى تعرضت له الأقطار العربية الشقيقة فى الخليج
والاشتراك الفعال فى التصدى لوضع كان من شأنه أن يضرب الأمن القومى
العربى فى الصميم ويصيب التضامن العربى فى مقتل .



حدائق الأورمان (بالجيزة)





مواقع عواصم مصر الاسلامية وأهم معالم القاهرة اليوم .

هوامش الفصل الأول

(١) دارت أحداث صلح الحديبية حول خروج الرسول الكريم إلى مكة معتمرا ، ومعه عدد من صحابته وذلك فى السنة السادسة للهجرة . ورأت قريش أن دخول الرسول الكريم ومعه صحابته إلى مكة على آية صورة من الصور ، يعنى انتصارا للمسلمين عليها . ولذا صممت قريش على منع الرسول وصحبه من دخول مكة ، حيث وصل عليه الصلاة والسلام اذ ذلك إلى مكان اسمه الحديبية ، على بعد عدة أميال من مكة ودارت مفاوضات بين الطرفين ، اشتهرت باسم صلح الحديبية ، وكان من أهم شروطه ما يلى :

١ — عقد هدنة مدتها عشر سنوات بين الطرفين

٢ — من أراد من القبائل العربية أن يدخل فى عهد قريش أو فى عهد محمد فله ذلك

٣ — ألا يقوم المسلمون بالحجرة فى هذا العام ، وإنما يؤدونها فى العام التالى ولمدة ثلاثة أيام يتم فيها اخلاء اللدة لهم .

وجاءت هذه الشروط الأساسية كسبا كبيرا للمسلمين ، برغم السخط الذى استبدت سفر منهم بشأنها . فقد أتاح صلح الحديبية للمسلمين مكانة عظمية فى بلاد العرب ، اذ اعترفت قريش بهم ، فضلا عن أن السلم الذى أعقبها أتاح للرسول الكريم الفرصة لتلبيغ الدعوة إلى خارج بلاد العرب . ونزلت بعد الحديبية سورة الفتح فى قوله تعالى : « انا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليعفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما » ، وشرح كثير من مفسرى القرآن الكريم هذه الآية بأن المقصود بكلمة « الفتح » هو الانتصارات العظمية التى حلت فى أعقابه ونتيجة له كذلك .

(٢) بعث الرسول الكريم بالسفارات التالية إلى زعماء وملوك العالم :

— سفارة حاطب بن أبى بلتعة ووجهته المقوقس عظيم القبط بمصر .

— سفارة دحية بن حليفة الكلبي ووجهته هرقل امبراطور الروم .

— سفارة عبد الله بن حذافة السهمي ووجهته كسرى فارس .

— سفارة عمرو بن أمية الضمري ووجهته نحاشي الحبشة .

— سفارة عمرو بن العاص السهمي ووجهته ملكى عمان .

— سفارة سليط بن عمرو ووجهته ملكى اليمامة .

— سفارة العلاء بن الحضرمي ووجهته ملك البحرين .

— سفارة شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث العساني ملك تخوم الشام .

— سفارة المهاجر بن أمية المخزومي إلى الحارث الحميري ملك اليمن

(٣) وردت كلمة « القبط » فى بعض المصادر بكلمة « الأريسيين » ، حيث تتفق تلك المصادر فى ذكر رواية كتاب التنى إلى كل من هرقل والمقوقس نصا وحرفا . ويرجح أن كلمة الأريسيين تعنى أهل البلاد « الأريوسيين » وهو مذهبهم اللدنى ، نسبة إلى أحد رجال الدين واسمه أريوس ، وأنهم كانوا يختلفون بذلك عن العقيدة الرسمية للإمبراطور هرقل وعماله فى مصر .

(٤) كانت قرية حفن من مدن مصر الفرعونية تعرف باسم (هيبنو) ، وهى التى حرفها العرب إلى اسم حفن ، ويوجد مكانها الآن أطلال بلدة هببو التى تقع بحوض الكوم الأحمر شرقى النيل بأراضى ناحية المطاهرة البحرية بمركز الميا بمحافظة الميا .

(٥) بعث أبو بكر لفتح الشام بأربعة جيوش ، على أحدها أبو عبدة ابن الجراح ووجهته حمص وأن يتخذ من الجابية ، وهى مرتفعات الجولان الحالية ، مركزا لقيادته ، وي زيد بن أبى سفيان ووجهته دمشق ، وشرحبيل بن حسنة ووجهته الأردن ، وعمرو بن العاص ووجهته فلسطين .

(٦) توجد بقايا هذا الحصن الآن فى مصر القديمة بجوار كنيسة مار جرجس . وتعددت روايات المؤرخين القدامى والمحدثين فى تأسيسه واسمه أيضا . فذكر القدامى أن بناء هذا الحصن يرجع إلى بختنصر حين فتح مصر فى القرن السادس قبل الميلاد ، وسماه باسم عاصمة ملكه « بابل » . وروى حنا النقيوسى أن الامبراطور الرومانى تراجان جدد بناء هذا الحصن فى العام المتمم للمائة من الميلاد ، وظل ذلك الحصن بهيئته الرومانية قائما حتى الفتح العربى لمصر . وتقرر الدراسات الحديثة التى دارت حول هذا الحصن أنه ينسب إلى مدينة بابليون التى خلفت مدينة منف ، عاصمة مصر الفرعونية ، وإ لفظ بابليون هو الصيغة اليونانية للاسم المصرى القديم لتلك المدينة وهو « بى — حابى — أون » أى مدينة أون النيلية . وظل الحصن يسبب إلى تلك المدينة باعتباره أهم معاقلها ، وغدا يطلق عليه فى اللغة القبطية « بابليون — آن — خيمى » ومعناه بابليون مصر . وهذه التسمية الأخيرة هى التى التقى بها العرب المسلمون حين فتحوا مصر ، وحرفوها إلى كلمة بابليون .

(٧) كان الرومان يحرمون على المصريين الحقوق المدنية الرومانية Civitas Romana التى كانت تضى على أصحابها امتيازات كثيرة مادية وأدبية ، مثل الاعفاء من أداء ضرائب معينة ، والاشتراك فى مجالس المدن « السناتو » . فقد كان المصريون محرومين من هذه الحقوق ، وصاروا يعيشون عيشة منعزلة عن المرافق التى تشرف على إدارة البلاد ، ويقع عليهم كل الغرم والغنم . وتابع البيزنطيون سياسة أسلافهم الرومان فى معاملة المصريين واقتصاهم عن تولي مناصب الدولة وإدارتها ، وإبقائهم طبقة للاستغلال المادى بأقسى صور الاستغلال .

(٨) البردون : الدابة .

(٩) كان عمر بن الخطاب يراقب مطهر عماله وولاته حين يفدون عليه من أمصارهم ، ويرى بنفسه مدى تمسكهم بتعاليمه أو انحرافهم عنها . ومن ذلك ما فعله بعمر بن العاص والى مصر ، إذ وفده عليه مرة ، وكان قد تأثر بطيب الحياة فى مصر وصيغ شعر رأسه بالخضاب . ولما دخل على عمر بن الخطاب أنكرو عليه ذلك ، وقال له : من أنت ؟ فقال : أنا عمرو ابن العاص . فقال عمر : عهدى بك شيخا ، وانت الآن شاب . عزمت عليك الا ما خرجت فغسلت هذا .

والحادثة الأخرى التى راقب فيها عمر بن الخطاب عماله رواها ابن عبد الحكم عن الليث بن سعد : وهى « أن عمرو بن العاص دخل على عمر بن الخطاب وهو على مائده جاثيا على ركبته وأصحابه كلهم على تلك الحال ، وليس فى الحفنة فضل لأحد يجلس ، فسلم عمرو على عمر فرد عليه السلام ، ثم قال : عمرو بن العاص : قال نعم . فادخل عمر يده فى الثريد وملأها ثريدا ، وناولها عمرو بن العاص . فجلس عمرو ، وجعل الثريد فى يده اليسرى ، وأكل باليمنى ، ووفد أهل مصر ينظرون اليه . فلما خرجوا قال الوفد لعمر : أى شئ صنعت . فقال عمرو : انه والله فقد علم أنى بما قدمت به من مصر لغنى عن الثريد الذى ناولنى ، ولكنه أراد أن يختبرنى ، فلو لم أقبلها لتقت منه سرا » . أنظر : ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١٧٩ ، ١٨٠ .

(١٠) يرتبط بارسال الخراج من مصر إلى الحجاز حفر « خليج أمير المؤمنين » ، وهى القناة النيلية التى تصل البحر الأحمر باليل شمال مدينة منف القديمة (الفسطاط فيما بعد) ، وهو المكان الذى كان يتفرع عنده النيل إلى فرعين . وكانت هذه القناة منذ حفرها قديما زمن الفراعنة تتعرض للأهمال ، مما اقتضى إعادة حفرها أو تطهيرها . وبعد فتح مصر اشتدت الحاجة إلى تطهير هذه القناة واستخدامها للملاحة بسبب ازدياد الروابط بين مصر الإسلامية وعاصمة الدولة الإسلامية فى الحجاز

وكان عمر بن الخطاب هو الذى أمر عمرو بن العاص بحفر هذه القناة ، ومن تم نسبت اليه وصارت تعرف باسم « خليج أمير المؤمنين » . وتم تطهير القناة فى أقل من سنة مما يدل على أن معاملها كانت واضحة برغم طمرها بالرمال . وجرت السفن فيها محملة بالغلل من مصر إلى الحجاز ، وبعثت الرعاء فى أهل تلك البلاد ، التى كانت تعاني اذ ذاك من مجاعة شديدة .

هوامش الفصل الثانى

- (١) اشترك من أهل مصر فى الثورة على عثمان ستمائة رجل ، بعث بهم إلى المدينة ابن أبى حذيفة ، تحت قيادة عبد الرحمن بن عديس البلوى وعادت هذه الجماعة بعد مصرع الخليفة سنة ٤٣٥هـ .
- (٢) كان معاوية قد استطاع قتل وقعة صفين بينه وبين على بن أبى طالب أن يضم إليه عددا كبيرا من دعاة العرب لمساعدته كان من بينهم عمرو بن العاص ، برعم أن الخليفة عثمان بن عفان سبق أن عرله عن ولاية مصر بعد استردادها من الروم . إذ عرف عمرو كيف يثير مطامع معاوية ويفرجه بأن تحقيقها رهن بانضمامه إلى البيت الأموى . وكان من أهم ما تطلع إليه عمرو بن العاص هو الحصول على ولاية مصر .
- (٣) يبدأ التاريخ السياسى للشعبة بذلك النفر من كبار الصحابة الذى رأى عند اجتماع سقيفة بنى ساعدة وبعدها أن على ابن أبى طالب أحق الناس بالخلافة بعد رسول الله ، لقرابته من بيت النبوة ولأنه زوج ابنته فاطمة ، فضلا عن سبقه فى الإسلام وجهاده فى سبيله . واشتهر من هذا النفر أبو ذر العفارى وسلمان الفارسى والعباس وبنوه . وانتشر التشيع فى المرحلة الأولى من مراحل تطور الدولة الإسلامية فى بلاد العراق التى ارتبط بها بيت على بن أبى طالب منذ خرج اليها لمحاربة طلحة والزبير واتخاذ الكوفة بتلك البلاد عاصمة له .
- (٤) وغدت هذه الحادثة بدور التشيع لآل على بن أبى طالب ، وتكوين فرقة الشيعة نفسها . وكان من أهم مظاهر هذا التطور هو التحاء زعماء الشيعة بعد مقتل الحسين إلى اخفاء أشخاصهم ، واتباع الدعوة السرية حتى لا يتمكن الأمويون من القضاء عليهم .
- (٥) يقصد الخليفة من وراء قوله ، منح عماله الحرية فى تصريف أمورهم .
- (٦) دأب ولاة الأمويين على إلقاء خطب عديدة طوال مدة عملهم ، صارت بمثابة إعلان عن مهجهم فى الحكم ، وعبرة عن قرارات إدارية ، يتم إحاطة الناس بها علماً عن طريق الإحتماع العام الذى يعقد فى الجامع غالباً للإستماع لتلك الخطب .

(٧) طلّت مصر تكون عنصراً هاماً من عناصر الحياة السياسية للدولة الإسلامية ، وتسهم في نشاط تلك الحياة . فعندما أعلن عبد الله بن الزبير الثورة على الأمويين إنضم إليه الحوارج في مصر ، وخرجوا إليه في الحجاز على رأس وفد من الناس وطلبوا منه إرسال وال من قبله على البلاد . واستجاب لهم ابن الزبير نظراً لأهمية مصر ومكانتها ، وبعث معهم بأحد رجاله وهو عبد الرحمن بن جحدم الفهري سنة ٥٦٤ ليكون والياً على مصر . ولكن ما كاد الأمر في الحلافة يستتب لمروان بن الحكم حتى أعد جيشاً كبيراً ، سار على رأسه بنفسه ومعه ابنه عبد العزيز بن مروان إلى مصر . وقد أحاط بن جحدم الفسطاط بحندق حفره سريعاً للدفاع عن سلطانه . ولكن لم تجد تلك المحاولات نفعاً أمام قوة الأمويين وإصرارهم على استرداد مصر من ناحية ولتقاعس ابن الزبير كعادته عن مدّ يد المساعدة لرجاله خارج الحجاز .

(٨) اشتهرت مصر من قبل الإسلام وفي صدر الإسلام أيضاً بصناعة الورق من نبات البردي ، الذي كان ينمو بكثرة في الفيوم وفي مستنقعات الدلتا . واحتكرت مصر هذه الصناعة ، وتحكمت في تصديره إلى خارج ديارها أيضاً . واستخدمت الدواوين في مصر أوراق البردي في سجلاتها ، حيث بدأ الاهتمام في أوائل القرن التاسع عشر (حوالى سنة ١٨٢٤) بدراسة تلك الأوراق ، عقب اكتشاف بعضها في منطقة الفيوم .

وكان أهم مجموعة اكتشفت من أوراق البردي ترجع إلى سنة ١٩٠١ ، حيث تم العثور عليها في قرية كوم اشقاو التي اشتهرت في العصر اليوناني لمصر باسم أفروديتو . واشتملت هذه الوثائق البردية على دراسة قيمة للإدارة العربية الإسلامية في مصر على عهد والى الأموي قرة ابن شريك (٩٠ — ٩٦ هـ / ٧٠٩ — ٧١٥ م) .

(٩) ومن نماذج شدة الرقابة المالية على عهد قرة بن شريك ، الرسالة التالية التي بعث بها إلى حاكم كوم اشقاو :
« بسم الله الرحمن الرحيم » .

« من قرة بن شريك إلى بسيل صاحب اشقاو ، فإنني أحمد الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإن القاسم بن سيار صاحب البريد ذكر لى أنك أخذت نفراً في أرضك بالذى عليهم من الجرية .
(أى فرضت عليهم غرامة) . فإذا جاءك كتابي هذا فلا تعترض أحداً منهم في شئ حتى أحدث إليك فيهم إن شاء الله ، والسلام على من اتبع الهدى » .

Grohman, Arabic Papyri (Cairo, 1952). P. 28,pp.

أنظر :

هوامش الفصل الثالث

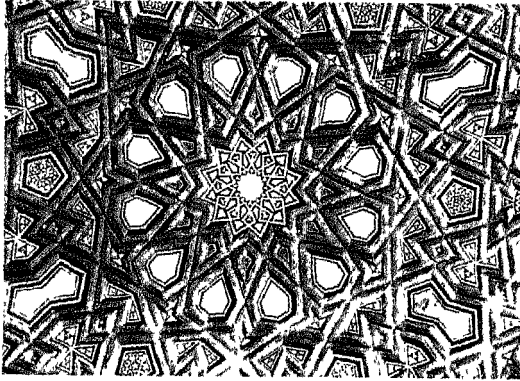
(١) سورة آل عمران : ٦٤

(٢) سورة المائدة . ٤ .

(٣) سورة الحج : ١٧ .

هوامش الفصل الرابع

- (١) أكتيوم اسم قديم لاحدى الرؤوس الأرضية الممتدة من شمال اليونان فى البحر واشتهرت هذه المقة لأنه دار بالقرب من مياهها رعى معركة بحرية هامة سنة ٣١ قبل الميلاد بين أساطيل البطالمة حكام مصر ، والقائد الرومانى أوكتافيوس . وكانت أهمية هذه المعركة ترجع الى أنها جلبت النصر للرومان ، وقضت على البطالمة الذين كانوا أحر قوة تنافس الرومان على سيادة البحر المتوسط . اذ تلى هذه المعركة سقوط مصر فى ايدى الرومان وأصبح البحر المتوسط تانعا كله لهم وألّت سيادة هذا البحر الى الامراطوية البيزنطية عندما ورثت ما تبقى للدولة الرومانية من بلاد على هذا البحر .
- (٢) معركة النيل حدثت سنة ١٧٩٨م ، عندما فاجأ نلس أمير البحر البريطانى أسطول نابليون فى مياه أبى قير البحرية وحطمه . وكان لهذه حادثة أثر كبير فى مصائر الشرق والحر المتوسط ، اذ أدت بفشل حملة نابليون على مصر وفتحت باب العود البريطانى فى البحر المتوسط .
- (٣) أصبحت الأساطيل الاسلامية تندا بالهجوم ، وتدفع أمامها سعن البيزنطيين ، ومهدت الطريق لعطمة المسلمين البحرية فيما بعد على بلاد البحر المتوسط . وقد أشاد اس خلدون بنشاط الأمويين البحرى وما افادته الدولة الاسلامية فيما بعد من جهادهم واعازتهم على اعدائهم ، حتى أن « أساطيل المسلمين قد ضربت عليهم صراء الأسد على فريسته ، وقد ملأت الأكثر من بسيط هذا البحر عدة وعددا ، واختلفت فى طرقة سلما وحرى ، فلم تظهر للمصرانية فيه ألواح »



الفهرس

تصدير : بقلم الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم بكر رئيس
هيئة الآثار المصرية

ز	: المقدمة
١٧ — ٦٦	الفصل الأول : شمس الاسلام تشرق على مصر
١٩	— سفارة الرسول الكريم إلى مصر
٢٨	— الفتح الاسلامى لمصر .
٣٣	— الاستيلاء على مدينة الفرما .
٣٥	— سقوط حصن بابلجون
٤٣	— صلح بابلجون
٤٤	— فتح الاسكندرية
٤٥	— صلح الاسكندرية
٥٠	— رد هجوم الروم (البيزنطيين) على مصر
٥٢	— سمات العهد الاسلامى فى مصر
٥٢	— اشتراك الأهالى فى ادارة البلاد
٥٥	— التطبيق العملى للعدالة الاسلامية
٦٧ — ١٨٤	الفصل الثانى : البناء السياسى لمصر الاسلامية
٦٩	أولا : عصر الامارة فى مصر الاسلامية
٦٩	— ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة
٦٩	— مصر فى عهد الخلفاء الراشدين
٧٣	— مصر فى عهد الدولة الأموية
٩٥	— مصر فى العصر العباسى الأول
٩٩	— بناء العسكر

١٠٠	ثانياً : عصر الدول المستقلة فى مصر
١٠٥	— الدولة الطولونية وحضارتها
١٢٣	— الدولة الاخشيدية وحضارتها
١٢٧	— الدولة الفاطمية وحضارتها
١٣٣	تأسيس القاهرة والجامع الأزهر
١٤٣	— الدولة الأيوبية وحضارتها
١٤٤	بناء القلعة
١٥٢	— دولة المماليك البحرية
١٦٩	— دولة المماليك البرجية (الجراكسة)
١٧٢	— حضارة الدولة المملوكية
١٧٢	— عمارة الدولة المملوكية
١٧٨	— قائمة بالآثار الباقية للدولة المملوكية بالقاهرة
١٨٥ — ٢٣٨	الفصل الثالث : بناء الجيل العربى فى مصر
١٨٧	أولاً : تكوين الجيل العربى
١٨٧	— جذور الجيل العربى فى مصر .
١٩٤	— دور الفسطاط فى بناء الجيل العربى
٢٠٠	— نظام الارتباع
٢٠٨	ثانياً : حركة التعريب وانتشار اللغة العربية
٢٠٨	— تعريب الدواوين .
٢٠٨	— تعريب العملة
٢١٦	— طلائع العلماء المصريين ودورهم فى الحياة الفكرية
٢١٦	ثالثاً : المدارس الدينية المصرية وتدوين التراث العربى

- ٢٣٠ — الدراسات الدينية المبكرة فى مصر
الاسلامية ورجالها .
- ٢٣٥ — انتشار المذاهب الأربعة فى مصر، وانتشار
المالكية والشافعية بصفة خاصة .
- ٢٣٥ — دور علماء مصر فى جمع الأحاديث وعلم
القراءات ، والتاريخ الاسلامى .
- ٢٣٥ — مدرسة الصحابة فى مصر ونشاطها العلمى
رابعاً : ارتباط مصر بأهل الجماعة ، وأثره فى
رفض مصر الاسلامية لجميع أنواع التطرف .
- ٢٣٩ — ٢٩٦ الفصل الرابع : مصر رباط الاسلام
- ٢٤١ أولاً : مصر قاعدة للفتوحات الاسلامية
- ٢٤١ — دور مصر فى بسط السيادة الاسلامية على
البحر المتوسط
- ٢٤١ — طلائع القوة البحرية لمصر الاسلامية
- ٢٤٧ — دور الأسطول المصرى فى فتح قبرص
- ٢٥١ — انتصار الأسطول المصرى فى معركة ذات
الصواري ، وأثره فى اقرار السيادة الاسلامية
للبحر المتوسط
- ٢٥٧ ثانياً : جهود مصر فى تكوين الجناح الأيسر
للاسلام (بلاد المغرب)
- ٢٥٩ — الحملات المصرية لفتح بلاد المغرب
حملات عمرو بن العاص — عقبة بن نافع
الفهري — دينار أبو المهاجر — حسان بن

- النعمان — موسى بن نصير، واتمام فتح
المغرب والأندلس
- ٢٧١ ثالثاً: جهاد مصر الاسلامية ضد الصليبيين
— دور مصر في حركة الافاق الاسلامية ضد
٢٧٩ الصليبيين وتأسيسهم لامارتهم ببلاد الشام
٢٨٢ — تكوين صلاح الدين للجهة الاسلامية وتوحيدها
من قاعدته في مصر.
- ٢٨٣ — معركة حطين وبداية النهاية للصليبيين
٢٨٤ — الدور الثاني من جهاد مصر الاسلامية ضد
الصليبيين على عهد خلفاء صلاح الدين .
٢٨٨ — الدور الأخير في الجهاد ضد الصليبيين على
يد دولة المماليك بمصر.
- ٢٩١ رابعاً: تصدى مصر لاغارات المغول على العراق
والشام .
- ٢٩٢ — انتصار مصر على المغول في وقعة عين جالوت
- ٢٩٧ — ٣٨٢ الفصل الخامس: مصر منارة الاسلام
- ٢٩٩ أولاً: المنظور الاسلامي في مصر إلى
المتغيرات في العالمين الاسلامي
والأوروبي في العصر الحديث .
- ٢٩٩ — موقف مصر من المتغيرات الأوروبية، ونشاطها
في الزحف على مصادر التجارة الاسلامية
بالشرق الأقصى
- ٣٠٣ — معركة ديو البحرية سنة ١٥٠٩م بين الأسطول
المصري والبرتغالي بالقرب من شواطئ الهند .

- ٣٠٦ ثانياً: موقف مصر من الصراع بين الصفويين والأتراك العثمانيين ونتائجه .
- ٣٠٦ — الصراع حول السيادة العليا للعالم الاسلامى بين الصفويين والعثمانيين دون وعى بالزحف الأوروبى على مصادر التجارة الاسلامية بالشرق الأقصى .
- ٣٠٦ — الغزو العثمانى لمصر سنة ١٥١٧ ونتائجه .
- ٣١٥ — التنافس الاستعمارى للسيطرة على الدولة العثمانية وامتداده فى الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ .
- ٣١٩ ثالثاً: دور القيادات المصرية فى التصدى للحكم العثمانى والتدخل الأجنبى .
- ٣١٩ — دور الأزهر ورجاله فى القيادة المصرية لمواجهة الحكم العثمانى والحملة الفرنسية فى مصر .
- ٣٢٣ — دور السيد عمر مكرم فى تولية محمد على حكم مصر سنة ١٨٠٥ ، وانتهاء العصر العثمانى فى مصر آثار العصر العثمانى (٩٢٣ — ١٢١٩/١٥١٧ — ١٨٠٥م)
- ٣٦٢ رابعاً: انتقال علم القيادات المصرية إلى ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢
- مقدمات ثورة ٢٣ يوليو :
الثورة العربية .
ثورة سنة ١٩١٩ .
القضية الفلسطينية (الصهيونية — الاستعمار

الاستيطانى فى فلسطين)

- ٣٦٢ دور الجيش المصرى فى مواجهة الاستعمار
الاستيطانى بفلسطين سنة ١٩٤٨ ، وأثر ذلك فى
قيام ثورة ٢٣ يوليو
- ٣٦٩ — قيام ثورة ٢٣ يوليو، وقيادتها لحركة التحرر
العربى والصحوحة الاسلامية المعاصرة .
فلسفة ثورة ٢٣ يوليو ومفهومها لدورها القيادى
فى العالمين العربى والاسلامى .
- ٣٧٥ — تأميم قناة السويس (يوليو سنة ١٩٥٦)
والعدوان الثلاثى على مصر (أكتوبر سنة
١٩٥٦) .
- ٣٧٥ — المؤامرة الاستعمارية الصهيونية على قيادة
مصر فى حرب ٥ يونيو ١٩٦٧ .
- ٣٧٦ — انتصار مصر فى حرب أكتوبر (رمضان)
١٩٧٣ ، واعلاء منارة مصر الاسلامية .
- ٣٧٧ — الأبعاد المعاصرة لثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢
ودلالاتها الواسعة الأفاق .
- ٣٨٣ — الهوامش
٣٨٩ — محتويات الكتاب

سلسلة الثقافة الأثرية

مشروع المائة كتاب

صدر منها

- ١ — المؤسسة العسكرية المصرية فى عصر الامبراطورية
تأليف : د. أحمد قدرى
ترجمة : مختار السويفى — محمد العزب موسى
مراجعة : د. محمد جمال الدين مختار
- ٢ — تراثنا القومى بين التحدى والاستجابة
منجزات ١٩٨٢ — ١٩٨٥
اعداد وصياغة
د. أحمد قدرى
عاطف عبد الحميد
آمال صفوت
- ٣ — الشرطة والأمن الداخلى فى مصر القديمة
تأليف : د. بهاء الدين ابراهيم محمود
مراجعة : د. محمود ماهر
- ٤ — الايجازات والتوقيعات المخطوطة فى العلوم النقلية والعقلية
من القرن ٥٤ / ١٠م الى ١١٠ / ١٦م
تحقيق ونشر : د. أحمد رمضان أحمد
- ٥ — لمحات فى تاريخ العمارة المصرية
تأليف : د. كمال الدين سامح

- ٦ — الديانة المصرية القديمة
تأليف : ياروسلاف تشرنى
ترجمة : د. أحمد قدرى
مراجعة : د. محمود ماهر
- ٧ — تاريخ فن القتال البحرى فى البحر المتوسط « العصر الوسيط »
(٥٣٥ / ٦٥٥ م — ٥٩٧٨ / ١٥٧١ م)
تأليف : د. أحمد رمضان أحمد
- ٨ — فن الرسم عند قدماء المصريين
تأليف : وليم هـ بيك
ترجمة : مختار السويفى
مراجعة : د. أحمد قدرى
- ٩ — نصوص الشرق الأدنى القديمة
ترجمة : د. عبد الحميد زايد .
مراجعة : محمد جمال الدين مختار
- ١٠ — الفوائد النفيسة الباهرة فى بيان حكم شوارع القاهرة
فى مذاهب الأئمة الأربعة الزاهرة
تأليف : أبى حامد المقدسى الشافعى
تحقيق : د. أمال العمري
- ١١ — دراسات فى العمارة والفنون القبطية
تأليف : د. مصطفى عبد الله شبيحة
- ١٢ — إيمحتب
تأليف : هارى

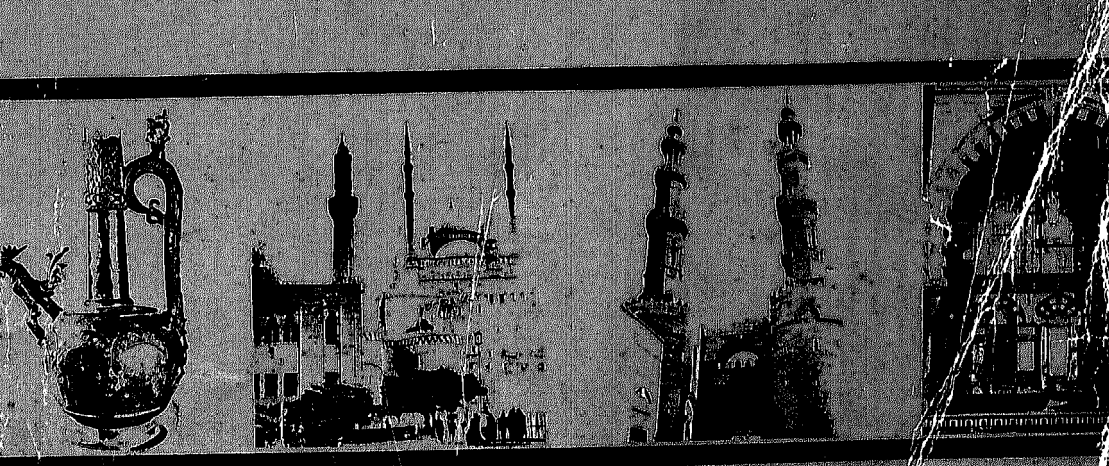
- ترجمة : محمد العزب موسى
مراجعة : د. محمود ماهر
- ١٣ — الفن المصرى القديم
تأليف : سيريل ألدريد
ترجمة : د. أحمد زهير
مراجعة : د. محمود ماهر
- ١٤ — جبانة البجوات فى الواحة الخارجية
تأليف : د. أحمد فخرى
ترجمة : عبد الرحمن عبد التواب
مراجعة : د. أمال العمري
- ١٥ — العمارة المصرية القديمة (جزء أول)
تأليف : د. اسكندر بدوى
ترجمة : د. محمود عبد الرازق — صلاح رمضان
مراجعة : د. أحمد قدرى ، د. محمود ماهر
- ١٦ — تاريخ مصر القديمة (الجزء الأول)
تأليف : د. رمضان السيد
- ١٧ — مصر الاسلامية (درع العروبة ورباط الاسلام)
تأليف : د. ابراهيم أحمد العدوى

كتب تحت الطبع

- ١ - واحة سيوة
تأليف : د. أحمد فخرى
ترجمة : د. جاب الله على جاب الله
- ٢ - المراسم منذ أقدم العصور حتى اليوم
تأليف : د. ناصر الأنصارى
- ٣ - الدليل العام لرشيد
تأليف : عبد الرحمن عبد التواب
- ٤ - تراث مصر القديمة
النسخة الانجليزية اشراف : هاريس
النسخة العربية اشراف : د. محمد ابراهيم بكر
د. محمود ماهر
- ٥ - المسلات المصرية
تأليف : لبيب حبشى
ترجمة : د. أحمد عبد الحميد يوسف
مراجعة : د. محمد جمال الدين مختار
- ٦ - مصر القديمة (دراسة طبوغرافية)
تأليف : هرمان كيس
ترجمة : د. محمود عبد الرازق
مراجعة : د. جاب الله على جاب الله
- ٧ - التناسب فى عمارة مدارس العصر المملوكى فى القاهرة

- تأليف : د. على غالب أحمد غالب
مراجعة : د. أمال العمري
- ٨ — سجاجيد جورديز في متحف محمد على بالمنيل
تأليف : كوثر أبو الفتوح
- ٩ — نهب آثار النيل
تأليف : بريان فاجان
- ترجمة : عبد الرحمن عبد التواب — محمد غطاس
مراجعة : د. أحمد قدرى
- ١٠ — دراسات فى اللغة المصرية القديمة
تأليف : أحمد باشا كمال

رقم الايداع ١٩٩٢/٢٥٤٢
دولى ٧ - ٠٣٢ - ٢٣٥ - ٩٧٧
مطبعة هيئة الآثار المصرية



عبدالله بن عبدالمطلب